تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتب الإسلامية

المجلد الرابع

والكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير

مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد الرابع

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتحقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)

تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر

العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تاليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني

تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي / تصحيح: حسين طه نيا

الناشر: قم، دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ. ش

المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية

الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ

تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٣٣ح ٩٨/ BP

تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى

وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ٤)

المؤلف........ السيد مير علي الحائري الطهراني

الناشر........ مؤسسة دارالكتاب الإسلامي

الطبعة........ الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

المطبعة .... ستاره

عدد المطبوع........ (٢٠٠٠) دوره

الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

الترقيم الدولي (ج ٤) .... ٦ ـ ٢٨٠ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

السعر........ ٩٠٠/٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦

تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

تتمة

سُورَةُ المَائدَة

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

واقرأ يا محمّد على أهل الكتاب خبر ابني آدم وهما قابيل وهابيل ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ملبّسة بالصدق والحقّ. قيل: إنّ حوّاء كانت تلد في كلّ بطن ولدين ذكراً وأنثى إلّا شيثاً فإنّها ولدته منفرداً، فولدت أوّل بطن قابيل ـ وقيل: قايين ـ[1] وتوأمته إقليما بنت آدم، والبطن الثاني هابيل وتوأمته ليوذا، فلمّا أدركوا جميعاً أمر الله أن ينكح آدم قابيل توأمة هابيل وهابيل توأمة قابيل[2] فرضي هابيل وأبى قابيل لأنّ أخته كانت أحسن منها، وقال: ما أمر الله بهذا ولكن هذا من رأيك. فأمرهما آدم أن يقرّبا قرباناً فرضيا بذلك فغدا هابيل

١ـ لعل مراده ﷺ انه قول في المليين؛ فإنّه لم يقل به أحد من أهل الإسلام، وإنّما جاء في التوراة الدائرة اليوم في الإصحاح الرابع من سفر التكوين، وهذا نصه: «و عرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين...».

٢ـ تظافرت الأخبار بتشنيع هذا الأمر وانه من فعال المجوس ويقبح صدوره من نبي، راجع: تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٣٧، في أوّل سورة النساء. وفي رواية سليمان بن خالد: قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنهم يزعمون قابيل إنّما قتل هابيل لانهما تغايرا على اختهما فقال: **«يا سليمان تقول هذا أما تستحيي أن تروي هذا على نبي الله آدم؟»** فقلت: جعلت فداك ففيم قتل قابيل هابيل؟ فقال: **«في الوصية»**، الحديث؛ البرهان، ج ١، ص ٤٦٣.

وكان صاحب ماشية فأخذ من خيار غنمه غنماً وزبداً ولبناً، وكان قابيل صاحب زرع فأخذ من أدون زرعه وأخسّه ثمّ صعدا فوضعا القربانين على الجبل، فأتت النار فأكلت قربان هابيل وتجنّبت قربان قابيل، وكان آدم غائباً عنهما بمكّة خرج إليها ليزور البيت، فقال قابيل: لا عشت يا هابيل في الدنيا وقد تقبّل قربانك ولم يتقبّل قرباني وتريد أن تأخذ أختي الحسناء وآخذ أختك القبيحة! فقال له هابيل ما حكاه اللّه، فشدخه بحجر فقتله، روي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام وغيره من المفسّرين.[1]

وكان سبب قبول قربان هابيل أنّ قابيل قرّب بشرّ ماله، وهابيل بخير ماله وأضمر هابيل الرضى بحكم اللّه. وكان سبب أكل النار القربان أنّه لم يكن ذلك الوقت فقير يدفع إليه ما يتقرّب به إلى اللّه فكانت تنزل نار من السماء فتأكله. وعن إسماعيل بن رافع أنّ قربان هابيل كان يرتع في الجنّة حتّى فدى به إسماعيل ابنه إبراهيم!.

﴿قَالَ﴾ الّذي تقبّل قربانه وهو هابيل: وما ذنبي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ﴾ أي: القربان ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ لا من غيرهم، والتقوى من صفات القلب: قال صلى الله عليه وآله: «**التقوى هاهنا**» وأشار إلى القلب. وحقيقة التقوى أن يكون العاقل على خوف ووجل من تقصير نفسه فيما أتى به من الطاعات وأن يكون دائماً في غاية الاحتراز من أن يأتي بتلك الطاعة لغرض سوى طلب مرضاة اللّه، وأن يكون فيه شركة لغير اللّه، ويتفكّر في معرفة خالقه وتفريط نفسه في جنب اللّه. ولا يحصل التقوى مع الهوى وطلب الجاه، والمال والجاه ركنا الدنيا فاقطع سلسلة نمروديّة شهواتك، وكن صالحاً وإبراهيم وقتك.

١ـ وروي غير هذا الوجه مما هو أولى بالقبول.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٣٠)﴾

أخبر سبحانه عن هابيل أنّه قال لأخيه حين هدّده بالقتل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ أي: لئن مددت إليّ يدك لأن تقتلني ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾ أي: لأن أقتلك.

قال أهل التفسير: إنّ القتل على سبيل المدافعة لم يكن مباحاً في ذلك الوقت وكان الصبر عليه هو المأمور به ليكون الله هو المتولّي للانتصاف قال ابن عبّاس وجماعة: إنّه قتله غيلة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي: إنّي أريد باستيلامي لك وامتناعي عن التعرّض لك أن ترجع بإثم قتلي ـ إن قتلتني ـ وإثمك الّذي كان من قبل قتلي، عن ابن عبّاس وجماعة ـ وذلك الإثم هو الّذي من أجله لم يتقبّل قربانك ـ وقيل: المعنى: بإثم قتلي وإثمك الّذي هو قتل جميع الناس، حيث سبّب القتل.

فإن قيل: كما لا يجوز للإنسان أن يريد في نفسه أن يعصي الله فكذلك لا يجوز أن يريد من غيره أن يعصي الله، فكيف قال: إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك؟. فالجواب أنّ هذا الكلام إنّما دار بينهما عند ما غلب على ظنّ هابيل أنّه يريد قتله ويقتله فوعظه ونصحه فقال له: إن كنت لا تنزجر عن قصدك فلا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلّا إذا قتلتك ابتداء بمجرّد الظنّ وهذا منّي لا يجوز ومعصية، فإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذه المعصية أنا وبين أن يكون أنت فأنا أريد وأحبّ أن تحصل لك لا لي ومن المعلوم أنّ إرادة صدور الذنب من الغير في مثل هذه الحالة على هذا الشرط لا يكون حراماً

بل هو عين الطاعة ومحض الإخلاص ولا شكّ أنّه يجوز للمظلوم أن يريد من الله عقاب ظالمه.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: سهّلت له نفسه وشجّعته، وإذا أوردت النفس أنواع وساوسها وعداوتها صار الفعل سهلا عند الفاعل. وفي الآية دلالة على بطلان مذهب الجبريّة لأنّه لو كان خالق الكلّ هو الله لكان ذلك التزيين والتطويع مضافاً إلى الله لا إلى النفس ولا ينافي مع القدر.

قيل: لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل فظهر له إبليس وأخذ طيراً وضرب رأسه بحجر فتعلّم قابيل ذلك منه، ثمّ أنّه وجد هابيل نائماً يوماً فضرب رأسه بحجر فمات.

قال ﷺ: **«لا يقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل ـ أي: نصيب ـ من دمها وذلك أنّه أوّل من سنّ القتل فخسر دنياه وآخرته، فأسخط والديه وبقي مذموماً إلى يوم القيامة، وأمّا الآخرة فهو العقاب العظيم»**[1].

قيل: إن قابيل لمّا قتل أخاه هرب إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس وقال: إنّما أكلت النار قربان هابيل لأنّه كان يخدم النار ويعبدها فإن عبدت النار أيضا حصل مقصودك، فبنى بيت نار وهو أوّل من عبد النار. وقتل هابيل وهو ابن عشرين سنة، وكان قتله عند عقبة حراء أو بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.[2] روي أنّه لمّا قتله اسودّ جسده ـ وكان أبيضاً ـ فسأله آدم عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: **«بل أنت قتلته ولذلك اسودّ**

١ـ مسند أحمد، ج ١، ص ٣٨٣ وصحيح البخاري ،ج ٢، ص ٧٩.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١١، ص ٢٠٨، وانظر: تفسير الآلوسي، ج ٦، ص ١١٥.

جسدك» ومكث آدم بعده مائة سنة لم يضحك قطّ.[١] يروى أنه رثّاه بشعر وهو: «تغيّرت البلاد ومن عليها».

قال الزمخشريّ: وهو كذب بحت، وما الشعر إلّا منحول ملحون، والأنبياء معصومون عن الشعر.[٢] قال الرازيّ: وصدق صاحب «الكشّاف» فيما قال فإنّ ذلك الشعر في غاية الركاكة لا يليق بالحمقى من المعلّمين فكيف نسبت إلى من جعل الله علمه حجّة على الملائكة[٣]؟

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

لمّا قتله تركه لا يدري ما يصنع به، ثمّ خاف عليه السباع فحمله في جراب[٤] على ظهره مدّة حتّى تغيّر فبعث الله غراباً. قيل: بعث الله غراباً يحثو التراب على المقتول. وقيل: بعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه، ثمّ ألقاه في الحفرة فتعلّم قابيل ذلك من الغراب. قال أبو بحر: عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب فدفن شيئاً فرآه قابيل فتعلّم ذلك منه.

﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ الله أو الغراب، فكأنّه قصد تعليمه على سبيل المجاز[٥] ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ قيل: المعنى جيفة أخيه أو عورة أخيه ـ وهو مالا

١ـ جوامع الجامع، ج ١، ص ٤٩٤؛ ورواها الزمخشري في الكشاف ،ج ١، ص ٦٢٦.

٢ـ الكشاف ،ج ١، ص٦٠٨ وتفسير الرازي، ج ١١، ص ٢٠٨.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١١، ص ٢٠٨.

٤ـ الجراب: وعاء من جلد.

٥ـ فإنّ التعليم بحسب الحقيقة بيدالله وما سواه وسائط ووسائل.

يجوز أن ينكشف من جسده ـ والسوأة: الفضيحة لقبحها ﴿قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ و﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كلمة يستعمل العرب عند وقوع الداهية والنداء، يعني يا ويلتى تعالي واحضري فإنّه من أوقات حضورك وقد لزمني الويل. وكذلك يا عجباه ومعناه:

يا أيّها العجب احضر فقد حان وقتك. والألف في ويلتى بدل عن ياء المتكلّم، والنداء وإن كان أصله للعقلاء لكنّ العرب تستعمل وتجوّز النداء لما لا يعقل إظهار للتحسّر مثل: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[1] قوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ تعجّب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ على قتله، لما وقع في الحيرة في أمره وحمله على رقبته أربعين يوماً حتّى أروح،[2] ولم ينتفع بقتله، ولمّا كان ندمه لأجل هذه الأسباب لا للخوف من اللّه بارتكاب المعصية لم تنفعه الندامة.

قال مجاهد: علّقت إحدى رجلي قابيل إلى فخذها وساقها، وعلّقت من يومئذ إلى يوم القيامة، وجهه إلى الشمس حيثما دارت، عليه في الصيف حظيرة من نار، وفي الشتاء حظيرة من ثلج.[3] وهو أوّل من عصى اللّه من ولد آدم وأوّل من يساق إلى النار وهو أب يأجوج ومأجوج (شرّ أولاد توالدوا من شرّ والد).

واتّخذ أولاد قابيل آلات اللّهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير، وانهمكوا في اللّهو وعبادة النار والخمر والزناء والفواحش حتّى غرقهم اللّه بالطوفان أيّام نوح وبقي نسل شيث.

١ـ سوره يس: ٣٠.

٢ـ أي: أنتن وصار ذا ريح وهذا غريب.

٣ـ انظر: تفسير القرطبي، ج ٦، ص١٤١ وتفسير ابن كثير، ج٢، ص ٤٧؛ وجامع البيان، ج ٦، ص ٢٦٣.

قال أهل التاريخ: لمّا ذهب قابيل إلى سمت اليمن كثروا وخلفوا وطفقوا يتحاربون مع أولاد آدم، يسكنون الجبال والمغارات والغياض[1] إلى زمن مهلائيل بن قينان ابن أنوش بن شيث ففرّقهم مهلائيل إلى أقطار الأرض، وسكن هو في أرض بابل، وكان كيومرث أخاه الصغير[2] وهو أوّل السلاطين في العالم فأخذوا يبنون المدن والحصون واستمرّ الحرب بينهم إلى آخر الزمان.

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

ثمّ بيّن سبحانه التكليف في باب القتل فقال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الفساد الّذي وقع في أحد ابني آدم. وروي عن نافع أنّه كان يقف على قوله: من أجل ذلك ويجعله من تمام الكلام الأوّل لكن عامّة المفسّرين قالوا: إنّ قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ ابتداء كلام وليس بمتّصل بما قبله.

﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: حكمنا عليهم وفرضنا ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ ظلماً ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قود، فإنّ القتل قد يكون بحقّ كالقود ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من قتل منهم نفساً بغير فساد كان منها في الأرض فاستحقّت بذلك قتلها. وفسادها في الأرض مثل إخافة السبيل أو بالحرب لله ولرسوله مثل قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية[3]

١ـ جمع الغيضه: الأجمة؛ ومجتمع الشجر.

٢ـ لم يعهد فيما بأيدينا من كتب التاريخ ظهور سلطان في العالم قبل الطوفان ومهلائيل من أجداد نوح، بل ينسبون كيومرث إلى سام بن نوح.

٣ـ سوره المائدة: ٣٣.

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وفي تأويله أقوال:

أحدها: أنّ معناه هو أنّ الناس كلّهم خصماؤه في قتل ذلك الإنسان فكأنّه قد وترهم[1] ومن استنقذها من غرق أو حرق أو هدم أو ما يميت أو استنقذها من ضلالة فكأنّما أحيا الناس جميعاً، أي: أجره على الله أجر من أحياهم جميعاً. وهذا المعنى مرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام ثمّ قال: «**وأفضل ذلك أن يخرجها من ضلال إلى هدى**».[2]

وثانيها: أنّ من قتل نبيّاً أو إمام عدل فكأنّما قتل الناس جميعاً أي: يعذّب عليه كما لو قتل الناس كلّهم، ومن شدّ على عضد نبيّ أو إمام عدل فكأنّما أحيا الناس جميعاً في استحقاق الثواب، عن ابن عبّاس.

وثالثها: أنّ معناه من قتل نفساً بغير حقّ فعليه مأثم كلّ قاتل من الناس لأنه سنّ القتل وسهّله لغيره فكان بمنزلة المشارك كما وقع لقابيل. ومن زجر عن قتلها بما فيه حياته على وجه يقتدى به فيه، ويعظّم تحريم قتلها كما حرّمه الله فلم يقدم على قتلها لذلك فقد أحيا الناس بسلامتهم من القتل فذلك إحياؤها. ويؤيّده قوله صلى الله عليه وآله: «**من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سنّ سنّة سيّئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**».[3]

وقيل: إنّ معناه: يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الّذي يجب عليه لو قتل الناس جميعاً ومن عفى عن دمها وقد وجب القود عليها كان كمن عفى عن الناس جميعاً والله سبحانه هو المحيي لا يقدر على خلق الحياة

١ـ وتره: أفزعه: أصابه بظلم أو مكروه.

٢ـ انظر: المحاسن البرقي، ج ١، ص ٢٣٢؛ الكافي، ج ٢، ص ٢١٠؛ وسائل الشيعة، ج١٦، ص ١٨٦.

٣ـ راجع: الكافي، ج ٥، ص ٩؛ والخصال، ص ٢٤٠؛ وتحف العقول، ص ٢٤٣.

غيره وإنّما قال: «أحياها» على سبيل المجاز.

فإن قيل: إنّ وجوب القصاص حكم ثابت في جميع الأمم فما فائدة تخصيصه بني إسرائيل؟ فالجواب أنّ قوله: من أجل ذلك ليس إشارة إلى قصّة هابيل وقابيل بل هو إشارة إلى ما مرّ من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام الّذي أصبح من الخاسرين وأصبح من النادمين وقدّ سنّ هذه السنّة الملعونة، ووجوب القصاص في حقّ القاتل وإن كان عامًا في جميع الأديان، ولمّا كان اليهود مع علمهم بهذا النهي الصريح الّذي كتبنا عليهم أقدموا على قتل الأنبياء والرسل والمقصود بيان قساوتهم، ونهاية بعدهم عن طاعة اللّه، ولمّا كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول في عزم اليهود على الفتك برسول اللّه فتخصيص بني إسرائيل في هذه القصّة مناسب للكلام.

فإن قيل: إنّ قتل النفس الواحدة كيف يكون مساوياً لقتل جميع الناس؟ فإنّ من الممتنع أن يكون الجزء مساوياً للكلّ فالجواب أنّ تشبيه أحد الشيئين بالآخر لا يقتضي الحكم بمشابهتهما من كلّ الوجوه لأنّ قولك: هذا يشبه ذلك أعمّ من أن يشبهه من كلّ الوجوه أو من بعض الوجوه فالمقصود من الآية مشاركتهما في الاستعظام لا بيان مشاركتهما في مقدار الاستعظام، والمقصود أنّه كما أنّ قتل كلّ الخلق أمر مستعظم عند كلّ أحد فكذلك يجب أن يكون قتل الإنسان الواحد مستعظماً مهيباً محترزاً عنه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: ولقد أتت بني إسرائيل الّذين ذكرنا أخبارهم رسلنا بالبيّنات الواضحة والمعجزات الدالّة على صحة نبوّتهم ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ من بني إسرائيل ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ومجاوزون الحدّ قال: أبو جعفر عليه السلام: «**المسرفون هم الّذين يستحلّون المحارم**

ويسفكون الدماء».[1]

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٤)﴾

اختلف في سبب النزول فقيل: نزلت في قوم كان بينهم وبين النبيّ ﷺ موادعة فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض عن ابن عبّاس. وقيل: نزلت في قوم من عرينة لمّا نزلوا المدينة مظهرين الإسلام واستوخموها[2] واصفرّت ألوانهم، فأمرهم النبيّ أن يخرجوا إلى إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها[3] ففعلوا ذلك فصحّوا ثمّ مالوا إلى الرعاة فقتلوهم واستاقوا الإبل وارتدّوا عن الإسلام. فأخذهم النبيّ وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم[4] عن سعيد بن جبير وقتادة والسدّيّ. وقيل: نزلت في قطّاع الطريق، عن أكثر المفسّرين قال الطبرسيّ: وعليه جلّ الفقهاء.[5]

المعنى: لمّا ذكر سبحانه في الآية الأولى تغليظ الإثم في قتل النفس بغير قتل نفس ولا فساد في الأرض بيّن أنّ الفساد في الأرض الّذي يوجب

١ـ التبيان، ج ٣، ص ٥٠٤ وتفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٢٣.

٢ـ أي: لم يوافق هواءها بدنهم.

٣ـ شربوا البول للتداوي، فإنّهم كانوا مرضى على ما في رواية الكليني بإسناده عن صالح عن أبي عبد الله عليه السلام، فروع الكافي، ج ١، ص ٣٠٦.

٤ـ ليس في روايات الخاصة من سمل العين أثر وإنّما ورد في روايات الجمهور.

٥ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٣٢٤.

القتل ما هو فإنّ بعض أقسام الفساد في الأرض لا يوجب القتل فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يحاربون أولياء الله ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ المرويّ عن أهل البيت أنّ المحارب هو كلّ من شهر السلاح وأخاف الطريق سواء كان في المصر أو خارج المصر.[1] وقيل: إنّ المحارب هو قاطع الطريق في غير المصر، عن عطاء الخراسانيّ.

قال الرازيّ: ومن الناس من قال: إنّ هذا الوعيد مختصّ بالكفّار والمرتدّين عن الإسلام حسبما شرح في نزول الآية. ومنهم من قال: إنّ هذا الحكم في قطّاع الطريق من المسلمين، قالوا: والّذي يدلّ على أنّه لا يجوز حمل الآية على المرتدّين أنّ قطع المرتدّ لا يتوقّف على المحاربة ولا على إظهار الفساد في دار الإسلام، والآية تقتضي ذلك، وإنّما على المرتدّ القتل دون القطع ولا عليه النفي والآية تقتضي ذلك.

وأيضا الآية تقتضي سقوط الحدّ بالتوبة قبل القدرة وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ والمرتدّ يسقط حدّه بالتوبة قبل القدرة وبعدها والصلب غير مشروع في حقّ المرتدّ وهو مشروع هاهنا، فوجب أن لا تكون الآية مختصّة بالمرتدّ فقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يتناول كلّ من كان موصوفاً بهذه الصفة سواء كان كافراً أو مرتدّاً أو مسلما.

وأقصى ما في الباب أن يقال: إنّ الآية نزلت في المرتدّين لكنّك تعلم أنّ العبرة بعموم اللّفظ دون خصوص السبب.

١ـ في راوية العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر‌عليه‌السلام ورواية الكليني عن محمد بن يحيي، عن أحمد بن محمد، عن أبي أيوب، عن محمد بن مسلم عنه‌عليه‌السلام، قال: «**من شهر السلاح في مصر من الأمصار فعقر اقتص منه ونفي من تلك البلدة؛ ومن شهر السلاح في غير الأمصار ضرب وعقر وأخذ المال ولم يقتل فهو محارب**»، البرهان، ج ١، ص ٤٦٧؛ وفروع الكافي، ج ١، ص ٣٠٧.

فإن قيل: إنّ المحاربة مع الله غير ممكنة ومع الرسل ممكنة فلفظ المحاربة إذا نسبت إلى الله كان مجازاً لأنّ المراد منه محاربة أوليائه، وإذا نسبت إلى الرسول كانت حقيقة فلفظ يحاربون في الآية يلزم أن يكون محمولاً على المجاز والحقيقة معاً وذلك ممتنع! فالجواب أنّ المراد من المحاربة مخالفة الشرع والتكليف.[1]

فمعنى الآية: إنّما يكون جزاء من يخالف أحكام الله وأحكام رسوله ويسعون في الأرض فساداً كذا وكذا ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ﴾ وفي «أو» في الآية قولان:

الأوّل: الإباحة والتخيير أي: إن شاء الإمام قتل وإن شاء صلب وإن شاء نفى. والقول الثاني أنّها ليست للتخيير بل للترتيب وبيان أنّ الأحكام تختلف باختلاف الجنايات فمن اقتصر على القتل قتل، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يده ورجله من خلاف، ومن أخاف السبل ولم يأخذ المال نفي من الأرض. وهذا قول الأكثرين وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.[2] فصار التقدير: أن يقتّلوا إن قتلوا، أو يصلّبوا ثمّ يقتّلوا إن جمعوا القتل وأخذ المال، أو تقطّع ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ اليمنى من الرسغ[3] ﴿وَأَرۡجُلُهُم﴾ اليسرى من الكعب إن اقتصروا على أخذ مال من

١ـ تفسير الرازي، ج ١١، ص ٢١٤.

٢ـ الروايات واردة على طبق كلا القولين فيما يدل على الأول، رواية العياشي والشيخ عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**من شهر السلاح... وأمره إلى الإمام إن شاء قتله وصلبه وإن شاء قطع يده ورجله**»، الاستبصار، ج ٤، ص٢٥٧؛ وممايدل على الثاني ما رواه الشيخ مسنداً عن عبيدالله المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**...فعقده بيده**»، ثم قال: «**ياعبدالله خذها أربعاً بأربع**» «الاستبصار، ج ٤، ص٢٥٦».

٣ـ الرسغ: مفصل ما بين الساعد والكتف.

مسلم أمّا أيديهم فلأخذ المال وأمّا قطع أرجلهم فلإخافة الطريق ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة. والمراد من النفي فيه أقوال:

قال الطبرسيّ: والّذي يذهب إليه أصحابنا الإماميّة أن ينفى من بلد[١] حتّى يتوب ويرجع.

وقال أهل الجماعة: المراد بالنفي الحبس فإنّه نفي عن وجه الأرض، قالوا: المسجونون بمنزلة المخرجون من الدنيا وممنوعون من التصرّف. قال الشاعر:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى

إذا جاءنا السجّان يوماً لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا![٢]

واختلفوا أيضا في كيفيّة الصلب فقيل: يصلب حيّاً ثمّ يزج بطنه برمح أو غيره حتّى يموت: وقال الشافعيّ يقتل ويصلّى عليه ثمّ يصلب[٣] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إجراء هذه الأمور ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ وفضيحة وهوان ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره لغاية عظم جنايتهم. فقوله: لهم خبر مقدّم، وعذاب مبتدأ مؤخّر. وفي الآخرة متعلّق بمحذوف وقع حالا من عذاب لأنّه في الأصل صفة له فلمّا قدّم انتصب حالاً أي: كائناً في الآخرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق اللّه كما ينبئ عنه قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأمّا ما هو من حقوق الآدميّين فإنّه لا يسقط بهذه التوبة فإنّ قطّاع الطريق إن قتلوا إنسانا ثمّ تابوا قبل القدرة عليهم يسقط بهذه التوبة وجوب قتلهم حدّا لكن ولي الدم على حقّه من القصاص والعفو، وإن أخذوا مالاً ثمّ تابوا قبل القدرة

١ـ مجمع البيان ،ج ٣، ص ٣٢٥.

٢ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٣٢٦؛ تفسير القرطبي، ج ٦، ص ١٥٣.

٣ـ تفسير الرازي ،ج ١١، ص ٢١٦.

عليهم يسقط بالتوبة وجوب قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وكان صاحب المال باقياً في ماله وجب عليهم ردّه، وأمّا إذا تاب بعد القدرة فظاهر الآية أنّ التوبة لا تنفعه ويقام الحدود عليه.

قال الطبرسيّ: وفي هذه الآية حجّة على من قال: لا يصحّ التوبة عن معصية مع الإقامة على معصية اخرى يعلم صاحبها أنها معصية لأنّه علّق بالتوبة حكماً لا يحلّ به الإقامة على معصية.[١] قال الشافعيّ: ويحتمل أن يسقط كلّ حدّ لله بالتوبة لأنّ ما عزا[٢] لمّا رجم أظهر توبته فلمّا تمّموا رجمه ذكروا ذلك لرسول الله فقال: هلّا تركتموه؟

ـ أو لفظ هذا معناه ـ وذلك يدلّ على أنّ التوبة يسقط عن المكلّف كلّ ما يتعلّق بحكم الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لمّا تقدّم ذكر القتل وأحكام المحاربين شرح بالموعظة والأمر بالتقوى أي: اتّقوا معاصيه واجتنبوها ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا إليه القربة بالطاعات.

وقيل: الوسيلة أفضل درجات الجنّة، عن عطاء. وروي أنّ النبيّ ﷺ قال: «**سلوا الله لي الوسيلة فإنّها درجة في الجنة لا ينالها إلّا عبد واحد وأرجو أن أكون أنا هو**».[٣]

١ـ مجمع البيان، ج ٣ ،ص ٣٢٦؛ والتبيان، ج ٣، ص ٥٠٩.

٢ـ هو ماعز بن مالك الأسلمي، معدود في المدنين كتب له رسول الله ﷺ كتاباً بإسلام قومه، وهو الذي اعترف على نفسه بالزناء تائباً وكان محصناً، فرجمه رسول الله؛ وقيل ان اسمه: غريب وماعز لقبه: ترجمته في الإصابة، ج٢، ص٣١٧، والاستيعاب، ج ٣، ص ٤١٨.

٣ـ تفسير جوامع الجامع،ج ١، ص ٤٩٦؛ وتفسير مجمع البيان، ج٣، ص ٣٢٧.

وروى سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام قال: «**في الجنة لؤلؤتان إلى بطنان العرش أحدهما بيضاء والآخر صفراء في كلّ واحدة منها سبعون ألف غرفة فالبيضاء: الوسيلة لمحمّد وأهل بيته والصفراء لإبراهيم وأهل بيته عليهم السلام**».

وفي الحديث: «**من قال حين يسمع الدعوة والأذان: اللّهم ربّ هذه الدعوة التامّة والصلاة القائمة آت سيّدنا محمّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الّذي وعدته: حلّت له شفاعتي يوم القيامة**».[1] ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ أي: في طريق دينه مع أعدائه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لكي تظفروا بنعيم الأبد. وقيل: «لعلّ وعسى» من اللّه محقّق الوقوع، فكأنّه سبحانه قال: اعملوا وجاهدوا في الدين لتفلحوا والجهاد في سبيل اللّه له مراتب قد يكون باليد واللّسان والقلب وبالسيف والقول والكتاب وكلّها من درجات الجهاد.

واعلم أنّ مجامع التكليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما أحدهما ترك المنهيّات وإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وثانيهما فعل المأمورات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ ولمّا كان ترك المنهيّات مقدّماً على فعل المأمورات بالذات لا جرم قدّمه في الذكر لأنّ الترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصليّ.

والفعل هو الإيقاع والتحصيل ولا شكّ أنّ عدم جميع المحدثات سابق على وجودها فكان الترك قبل الفعل لا محالة.

فإن قيل: لم جعلت الوسيلة مخصوصة بالفعل مع أنّا نعلم أنّ ترك المعاصي قد يتوسّل به إلى اللّه لأنّ الترك كما قيل: إبقاء الشيء على عدمه الأصليّ وذلك العدم المستمرّ لا يمكن التوسّل به إلى شيء بل إنّما يحصل التوسّل إذا دعا داعي الشهوة إلى فعل قبيح فتركه لطلب رضاء اللّه فيحصل

١ـ المجموع، ج ٣، ص ١١٦.

التوسّل بذلك الامتناع وذلك الامتناع من باب الأفعال فإنّ ترك الشيء عبارة عن فعل ضدّه فالفعل هو الاستغراق في الطاعة والترك هو الإعراض عن نهيه فإعراض المنهيّ عنه هو فعل أيضا، وأهل الرياضة يسمّون الفعل والترك بالتحلية والتخلية، وبالمحو والصحو، وبالنفي والإثبات، وبالفناء والبقاء، ولذلك قدّم النفي على الإثبات في قولنا: لا إله إلّا الله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧)

الجملة المذكورة مع كلمة «لو» خبر إنّ. فإن قيل: لم وحّد الضمير في «به» مع أنّ المذكور السابق بيان ما في الأرض جميعاً ومثله؟ فالمعنى: ليفتدوا بذلك المذكور، أي: أنّ الكفّار لا سبيل لهم إلى الخلاص منه.

قال النبي ﷺ: **«يقال للكافر يوم القيامة: لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك فأبيت»**[١] ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ويتمنّون الخروج منها. قالوا: الإرادة هنا بمعنى التمنّي وقيل: معناه الإرادة على الحقيقة لأنّ النار إذا رفعتهم بلهبها رجوا أن يخرجوا منها كقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[٢] وقيل: معنى يريدون: يكادون أن يخرجوا منها ويقاربون الخروج إذا رفعتهم النار بلهبها. فإن قيل: كيف يجوز أن يريدوا الخروج مع علمهم بأنّهم لا يخرجون منها؟ فالجواب أنّ العلم بأنّ الشيء لا يكون لا يصرف عن إرادته، وإنّما الداعي إلى الإرادة الحاجة إليها ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ يعني: من جهنّم ﴿وَلَهُمْ

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٥٢٩؛ ومجمع البيان، ج٢، ص ٣٤١؛ ومسند أحمد، ج ٣، ص ٢٩١.

٢ـ سورة الحج: ٢٢.

عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم ثابت لا يزول ولا يحول في الحديث: **«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيغمس فيها مرّة ثمّ يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قطّ؟ هل مرّ بك نعيم قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ ويؤتى بأشدّ الناس بؤسا من أهل الجنة فيصبغ صبغة من الجنة فيقال له: هل رأيت بؤسا قطّ؟ فيقول: لا والله ما مرّ بي بؤس قطّ»**.

قال الرازيّ: واحتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنّه يخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله على سبيل الإخلاص، قالوا: لأنّه تعالى جعل هذا المعنى من تهديدات الكفّار ولو لا أنّ هذا المعنى مختصّ بالكفّار لم يكن لتخصيص الكفّار به معنى، ومؤيّد هذا الّذي قلناه قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهذا يفيد الحصر فكان المعنى: ولهم عذاب مقيم لا لغيرهم كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾[1] أي: لكم لا لغيركم.[2] أقول: لعلّ ما قاله الرازيّ صحيح لكن بشروطها وهي الولاية.

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

لمّا أوجب سبحانه في الآية السابقة قطع الأيدي والأرجل عند أخذ المال على سبيل المحاربة بيّن في هذه الآية أنّ قطع الأيدي عند السرقة أيضا يوجب.

واختلف النحويّون في رفع السارق ونصبها قال الزجّاج والأخفش: هو مبتدأ محذوف الخبر أي: حكم السارق والسارقة ثابت فيما يتلى عليكم ﴿فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا﴾ بيان لذلك الحكم المتقدّم، فما بعد الفاء مرتبط بما قبلها وإنّما قدّر الخبر لأنّ الأمر إنشاء لا يقع خبرا إلّا بإضمار وتأويل والمراد

١ـ سورة الكافرون: ٦.

٢ـ تفسير الرازي، ج١١، ص ٢٢٢.

بأيديهما أيمانهما ووضع الجمع موضع المثنّى بتثنية المضاف إليه كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[١] وقرأ عيسى بن عمرو السارق والسارقة بالنصب وهو اختيار سيبويه قال: هو مثل قول القائل: زيداً فاضربه، لكنّ الفرّاء عنده الرفع أولى من النصب قال: إنّ الألف واللّام في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ يقومان مقام «الّذي» فيكون المعنى: الّذي سرق فاقطعوا أيديه وعلى هذا البيان حسن إدخال الفاء على الخبر لأنّه صار جزاء.

وبالجملة فالألف واللّام في السارق للجنس أي: كلّ من سرق رجلاً كان أو امرأة وبدأ بالسارق هنا لأنّ الغالب وجود السرقة في الرجال كما بدأ في آية الزناء بالنساء فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾[٢] لأنّ الغالب وجود ذلك في النساء. فاقطعوا أيديهما أي: أيمانهما عن ابن عبّاس والحسن والسدّيّ وعامّة التابعين قال الطبرسيّ: قال أبو عليّ في تخطّي المسلمين إلى قطع الرجل اليسرى بعد قطع اليد اليمنى وتركهم قطع اليد اليسرى دلالة على أنّ اليد اليسرى لم يرد بقوله: فاقطعوا أيديهما ألا ترى أنّها لو اريدت بذلك لم يكونوا ليدعوا نصّ القرآن إلى غيره؟ وقال العلماء: إنّ هذه الآية مجملة في كيفيّة إيجاب القطع على السارق والسارقة، وبيان ذلك مأخوذ من السنّة.[٣]

قال الطبرسيّ: واختلف في القدر الّذي يقطع به يد السّارق فقال أصحابنا: يقطع في ربع دينار فصاعداً[٤] وهو مذهب الشّافعيّ والأوزاعيّ وأبي

١ـ سورة التحريم: ٤.

٢ـ سورة النور: ٢.

٣ـ مجمع البيان ،ج٣، ص ٣٣٠.

٤ـ وهو المروي، ففي رواية الشيخ عن أحمد بن محمد، عن أبي محبوب، عن أبي أيوب، عن محمد بن سالم قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام في كم تقطع يد السارق؟ فقال: «**في ربع دينار**»، قال: قلت له: في درهمين؟! قال: «**في ربع دنيار بلغ الدينار ما بلغ**» إلخ. الاستبصار، ج ٤، ص ٢٣٨.

الثور ورووا عن عائشة عن النبيّ أنّه قال: «**لا يقطع يد السارق إلّا في ربع دينار فصاعداً**». وذهب أبو حنيفة وأصحابه أنّه يقطع في عشر دراهم فصاعداً واحتجّوا بما روي عن عطاء عن ابن عبّاس: «**إنّ أدنى ما يقطع فيه ثمن المجنّ**»[١] قال: وكان ثمن المجنّ في عهد رسول اللّه عشرة دراهم. وذهب مالك إلى أنّه يقطع في ثلاثة دراهم فصاعداً وروى عن نافع عن ابن عمر أنّ رسول اللّه قطع سارقاً بثمن مجنّ في ثلاثة دراهم[٢] وقال: بعضهم لا يقطع الخمس إلّا في خمس دراهم واختاره أبو عليّ الجبائيّ وقال: إنّه بمنزلة من منع خمس دراهم من الزكاة وقيل: يقطع يد السارق في القليل والكثير وإليه ذهب الخوارج واحتجّوا بعموم الآية وبما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**لعن اللّه السارق يسرق البيضة فيقطع يده ويسرق الحبل يقطع يده**».[٣] وهذا الخبر قد طعن أصحاب الحديث في سنده إلّا أن يكون المراد من البيضة الحديد وهي المغفر والحبل من حبال السفينة.

و اختلف أيضا في كيفيّة القطع فقال: أكثر الفقهاء: إنّه إنّما يقطع من الرسغ وهو مفصل بين الكفّ والساعد. ثمّ إنّ عند الشافعيّ يقطع يده اليمنى في المرّة الأولى، ورجله اليسرى في المرّة الثانية، ويده اليسرى في المرّة الثالثة ورجله اليمنى في المرّة الرابعة ويحبس في المرّة الخامسة وعند أبي حنيفة لا تقطع في الثالثة وعند أصحابنا أنّه تقطع من أصول الأصابع ويترك له الإبهام والكفّ وفي المرّة الثانية تقطع رجله اليسرى من أصل الساق ويترك عقبه يعتمد عليه في الصلاة فإن سرق بعد ذلك خلّد في السجن وهو المشهور عن عليّ عليه السلام

١ـ المجن والجنة: الترس.

٢ـ وعلى هذا فيكون الاختلاف بين أبي حنيفه ومالك لفظيا يرجع إلى الاختلاف في ثمن المجن.

٣ـ تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٣١؛ والأمالي المرتضي، ج ٣، ص ٩٣؛ وبحار الأنوار، ج ٦٢، ص ٤٧.

وأجمعت الإماميّة عليه وقد استدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[١] ولا شكّ في أنّهم يكتبون بالأصابع.[٢]

ولا خلاف أنّ السارق إنّما يجب عليه الحدّ إذا سرق من حرز إلّا ما روي عن داود أنّه قال: «**يقطع السارق وإن سرق من غير حرز. وحدّه عندنا كلّ موضع لم يكن لغير مالكه الدخول إليه والتصرّف فيه إلّا بإذنه**».[٣]

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا﴾ أي: افعلوا ذلك بهما مجازاة بكسبهما وفعلهما، عقوبة من الله ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: أقلع وندم على ما كان منه من فعل الظلم بالسرقة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: وفعل الفعل الصلاح ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يقبل توبته بإسقاط العقاب بها عن المعصية الّتي تاب منها. وفي الآية ترغيب للعاصي في فعل التوبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإنّ في قبول التوبة تفضّلاً من الله تعالى لعبيده ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ خطاب للنبيّ والمراد أمّته وقيل: هو والمكلّفين. واتّصال هذا الخطاب بما قبله اتّصال الحجاج والبيان عن صحّة ما تقدّم من الوعد والوعيد والأحكام، والمعنى: ألم تعلم يا إنسان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له التصرّف فيها بلا مانع ولا منازع ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذا كان مستحقّاً للعقاب ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ يعذّب إذا عصاه ولم يتب لأنّه إذا تاب فقد وعده بأنّه لا يؤاخذه بذلك بعد

١ـ سورة البقرة: ٧٩.

٢ـ ومن ألطف ما استدلّ له ما أفاده الإمام الجوادعليه السلام في مجلس المعتصم، حيث سأل الفقهاءعن موضع قطع يد السارق، فقال بعضهم: يقطع من الكرسوع ـ أي: الزند ـ وبعضهم: من المرفق واستدلا بآيتي التيمم والوضوء فاستدعي رأي الإمام فاعتذر فلم يقبل وأنشده أن يجيب فقالعليه السلام: «**إنّهم اخطؤوا السنة، والقطع يجب من مفصل أصول الأصابع لقول رسول الله: السجود على سبعة أعضاء فمدهاو منها اليدين، وقوله تعالى «المساجد لله» وما كان لله فلا يقطع...**»، البرهان، ج ١، ص ٤٧١.

٣ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٣١.

التوبة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يمتنع عليه أمر إذا أراد.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

لمّا بيّن سبحانه بعض التكاليف والشرائع وكان قد علم من بعض الناس كونهم مسارعين إلى الكفر صبّر رسوله على تحمّل ذلك وأمره بأن لا يحزن ويتصبّر. وخاطب محمّداً ﷺ: يا أيّها النبيّ في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ إلّا في موضعين في قرآن أحدهما هاهنا والثاني بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1] ولا شكّ أنّه خطاب تشريف وتعظيم.

سبب النزول: قال الباقر عليه السلام وجماعة من المفسّرين: (إنّ امرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت برجل من أشرافهم وهما محصنان فكرهوا رجمهما فأرسلوا إلى يهود المدينة وكتبوا إليهم أن يسألوا النبيّ ﷺ عن ذلك طمعاً أن يأتي لهم برخصة فانطلق قوم منهم، كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وجماعة قالوا: يا محمّد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدّهما؟

١ـ سورة المائدة: ٦٧.

فقال ﷺ: **«وهل ترضون بقضأي: في ذلك؟»** قالوا: نعم، فنزل جبرئيل بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبرئيل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له، فقال النبيّ ﷺ: **«هل تعرفون شابّاً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟»** قالوا: نعم. قال: **«فأي رجل هو فيكم؟»** قالوا: أعلم يهوديّ على ظهر الأرض بما أنزل اللّه على موسى. قال: **«فأرسلوا إليه»** ففعلوا، فأتاهم ابن صوريا فقال له النبيّ ﷺ: **«إنّي أنشدك اللّه الّذي لا إله إلّا هو الّذي أنزل التوراة على موسى وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلّل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنّ والسلوى هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن؟»** قال ابن صوريا: نعم والّذي ذكرتني به ولو لا خشية أن يحرقني ربّ التوراة إن كذبت أو غيّرت ما اعترفت لك، ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا محمّد؟ قال ﷺ: **«إذا شهد أربعة عدول أنّه قد أدخله فيها كالميل في المكحلة وجب عليه الرجم»** قال ابن صوريا: هكذا أنزل اللّه في التوراة على موسى.

فقال له النبيّ ﷺ: **«فماذا كان أوّل ما ترخّصتم به أمر اللّه؟»** قال ابن صوريا: كنّا إذا زنى الشريف تركناه، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحدّ فكثر الزنى في أشرافنا حتّى زنى ابن عمّ ملك لنا فلم نرجمه حتّى زنى رجل آخر فأراد الملك رجمه فقال له قومه: لا حتّى ترجم فلاناً ـ يعنون ابن عمّه ـ فقلنا: تعالوا نجمع فلنضع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم[1] وهو أن يجلد أربعين جلدة ثمّ تسودّ وجههما ثمّ تحملان على حمارين وتجعل وجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما، فجعلوا هذا مكان الرجم. فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته به! فقال ابن صوريا: إنّه أنشدني بالتوراة ولو لا ذلك ما أخبرته.

١ـ من حمم الشيء: اذا صيّره أسود.

فأمرﷺ بهما فرجما عند باب المسجد، فأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾.

فقام ابن صوريا فوضع يديه على ركبتي رسول الله ثمّ قال: هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير الّذي أمرت أن تعفو عنه فأعرض النبيّﷺ عن ذلك. ثمّ سأله ابن صوريا عن نومه فقال: **«تنام عيناي ولا ينام قلبي»** فقال: صدقت.

وأخبرني عن شبه الولد بأبيه ليس فيه شبه من أمّه أو بأمّه ليس فيه شبه بأبيه فقالﷺ: **«أيهما علا وسبق ماؤه ماء صاحبه كان الشبه له»** قال: قد صدقت، فأخبرني ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ قال: فأغمي على رسول اللهﷺ طويلاً ثمّ خلّي عنه محمرًا وجهه تفيض عرقاً فقالﷺ: **«اللّحم والدم والظفر والشحم للمرأة، والعظم والعصب والعروق للرجل»** قال له: صدقت أمرك أمر نبيّ، فأسلم ابن صوريا عند ذلك ثمّ قال: يا محمّد من يأتيك من الملائكة؟ قالﷺ: **«جبرئيل»**، قال: صفه لي فوصفه النبيّ فقال: أشهد أنّه في التوراة كما قلت وأنّك رسول الله حقّاً فلمّا أسلم ابن صوريا وقعت فيه اليهود وشتموه.[1] فلمّا أرادوا أن ينهضوا تعلّقت بنو قريظة ببني النضير فقالوا: يا محمّد إخواننا بنو النضير أبونا واحد وبطننا واحد ونبيّنا واحد إذا قتلوا منّا قتيلاً لم يقتدونا وأعطونا ديته سبعين وسقاً[2] من تمر وإذا قتلنا منهم قتيلاً قتلوا القاتل وأخذوا منّا مائة وأربعين وسقاً من تمر، وإن كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منّا وبالرجل منهم رجلين منّا، وبالعبد منهم الحرّ منّا، وجراحاتنا على النصف من

١ـ انظر: التبيان، ج ٣، ص ٥٢٥ ومجمع البيان، ج ٣،ص ٣٣٥؛ ورواه المجلسي في البحار، ج ٢٢،ص ٢٥.

٢ـ قال الخليل: الوسق ستون صاعاً وهو حمل البعير، والوقر: حمل البغل والحمار.

جراحاتهم، فاقض بيننا وبينهم فأنزل الله في الرجم والقصاص الآيات).

المعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ خطاب التعظيم والتشريف ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ﴾ أي: صنع الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يقعون سريعاً في الكفر وإظهاره إذا وجدوا منه فرصة، ولا تبال بتهافتهم في الكفر ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بيان للمسارعين ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ متعلّق بقالوا، والفائدة من بيان تعلّقه بالأفواه مع أنّ القول لا يكون إلّا بالفم واللّسان إشارة إلى أنّ ألسنتهم ليست معبّرة بما في قلوبهم، وأنّ ما يجرون على ألسنتهم لا يجاوز أفواههم فينطقوا به غير معتقدين بقلوبهم ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ جملة حاليّة من ضمير «قالوا» مؤكّدة عن بيان خلوّ قلوبهم عن الإيمان.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ عطف على قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ وبيان المسارعين في الكفر بتقسيمهم إلى قسمين: المنافقين واليهود ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: هم سمّاعون يعني المنافقين واليهود مبالغون في سماع الكذب، وقبول ما تفتريه أحبارهم ورؤساؤهم من الكذب على الله وتحريف كتابهم أو سمّاعون أخباركم وأحاديثكم ليكذبوا عليكم بالزيادة والتبديل فإنّ منهم من يسمع من الرسول ثمّ يخرج ويقول: سمعت منه كذا وكذا ولم يسمع ذلك منه، وعلى المعنى الثاني: فاللّام يكون لام الغرض ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: هم سمّاعون كلامك لقوم آخرين الّذين لم يحضروا مجلسك أرسلوا السّماعين في قصّة زان محصن فقالوا لهم: إن أفتاكم محمّد بالجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوه لأنّهم كانوا حرّفوا حكم الرجم الّذي في التوراة وقيل: إنّما كان ذلك في قتل منهم قالوا: إن أفتاكم بالدية فاقبلوه وإن أفتاكم بالقود فاحذروه.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ أي: كلام الله وأحكامه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي:

من بعد أن وضعه مواضعه، وفرض فروضه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه يعني بذلك ما غيّروه من حكم الله في أمر الزناء فنقلوه من الرجم إلى أربعين جلدة، أو نقلوا حكم القتل من القود إلى الدية حتّى كثر القتل فيهم. وقيل: المراد: يحرفون كلام النبيﷺ بعد سماعه ويكذبون عليه وكانوا يكتبون بذلك إلى خيبر.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: يقول يهود خيبر ليهود المدينة ـ ويهود المدينة كانوا جواسيس وعيونا ليهود خيبر ـ : إن أعطيتم هذا أي: أمركم محمّد بالجلد فاقبلوا حكمه وإن أوتيتم بالرجم فلا تقبلوه واحذروا عن قبول قوله أو إن أوتيتم الدية فاقبلوه وإن أوتيتم القصاص فاحذروه.

﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ قيل: معنى الفتنة: العذاب أي: من يرد الله عذابه مثل قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[1] أي: يعذّبون وقوله: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[2] أي: عذابكم عن الحسن وقتادة والجبّائيّ وأبو مسلم.

وقيل: إنّ معناه من يرد الله إهلاكه، عن السدّيّ والضحّاك.

وثالثها: أنّ المراد: من يرد الله خزيه وفضيحته بسبب ما ينطوي عليه. ورابعها: أنّ المراد: من يرد الله اختباره بما يبتليه به من القيام بحدوده فيدع ذلك ويحرّفه. قال الطبرسيّ: والأصحّ الأوّل.

﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فلن تستطيع أن تدفع عنه من أمر الله الّذي هو العذاب أو الفضيحة أو الهلاك شيئاً ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أولئك اليهود لم يرد الله أن يطهّرهم من

١ـ سورة الذاريات: ١٣.

٢ـ سورة الذاريات: ١٤.

عقوبات الكفر الّتي هي الختم والطبع بسبب سوء اختيارهم وعنادهم ولعلمه تعالى بأنّه لا ينفع لهم العظة والذكرى وغلب عليهم السفه فإنّ البلوغ بلوغان فبلوغ الأطفال بخروج المنيّ وبلوغ الرجال بخروج المني فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، كما طهّر قلوب المؤمنين بأن شرح صدورهم للإسلام بسبب متابعتهم للرسول وعدم العناد منهم.

وقيل: المعنى: لم يرد الله أن يطهّرها من الكفر بالحكم عليها بأنّها بريئة من الكفر، ممدوحة بالإيمان والسبب انهماكهم في الكفر وتماديهم في العناد فقوله: ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ استعارة عن سقوط وقعهم عند الله وأنّه غير ملتفت إليهم بسبب قبح أفعالهم وأعمالهم ونيّاتهم. قال العاصي: وهذا لا يدلّ على أنّه سبحانه لم يرد منهم الإيمان، بل أراد منهم الإيمان ولكن لمّا لم يقبلوه خلّاهم وشأنهم وما زكّاهم.

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أمّا خزي المنافقين بظهور فضيحتهم بين المسلمين، وأمّا خزي اليهود فبالذلّ والجزية وظهور كذبهم في كتمان نصّ التوراة، وأمّا في الآخرة هو الخلود في النار.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

السحت: الرشوة في الحكم ومهر البغي وعسيب الفحل وثمن الكلب

وثمن الخمر وثمن الميتة وحلوان[1] الساحر والكاهن والاستئجار في المعصية، وأصله يرجع إلى الحرام الخسيس الّذي يكون في حصوله عار بحيث يخفي آخذه عن أعين الناس لا محالة. وكان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه من كان مبطلاً في دعواه برشوة سمع كلامه ولا يلتفت إلى خصمه فكان يسمع الكذب ويأكل السحت. وقيل: كان فقراؤهم يأخذون من أغنيائهم مالاً ليقيموا على ما هم عليه من اليهوديّة، فالفقراء كانوا يسمعون أكاذيب الأغنياء، ويأكلون السحت أو كانوا سمّاعين للأكاذيب الّتي كان أحبارهم ينسبونها إلى التوراة ويأخذون عليها الرشى وأكّالون للربا لقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[2] قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ تكرير لما قبله ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الحرام حسبما شرح ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ الفاء فصيحة أي: إذا كان حالهم كما شرح إن جاءوك متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أراد به اليهود الّذين تحاكموا إلى النبي ﷺ في حدّ الزناء. وقيل: أراد بني قريظة وبني النضير لمّا تحاكموا إليه فقد خيّره الله بين أن يحكم بينهم وبين أن يعرض عنهم وفي بعض الروايات أنّ هذا التخيير ثابت في الشرع للأئمّة والحكّام. وقيل: إنّه منسوخ بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.[3]

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن الحكم بينهم ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ ولا يقدرون لك على ضرر ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ أي: وإن اخترت أن تحكم بينهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل وقيل: بما في القرآن وشريعة الإسلام ﴿إِنَّ

١ـ الحلوان: ـ بالضّم ـ عطاء للدلال أو المستخدم لحاجة.

٢ـ سورة النساء: ١٦١.

٣ـ سورة المائدة: ٤٩.

﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين فيحفظهم من كلّ مكروه ومحذور وفي الحديث: المقسطون عند الله على منابر من نور ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ أي: يحكّمك يا محمّد هؤلاء اليهود على أنفسهم فيرضوا بك حكماً ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾[1]

وحاصل المعنى من الآية تعجيب من الله لنبيّه محمّد ﷺ بتحكيم اليهود إيّاه بعد علمهم بما في التوراة من حدّ الزاني ثمّ تركهم ذلك الحكم فعدلوا عمّا يعتقدونه حكماً حقّاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة، فعدولهم عن حكم كتابهم إلى حكمك أمر عجيب. وفي الآية بيان جهلهم وعنادهم لئلّا يفتري مفتر بأنّهم أهل كتاب الله ومن المحافظين على أمر الله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عطف على قوله: ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ وذلك إشارة إلى حكم الله الّذي في التوراة أو إشارة إلى التحكيم.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما هم بالمؤمنين بالتوراة وإن كانوا يظهرون الإيمان بها أو إخبار بأنّهم لا يؤمنون أبداً ويكون إخباراً عن المستأنف أو المعنى أنّهم وإن طلبوا الحكم منك لكنّهم ما هم بمؤمنين بك ولا بمعتقدين في صحّة حكمك ومقصودهم تحصيل منافع الدنيا فقط.

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

١ـ تفسير البغوي،ج ٢، ص ٣٩.

تنبيه من الله لليهود عن المخالفة وترغيب لهم في أن يكونوا كمتقدّميهم من مسلمي أحبارهم والأنبياء المبعوثين إليهم قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ تهدي شرائعها وأحكامها إلى الحقّ، وترشد الناس إلى الخير، ونور يكشف ما أبهم عليهم من الأحكام المستورة عليهم بظلمات الجهل، وضياء لكلّ ما تشابه عليهم ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ وأذعنوا بحكم الله وأقرّوا به ونبيّناﷺ داخل فيهم وقيل: هوﷺ المفتي بذلك لما حكم في رجم المحصن وهذا لا يدلّ على أنّه كان متعبّداً بشرع موسى لأنّ الله هو الّذي أوجب عليه ذلك بوحي أنزله عليه لا بالرجوع إلى التوراة فصار ذلك شرعاً له وإن وافق ما في التوراة. وقيل: يريد بالنبيّين الأنبياء الّذين كانوا من بعد موسى، وذلك لأنّه كان في بني إسرائيل ألوف من الأنبياء بعثهم الله لإقامة التوراة يحلّلون حلالها ويحرّمون حرامها.

فالمعنى: يقضي بالتوراة الّذين أسلموا من وقت موسى إلى وقت عيسى ووصفهم بالإسلام لأنّ الإسلام دين الله فكلّ نبيّ مسلم وليس كلّ مسلم نبيّاً ولا يقال: إنّ النبوّة أعظم من الإسلام فكيف يمدح نبيّ بأنّه مسلم وما الوصف به بعد الوصف بالنبوّة إلّا تنزّل من الأعلى إلى الأدنى؟ فإنّه ليس الأمر كذلك بل شرف النبيّ بالإسلام والعبوديّة، كما أنّ محمّداًﷺ يوصف بالعبوديّة ثمّ بالرسالة. على أنّه قد يذكر الوصف مدحاً للوصف وتنويه شأن الصفة وعظم قدرها، كما وصف الأنبياء بالصلاح والملائكة بالإيمان وقد قيل: أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف. قال الشاعر:

ما إن مدحت محمّداً بمقالتي ... لكن مدحت مقالتي بمحمّد

﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ متعلّق بيحكم أي: يحكمون للّذين تابوا عن الكفر. وقيل: المعنى: يحكمون لليهود بالتوراة لهم وفيما بينهم قال الزجّاج: ويجوز

أن يكون المعنى على التقديم والتأخير، وتقدير الكلام: إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للّذين هادوا يحكم بها النبيّون الّذين أسلموا ﴿وَالرَّبَّنِيُّونَ﴾ الّذي علت درجاتهم في العلم ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ وهم العلماء ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَٰبِ اللَّهِ﴾ أي: بما أمروا بحفظ ذلك والقيام به وترك تضييعه فيكون المعنى: يحكمون بما حفظوه من التوراة وبالّذي استحفظوه من جهة النبيّين وتلقّوا منهم وهو استخلاف لهم في إجراء أحكامها من غير إخلال بشيء فالباء سببيّة متعلّقة بيحكم أي: ويحكم الربّانيّون والأحبار أيضاً بسبب ما حفظوه من كتاب اللّه حسبما وصّاهم به أنبياؤهم.

قال الفرّاء: مفرد الأحبار حبر بكسر الحاء يقال ذلك للعالم، وإنّما سمّي بهذا الاسم لمناسبة الحبر الّذي يكتب به، وذلك أنّه يكون صاحب كتب وحبر. وقيل: حبر وحبر بالفتح والكسر من الحاء. وقال قوم: اشتقاقه من التحبير وهو التحسين في الحديث يخرج من النار ذهب حبره وسبره أي: ذهب جماله وبهاؤه، ولمّا كان العلم أحسن أقسام الفضيلة لا جرم سمّي العالم به. ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي: كان هؤلاء النبيّون والربّانيّون والأحبار شهداء على أنّ كلّ ما في التوراة حقّ من عند اللّه، ورقباء بحيث لا يتركونهم أن لا يراعوا حقّه ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ يا علماء اليهود في أمر الرجم وفي عدم إظهار نعوت محمّد ﷺ ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ في كتمان ذلك وقيل: الخطاب للنبيّ ـ والمراد أمّته ـ لا تخشوا في إقامة الحدود وإمضائها على أهلها كائناً من كان ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تأخذوا لأجل الطمع. والاشتراء: استبدال السلعة بالثمن وأخذها بدلاً منه أي: لا تستبدلوا بآياتي بأن تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلاً منها من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيويّة فإنّها وإن جلّت فهي قليلة.

أقول: وهذا البيان في آخر الآية يدلّ على أنّ المخاطب في قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾ علماء اليهود وقول القائل: إنّ الخطاب للنبيّ والمراد منه أمّته بمعزل عن القبول.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قال الطبرسيّ: اختلف في ذلك فمنهم من أجراه على ظاهره على العموم، عن ابن مسعود والحسن وإبراهيم النخعيّ ومنهم من خصّه بالجاحد لحكم اللّه والمستهين به، عن ابن عبّاس ومنهم من قال: هم اليهود خاصّة، عن الجبّائيّ فإنّه قال: لا حجّة للخوارج في هذه الآية فإنّهم احتجّوا بهذه الآية فقالوا: إنّها نصّ في أنّ كلّ من حكم بغير ما أنزل اللّه فهو كافر وكلّ من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل اللّه فوجب أن يكون كافراً. وأجاب المتكلّمون أنّ هذه الآية نزلت في اليهود فتكون مختصّة بهم. وهذا ضعيف لأنّ العبرة بعموم اللّفظ وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ كلام ادخل فيه كلمة «من» في معرض الشرط فيكون للعموم وقول من يقول: «المراد: ومن لم يحكم بما أنزل اللّه من الّذين سبق ذكرهم» فهو زيادة في النصّ وذلك غير جائز قال عطا: هو كفر دون كفر. وقال طاوس: ليس بكفر ينقل عن الملّة، كأنّهم حملوا الكفر على كفر النعمة لا على كفر الدين وهذا أيضا ضعيف لأنّ لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر في الدين. قال عكرمة: قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إنّما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أمّا من عرف بقلبه كونه حكم اللّه وأقرّ بلسانه كونه حكمه إلّا أنّه أتى بما يضادّه فهو غير حاكم بما أنزل اللّه ولكنّه تارك له فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية لأنّها خاصّة في اليهود.

واختار عليّ بن عيسى القول الثاني، ومن المعلوم أنّ من حكم بغير ما أنزل اللّه مستحلاً لذلك فهو كافر.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾

المعنى: شرح سبحانه حكم التوراة في القصاص والمراد بيان هذا الأمر أنّه تعالى بيّن في التوراة أنّ حكم الزاني المحصن هو الرجم واليهود غيّروه وبدّلوه، وبيّن في هذه الآية أيضا أنّه تعالى بيّن في التوراة أنّ النفس بالنفس وهؤلاء اليهود غيّروا هذا الحكم أيضا، ففضّلوا بني النضير على بني قريظة، وخصّصوا إيجاب القود ببني قريظة دون بني النضير فهذا هو وجه النظم في الآية فقال: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ أي: فرضنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود الّذين تقدّم ذكرهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ معناه إذا قتلت نفس نفساً أخرى عمدا فإنّه يستحقّ عليه القود إذا كان القاتل عاقلاً مميّزا وكان المقتول مكافئا للقاتل إمّا بأن يكونا مسلمين حرّين أو كافرين أو مملوكين فأمّا إذا كان القاتل حرّاً مسلما والمقتول كافراً أو مملوكاً ففي وجوب القصاص هناك خلاف بين الفقهاء ولكن عند الإماميّة لا يجب القصاص وبه قال الشافعيّ. قال الضحّاك: لم يجعل في التوراة دية في النفس[١] ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ قرأ الكسائيّ: العين والأنف والأذن والسنّ والجروح كلّها بالرفع عطفا على محلّ أنّ النفس أو على الاستئناف تقديره أنّ النفس مقتولة بالنفس والعين مفقوأة بالعين نظير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾[٢] وقرأ

١ــ بل ولا جرح وإنّما كان العفو والقصاص: على ما في الجمع.

٢ــ سورة المائدة: ٦٩.

ابن كثير وأبو عمرو وابن بأمر بنصب الكلّ سوى الجروح فإنّه بالرفع فالعين والأنف والاذن منصوب عطفا على النفس، ثمّ الجروح مبتدأ وقصاص خبره. وقرأ نافع وعاصم وحمزة كلّها بالنصب عطفا لبعض ذلك على بعض وخبر الجميع قصاص. وقرأ نافع الاذن بسكون الذال حيث وقع، والباقون بالضمّ وهما لغتان.

وبالجملة لمّا ذكر اللّه تعالى بعض الأعضاء عمّم الحكم في كلّها فقال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ والقصاص هاهنا مصدر يراد به المفعول أي: والجروح متقاصّة بعضها ببعض وهو يقع بكلّ ما يمكن أن يقتصّ منه بشرط وقوع المماثلة مثل الشفتين والأنثيين واليدين والرجلين وغيرهما، ويقتصّ الجراحات بمثلها الموضحة بالموضحة والهاشمة بالهاشمة والمنقّلة بالمنقّلة إلّا في المأمومة والجائفة[1] فإنّه لا قصاص فيهما، وما لا يمكن المماثلة مثل رضّة العظم[2] أو اللّحم أو فكّة عظم أو جراحة يخاف منها التلف فالحكم فيها أروش مقدّرة، وتفاصيلها مذكورة في كتب الفقه.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بالقصاص الّذي وجب له فتصدّق به على صاحبه بالعفو وأسقط عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي: للمتصدّق الّذي هو المجروح أو وليّ الدم. قال الرازيّ: الضمير في له يحتمل أن يكون راجعاً إلى العافي وهو المجروح أو الوليّ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المعفوّ عنه يعني كفّارة للقاتل أي: أنّ المجنيّ عليه إذا عفا عن الجاني صار ذلك العفو كفّارة للجاني لا يؤاخذه اللّه بعد ذلك العفو وأمّا المجنيّ عليه الّذي عفا فأجره على اللّه. وعن عبادة بن الصامت أنّ رسول اللّه قال: «**من تصدّق من جسده بشيء**

١ـ الموضحة من الشجاج ما بلغ العظم فأوضح عنه ولم يكسره والهاشمة ما بلغه وكسره والمنقلة ما كسره ونقله من مكانه إلى مكان آخر والمأمومة بلغ أم الرأس والجائفة مابلغ جوف البدن.

٢ـ رضّ الشيء: دقّه.

كفّر الله عنه بقدره من ذنوبه»[١] وفي الحديث: «**من أصيب بشيء من جسده فتركه لله كان كفّارة»**[٢] له قال الحقّي في تفسيره: في الحديث «**من عفا عن قاتله ومن قرأ عقيب كلّ صلاة مكتوبة قل هو الله أحد عشر مرّات ومن أدّى ديناً خفياً وجاء بهنّ يوم القيامة وهو مؤمن دخل الجنّة من أيّ: أبواب الجنّة شاء وتزوّج عن الحور العين حيث شاء»**.[٣]

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الأحكام والشرائع ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتعدّون لحدوده الواضعون للشيء في غير موضعه فإن قيل: إنّ الكفر أعظم من الظلم وهو سبحانه هدّدهم بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أولا فأي: فائدة في ذكر الأخفّ بعده؟ فالجواب أنّ الظالم يطلق على الكافر قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٤] و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٥] وأنّ الكفر من حيث إنّه إنكار لنعمة الربّ فهو كفر ومن حيث إنّه يقتضي إبقاء النفس في العقاب الدائم الشديد فبهذا الاعتبار هو ظلم على النفس ففي الآية الأولى ذكر الله ما يتعلّق بتقصيره في حقّ الخالق وفي هذه الآية ذكر ما يتعلّق بالتقصّر في حقّ نفسه.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً

١ـ مجمع البيان، ج ٣،ص ٣٤٥؛ وتفسير الرازي ،ج ١٢،ص ٨.
٢ـ تفسير السمرقندي، ج ١، ص٤١٨.
٣ـ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص٣٥٣.
٤ـ سورة البقرة: ٢٥٤.
٥ـ سورة لقمان: ١٣.

﴿لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾

لمّا قدّم سبحانه ذكر اليهود أتبعه بذكر النصارى فقال: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: وأتبعنا على آثار النبيّين الّذين أسلموا. يقال: قفّيته إذا تبعته بفلان فتعديته إلى المفعول الثاني بزيادة الباء فإن قيل: فأين المفعول الأوّل؟ قلنا: هو محذوف والظرف وهو قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ سادّ مسدّه. والضمير في آثارهم للنبيّين في قوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ وصف عيسى بكونه مصدّقاً لما بين يديه وإنّما يكون كذلك إذا كان عمله على شريعة التوراة ومعلوم أنّه لم يكن كذلك فإنّ شريعة عيسى كانت مغايرة لشريعة موسى فلذلك قال في آخر هذه الآية: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ فكيف طريق الجمع؟ فمعنى كون عيسى مصدّقاً للتوراة أنّه أقرّ بأنّه كتاب منزل من عند الله وأنّه كان حقّاً واجب العمل به قبل ورود النسخ. على أنّه ليس بينهما في الأصول اختلاف أبدا.

وإنّما قال: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مع أنّه قد مضى؟ لأنّه إذا كان يأتي كتاب بعده وخلفه فالّذي مضى قبله يكون قدّامه وبين يديه.

فإن قيل: لم كرّر قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾؟ فالجواب أنّه ليس بتكرار لأنّ في الأوّل معناه أنّ عيسى مصدّق التوراة وفي الثاني أنّ الإنجيل مصدّق التوراة. وذكر ﴿هُدٗى﴾ مرّة اخرى لاشتمال الإنجيل على الإشارة بمقدم محمّد ﷺ فيكون سبباً لاهتداء الناس إلى نبوّة محمّد ﷺ ولمّا كان أشدّ وجوه المنازعة بين المسلمين واليهود والنصارى في ذلك أعاده الله تنبيهاً على أنّ الإنجيل كان هدى في هذه المسألة الّتي هي أشدّ المسائل

احتياجاً إلى البيان. و إنّما خصّها ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنّهم هم المنتفعون بها دون غيرهم[١] ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ﴾ هذا أمر لهم. قيل في معناه قولان: أحدهما: أنّ تقديره وقلنا: ليحكم أهل الإنجيل وحذف القول لدلالة ما قبله عليه من قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ وذلك مثل: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾[٢] أي: يقولون: سلام عليكم. والثاني: أنّه كلام مستأنف أمر أهل الإنجيل لأنّ أحكامه لم ينسخ بعد وكانوا مأمورين بحكم الإنجيل في ذلك الوقت ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أي: في الإنجيل ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

قيل: إنّ «من» في الآية بمعنى «الّذي» وهو إخبار عن قوم معروفين وهم اليهود والّذين تقدّم ذكرهم عن الجبّائيّ. وقيل: إنّ «من» للجزاء أي: من لم يحكم من المكلّفين بما أنزل اللّه فهو فاسق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فيكون معنى الفاسقين الخارجين عن الدين والكفر والظلم والفسق صفة لموصوف واحد وقيل: إنّ الأوّل في الجاحد والثاني والثالث في المقرّ التارك. قال العقال: وليس في أفراد هذه الثلاثة بلفظ يوجب القدح في المعنى كما يقال: من أطاع اللّه فهو المؤمن، من أطاع اللّه فهو البرّ، من أطاع اللّه فهو المتّقي لأنّ كلّ ذلك صفات مختلفة حاصلة لموصوف واحد: وقال الأصم: الأوّل والثاني في اليهود والثالث في النصارى.

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا

١ـ فإن المراد بالمتقين ههنا وفينا أشبهه في الموارد، ليس من يعمل بوظائفه الدينية حتي يتوهّم توقف تأثير الدين على نفسه، بل المراد. من يكون عقله مستضيئاً عن نور التقوي، غيرمحجوب بأستار اللجاج والعناد مع الحق كما في أمثال أبي جهل جحدوا بآيات الله واستفنتهم أنفسهم.

٢ـ سورة الرعد: ٢٣ ـ ٢٤.

﴿جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

هذا خطاب لمحمدﷺ فقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: كلّ كتاب نزل من السماء سوى القرآن فاللّام في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد أي: الفرد الكامل الحقيق بأن يسمّى كتاباً على الإطلاق لحيازة جميع الأوصاف الكماليّة وتفوّقه على بقيّة أفراده ملبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق، حال مؤكّدة من الكتاب. وقيل: من فاعل أنزلنا وقيل: من الكاف في إليك وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال من الكتاب أي: حال كونه مصدّقاً لما تقدّمه موافقاً له في القصص والدعوة إلى التوحيد والمواعيد والعدل بين الناس وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بيان لما واللّام للجنس ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال الخليل وأبو عبيدة: هيمن الرجل يهيمن إذا كان رقيباً على الشيء وحافظاً وشاهداً عليه. وقيل: الأصل في آمن يؤمن فهو مؤمن: أءمن يؤأمن فهو مؤامن ـ بهمزتين ـ ثمّ قلبت الأولى هاء كما في هرقت وأرقت وقلبت الثانية ياء فصار مهيمناً. وإنّما كان القرآن مهيمناً على الكتب، لأنّه الكتاب الّذي لا يصير منسوخاً ولا يتطرّق إليه التبديل بعد أبدا وإذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أنّ التوراة والزبور والصحف والإنجيل حقّ باقية فكانت حقيقة هذه الكتب بشهادة القرآن معلومة أبدا.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: فاحكم بين اليهود وأهل الكتاب بما في القرآن عن ابن عبّاس قال: إذا ترافع أهل الكتاب إلى الحكّام يجب أن يحكموا بينهم بحكم القرآن وشريعة الإسلام لأنّه أمر اللّه بأن يحكم بينهم والأمر يقتضي الإيجاب به.

وقال جماعة من المفسّرين: إنّ هذا ناسخ للتخيير في الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عنهم[1] ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ولا تنحرف عمّا جاءك من الحقّ متبعاً أهواءهم ولذلك عدّاه بعن روي أنّ جماعة من اليهود قالوا: تعالوا نذهب إلى محمّد ـ ﷺ ـ لعلّنا نفتّنه عن دينه ثمّ دخلوا عليه وقالوا: يا محمّد قد عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم وأنّا إن اتّبعناك اتّبعك كلّ اليهود وإنّ بيننا وبين خصومنا حكومة فنحاكمهم إليك فاقض لنا ونحن نؤمن بك فأنزل الله الآية.

وتمسّك من طعن في عصمة الأنبياء بهذه الآية وقال: لولا جواز المعصية عليهم لما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ والجواب أنّ ذلك مقدور له ولكن لا يفعله ولمّا كان مقدوراً له فجاز النهي وقيل: الخطاب له والمراد أمّته كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2].

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الخطاب للأمم الثلاث: امّة موسى وامّة عيسى وامّة محمّد لأنّ ذكر هؤلاء قد تقدّم في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ...﴾ ثم: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ ثمّ قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ومعنى شرع: بيّن وأوضح يقال: شرعت الإهاب إذا شققته وسلخته إذا الشروع في الشيء هو الدخول فيه. والشريعة: المشرعة الّتي يشرعها الناس يشربون منها فالشريعة فعيلة بمعنى المفعول وهي الأشياء الّتي أوجب الله على المكلّفين أن يشرعوا فيها. والمنهاج: الطريق الواضح قال بعضهم:

١ـ قاله الجبائي على ما في المجمع ويمكن أن يقال بعدم التنافي بين الحكمين لإمكان حمل هذه الآية على ما إذا شاء الرسول أن يحكم بينهم فيكون التخيير أقدم رتبة من وجوب الحكم بالقرآن. كما أوضح عنه فيما تقدم بقوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ـ وهذا هو التخيير ـ وإن حكمت ـ وهو اختيار أحد طرفي التخيير ـ فأحكم بينهم بالقسط.

٢ـ سورة الزمر: ٦٥.

الشرعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد والتكرير للتأكيد والمراد بهما الدين. وقال آخرون: بينهما فرق: فالشرعة عبارة عن مطلق الشريعة، والطريقة عبارة عن مكارم الأخلاق وهي المراد بالمنهاج فالشريعة أوّل، والطريقة آخر. وقال المبرّد: الشريعة ابتداء الطريقة، والطريقة المنهاج المستمرّ.

وفي قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾ دلالة على جواز النسخ وعلى أنّ نبيّناﷺ كان متعبدّاً بشريعته فقط وكذلك أمّته ويقوّي ذلك قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: جماعة متّفقة على شريعة واحدة لا اختلاف فيها والمراد بالمشيئة في الآية مشيئة الإلجاء خلاف ما قالته الأشاعرة.

قال الرازيّ: إن قيل: إنّه قد وردت آيات دالّة على عدم التباين في طريقة الأنبياء والرسل وآيات دالّة على حصول التباين فيها فالنوع الأوّل مثل قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾[1] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2] وأمّا النوع الثاني فمثل هذه الآية فحينئذ كيف طريق الجمع؟ نعم، فالنوع الأوّل من الآيات مصروف إلى ما يتعلّق بأصول الدين والنوع الثاني مصروف إلى ما يتعلّق بفروع الدين.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: لكن جعلكم على شرائع مختلفة للامتحان والتمييز بين المطيع والعاصي لترتّب الثواب والعقاب. قال الحسين بن عليّ المغربيّ: معنى الآية: لو شاء الله لم يبعث إليكم نبيّاً فتكونون متعبّدين بما في العقل وتكونون أمّة واحدة ولكن ليختبركم فيما كلّفكم من العبادات وهو عالم بما يؤول إليه أمركم ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وبادروا في

١ـ سورة الشورى: ١٣.

٢ـ سورة الأنعام: ٩٠.

التقدّم بالخير وما أمرتكم به فإنّي ما آمركم إلّا بما هو خير لكم ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات وفي قوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟﴾ دلالة على وجوب المبادرة إلى أفعال الخير، ويكون محمولاً على الواجبات ومن قال: إنّ الأمر على الندب حمله على جميع الطاعات ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم بما يرتفع الاختلاف والشكوك معه من الجزاء بين محقّكم ومبطلكم وموفيكم ومقصّركم في العمل.

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾ عطف على قوله: «وَ أَنزَلنا إِلَيْكَ الْكِتابَ أَنِ احْكُمْ» وأعيد ذكر الحكم والأمر بعد ذكره في الآية الأولى إمّا للتأكيد وإمّا لأنّهما حكمان أمر بهما لأنّ اليهود احتكموا إليه في زنى المحصن أوّلا ثمّ احتكموا في قتيل كان فيهم ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: ما يهوون من الأحكام ويطمعوك منهم من الإجابة إلى الإسلام. وقيل: المعنى: احذرهم أن يضلّوك بالكذب على التوراة بأن يقولوا: هذا الحكم كذا في التوراة، وليس ذلك الحكم فيها بل يريدون أن تحكم لهم حسب ما يهوون والفتنة هنا صرف من الحقّ إلى الباطل وفي الآية دلالة على وجوب مجانبة أهل البدع والضلال وذوي الأهواء.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا عن حكمك ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ويعاقبهم ببعض أجرامهم. وذكر البعض والمراد الكلّ كما يذكر العموم ويراد به الخصوص، عن الجبّائيّ. أو أنّه ذكر البعض تغليظ للعقاب

والمراد أنّه يكفي أن يؤخذوا ببعض ذنوبهم في إهلاكهم. وقيل: إنّه أراد تعجيل بعض العقاب بما كان من التمرّد فإنّ عذاب الدنيا يختصّ ببعض الذنوب دون بعض وعذاب الآخرة يعمّ. ولعلّ المراد في الآية بنو قريظة لمّا نقضوا العهد يوم الأحزاب عوقبوا بالقتل ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ تسلية للنبيّ ﷺ عن امتناع القوم من الإقرار بنبوّته ولا زال كان أهل الإيمان قليلاً وأهل الفسق كثيرا ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وقرء بالخطاب تبغون.

وقرء حكم بالرفع على الابتداء وتبغون خبره والعائد محذوف من الخبر للدلالة والمعنى: أحكم الجاهليّة تبغون، والمراد أنّ هذا الحكم الّذي تبغونه إنّما يحكم به حكّام الجاهليّة فأراد هؤلاء اليهود المتحاكمين إلى الرسول في أمر الرجم والدية أن يحكم رسول اللّه بموجب هواهم كما كان أهل الجاهليّة يحكمون عن هوى أنفسهم. قال مقاتل: كانت بين قريظة والنضير دماء قبل أن يبعث اللّه محمّداً ﷺ فلمّا بعث تحاكموا إليه فقالت بنو قريظة: بنو النضير إخواننا أبونا واحد وديننا واحد فإن قتل بنو النضير منّا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منّا مائة وأربعين وسقاً من تمر، وأروش جراحاتنا على النصف من أروش جراحاتهم فاقض بيننا وبينهم فقال ﷺ: **«فإنّي أحكم أنّ دم القرظيّ وفاء من دم النضيريّ، ودم النضيريّ وفاء من دم القرظيّ ليس لأحدهما فضل على الآخر في دم ولا عقل ولا جراحة»**. فغضب بنو النضير وقالوا: لا نرضى بحكمك فإنّك عدوّ لنا فأنزل اللّه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية. يعني: حكمهم الأوّل يطلبون وذلك أنّهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزموهم إيّاه، وإذا وجب على أقويائهم لم يأخذوهم به فمنعهم اللّه عن ذلك بهذه الآية.[1]

١ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ١٥.

ثمّ قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فإنّهم هم الّذين يعرفون أنّه لا أحد أعدل من الله حكماً وبياناً. قال الرازيّ: اللّام في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ للبيان كاللّام في «هيت لك» أي: هذا الخطاب وهذا البيان لهؤلاء. وقال الجبّائيّ: أقيمت اللّام مقام عند وهو جائز إذا تقاربت المعاني وارتفع اللّبس قال بعضهم: إنّ الحروف يقوم بعضها مقام بعض.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

سبب النزول: قيل: إنّ عبادة بن الصامت جاء إلى رسول الله ﷺ فتبرّأ عنده من موالاته اليهود فقال عبد الله بن أبيّ: لكنّي لا أتبرّأ منهم لأنّي أخاف الدوائر فنزلت الآية. ومعنى ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تعتمدوا على الاستنصار بهم، ولا تتودّدوا إليهم وتمّ الكلام عند قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ ثمّ ابتدأ سبحانه فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ثمّ قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ قال ابن عبّاس: يريد كأنّه مثلهم وهذا تغليظ وتشديد من الله في وجوب مجانبة المخالف في الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وخصّ اليهود والنصارى بالذكر، لأنّ سائر الكفّار بمنزلتهما في وجوب معاداتهم فإنّ الكفر ملّة واحدة والله لا يهدي إلى طريق الجنّة الكفّار لكفرهم واستحقاقهم العذاب الدائم. فترى يا محمّد ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكّ ونفاق يعني

عبد الله بن أبيّ وأضرابه ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ أي: في موالاة اليهود ومناصحتهم ومعاونتهم على المسلمين قال الكلبيّ: كانوا يميرونهم ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: قائلين وهو في موضع الحال عبد الله وأصحابه كانوا يقولون ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ أي: نخاف أن يدور الدهر علينا بمكروه ـ يعنون الجدب ـ فلا يميروننا، وذلك أنّ اليهود ونصارى نجران كانوا أهل ثروة وكانوا يعينون المنافقين على مهمّاتهم ويقرضونهم والمراد من الدائرة الحوادث الهائلة.

وقيل: المراد أنّا نخشى أن لا يتمّ الأمر لمحمّدﷺ فيدور الأمر كما كان قبل ذلك فقال سبحانه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أي: يقرب أن يأتي بالفتح لرسول الله على أعدائه وإظهار المسلمين على أعدائهم والمراد من عنده تعالى يقطع أصل اليهود أو يخرجهم من بلادهم ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أي: فيصبح أهل النفاق من ولايتهم لليهود والنصارى ودسّ الأخبار إليهم نادمين إذا فتح الله على المؤمنين وكذلك إذا ما ماتوا وتحقّقوا دخول النار ندموا على ما فعلوه في الدنيا من الكفر والنفاق ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: صدقوا الله ورسوله ظاهراً وباطناً تعجباً من نفاق المنافقين وجرأتهم على الله بالإيمان الكاذبة.

وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل الحجاز والشام. والباقون بالواو وكذلك هي في مصاحف أهل العراق قال الواحديّ: وحذف الواو هاهنا كإثباتها وذلك لأنّ في الجملة ذكراً من المعطوف عليها فإنّ الموصوف بقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ هم الّذين قال فيهم المؤمنون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ فلمّا حصل في كلّ واحدة من الجملتين ذكر من الأخرى حسن العطف بالواو وبغير الواو.

ونظيره قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ

سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[١] لمّا كان في كلّ واحدة من الجملتين ذكر ما تقدّم أغنى ذلك عن ذكر الواو. ثمّ قال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[٢] فأدخل الواو يدلّ ذلك على أنّ حذف الواو وذكرها جائز وبالجملة أن المؤمنين يقولون متعجّبين من حال المنافقين عند ما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى وقالوا: إنّهم كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم إنّهم معنا ومن أنصارنا فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا؟ وانتصب ﴿جَهْدَ﴾ لأنّه مصدر أي: جهدوا جهد أيمانهم.

فقوله: أهؤلاء الّذين أقسموا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ الاستفهام إنكار ما فعلوه واستبعاد المؤمنين من فعل المنافقين واسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبره. فأقسموا بأغلظ الإيمان أنّهم لمعكم أي: أنّهم مؤمنون ومعكم في معاونتكم على أعدائكم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وضاعت أعمالهم الّتي عملوها وبطل ما أظهروه من الإيمان فلم تستحقّوا به الثواب يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين ويحتمل أن يكون من كلام الله فأصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة أمّا الدنيا فليسوا من أنصار الله وأمّا الآخرة فقرنهم الله مع الكفّار وورث المؤمنون منازلهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

قرئ يرتدد بدالين ويرتدّ بدال مشدّدة.

قال صاحب «الكشّاف»: إنّه كان أهل الردّة إحدى عشر فرقه:

١ـ سورة الكهف: ٢٢.

٢ـ سورة الكهف: ٢٢.

ثلاث في عهد رسول اللّه: بنو مدلج «و رئيسهم» ذو الخمار وهو الأسود العنبسيّ وكان كاهناً ادّعى النبوّة في اليمن واستولى على بلادها وأخرج عمّال رسول اللّه فكتب إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن فأهلكه اللّه على يد فيروز الديلميّ فقتله وأخبر جبرئيل رسول اللّه بقتله ليلة قتل؛ فسرّ المسلمون وقبض رسول اللّه من الغد، وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول.[1]

وبنو حنيفة قوم مسيلمة ادّعى النبوّة وكتب إلى رسول اللّه: من مسيلمة رسول اللّه إلى محمّد رسول اللّه أمّا بعد فإنّ الأرض نصفها لي ونصفها لك فأجابه الرسول: من محمّد رسول اللّه إلى مسيلمة الكذّاب: أمّا بعد: فإنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين. فحاربه أبو بكر بجنود المسلمين وقتل على يد وحشيّ قاتل حمزة، وكان وحشيّ يقول: قتلت خير الناس في الجاهليّة وشرّ الناس في الإسلام، أراد: في جاهليّتي وفي إسلامي.

وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد ادّعى النبوّة؛ فبعث إليه رسول اللّه خالداً فانهزم بعد القتال إلى الشام ثمّ أسلم.

وسبع في عهد أبي بكر: «فزارة» قوم عيينة بن حصن. و«غطفان» قوم قرّة بن سلمة العشيريّ. و«بنو سليم» قوم الفجأة بن عبد ياليل. و«بنو يربوع» قوم مالك بن نويرة. و«بعض بني تميم» قوم سجاح بنت المنذر الّتي ادّعت النبوّة وزوّجت نفسها من مسيلمة الكذّاب. و«كندة» قوم أشعث بن قيس. و«بنو بكر بن وائل» بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى اللّه جميعاً. و فرقة في عهد عمر: «غسّان» قوم جبلة بن الأيهم. وذلك أنّ جبلة أسلم على يد عمر وكان يطوف ذات يوم جارّاً رداءه فوطئ رجل طرف ردائه فغضب فلطمه: فتظلّم الرجل إلى عمر؛ فقضى له بالقصاص عليه إلّا أن يعفو عنه.

١ـ هذا على مذهب الجمهور من الوقوع رحلته في شهر ربيع الأول. (انظر: الكشاف).

فقال جبلة: أنا أشتريها بألف، فأبى الرجل، فلم يزل يزيد في الفداء إلى أن بلغ عشرة آلاف فأبى الرجل إلّا القصاص، فاستنظر جبلة من عمر فأنظره فهرب إلى الروم وارتدّ. قال الشاعر: (تنصّرت الأشراف من أجل لطمة).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ لمّا بيّن حال المنافقين وعلم أنّ قوماً منهم يرتدّون بعد وفاته ظاهراً أخبر بأنّه ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ﴾ الكفّار [و يرتدّ عن دينه] فليعلم أنّ الله يأتي بقوم آخرين ينصرون هذا الذين على أبلغ الوجوه وأنّه تعالى لا يخلّي دينه من أنصار يحمونه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي: رحماء على المؤمنين، غلاظ شداد على الكافرين.

قال ابن عبّاس: تراهم للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيّده وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع لفريسته يجاهدون في سبيل الله بالقتال لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ في طاعة الله واختلف في من وصف بهذه الأوصاف قيل: هم أبو بكر وأصحابه الّذين قاتلوا أهل الردّة، عن الحسن وقتادة والضحاك. وقال السدّيّ: هم الأنصار. وقال مجاهد: هم أهل اليمن قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوبا وأرقّ أفئدة الإيمان يمانيّ والحكمة يمانيّة**». وقال عياض بن غنم الأشعريّ لمّا نزلت هذه الآية أومأ رسول الله ﷺ إلى أبي موسى الأشعريّ فقال: هم قوم هذا. وقيل: إنّهم الفرس روي أنّ النبيّ ﷺ سئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق سلمان فقال: «**هذا وذووه**». ثمّ قال: «**لو كان الدين معلّقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس**».[1]

وقيل: هم أمير المؤمنين عليّ وأصحابه حين قاتل من قاتله من الناكثين والقاسطين والمارقين وهذه الرواية عن عمّار وحذيفة وابن عبّاس. وقال الطبرسيّ: وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله ويؤيّد هذا القول أنّ

١ـ رواه وما قبله مرسلاً في الجمع.

النبيّ وصفه بهذه الصفات المذكورة في الآية فقال فيه ـ وقد ندبه لفتح خيبر ـ : «**لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّاراً غير فرّار ولا يرجع حتّى يفتح الله على يده ثمّ أعطاها إيّاه**». فأمّا الوصف باللّين لأهل الإيمان والشدّة على الكفّار والجهاد في سبيل الله مع أنّه لا يخاف لومة لائم لا يمكن لعاقل أن ينكر هذا الأمر عنه عليه السلام لمّا ظهر من شدّته على أهل الشرك والكفر ومقاماته المشهورة في تشديد الدين.

ويؤيّد ذلك إنذار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريشاً بقتال عليّ عليه السلام لهم من بعده حيث جاءه سهيل بن عمرو في جماعة منهم فقالوا له: يا محمّد إن أرقّائنا لحقوا بك فارددهم علينا فقال رسول الله: «**لتنتهنّ يا معاشر قريش**» أو «**ليبعثنّ الله عليكم رجلاً يضربكم على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله**». فقال له بعض أصحابه: من هو يا رسول الله؟ أبو بكر؟ قال: «**لا**». قال: فعمر؟ قال: «**لا ولكنّه خاصف النعل في الحجرة**» وكان عليّ يخصف نعل رسول الله.[1]

وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال يوم البصرة: «**والله ما قوتل أهل هذه الآية حتّى اليوم**».[2]

وروى أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسيره بالإسناد عن الزهريّ عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**يرد عليّ قوم من أصحابي يوم القيامة فيمنعون عن الحوض فأقول: أصحابي أصحابي فيقال: إنّك لا علم لك بما أحدثوا من بعدك إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى**». وقيل: أنّ الآية عامّة في كلّ من استجمع هذه الخصال إلى يوم القيامة.

وذكر عليّ بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره أنّها نزلت في مهديّ الأمم

١ـ مجمع البيان، ج٣، ص٣٥٧؛ وانظر: الإرشاد، ج ١، ص١٢٢.

٢ـ التبيان، ج٣، ص ٥٥٦؛ ومجمع البيان، ج ٣، ص ٣٥٩.

وأصحابه وأنّها خطاب لمن ظلم آل محمّد وقتلهم وغصبهم حقّهم ويمكن أن يكون قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾ أن يكون ذلك القوم غير موجودين في وقت نزول الخطاب فهو يتناول من يكون بعدهم وبهذه الصفة إلى قيام الساعة.(١)

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الأمر من محبّتهم للّه ولين جانبهم للمؤمنين وشدّتهم على الكافرين بفضل وتوفيق ولطف منه تعالى ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعطيه من يعلم أنّه محلّ له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ جواد لا يخاف نفاد ما عنده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يكون من أهله ولا يبذله إلّا لمن يقتضي حكمته.

قال الرازيّ في تفسيره: وقال جماعة: إنّ الآية نزلت في عليّ ويدلّ عليه وجهان: الأوّل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا دفع الراية إلى عليّ عليه السلام يوم خيبر وقال: لأدفعنّ الراية غداً إلى رجل يحبّ اللّه ورسوله ويحبّه اللّه ورسوله وهذا هو الصفة المذكورة في الآية. والوجه الثاني أنّه تعالى ذكر بعد هذه قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ وهذه الآية نزلت في حقّ عليّ فكان الأولى جعل ما قبلها أيضا في حقّه.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

الوليّ: الّذي يلي تدبير الأمر يقال: فلان وليّ المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها، وفلان وليّ الدم: من كان إليه المطالبة بالقود. والسلطان وليّ أمر الرعيّة.

و يقال لمن يعيّنه لخلافته عليهم بعده: وليّ عهده، والوليّ هو الّذي يلي النصرة والمعونة ولفظة «إنّما» كلمة مخصّصة لما أثبت بعده ونافية لما لم يثبت يقول القائل لغيره: إنّما لك عندي درهم فيكون مثل أن يقول له: ليس لك عندي إلّا درهم.

١ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٥٩؛ وتفسير الصافي، ج ٢، ص٤٣.

سبب النزول: قال الطبرسيّ في «المجمع»: حدّثنا السيّد أبو الحامد مهديّ بن نزار الحسينيّ القائنيّ، قال: حدّثنا الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ، قال: حدّثني أبو الحسن محمّد بن القاسم الفقيه الصيدلاني، قال: أخبرنا أبو محمّد عبد الله بن محمّد الشعرانيّ قال: حدّثنا أبو عليّ أحمد بن عليّ بن رزين البياشانيّ قال: حدّثنا المظفّر بن الحسني الأنصاريّ قال: حدّثنا السنديّ بن عليّ الورّاق قال: حدّثنا يحيى بن عبد الحميد الحمانيّ عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن عباية بن ربعيّ قال: بينا عبد الله بن عبّاس جالس على شفير زمزم يقول: «قال رسول الله» إذ أقبل رجل متعمّم بعمامة، فجعل ابن عبّاس لا يقول: «قال رسول الله» إلّا قال الرجل: «قال رسول الله» فقال ابن: عبّاس سألتك بالله من أنت فكشف العمامة عن وجهه وقال: أيّها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدريّ أبو ذرّ الغفاريّ سمعت رسول الله بهاتين وإلّا صمّتا ورأيته بهاتين وإلّا عميتا يقول: **«عليّ قائد البررة وقاتل الكفرة منصور من نصره ومخذول من خذله»**.

أما إنّي صلّيت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيّام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء فقال: اللّهم أشهدك أنّي سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً وكان عليّ راكعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليه وكان يتختّم بها، فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين رسول الله فلمّا فرغ النبيّ من صلاته رفع رأسه إلى السماء فقال: **«اللّهم إنّ أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[1] فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿سَنَشُدُّ**

١ـ سورة طه: ٢٥ ـ ٣٢.

عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾[١] اللّهم وأنا محمّد نبيّك وصفيّك اللّهمّ فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً اشدد به ظهري».
قال أبو ذرّ: فو اللّه ما استتمّ كلامه حتّى نزل عليه جبرئيل من عند اللّه فقال: «**يا محمّد اقرأ**» قال ﷺ: «**وما أقرء؟**» قال: «**اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾**».
وروى هذا الخبر أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسيره بهذا الإسناد بعينه.[٢]

وروى أبو بكر الرازيّ في كتاب «أحكام القرآن» على ما حكاه المغربيّ عنه والرمّانيّ والطبريّ أنّها نزلت في عليّ حين تصدّق بخاتمه وهو راكع، قاله مجاهد والسدّيّ والمرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه وجميع علماء أهل البيت وقال الكلبيّ: نزلت في عبد اللّه بن سلام وأصحابه لمّا أسلموا فقطعت اليهود موالتهم نزلت الآية وفي رواية عطا: قال عبد اللّه بن سلام: يا رسول اللّه أنا رأيت عليّاً يتصدّق بخاتمه وهو راكع ونحن نتولّاه.[٣]

وقد رواه السيّد أبو الحامد عن أبي القاسم الحسكانيّ بالإسناد المتّصل المرفوع إلى أبي صالح عن ابن عبّاس قال: أقبل عبد اللّه بن سلام ومعه نفر من قومه ممّن قد آمنوا بالنبيّ ﷺ فقالوا يا رسول اللّه إنّ منازلنا بعيدة وليس لنا مجلس ولا متحدّث دون هذا المجلس وإنّ قومنا لمّا رأونا آمنّا باللّه ورسوله وصدّقناه رفضونا وآلوا على نفوسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلّمونا فشقّ ذلك علينا فقال لهم النبيّ ﷺ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾ ثمّ إنّ النبيّ خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع فبصر بسائل فقال ﷺ: «**هل أعطاك أحد شيئاً؟**» فقال: نعم خاتم من فضّة فقال النبيّ: «**من أعطاكه؟**» قال:

١ـ سورة القصص: ٣٥.
٢ـ مجمع اللبيان ،ج ٣، ص ٣٦١؛ وتفسير الثعلبي، ج ٤، ص ٨٠؛ وانظر: بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ١٩٤.
٣ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٣٦٢؛ وراه المجلسي في البحار، ج٣٥، ص١٩٦.

ذلك القائم ـ وأشار بيده إلى عليّ ـ فقال النبيّ: «على أيّ حال أعطاك؟» قال: أعطاني وهو راكع فكبّر النبيّ ﷺ ثمّ قرأ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.(١) وفي حديث إبراهيم بن الحكم من ظهير ما يقرب هذا ولا حاجة إلى الإطالة.

المعنى: بيّن سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من له الولاية على الخلق والقيام بأمورهم ويجب طاعته عليهم فقال: وليّكم الّذي ينبغي أن يتولّى مصالحكم هو الله ورسوله يفعله بأمره ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم وصف الّذين آمنوا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بشرائطها ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ أي: ويعطون ﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ أي: في حال الركوع وقوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ لا يجوز جعله عطفاً على ما تقدّم لأنّ الصلاة قد تقدّمت والصلاة مشتملة على الركوع فكانت إعادة ذكر الركوع تكراراً فوجب جعله حالاً أي: يؤتون الزكاة حال كونهم راكعين. وأجمعوا على أنّ إيتاء الزكاة حال الركوع لا يكون إلّا في حقّ عليّ وتظاهرت الروايات على أنّ الآية نزلت في حقّ عليّ.

ولفظ الوليّ في هذه الآية لا يجوز أن يكون بمعنى الناصر لأنّ الولاية المذكورة في الآية غير عامّة في كلّ المؤمنين بدليل أنّه تعالى ذكر بكلمة إنّما وكلمة إنّما للحصر لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ والولاية بمعنى النصرة عامّة لقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وهذا يوجب القطع بأنّ الولاية المذكورة في هذه الآية ليست بمعنى النصرة وكانت بمعنى التصرّف في الأمور فصار معنى الآية: إنّما المتصرّف في أموركم أيّها المؤمنون هو الله ورسوله والمؤمنون الموصوفون بالصفة الفلانيّة ويجب أن يكون الموصوف

١ـ رواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٣٤؛ والآلوسي في تفسيره، ج ٦، ص ١٦٧؛ والمجلسي في البحار، ج ٣٥، ص ١٩٦.

بهذه الصفة إمام الامّة ومتصرّفاً في كلّ الأمور فثبت بهذه الآية إمامة شخص موصوف بهذه الصفة وقد تظاهرت الروايات على أنّ الآية نزلت في عليّ فكانت الآية مخصوصة به ودالّة على إمامته.

قال الطبرسيّ: وفي الآية دلالة على أنّ الولاية مختصّة به عليه السلام قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ فخاطب جميع المؤمنين ودخل في الخطاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وغيره ثمّ قال: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فأخرج النبيّ من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته ثمّ قال: «الَّذِينَ آمَنُوا» فوجب أن يكون الّذي خوطب بالآية غير الّذي جعلت له الولاية وإلّا أدّى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه وإلى أن يكون كلّ واحد من المؤمنين وليّ نفسه وذلك باطل، قاله الواحديّ.

واستدلّ أهل العلم بهذه الآية على أنّ العمل القليل لا يقطع الصلاة، وأنّ دفع الصدقة إلى السائل في الصلاة جائز مع نيّة القربة.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ﴾ بالقيام بطاعته ﴿وَرَسُولَهُ﴾ باتّباع أوامره ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ باتّخاذهم أولياء ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ كأنّه قيل: ومن يتولّ هؤلاء فهو حزب اللّه وجنده وحزب اللّه هم الغالبون. وإضافتهم إليه تعالى تشريف لهم وتعريض بأنّ من يوالي غير هؤلاء فإنّه حزب الشيطان. والحزب: الطائفة يجتمعون لأمر.

روي أنّ اللّه تعالى شكا من هذه الأمّة ليلة المعراج شكايات: منها: «**إنّي لم أكلّفهم عمل الغد وهم يطلبون منّي رزق الغد**».

ومنها: «**إنّي لا أرفع أرزاقهم إلى غيرهم وهم يرفعون عملهم إلى غيري**».

والثالثة: «**أنّهم يأكلون رزقي ويشكرون غيري ويخونون معي ويصالحون خلقي**».

والرابعة: «أنّ العزّة لي وأنا المعزّ وهم يطلبون العزّة من سواي».[١]

والخامسة: «أنّي خلقت النار لكلّ كافر وهم يجتهدون أن يوقعوا أنفسهم فيها».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

نهى سبحانه بالنهي العامّ عن اتّخاذ الكفار أولياء. قرأ أبو عمرو والكسائيّ الكفّار في الآية بالجرّ عطفاً على قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: ومن الكفّار والباقون بالنصب عطفاً على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ بتقدير ولا الكفّار.

سبب النزول: قيل: كان رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الإيمان ثمّ نافقا وكان رجال من المسلمين يوادّونهما فأنزل الله فيهم الآية. وهذه الآية تقضي امتياز أهل الكتاب عن الكفّار لأنّ العطف يقتضي المغايرة وقوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٢] صريح في كونهم كفّاراً وطريق التوفيق بينهما أنّ كفر المشركين أعظم وأغلظ ولهذا تخصّصوا باسم الكفر.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ ومعنى اتّخاذهم دين المسلمين مهزوءاً به إظهارهم باللّسان مع الإصرار على الكفر بالقلب وقد رتّب النهي عن موالاتهم فإنّ من هذا شأنه ينبغي أن يعاديه لا أن يواليه.

قيل: كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة لتنفر الناس عنها وكان بعض الكفّار يقولون: يا محمّد لقد أبدعت شيئاً لم يسمع فيما مضى فإن كنت نبيّاً فقد خالفت فيما أحدثت جميع الأنبياء فمن أين لك صياح

١ـ لم نعثر عليها فيما بأيدينا من المصادر.

٢ـ سورة البيّنة: ١.

كصياح العير؟[1] فأنزل الله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ الآية؛ ولمّا كان منادي رسول الله ينادي للصلاة وقيام المسلمون إليها قالت اليهود: قاموا لا قاموا، صلّوا لا صلّوا على طريق الاستهزاء.

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ من سائر طبقات أهل الكفر ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أخلّاء وبطانة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في موالاتهم بعد النهي عنها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بوعده ووعيده فكيف يرضى المؤمن موالاة من يطمع في الدين؟ بل لابدّ وإن يكافيه بالمقت والعداوة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لو كان لهم عقل كامل لعلموا أنّ تعظيم الخالق المنعم وامتثال أوامره من أحسن الأعمال وأشرف الأفعال كما قيل: أشرف الحركات الصلاة وأنفع السكنات الصيام.[2]

قال السدّي: كان رجل من النصارى بالمدينة وكلّما سمع المؤذّن ينادي: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله يقول: احرق الكاذب فدخلت خادمته بنار ذات ليلة فتطايرت شرارة منها في البيت فأحرقت البيت واحترق هو وأهله.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾

ولمّا حكى سبحانه عنهم أنّهم اتّخذوا دين الإسلام لعباً وهزواً قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ما الّذي تنقمون من هذا الدين وتجدون فيه ممّا يوجب اتّخاذه هزواً؟

١ـ العير: بالفتح فالسكون، بمعني الحمار الأهلي أو الوحشي.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٢،ص٣٣.

يقال: نقمت الشيء إذا كرهته وأنكرته بكسر القاف وفتحها والفصيح: الكسر.

سبب النزول: روي أنّ نفراً من اليهود سألوا رسول الله عن دينه فقال ﷺ: **«أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»** فحين سمعوا ذكر عيسى قالوا: لا نعلم أهل دين أقلّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شرّاً من دينكم فأنزل الله هذه الآية بأن الإيمان بالله والإيمان بجميع الأنبياء ليس مما ينقم فلم تنقموه علينا؟ ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ عطف على ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾ أي: خارجون أنتم عن الدين لأنكم لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحّة كتابنا وديننا لآمنتم به وإسناد الفسق إلى أكثرهم مع أن كلّهم فاسقون لأنّهم الحاملون لأعقابهم على التمرّد والفساد[1] أو أنّ قليلاً منهم آمنوا. و اعلم أنّ قراءة العامّة: أنّ بفتح الألف. وقرأ نعيم بن ميسرة: «أن» بالكسر فقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ يدلّ على سبيل التعريض إنّهم لم يتّبعوهم فكان المعنى: وما تنقمون منّا إلّا أن آمنّا وما فسقنا مثلكم أو يكون المراد أنّه لمّا ذكر تعالى ما ينقم اليهود عليهم من الإيمان بجميع الرسل وليس ذلك ممّا ينقم ذكر في مقابلته فسقهم وهو ممّا ينقم، ومثل هذا حسن في صنعة الازدواج كقول القائل: هل تنقم منّي إلّا أنّي عفيف وأنّك فاجر وأنّي فقير وأنّك غني؟ ويحسن هذا المعنى على سبيل المقابلة. ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع أي: وما تنقمون منّا إلّا الإيمان بالله مع أنّ أكثركم فاسقون أو يكون التقدير: وما تنقمون منّا إلّا بأن آمنّا بالله وبسبب فسقكم نقمتم الإيمان علينا، ولأجل أنّ أكثركم فاسقون تنقمونا فيكون تعليل معطوف على تعليل محذوف، ويكون التقدير: وما تنقمون منّا إلّا

١ـ فالأعقاب قبل انحرافهم عن الحق، ليسوا بفاسقين، فهم الأقلون في مقابل هذه الأكثرين الفاسقين. هذا ولا ريب أن الوجه الثاني أقرب.

الإيمان لقلّة إنصافكم ولأجل أنّ أكثركم فاسقون، والمعاني كلّها متقاربة وحاصل التقادير أنّ السبب في نقمتكم إيّانا إيماننا وفسقكم.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)﴾

أمر سبحانه نبيّه أن يخاطب المستهزئين من اليهود والكفّار فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿هَلْ﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن﴾ أهل ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدين وممّا ينقم في إيماننا ﴿مَثُوبَةً﴾ أي: ثوابا وجزاء والتقدير: إن كان ذلك عندكم شرّاً فأنا أخبركم بشرّ منه عاقبة عند الله ولابدّ من حذف المضاف فمعنى ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: بشرّ من أهل ذلك لأنّه قال: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ ولا يقال: الملعون شرّ من ذلك الدين بل يقال: إنّه شرّ ممّن له ذلك الدين.

فإن قيل: فهذا يقتضي كون الموصوفين بذلك الدين محكوماً عليهم بالشرّ ومعلوم أنّه ليس كذلك. فالجواب أنّه إنّما خرج الكلام على حسب زعمهم واعتقادهم فإنّهم حكموا بأنّ دينهم شرّ فقيل لهم: هب أنّ الأمر كذلك ولكن من لعنه الله وغضب ومسخه شرّ من ذلك كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1] ومثوبة نصب على التمييز، ووزنها مفعلة مثل مقولة وهو بمعنى جزاء وقد جاءت مصادر على مفعول كالميسور.

فإن قيل: المثوبة مختصّة بالإحسان فكيف جاءت في الإساءة؟ فالجواب أنّه بطريق قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] ومثل قولهم: تحسنه بينهم ضرب وجيع.

﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ في محلّ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف فإنّه لمّا

١ـ سورة سبأ: ٢٤.

٢ـ سورة التوبة: ٣٤.

قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ فكأنّ قائلاً قال: من ذلك؟ فقيل: هو من لعنه الله ونظيره قوله تعالى: قل ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾[1] معناه هو النار فكذلك هنا ويجوز أن يكون في محلّ الخفض بدلاً من شرّ والمعنى أنبّئكم بمن لعنه الله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بفسقه وكفره والمراد من غضبه عليه: أراده العقوبة به أو الاستخفاف بأن ضرب عليهم الذلّة والجزية﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي: مسخهم قردة وخنازير. قال المفسّرون: يعني بالقردة أصحاب السبت، وبالخنازير: كفّار مائدة عيسى. قال ابن عبّاس: إنّ المسخين من أصحاب السبت لأنّ شبابهم مسخوا قردة وشيوخهم خنازير.[2]

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قال الزّجاج: هو عطف نسق على ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: من لعنه الله ومن عبد الطاغوت. ذكر صاحب «الكشّاف» في قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أنواعا من القرءات وكذلك صاحب المجمع للطبرسيّ قال: قرأ حمزة: وعبد الطاغوت بضمّ الباء وجرّ التاء في طاغوت، والباقون من القرّاء السبع وعبد الطاغوت بفتح الباء ونصب التاء. وقرأ أبيّ: وعبدوا الطاغوت. وقرأ ابن مسعود: ومن عبدوا الطاغوت وعابد الطاغوت عطفاً على القردة. وقرء: وعابدي الطاغوت. وقرء: وعبّاد الطاغوت. ورواية عكرمة عن ابن عبّاس.

و عبّد الطاغوت بتشديد الباء وفتح الدال وخفض التاء. وقرأ أبو جعفر الرواسيّ: وعبد الطاغوت على المجهول، ورواية علقمة عن ابن مسعود: وعبد الطاغوت على وزن صرد والمشهور منها: وعبد الطاغوت بفتح الباء ونصب التاء في الطاغوت. وقرء غير هذه القراآت لا حاجة في الإطالة بذكرها.[3]

١ـ سورة الحج: ٧٢.

٢ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٧٠؛ وتفسير الرازي، ج ١٢، ص ٣٦.

٣ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٧٠.

وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ احتجّت الأشاعرة بهذه الآية على أنّ الكفر بقضاء الله قالوا: هو الّذي جعل فيهم تلك العبادة. لكنّ هذا القول بمعزل عن القبول ولا تعلّق لهم بهذه الآية بل معنى الآية حكم عليهم بذلك ووصفهم به مثل قوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾[1] ولا شبهة في أنّه تعالى غير ظالم لعباده وأكثر ما تضمّنته الأخبار أنّ معنى جعل: خلق، أي: خلق من يعبد الطاغوت وهو على قراءة حمزة وغيره ممّن قرأ عباداً وعباد ولا شبهة في أنّه خلق الكافر وأنّه لا خالق للكافر سواه غير أنّه لا يوجب أن يكون خلق كفره وجعله كافراً وليس لهم أن يقولوا: إنّا نستفيد من قوله: وجعل منهم من عبد الطاغوت أنّه خلق ما به كان عابداً كما نستفيد من قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أنّه جعل ما به كانوا كذلك بل لأنّ الدليل قد دلّ على أنّ ما به يكون القردة قردة والخنزير خنزيرا لا يكون إلّا من فعل الله وليس كذلك ما به يكون الكافر كافراً فإنّه قد ثبت أنّه سبحانه يتعالى عن ذلك فافترق الأمران ثمّ قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: هؤلاء الّذين وصفهم الله باللّعنة والغضب شرّ مكاناً لأنّ مكانهم سقر ولا شرّ في مكان المؤمنين وهذا نظير قوله: ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾[2] [3].

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: هم أبعد من النجاة والطريق المستقيم قال المفسّرون: لمّا نزلت هذه الآية عيّر المسلمون أهل الكتاب وقالوا: يا إخوان القردة والخنازير فنكسوا رؤوسهم.

١ـ سورة الزخرف: ١٩.

٢ـ سورة الفرقان: ٢٤.

٣ـ مجمع البيان، ج ٣ ،ص٣٧٠؛ وتفسير الرازي، ج ١٢، ص٣٦.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ
ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

سبب النزول: نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على الرسول ويظهرون له الإيمان نفاقاً فأخبره الله تعالى بشأنهم بأنّهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا لم يتعلّق بقلبهم شيء من دلائلك وتذكيراتك والباء في قوله: ﴿دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ﴾ وخرجوا به تفيد بقاء الكفر معهم حالتي الدخول والخروج من غير نقصان ولا تغيّر فيه البتّة كما تقول: دخل زيد بثوبه وخرج به.

و الفائدة في ذكر كلمة «قد» تقريب الماضي من الحال والفائدة في ذكر كلمة «هم» بيان إضافة الكفر إليهم ونفي أن يكون من النبيّ في ذلك فعل ولم يسمعوا منك يا محمّد عند جلوسهم معك ما يوجب كفراً بل هم الّذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم.

قالت المعتزلة: أنّه تعالى أضاف الكفر إليهم حالتي الدخول والخروج على سبيل الذمّ وبالغ في تقرير تلك الإضافة بقوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ فدلّ هذا على أنّه من العبد لا من الله قال الرازيّ: والجواب المعارضة بالعلم والداعي.

أقول: هذا الجواب منه أضعف من حجّة نحويّ لأنّه من أين ثبت أنّ العلم من الله بكفرهم يوجب ويستلزم كفرهم؟ ومن أين ثبت هذه الملازمة؟ فلو كان العلم مستلزماً لوقوع الأمر فلابدّ أن نقول: إنّ من يعلم أنّ زيداً يموت غداً أو يبرأ من مرضه فيقول: إنّ زيداً هو الّذي أماته أو أبرأه من مرضه فلذلك علمه تعالى بحال خلقه. وأمّا مسألة الداعي فلو كان الداعي غير مقدور الترك فالأمر كذلك لكنّ الداعي مقدور الترك فوجود الداعي غير

مستلزم للفعل فلم يقع الملازمة وبقي الاختيار وبطل الجبر فتأمّل.

المعنى: أخبر الله عن هؤلاء المنافقين بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي: دخلوا وخرجوا كافرين والكفر معهم في كلتا الحالتين. أكد الكلام بالضمير تمييزاً لهم عن غيرهم بهذه الصفة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ من نفاقهم إذ أظهروا بألسنتهم ما أضمروا خلافه في قلوبهم ثمّ بيّن الله خصالاً أخر ذميمة فقال: ﴿وَتَرَىٰ﴾ يا محمّد ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ قيل: المراد بالكثير رؤساؤهم وعلماؤهم ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ والفرق بين الإثم والعدوان أنّ الإثم الجرم كائناً ما كان، والعدوان الظلم وقيل: الإثم: الكذب، والعدوان: ما يتعدّى إلى الغير ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي: الحرام والرشوة وقد مرّ تفسير السحت.[1]

قال أهل المعاني: إنّ لفظ المسارعة يستعمل في أكثر الأمر في الخير فكان اللّائق بهذا الموضع لفظ العجلة لأنّها من الشيطان إلّا أنّه تعالى ذكر لفظ المسارعة لبيان أنّهم يقدمون على هذه المنكرات كأنّهم محقّون فيه ثمّ قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس العمل عملهم ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ أي: هلّا ينهاهم والكناية في ضمير «هم» يعود إلى الكثير. قال الحسن: الربّانيّون علماء أهل الإنجيل، والأحبار علماء أهل التوراة والنسبة إلى الربّ من حيث اتّصافهم وتخلّقهم بأخلاق الله كما تقول: روحانيّ بالنسبة إلى الروح وبحرانيّ بالنسبة إلى البحر وبّخهم الله بتركهم النهي عن منكر قومهم ﴿وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ وهو كلّ قول قالوه بخلاف الحقّ من الخرافات وغيرها أو قولهم: آمنّا وليسوا بمؤمنين ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي: الحرام مع

١ـ سورة ص: ٢١.

علمهم بقبحها ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ هو أبلغ من قوله: لبئس ما كانوا يعملون لأنّ الصنع أقوى من العمل فإنّ العمل إنّما يسمّى صناعة إذا صار مستقراً راسخاً متمكّناً.

قال الحقّي: جعل سبحانه معصية من عمل الإثم والعدوان وأكل السحت ذنباً غير راسخ وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنباً راسخاً. وفي الآية ما ينبغي على بعض العلماء من توانيهم عن المنكرات ما لا يخفى قال أمير المؤمنين في النهج: «**لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به**». وقيل: إنّ الله لا يعذّب العامّة بعمل الخاصّة ولكن إذا أظهروا المعاصي فلم ينكروا استحقّ القوم جميعاً للعقوبة. ولو لا حقيقة هذا الأمر في التوبيخ على العلماء والمشايخ في ترك النصيحة ثابتة لما اشتغل الأخصّون المخلصون بدعوة الخلق وتربيتهم فليكن المربّي متربياً في الأمور، بصيراً بالطريق، لا أن يكون هو أضلّ من المهتدين ويحسب أنّه يحسن صنعاً وهو من الأخسرين.

قال الطبرسي: وفي هذه الآية دلالة على أنّ تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه بل أسوأ، ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1] لأنّه تعالى ذمّ الفريقين في هذه الآية بلفظ بئس ولكن قال في المقدمين على الإثم: لبئس العمل عملهم وقال في التاركين: لبئس الصنع صنعهم وقد شرحنا الفرق بين العمل والصنع قبل هذا.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ

١ـ مجمع البيان، ج٣، ص٣٧٣.

وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

إنّ اللّه حكى عنهم أنّهم قالوا هذا الكلام الركيك الفاسد، وترى اليهود أنّهم متّفقون على أنّا لا نقول ذلك وهو أصدق القائلين في كلّ ما أخبر عنه فكيف يكون هذا الإشكال؟ قال المفسّرون: إنّ اللّه قد بسط على اليهود حتّى كانوا أكثر الناس مالاً وأخصبهم ناحية، فلمّا عصوا اللّه في أمر محمّد ﷺ وكذّبوه، كفّ اللّه عليهم ما بسط عليهم من السعة فقال عند ذلك فنحاص بن عازورا: يد اللّه مغلولة. قال أهل المعاني: إنّما قاله فنحاص ولم ينهه الآخرون فلمّا رضوا بقوله فأشركهم اللّه في ذلك، عن ابن عبّاس.

وقيل: معناه: يد اللّه مكفوفة عن عذابنا فليس يعذّبنا إلاّ يبرّ به قسمه قدر ما عبد آباؤنا العجل، عن الحسن. وقيل: إنّه استفهام وتقديره: أيد اللّه مغلولة عنّا حيث قتر المعيشة علينا؟[1] قال الرازيّ: لعلّ القوم إنّما قالوا هذا على سبيل الإلزام فإنّهم لمّا سمعوا قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[2] قالوا: لو احتاج إلى القرض لكان فقيراً عاجزاً والإله الّذي يستقرض شيئاً من عباده لا جرم مغلول اليدين ممسكة فحكى اللّه عنهم هذا الكلام.[3]

وقال البلخيّ: ولعلّه كان فيهم من كان على مذهب الفلاسفة وهو أنّه موجب لذاته وأنّ حدوث الحوادث عنه لا يمكن إلّا على نهج واحد وسنن واحد، وأنّه غير قادر على إحداث الحوادث على غير الوجوه الّتي عليها يقع مثل قولهم: الواحد لا يصدر منه إلّا الواحد، فعبّر اليهود عن عدم الاقتدار على

١ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٣٧٧؛ والكشاف، ج ١، ص٦٢٨؛ وتفسيرالثعلبي، ج ٤، ص ٨٧.

٢ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٣٧٧؛ والكشاف، ج ١، ص٦٢٨؛ وتفسيرالثعلبي، ج ٤، ص ٨٧.

٣ـ تفسير الرازي ،ج١٢، ص ٤٠.

التغيّر والتبديل بغلّ اليد.[١] فثبت أنّ هذه الحكاية صحيحة على كلّ هذه الوجوه وغلّ اليد مجاز مشهور عن البخل وبسطها عن الجود ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[٢] والسبب والعلاقة فيه أنّ اليد آلة لدفع المال فأطلقوا اسم السبب على المسبّب.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بعدم القدرة والمكنة علّمنا الله أن ندعو عليهم بهذا الدعاء، أي: أمسكت أيديهم عن الإنفاق في الخير. واليهود أبخل الناس ولا أمّة أبخل منهم. وقال الحسن: هذا الكلام إخبار من الله أي: غلّت أيديهم في نار جهنّم على الحقيقة وشدّت إلى أعناقهم جزاء لهم على هذا القول. وحذف فاء التعقيب مثل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[٣] ولم يقل: فقالوا أتتخذنا هزواً، والحذف لفائدة وهي أنّه لمّا حذف كان قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ كالكلام المبتدأ به وكون الكلام مبتدأ به يزيده قوّة ووثاقة لأنّ الابتداء بالشيء يدلّ على قوّة الاهتمام والاعتناء بتقريره ﴿وَلُعِنُوا﴾ أي: ابعدوا من رحمة الله [بـ] سبب [ما قالوا] كلمة الشنعاء ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي: ليس شأنه تعالى كما وصفتموه بل هو موصوف بغاية الجود والإحسان، وهذا المعنى يستفاد من تثنية اليد فإنّ غاية ما يبذله السخيّ من ماله أن يعطيه بيديه جميعاً، ويد الله من المتشابهات وليس المراد أنّ له عضواً ويداً تعالى عن ذلك! بل هي صفة من صفاته كالسمع والبصر والوجه. ويداه في الحقيقة عبارة عن صفاته الجماليّة والجلاليّة. وفي الحديث: «**كلتا يديه يمين**».

١ـ نفس المصدر السابق، ص ٤١.

٢ـ سورة الإسراء: ٢٩.

٣ـ سورة البقرة: ٦٧.

﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ مختار في إيقاعه يوسّع تارة ويضيّق أخرى على حسب مشيئته وحكمته.

قال الرازيّ: وقالت المجسّمة في معنى يد الله: أنّها عضو جسمانيّ كما في حقّ كلّ أحد، واحتجّوا عليه بقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1] وجه الاستدلال أنّه تعالى قدح في إلهيّة الأصنام لأجل أنّها ليس لها شيء من هذه الأعضاء فلو لم يحصل لله هذه الأعضاء لزم القدح في كونه إلها ولمّا بطل ذلك وجب إثبات هذه الأعضاء، وقالوا أيضا: اسم اليد موضوع لهذه العضو فحمله على شيء آخر ترك اللّغة وإنّه لا يجوز فالجواب في إبطال هذا القول السخيف مبنيّ على أنّه تعالى ليس بجسم والدليل عليه أنّ الجسم لا ينفكّ عن الحركة والسكون ولأنّ كلّ جسم مؤلّف من الأجزاء وكلّ ما كان كذلك يكون قابلاً للتركيب والانحلال ومفتقر إلى ما يركّبه ويؤلّفه وكلّ ما كان كذلك فهو محدث والحركة والسكون محدثان وما لا ينفكّ عن المحدث فهو محدث فثبت أنّه يمتنع كونه جسماً فيمتنع أن تكون يده عضواً جسمانيّاً.[2]

قال الطبرسيّ: وإنّما قال: يداه على التثنية في الآية مبالغة في معنى الجود والإنعام لأنّ ذلك أبلغ من أن يقول: بل يده مبسوطة أو المراد باليد النعمة فيكون الوجه في تثنية النعمة أنّه أراد نعمة الدنيا ونعم الآخرة فمن حيث اختص كلّ منهما بصفة يخالف صفة الاخرى كأنّهما جنسان أو أريد بهما النعم الظاهرة والباطنة.[3]

١ـ سورة الأعراف: ١٩٥.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٢،ص ٤٢.

٣ـ مجمع البيان، ج ٣، ص٣٧٨.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم و﴿كَثِيرًا﴾ مفعول أوّل ليزيدنّ ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن وما فيه من الأحكام وهو فاعل يزيدنّ ﴿طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ مفعول ثان للزيادة أي: ليزيدنّهم طغياناً على طغيانهم وكفراً على كفرهم القديمين إمّا من حيث الشدّة والغلوّ وإمّا من حيث الكمّ والكثرة إذ كلّما نزلت آية كفروا بها فيزدادوا في الطغيان والعناد كما أنّ الطعام الصالح للأصحاء يزيد المرضى مرضا ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ أي: بين اليهود فإنّ بعضهم جبريّة وبعضهم قدريّة وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبّهة أمّا الجبريّة فهم الّذين ينسبون فعل العبد إلى اللّه ويقولون لا فعل للعبد أصلا ولا اختيار وحركته حركة الجمادات. وأمّا القدريّة فهم الّذين يزعمون أنّ كلّ عبد خالق لفعله والمرجئة هم الّذين لا يقطعون على أهل الكبائر بشيء من العفو أو العقوبة بل يرجعون[1] في ذلك ويؤخّرونه إلى يوم القيامة والمشبّهة هم الّذين شبّهوا اللّه تعالى بالمخلوقات ومثّلوه بالمحدثات وقيل: المراد من قوله: وألقينا بينهم أي: بين اليهود والنصارى من العداوة لأنّه جرى ذكرهم في قوله: لا تتّخذوا اليهود والنصارى وهو قول الحسن ومجاهد. وكذلك بين فرق النصارى كالملكائيّة والنسطوريّة واليعقوبيّة ومعنى ألقينا أي: خلّينا بينهم وبين اختياراتهم الفاسدة حيث لم يقبلوا الصلاح فوقعت﴿ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ بينهم باستحقاقهم ذلك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ وهذا شرح آخر من انواع محن اليهود وهو أنّهم كلّما همّوا بأمر من الأمور، رجعوا خائبين، مقهورين وكلّما قصدوا لحرب محمّدﷺ، عن الحسن ومجاهد وفي هذا دلالة ومعجزة لأنّ اللّه أخبرهم فوافق خبره المخبر، وقد كانت اليهود أشدّ

١ـ كذا في الأصل: والظاهر: يرجؤون

أهل الحجاز بأساً وأمنعهم داراً حتّى أنّ قريشاً كانت تعضد بهم والأوس والخزرج لا يستبق إلى مخالفتهم وتتكثّر بنصرتهم فأبادهم الله واجتثّ أصلهم واستأصل شافتهم فأجلى النبي ﷺ بني النضير وبني قينقاع وقتل بني قريظة وشرد أهل خيبر وغلب على فدك ودان له أهل وادي القرى ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: ليس يحصل في أمرهم منفعة وقوة إلّا أنهم يسعون في الأرض بالفساد وذلك بأن يتّخذوا عضواً ضعيفاً ويستخرجوا نوعاً من المكر والكيد على سبيل الخفية قيل: أنّهم لمّا خالفوا حكم التوراة سلّط عليهم بخت نصّر ثمّ أفسدوا فسلّط عليهم بطرس الروميّ ثم أفسدوا فسلّط عليهم المسلمين ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومعلوم أنّ الساعي في الأرض بالفساد ممقوت عند الله.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

لمّا بالغ في تهجين طريقتهم وذمّهم بيّن أنّهم لو آمنوا واتّقوا أي: آمنوا بمحمّد واتّقوا الكفر والمعاصي لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا، أمّا سعادات الآخرة محصورة في نوعين: رفع العقاب والثاني إيصال الثواب أمّا رفع العقاب فهو المراد بقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ وأمّا إيصال الثواب فهو المراد بقوله: ﴿وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: ذوات النعمة قال الحقّي: وفي الآية تنبيه على أنّ الإسلام يجبّ ما قبله وإن جلّ وأنّ الكتابيّ لا يدخل الجنّة ما لم يسلم.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ لمّا ذكر سبحانه أنّهم لو آمنوا لفازوا

بسعادات الآخرة بيّن في هذه الآية أنّهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الدنيا ووجدوا طيّباتها وخيراتها. والمراد من إقامة التوراة الّتي كلّفهم اللّه بها أن يعملوا بما فيها من أحكامها وممّا يشتمل على الدلائل الدالّة على نبوّة محمّد وبعثته وقيل: المراد إقامة أحكامها وحدودها كما يقال: أقام الصلاة إذا قام بحقوقها ولا يقال لمن لم يوف بشرائطها أنّه أقامها أو المعنى: أقاموها نصب أعينهم لئلّا يزلّوا في شيء منها. وهذه المعاني متقاربة ويرجع إلى معنى واحد وأمّا قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ قيل: المراد منه القرآن وكتب سائر الأنبياء مثل كتاب شعيا، ومثل كتاب حيقوق وكتاب دانيال وكلّ ما دلّ اللّه عليه من أمور دينهم فإنّها مملوءة من البشارة بمقدم محمّدﷺ ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ بإرسال السماء عليهم مدراراً ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ بإعطاء الأرض خيرها وبركتها، أو المراد لأكلوا أثمار النخيل والأشجار من فوقهم والزرع من تحت أرجلهم.

وقيل: المعنى: لتركوا في ديارهم ولم يجلوا من بلادهم ولم يقتلوا وكانوا يتمتّعون بأموالهم وثمارهم وزروعهم. وإنّما خصّ الأكل لأنّ ذلك معظم الانتفاع وقيل معنى آخر في قوله: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ وهو التوسعة كما يقال: فلان في النعمة والخير من قرنه إلى قدمه أي: يأتيه الخير من كلّ جهة يلتمسه منها. قال الرازي: إنّ اليهود لمّا أصرّوا على تكذيب محمّدﷺ أصابهم القحط والشدّة إلى حيث قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾

فاللّه تعالى بيّن أنّهم لو تركوا الكفر لانقلب الأمر وحصل الخصب والسعة[1] قوله: ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞ﴾ أي: من هؤلاء قوم معتدلون في العمل من غير غلوّ ولا تقصير وانحراف يعرفون موضع مقصوده ليس بمتحيّر حتّى

١ـ تفسير الرازي ،ج ١٢، ص ٤٧.

يذهب تارة يميناً وتارة شمالاً. قال أبو عليّ الجبّائي: هم الّذين أسلموا منهم مثل عبد اللّه بن سلام وأصحابه وبايعوا النبيﷺ وهو المرويّ في تفسير أهل البيت. وقيل: يريد بهم النجاشيّ وأصحابه.

وقيل: إنّهم قوم لم يناصبوا النبيّ مناصبة هؤلاء. قال الطبرسيّ: ويحتمل أن يكون أراد بهم من يقرّ منهم بأنّ المسيح عبد اللّه ولا يدّعي فيه الإلهيّة ويكون عدلاً في دينه ولو أنّه كان كافراً لكن لا يكون فيه غلظة كاملة وعناد(١) ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ والمراد الأخلاف المذمومون المبغوضون منهم. وفي الآية معنى التعجّب كأنّه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم! وهم الّذين يقيمون على الكفر والجحود بمحمّدﷺ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

قرأ نافع رسالاته على الجمع وابن عامر وأبو بكر بن عاصم أيضاً على الجمع والباقون على الأفراد. حجّة من قال بالجمع أنّه أنّ الرسل يبعثون بضروب من الرسالات وأحكام مختلفة في الشريعة وكلّ آية أنزلها اللّه على رسوله فهي رسالة فحسن لفظ الجمع. وأمّا من أفرد فقال: القرآن كلّه رسالة واحدة، وأيضا فإنّ لفظ الواحد قد يدلّ على الكثرة وإن لم يجمع كقوله: ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فوقع الاسم الواحد على الجمع وكذا هاهنا لفظ الرسالة وإن كان واحداً إلّا أنّ المراد هو الجمع.(٢)

وذكر المفسّرون في سبب النزول وجوهاً، قال الحسن: إنّ اللّه بعث النبيّﷺ برسالته ضاق بها ذرعاً وكان يهاب قريشاً فأزال اللّه بهذه الآية تلك

١ـ انظر: إلى التبيان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٥٧٩؛ ومجمع البيان ،ج٣ ،ص٣٨٠.

٢ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص٤٨.

الهيبة عن قلبه.[١] وذكر الرازيّ في تفسيره عشرة وجوهاً إلى أن قال: العاشر: نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب قال: ولمّا نزلت هذه الآية أخذﷺ بيد عليّ وقال: «**من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه**» فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي: ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة، قال الرازيّ: وهو قول ابن عبّاس والبراء بن عازب ومحمّد بن عليّ، قال الرازيّ: واعلم أنّ هذه الروايات وإن كثرت إلّا أنّ الأولى حمله على أنّه تعالى أمنه من مكر اليهود والنصارى وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالات منه بهم وذلك لأنّ ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لمّا كان كلاما مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه يكون أجنبيّة عمّا قبلها وما بعدها.[٢]

أقول: ما أبعد هذا الاستحسان الّذي استحسنه هذا الفاضل عن القبول! حيث يقول: لمّا كان ما قبل هذه الآية وما بعدها كلاماً مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبيّة» والحال أنّ هذه نزلت في حجّة الوداع وقد كان أمرهﷺ قد تمّ مع اليهود والنصارى لا يهابهم أصلا بل كانوا جميعاً يهابوه وكان يأخذ منهم الجزية، فلو كان خائفاً من اليهود والنصارى ولم يك مأموناً منهم فكيف حملهم على الجزية والذلّ والاستصغار؟ فهذا الكلام من مثل هذا الفاضل بمعزل عن القبول، نعم كانﷺ خائفاً من التهمة من قومه حيث أمرﷺ بنصب عليّ بالخلافة وهو ابن عمّه أن يتّهموه في هذا الأمر بسبب القرابة ويعادوه ولم يقبلوا منه فوعده اللّه بالعصمة من كيد قومه.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢ص٤٩.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٥٠.

وقال الطبرسيّ في «المجمع»: روى العيّاشيّ في تفسيره بإسناده عن ابن أبي عمير عن ابن اأذينة عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس وجابر بن عبد اللّه قال: أمر اللّه محمّداً أن ينصب عليّاً للناس فيختبرهم بولايته فتخوّف رسول اللّهﷺ أن يقولوا جافى ابن عمّه وأن يطعنوا في ذلك عليه فأوحى اللّه إليه هذه الآية فقام بولايته يوم غدير.[1] وهذا الخبر بعينه قد حدّثنا السعيد أبو الحامد أحمد بن محمّد عن الحاكم أبي القاسم الحسكانيّ بإسناده عن ابن أبي عمير في كتاب «شواهد التنزيل في قواعد التفضيل»، وفيه أيضا بالإسناد المرفوع إلى الحسّان بن عليّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال: نزلت هذه الآية في عليّ فأخذ رسول اللّهﷺ بيده فقال: «**من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه**».[2] وقد أورد هذا الخبر بعينه أبو إسحاق أحمد بن محمّد بن إبراهيم النخعيّ الثعلبيّ في تفسيره بإسناده مرفوعاً إلى ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عليّ أمر النبيّ أن يبلّغ فيه فأخذ رسول اللّه بيد عليّ فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه. وقد اشتهرت الروايات عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه: «**أن الله أوحى إلى نبيّه أن يستخلف عليّاً فكان يخاف أن يشقّ ذلك على جماعة من أصحابه فأنزل الله هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه**».

والمعنى: إن تركت تبليغ ما أنزل إليك وكتمته كنت كأنّك لم تبلّغ شيئاً من رسالات ربّك ﴿**فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ أي: لم تكن ممتثلاً للأمر ﴿**وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ ويمنعك من أن ينالوك بسوء ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ**

١ـ تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي، ج ٣، ص ٣٨٢؛ وبحارالأنوار، ج٣٧، ص ١٣٩.

٢ـ شواهد التنزيل في قواعد التفضيل للحاكم الحسكاني، ج ١، ص٢٠١ وج ٢، ص٣٩٠، وانظر: تفسيرالعياشي، ج ١، ص٤؛ وتفسير القمي، ج ١، ص١٧٤.

﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ومعنى الهداية هنا أنّه سبحانه لا يهديهم بالمعونة والألطاف إلى الكفر بل إنّما يهديهم إلى الإيمان أن يقبلوا لأنّ من هداه إلى غرضه فقد أعانه على بلوغه وهو سبحانه يتعالى عن ذلك، عن عليّ بن عيسى قال: ولا يجوز أن يكون المعنى: إنّ الله لا يهديهم إلى الإيمان بل أنه هداهم إلى الإيمان بأنّ دلّهم عليه ورغّبهم فيه وحذّرهم من خلافه. وقيل: إنّ المعنى: لا يهديهم إلى الجنّة والثواب، عن الجبّائيّ.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٦٨)﴾

﴿قُلۡ﴾ يا محمّد مخاطبا لليهود والنصارى: ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ أي: دين يعتدّ به ويليق أن يسمّى شيئاً لوضوح فساده، وظهور بطلانه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ ومن إقامتها الإذعان بحكمها ومن حكمها الإيمان بمحمّد فإنّ الكتب الإلهيّة بأسرها آمرة بالإيمان بما صدّقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة. والمراد إقامة أصولها وما لم ينسخ من فروعها ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: الإيمان بالقرآن المجيد ونسب الإنزال إليهم لأنّهم كانوا يدّعون عدم نزوله إلى بني إسرائيل ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن ﴿طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ طغيانهم وكفرهم وهذا مذكور فيما قبل والتكرير للتأكيد، ثمّ قال سبحانه: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم فإنّ ضرر ذلك راجع إليهم أو لا تتأسّف بسبب نزول اللّعن والعذاب عليهم فإنّهم من الكافرين المستحقّين لذلك. قال ابن عبّاس: جاء جماعة من اليهود وقالوا: يا محمّد ألست تقرأ أنّ التوراة حق من الله؟ قال: «بلى» قالوا: فإنّا مؤمنون بها ولا نؤمن بغيرها فنزلت هذه الآية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

و المراد من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في هذه الآية المنافقون قال الزجّاج: الّذين آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: دخلوا في اليهوديّة [النّصارى] جمع نصران معطوف على الّذين هادوا ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ أي: الّذين صبت ومالت قلوبهم إلى الجهل والخروج من الدين قيل: هم صنف من النصارى يقال لهم الصائحون يحلقون أوساط رؤوسهم وقيل: هم الّذين يعبدون الكواكب.

وهاهنا مسألة وهي أنّ ظاهر الإعراب يقتضي أن يقال: والصابئين وهكذا قرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود وابن كثير، وللنحويّين في علّة القراءة المشهورة وجوه نذكر وجهاً منها ولا حاجة إلى الإطالة وهو الوجه الّذي ذهب إليه الخليل وسيبويه: ارتفع الصابئون بالابتداء وهو محذوف الخبر وهو في التقدير: والصابئون كذلك، ولم يعطفوا على ما قبله لفائدة في الكلام كانّه قيل: إنّ الّذين آمنوا اتّفاقاً والّذين هادوا والنصارى من آمن باللّه واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك.

والفائدة في عدم العطف أنّ الصابئين أشدّ الفرق المذكورين في هذه الآية ضلالاً فكأنّه قيل: كلّ هذه إن آمنوا بالعمل الصالح حقيقة قبل اللّه توبتهم وأزال ذنبهم حتّى الصابئين فإنّهم إن آمنوا كذلك لا خوف عليهم والخوف يتعلّق بالمستقبل والحزن يتعلّق بالماضي، فلا خوف عليهم بسبب ما يشاهدون من أهوال القيامة ولا هم يحزنون بسبب ما فاتهم من طيّبات الدنيا لأنّهم وجدوا أعظم منها وأطيب. مسألة قالت المعتزلة[1]: إنّه تعالى

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢ ص٥٤.

شرط عدم الخوف والحزن بالإيمان والعمل الصالح، والمشروط بشيء عدم عند عدم الشرط، فلزم أنّ من لم يأت مع الإيمان والعمل الصالح فإنّه يحصل له الخوف والحزن وذلك يمنع من العفو عن صاحب الكبيرة. والجواب أنّ صاحب الكبيرة لا يقطع بأنّ اللّه يعفو عنه فكان الخوف والحزن حاصلاً قبل إظهار العفو. والإيمان يدخل تحته أقسام وأشرفها الإيمان باللّه ومعرفة الخالق لأنّ أعظم المعارف شرفاً معرفته وكمال معرفته إنّما يحصل بكونه قادراً على الحشر فلا جرم شرح سبحانه في الآية بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

اللّام في «لقد» لام القسم أي: باللّه قد أخذنا العهد من بنيّ إسرائيل يريد الإيمان المؤكّدة الّتي أخذها أنبياؤهم عليهم بالتوحيد والعمل بما أمر اللّه به والإقرار ببعثة محمّد ونبوّته والبشارة بمقدمه وخلقنا الدلائل بالعقل الهادي إلى الاستدلال والمقصود من الآية بيان عتوّهم وتمرّدهم عن الوفاء بعهد اللّه والبيان متعلّق بما افتتح اللّه به السورة وهو قوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ ووجه الاحتجاج عليهم بذلك وإن كان أخذ الميثاق على آبائهم أنّهم عرفوا ذلك في كتبهم وسمعوا بذلك وأقرّوا بصحّته في كتابهم فالحجّة لازمة لهم وعتب المخالفة يلحقهم كما يلحق آباءهم.

﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ ولا يوافق مرادهم وميلهم والكلام جواب لسؤال محذوف كأنّه قيل: فماذا فعلوا بالرسل؟ فقيل: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ﴾ من أولئك الرسل بما يخالف هواهم من مشاقّ التكليف عصوه وعادوه وكأنّه قيل: كيف عصوهم؟ فقيل: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ أي: طائفة منهم كذّبوا الرسل من غير أن يتعرّضوا لهم بشيء آخر

من المضارّ ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي: وفريقاً منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوا رسلهم أيضاً مثل زكريّا ويحيى. فإن قيل: لم عطف المستقبل على الماضي؟ ليدلّ على أنّ ذلك من شأنهم وعادتهم. فإن قيل: أنّ الرسول الواحد لا يمكن أن يكونوا فريقين لكن قوله: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ يدلّ على كثرة الرسل فصحّ جعلهم فريقين.

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾

أي: وظنّ اليهود أن لا يكون فيه عقوبة وأنّ اللّه لا يعذّب والآية دالّة على أن عماهم وصممهم عن الهداية حصل مرّتين قيل: المراد بهاتين المرّتين أنّهم عموا وصمّوا في زمان زكريّا ويحيى وعيسى ثمّ تاب اللّه على بعضهم حيث آمن بعضهم ثمّ عموا وصمّوا كثير منهم في زمان محمّد ﷺ بأن أنكروا رسالته. وقيل: عموا وصمّوا حين عبدوا العجل ثمّ تابوا عنه فتاب اللّه عليهم ثم عموا وصمّوا كثير منهم بالتعنّت وهو طلبهم رؤية اللّه ونزول الملائكة.

و قال المولى أبو السعود في تفسيره[1]: المراد من المرّة الأولى حين خالف بنو إسرائيل أحكام التوراة وركبوا المحارم، وقتلوا شعيا، وحبسوا أرميا ثمّ تاب اللّه عليهم حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد وبعد ما كانوا ببابل دهراً طويلاً تحت قهر بخت نصّر أسارى في غاية الذلّ والوهن فوجّه اللّه ملكاً عظيماً من ملوك فارس إلى بيت المقدس ليعمّره وينجي بقايا بني إسرائيل من أسر بخت نصّر وردّهم إلى وطنهم وتراجع من تفرّق منهم الأكناف، فعمّروا بيت المقدس في ثلاثين سنة فكثروا وحسنت أحوالهم

١ـ تفسير أبي السعود، ج ٣، ص ٦٤.

كأحسن ما كانوا عليه ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ وهو إشارة إلى المرّة الاخرى من مرّتيهم وهو اجترائهم على قتل زكريّا ويحيى وقصدهم قتل عيسى ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم وفق أعمالهم.

قيل: إنّ بني إسرائيل بعد أن عموا وصمّوا في المرّة الأولى وسلّط اللّه عليهم بخت نصّر فاستولى على بيت المقدس فقتل منهم أربعين ألفا ممّن يقرؤ التوراة أو أكثر وذهب بالبقيّة إلى أرضه بالذلّة إلى أن أحدثوا توبة صحيحة، ثمّ عادوا مرّة ثانية إلى الفساد وقتلوا من الأنبياء بعد رجوعهم إلى أرضهم بيت المقدس، بعث اللّه عليهم الفرس فغزاهم ملك من ملوك الطوائف وفعل بهم ما فعل قيل: دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم[١] فوجد فيه دما يغلي، فسألهم عن ذلك فقالوا: دم قربان لم يقبل منّا فقال: صاحب الجيش ما صدقتموني فقتل منهم الوفا ثم قال[٢]: إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحدا، فقالوا: إنّه دم يحيى فقال: بمثل هذا ينتقم اللّه منكم ثمّ قال: يا يحيى قد علم ربّي وربّك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن اللّه قبل أن لا يبقى أحد منهم فهدأ.[٣]

ومنشأ هذه الشقاوات كفرانهم نعم اللّه تعالى حكي أنّ دانيال عليه السلام وجد خاتمه في عهد عمر بن الخطّاب وكان على فصّ خاتمه أسدان وبينهما رجل والأسدان يلحسانه وذلك أنّ بخت نصّر لمّا يتّبع الصبيان ليقتلهم فولد دانيال فألقته أمّه في غيضة[٤] رجاء أن ينجو فقبض اللّه أسداً يحفظه، ولبوة ترضعه وهما يلحسانه فلمّا كبر دانيال صوّر ذلك في خاتمه كي لا ينسى نعمة اللّه عليه.

١ـ جمع قربان: ما يتقرب به.

٢ـ تفسير أبي السعود، ج ٣، ص ٦٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٥٣.

٣ـ هدأ: سكن.

٤ـ الغيضة: مجتمع الشجر.

والعاقل لابدّ وأن لا ينسى منعمه ويشكره دائماً، نعم من انقطع إلى الله لقاه الله.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)﴾

لمّا استقصى الكلام مع اليهود شرع هنا في الكلام مع النصارى فحكى سبحانه عن فريق منهم أنّهم قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهذا هو قول اليعقوبيّة لأنّهم يقولون إنّ مريم ولدت إلها، وقال الرازيّ: ولعلّ هذا المذهب أنّهم يقولون: إنّ الله تعالى حلّ في ذات عيسى واتّحد بذات عيسى. ثمّ حكى تعالى عن المسيح أنّه قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وهذا تنبيه على ما هو الحجّة القاطعة على فساد قولهم حيث لم يفرّق بين نفسه وبين غيره في أنّ دلائل الحدوث ظاهرة عليه وأقرّ على نفسه بالمربوبيّة.[1] ونزلت الآية في نصارى نجران: السيّد والعاقب ومن معهما.

ثمّ قال على لسان عيسى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ المعنى ظاهر، أي: إنّ شأن من يشرك شيئاً في عبوديّته وربوبيّته وما يخصّ به تعالى من الصفات والأفعال لن يدخل الجنّة أبدا فإنّها دار الموحّدين ومأوى المشرك النار، وما للظالمين بالإشراك من أحد ينصرهم بإنقاذهم منها: إمّا بطريق المبالغة أو بطريق

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٥٩.

الشفاعة وهو من تمام كلام عيسى.

ثمّ حكى ما قاله النسطوريّة والملكائيّة من النصارى فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: أحد ثلاثة آلهة والإلهيّة مشتركة بينهم وهم الله وعيسى ومريم. و﴿ثَلَاثَةٍ﴾ كسرت بالإضافة ولا يجوز نصبها لأنّ معناه: واحد ثلاثة لأنهم قالوا إنّ الله وعيسى ومريم آلهة ثلاثة والّذي يؤكّد ذلك قوله تعالى للمسيح: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1] فمعنى ثالث ثلاثة أي: أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة آلهة والدليل على أنّ المراد ذلك قوله تعالى في الردّ عليهم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فتقدير الآية: ثالث ثلاثة آلهة. وحذف ذكر الآلهة لأنّ ذلك معلوم من سوق الكلام ومن مذهبهم.

قال الواحديّ: ولا يكفر من يقول: إنّ الله ثالث ثلاثة إذا لم يرد به ثالث ثلاثة آلهة فإنّه ما من شيئين إلّا والله ثالثهما بالعلم لقوله[2]: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾[3] والمتكلّمون حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد ثلاثة أقانيم أب وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد كما أنّ الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب: الذات وبالابن: الكلمة وبالروح: الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا: إنّ الكلمة الّتي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر والماء باللّبن وزعموا أنّ الأب إله والابن إله والروح إله والكلّ إله واحد، وهذا الكلام معلوم البطلان ببديهة العقل فإنّ الثلاثة لا يكون واحداً

١ـ سورة المائدة: ١١٦.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٥٩.

٣ـ سورة المجادلة: ٧.

والواحد لا يكون ثلاثة، ولم يسمع كلام أظهر بطلاناً من هذه المقالة.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قيل: إنّ من زائدة ولكنّ الصحيح أنّها تفيد الاستغراق أي: والحال ليس في الوجود ذات مستحقّ للألوهيّة والعبادة من هذه الحقيقة إلّا فرد واحد متعالي عن قبول الشركة ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من قبيل هذه المقالة الفاسدة من التثليث والتشريك وأقاموا على هذا القول والدين ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ اللّام لام القسم أي: واللّه ليمسّنّهم ووضع الموصول موضع الضمير لتكرير الشهادة عليهم بالكفر و«من» في ﴿مِنْهُمْ﴾ بيانيّة حال من «الّذين» وذلك لأنّ بعضهم تابوا ورجعوا عن هذا القول والدين ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أمر بصورة الاستفهام والاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده لا لإنكار الوقوع، وتعجيب من بقائهم وإصرارهم على هذه الكلمة الشنيعة، أي: أيصرّون فلا يتوبون ويطلبون منه العفو عن هذا القبيح وينزّهونه عن ما نسبوا إليه من الاتّحاد والحلول والحال أنّه تعالى يبالغ في المغفرة يغفر لهم عند استغفارهم؟

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

لمّا ذكر سبحانه في الآية السابقة مقالات النصارى عقّبه بالردّ عليهم والحجاج لهم فقال: ليس المسيح إلّا رسول من جنس الّذين مضوا قبله جاء

بآيات الله كما أتوا بأمثالها فإن كان الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده فقد أحيا الخشب وجعلها حيّة تسعى وفلق البحر على يد موسى، وإن كان خلقه من غير أب وذكر فقد خلق آدم من غير أب وأمّ فمن ادّعى له بالإلهيّة فهو كمن ادّعى لهم الإلهيّة لتساويهم في المنزلة.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ لأنها صدّقت بآيات ربّها وبكلّ ما أخبر عنه ولدها بدلالة قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾[1] وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[2] فلمّا كلّمها جبرئيل وصدّقته وقع عليها اسم الصدّيقة والحاصل ما أمّه إلّا كسائر النساء اللّاتي يلازمن الصدق في الأقوال والأفعال مع الخالق والخلق ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: هما يعيشان بالغذاء كما يعيش سائر الناس، فكيف يكون إلهاً من لا يقيمه إلّا أكل الطعام، عن ابن عبّاس. وقيل: المراد كناية عن قضاء الحاجة لأنّ من أكل الطعام لابدّ له من الحدث، فذكر الأكل وأراد لازمه ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الباهرة المنادية ببطلان ما تقوّلوا ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماعها؟ والإفك: الكذب وأصله الصرف والقلب، والكذب قلب الصدق و«ثمّ» لإظهار ترتيب ما بين العجبين في التفاوت لإتياننا الآيات أمر بديع في بابه وإعراضهم عنها أعجب ﴿قُلْ﴾ يا محمّد إلزاماً لهم ومن سلك مسلكهم من اتّخاذ غير الله إلها: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: متجاوزين إيّاه إلى ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يعني عيسى وهو وإن ملك ذلك لكن لا يملكه من ذاته بل بتمليك الله، ولا يملك عيسى مثل ما يضرّ الله به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحّة والسعة.

١ـ سورة التحريم: ١٢.

٢ـ سورة مريم: ١٧.

وإنّما قال: «ما» مع أنّ أصله أن يطلق على غير العاقل، نظراً إلى ما هو عليه في ذاته فإنّه في أوّل أحواله لا يوصف بعقل ولا بشيء من الفضائل فكيف يكون مثل هذا إلها؟ فإنّ مذهب النصارى أنّ اليهود صلبوه ومزّقوا أضلاعه بزعمهم ولمّا عطش وطلب الماء صبّوا الخلّ في منخريه ومن كان في الضعف هكذا كيف يكون إلها؟ وإله العالم يجب أن يكون غنياً عن كلّ ما سواه ويكون كلّ ما سواه محتاجا إليه فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولا بعبادة اللّه لأنّ الإله لا يعبد شيئاً، ولمّا عرف بالتواتر كونه مواظبا على العبادات علمنا أنّه إنّما كان بفعلها محتاجا في تحصيل المنافع ورفع المضارّ، واليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء فما قدر علي الإضرار بهم والأنصار وأصحابه يحبّونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، فالعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلها؟ فكان عيسى عبداً كسائر العبيد وهذا هو عين الدليل الّذي حكاه اللّه عن إبراهيم حيث قال: لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾.[1]

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والمراد منه التهديد أي: سميع بكفرهم عليم بضمائرهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: غلوا باطلاً فترفعوا عيسى إلى أن تدعوا له الألوهيّة! كما ادّعته النصارى، أو تضعوه فتزعموا أنّه لغير رشده وتنسبوه إلى الكذب والزنى! كما زعمته اليهود وقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة المصدر أي: غلوا غير الحقّ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ الأهواء هاهنا المذاهب الّتي تدعو إليها الشهوة دون الحقّ ولا يستعمل الهوى إلّا في الشرّ لا يقال: فلان يهوي الخير إنّما يقال: يريد الخير، وسمّي الهوى هوى لأنّه يهوي

١ـ سورة مريم: ٤٢.

بصاحبه إلى النار قال ابن عبّاس كلّ هوى ضلالة وعنى سبحانه بقوله[1]: ﴿قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ رؤساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى. والآية خطاب للّذين كانوا في عصر النبيﷺ فيهووا أن يتّبعوا أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم وأن يقلّدوهم فيما هووا، والاتّباع هو سلوك الثاني طريقة الأوّل على وجه الاقتداء به ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ يعني به هؤلاء الّذين ضلّوا عن الحقّ وغلوا في دينهم، أضلّوا كثيراً من أتباعهم ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو سبيل الإسلام بعد مبعثهﷺ لمّا كذّبوه وحسدوه وبقوا على ضلالتهم جاحدين بنبوّته، وبقوا على زعمهم الفاسد في اعتقاد الألوهيّة في حقّ عيسى حيث نظروا بعقلهم الفاسد في أمره فوجدوه مولوداً من أمّ بلا أب فحكم عقلهم أن لا يكون مولود بلا أب فينبغي أن يكون هو ابن اللّه، واستدلّوا على ذلك أيضاً بأنّه يخلق من الطين كهيئة الطير، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، ويخبر عمّا يأكلون في بيوتهم وما يدّخرون وهذه الأمور من صفات اللّه ولو لم يكن المسيح ابن اللّه لما أمكنه وإنّما أمكنه لأنّ الولد سر أبيه وبسبب هذه الاستحسانات والتخيّلات ضلّوا وأضلّوا وما عرفوا أنّ الإنسان الكامل الّذي حمل أمانة الحقّ من بين سائر الخلق وعمل بمقتضى كماله وخصّه اللّه بالخلافة، وقوّمه بأحسن التقويم في قبول هذا الكمال صار قابلاً لأن يصدر منه أمور تدلّ على خلافته وخارقه عن عادات البشر بإذن اللّه تعالى وأمره فصورة الفعل تظهر منه لكنّ الفاعل هو اللّه ومنشأ الصفة حضرة الإلهيّة لا عيسى ولا موسى وهذا كما أنّ لكرة البلّور المخروط أستعداداً في قبول فيض الشمس إذا كانت في محاذاتها فيقبل الفيض ويحرق المحلوج المحاذي لها بذلك الفيض فيصدر الفعل المحرق من الكرة بحسب الظاهر

١ـ تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي، ج ٣ ،ص ٣٩٥.

ومنشأ الصفة المحرقيّة حضرة الشمس حقيقة فصار للكرة بحسن الاستعداد المجعول فيه قابليّة لفيض الشمس وما حلّت الشمس في كرة البلّور والشمس شمس والبلّور بلّور وكذلك حال الأنبياء في المعجزات.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أخبر سبحانه عمّا جرى على أسلافهم فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال أكثر المفسّرين: المراد من الملعونين[1]: أصحاب السبت وأصحاب المائدة وهو أنّ قوم داود وهم أهل أيلة لما اعتدوا في السبت بأخذ الحيتان، قال داود: اللّهم العنهم واجعلهم آية. فمسخوا قردة. وأمّا أصحاب المائدة فإنّهم لما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا قال عيسى: اللّهمّ العنهم كما لعنت أصحاب السبت. فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبيّ. وقال ابن عبّاس: المراد في الزبور وفي الإنجيل، فيكون المراد أنّ الله لعن في الزبور من يكفر من بني إسرائيل وفي الإنجيل كذلك فلذلك قيل: على لسان داود وعيسى. وثالث الأقوال أن يكون المعنى أنّ داود وعيسى علما أنّ محمّداً نبيّ مبعوث ولعنا من يكفر به، عن الزجّاج. قال الطبرسيّ: والقول الأوّل أصحّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اللّعن المتقدّم ذكره ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٦٣.

يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ استيناف أي: لا ينهى بعضهم بعضا عن قبيح يعملونه واصطلحوا على الكفّ عن نهي المنكر ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ اللّام لام القسم تعجيب من سوء فعلهم مؤكّدا بالقسم. قال ابن عبّاس: كان بنو إسرائيل ثلاث فرق، فرقة اعتدوا في السبت وفرقة نهوهم ولكن لم يدعوا مجالستهم ولا مؤاكلتهم وفرقة ارتحلوا عنهم لمّا رأوهم يعتدون.[1] وبقيت الفرقتان المعتدية والناهية المخالطة فلعنوا جميعاً، ولذلك قال رسول اللهﷺ: **«لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذنّ على السفيه ولتأطرنّه على الحقّ اطراء أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم».**[2] وإنّما سمّي القبيح منكراً لأنّه ينكره العقل من حيث إنّ العقل يقبل الحسن ويعترف به ولا يأباه وينكر القبيح ويأباه. وقيل: المراد بالمنكر هنا صيدهم السمك يوم السبت وقيل: أخذهم الرشى في الأحكام أو أكلهم الربا.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد كفّار مكّة، عنى بذلك كعب بن الأشرف وأصحابه حين استجاشوا المشركين على رسول اللهﷺ، قال أبو جعفر الباقر‌عليه‌السلام: **«يتولّون الملوك الجبّارين ويزيّنون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم».**

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بئس ما قدّمت أنفسهم لهم من العمل لمعاده في الآخرة ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ هو المخصوص بالذمّ بتقديم المضاف أي: موجب سخط الله والخلود في العذاب لأنّ نفس السخط المضاف إلى الله لا يقال له أنّه المخصوص بالذمّ

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٩٧.

٢ـ تفسير مجمع البيان للطبرسي، ج ٣، ص ٣٩٦؛ وكنز العمال ،ج ٣،ص ٦٧.

إنّما المخصوص بالذمّ هو الأسباب الموجبة له قال أبو عبّاس ومجاهد والحسن: إنّ هذه الآية في المنافقين من اليهود.[1] والضمير في قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ عائد إليهم، ويؤكّده ما بعد هذه الآية.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

أي: لو كانوا أي: الّذين يتولّون المشركين يصدّقون باللّه والنبيّ محمّد ﷺ وهم أنزل إليه من القرآن ويعتقدون ذلك على الحقيقة كما يظهرونه ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ يعني: الكافرين أولياء، عن ابن عبّاس والحسن ومجاهد. وقيل: المراد بالنبيّ موسى وبمعنى أنزل إليه التوراة فيكون المراد بهم اليهود الّذين جاهروا بالعداوة لرسول اللّه والتولّي للمشركين ويكون معنى الموالاة: النصر والمعاونة على معاداة محمّد أو الموالاة المصادقة والتحبّب على الحقيقة وتحريم ذلك مصرّح في شريعة ذلك النبيّ وفي الكتاب المنزل إليه ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الدين والإيمان باللّه ونبيّهم وكتابهم فاتّخاذ الكفار وأعداء اللّه أولياء من أعظم المعاصي والمنكرات وموجب لسخط اللّه كما أنّ المداهنة مع أهل الفسوق كذلك ومن موجبات لعنة اللّه، كما لعن اليهود على لسان داود في الحديث: **«يحشر يوم القيامة أناس من أمّتي من قبورهم إلى المحشر على صورة القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصي وكفّوا عن نهيهم وهم يستطيعون»**.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ

١ـ التبيان، ج ١٣، ص ٦١٢، وانظر: تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٩٧.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾

شرح سبحانه معاداة اليهود للمسلمين فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ الآية، فوصف اليهود والمشركين بأنّهم أشدّ الناس عداوة للمؤمنين، لأنّ اليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين، مع أنّ المؤمنين يؤمنون بنبوة موسى والتوراة الّتي أتى بها، فكان ينبغي أن يكونوا بمن وافقهم في الإيمان بنبيّهم وكتابهم أقرب، وإنّما فعلوا ذلك حسداً للنبي ﷺ.[١] وعن النبي ﷺ أنّه قال: «**ما خلا يهوديّان بمسلم إلّا همّا بقتله**».[٢]

ثمّ ذكر سبحانه أنّ النصارى ألين عريكة من اليهود، وأقرب إلى المسلمين.

قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعطاء والسدّي[٣]: (المراد من الآية النجاشيّ وقومه الّذين قدموا من الحبشة على الرسول وآمنوا به فقط، ولم يرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين). وقال آخرون: السبب أنّ مذهب اليهود يوجب عليهم إيصال الشرّ إلى من يخالفهم في دينهم بأي طريق كان؛ فإن قدروا على القتل فذاك، وإلّا فبغصب المال أو بالسرقة أو بنوع من المكر والكيد، وأمّا النصارى فليس مذهبهم ذاك، بل الإيذاء عندهم حرام، فهذا وجه التفاوت[٤]، واللّام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم، والتقدير:

١ـ التبيان، ج٣، ص ٦١٤؛ ورواه الطبرسي في مجمع البيان، ج٣، ص ٤٠١.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٦٦.

٣ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ٦٦.

٤ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٦٦.

قسماً بالله إنّك تجد اليهود والمشركين أشدّ الناس عداوة معك والمؤمنين، فلا تبال لكيدهم ومكرهم. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ المراد من النصارى: النجاشيّ ملك الحبشة والّذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب كما قاله ابن عبّاس وجماعة وقال البغوي[١]: لم يرد به جميع النصارى، لأنّهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين، وأسرهم، وتخريب بلادهم، وهدم مساجدهم ـ لا قوّة ولا كرامة لهم ـ بل الآية نزلت في طبقة مخصوصة ممّن أسلم منهم، وكان النجاشيّ نصرانيّاً قبل ظهور الإسلام، ثمّ أسلم هو وأصحابه قبل الفتح، ومات قبله أيضا.

قال أهل التفسير: استمرّت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين، يؤذونهم ويعذّبونهم، فافتتن من افتتن[٢]: وعصم الله منهم من عصم، ومنع الله رسوله بعمّه أبي طالب، فلمّا رأى رسول الله ما حلّ بأصحابه، ولم يقدر على منعهم، ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «**إنّ بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتّى يجعل الله للمسلمين فرجاً**»، فخرج إليها سرّاً أحد عشر رجلاً ، وأربع نسوة، فخرجوا إلى البحر، وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله، وهذه هي الهجرة الأولى.

ثمّ خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون إليها، فكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فلمّا علمت قريش بذلك وجّهوا عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى

١ـ تفسير البغوي، ج ٢، ص ٥٦، وانظر: تفسير الثعلبي، ج ٤، ص٩٧.

٢ـ مجمع البيان للشيخ الطبرسي، ج ٣، ص ٤٠٠؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٤١٢.

النجاشيّ وبطارقته[١] ليردّوهم إليهم، فعصمهم الله، فلمّا انصرفا خائبين، وأقام المسلمون هناك بخير دار وحسن جوار، إلى أن هاجر رسول الله وعلا أمره وذلك في سنة ستّ من الهجرة. كتب رسول اللهﷺ إلى النجاشيّ على يد عمرو بن أميّة الضمريّ ليزوّج النبيّ أمّ حبيبة[٢] بنت أبي سفيان، وكانت قد هاجرت إليه مع زوجها فمات زوجها، فأرسل النجاشيّ إلى أمّ حبيبة جارية يقال لها نزهة تخبرها بخطبة رسول اللهﷺ إيّاها، وأمرها أن توكّل من يزوّجها، فوكّلت خالد بن سعيد بن العاص، فأنكحها على صداق أربعمائة دينار، وكان الخاطب لرسول الله النجاشيّ، ثمّ أمر الملك نساءه أن يبعثن إلى أمّ حبيبة بما عندهنّ من عود وعنبر، وكانﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكر.

قالت أمّ حبيبة: فخرجنا في سفينتين، وبعث معنا النجاشيّ الملّاحين، فلمّا خرجنا من البحر ووردنا المدينة ورسول الله بخيبر وخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتّى قدم النبيّ فدخلت عليه، فكانﷺ يسألني عن النجاشيّ فشرحت له القصّة، فأنزل الله[٣]: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[٤] ولمّا جاء أبا سفيان تزويج أمّ حبيبة برسول الله، قيل: ذاك الفحل لا يقرع أنفه،[٥] ثمّ قالﷺ: **«لا أدري أبفتح خيبر أسرّ أم بقدوم جعفر؟»**.

و بعث النجاشيّ بعد قدوم جعفر إلى رسول الله ابنه أزهر في ستّين رجلاً من الحبشة، وكتب إليه: يا رسول الله أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدّقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمّك وأسلمت لله ربّ العالمين، وقد بعثت

١ـ جمع البطريق: القائد من قواد الروم.

٢ـ المشهور أن اسمها رملة وقيل هند وإن رملة اسم أمّ سلمة.

٣ـ موسوعة التاريخ الإسلامي، محمد هادي اليوسفي، ج ٢، ص ٦٥٦.

٤ـ سورة الممتحنة: ٧.

٥ـ قرع الشيء: دقه ونقر عليه.

ابني أزهر، وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت، والسلام عليك يا رسول اللّه، فركبوا سفينة في أثر جعفر وأصحابه، فلمّا بلغوا أواسط البحر غرقوا، وكان جعفر يوم وصل المدينة وصل في سبعين رجلاً، عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستّون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، منهم بحيرا الراهب فقرأ عليهم رسول اللّه سورة: (يس) إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن فآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان نزل على عيسى! فأنزل اللّه هذه الآية: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ فالمراد وفد النجاشيّ الّذين قدموا مع جعفر وهم السبعون، وكانوا أصحاب الصوامع.[1]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: بسبب أنّ منهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾ وهم علماء النصارى وعبّادهم والقسّيس: صيغة مبالغة من تقسّس الشيء إذا تتبّعه وطلبه باللّيل، سمّوا به لمبالغتهم في تتبّع العلم والقسّ في اللّغة: نشر الحديث والنميمة قاله الراغب، وقال قطرب: القسّيس بلغة الروم: العالم. وقال عروة بن الزبير: إنّ النصارى ضيّعت الإنجيل وأدخلوا فيه ما ليس فيه، وبقي من علمائهم واحد على الحقّ والدين، وكان اسمه قسّيساً فمن كان على مذهبه ودينه فهو قسّيس.[2] ورهبان: جمع راهب، كراكب وركبان، والرهبانيّة مصدر وأصله من الرّهبة والمخافة، قال جرير:

رهبان مدين لو رأوك تنزّلوا   و العصم من شعف الجبال الشارد

و قيل: الرهبان يطلق على الواحد والجمع:

لو عاينت رهبان دير في القلل   لا نحدر الرهبان يمشي ونزل

و الترهّب التعبّد مع الرّهبة في صومعة، والتنكير لإفادة الكثرة، ولابدّ

١ـ جمع الصومعة: جبل أو مكان يسكنه الراهب.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج٣، ص ٤٠٢.

من اعتبارها في القسّيسين، إذ هي الّتي تدلّ على مودة جنس النصارى للمؤمنين، فإنّ اتّصاف أفراد كثيرة بالخصلة المعيّنة مظنّة الجنسيّة، وإلّا فمن اليهود أيضاً قوم مهتدون، ألا ترى إلى عبد الله بن سلام[١] وأحزابه قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[٢] لكنّهم لمّا لم يكونوا في الكثرة كالّذين في النّصارى لم يتعدّ حكمهم إلى جنس اليهود. قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: وبأنّهم لا يستكبرون عن قبول الحقّ إذا عرفوه، ويتواضعون ولا يتكبّرون كاليهود ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ عطف على لا يستكبرون أي: ذلك بسبب أنّهم لا يستكبرون، وبسبب أنّ أعينهم تفيض من الدّمع ممّا عرفوا عند سماع القرآن، والضمير في سمعوا راجع إلى الّذين آمنوا منهم، والمراد من ﴿مَا أُنزِلَ﴾ القرآن، ومن «الرسول» محمّد ﷺ. قال ابن عبّاس: (يريد النجاشيّ وأصحابه، وذلك لأنّ جعفر الطيّار قرأ عليهم سورة مريم فأخذ النّجاشيّ تبنة من الأرض، وقال: و الله، ما زاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا، وما زالوا يبكون حتّى فرغ جعفر من القراءة)، وقوله: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾[٣] أي: تملأ بالدّمع، فاستعير له الفيض الّذي هو الانصباب من الامتلاء مبالغة، و«من» الأولى لابتداء الغاية، والتّقدير أنّ فيض الدّمع إنّما ابتداؤه من معرفة الحقّ وبسببه، و﴿مِنَ﴾ الثّانية لبيان الموصوف من قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا

١ـ هو عبد الله بن سلام بن حارث من أولاد يوسف النبي ؑ، حليف الخزرج، كان يهوديّاً عزيزاً في قومه فاسلم، واستدعي رسول الله أنّ يسأل قومه عن مكانته عندهم فسألهم واعترفوا بأنه عزيزهم ورئيسهم، فلما خرج عليهم من موقفه الستورعن أبصارهم وأظهر الإسلام قالوا: هو ذليلنا! مات سنة ثلاث وأربعين باتفاق أهل التاريخ على مافي الإصابة، ج٢، ص ٣١٣.

٢ـ سورة آل عمران: ١١٣.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٦٨.

ءَامَنَّا﴾ كأنه قيل: ماذا يقولون عند سماع القرآن؟

فقيل: يقولون: ربّنا آمنّا بهذا القرآن الّذي معنا، وشهدنا بأنّه حقّ ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ومن جملة الّذين شهدوا بأنّه حقّ، وآمنوا به. يريد أمّة محمّدﷺ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1] والمراد من الشاهدين بالتوحيد مع كلّ نبيّ، فاكتبنا معهم في أمّ الكتاب. ﴿وَمَا لَنَا﴾ أي: أيّ شيء حصل لنا، ولأي: عذر ﴿لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾؟ وهذا جواب لمن قال لهم من قومهم تعنيفاً لهم: لم آمنتم؟ عن الزّجّاج وقيل: إنّهم قدّروا في أنفسهم، كأنّ سائلاً سألهم عنه، فأجابوه بذلك ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ المراد: القرآن والإسلام، ووصفه بالمجيء مجاز، كما يقال: نزل، وإنّما نزل به الملك، وكذلك جاء به الملك، ﴿وَنَطْمَعُ﴾ أي: والحال نرجو ونؤمّل ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ في الجنّة لإيماننا بالحقّ، وحذف لدلالة الكلام عليه ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المؤمنين.

فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

أي: جازاهم وأعطاهم بسبب ما قالوا عن اعتقادهم، لأنّ القول المجرّد عن الاعتقاد والتّوحيد غير نافع، ويدلّ على هذا المعنى قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[2] فثبت أنّه ليس مجرّد القول، وقال ابن عبّاس: المراد بما قالوا: أي: ما سألوا معنى قولهم: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[3] وذلك عن عقيدة ومعرفة ثابتة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت

١ـ سورة بقرة: ١٤٣.

٢ـ سورة المائدة: ٨٣.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٦٩.

أشجارها الأنهار ومن مساكنها وغرفها الأنهار الأربعة: الماء والعسل والخمر واللّبن ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وذلك الجزاء للّذين أحسنوا النّظر والعمل، واعتادوا الإحسان في الأمور ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فماتوا على ذلك، وعطف التكذيب على الكفر مع أنّه ضرب من الكفر لما أنّ القصد بيان حال المكذّبين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أهل النار الشديدة الوقود، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ ليس خالياً عن إفادة الحصر والمصاحب للشيء هو الملازم له، ويمكن تخصيص هذا الدّوام والملازمة بالكفّار. و لعلّ من أقوى الدلائل على أنّ الخلود لا تحصل للمؤمن الفاسق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾

سبب النزول: قال المفسّرون: جلس رسول اللهﷺ يوماً، فذكّر للناس القيامة، فرقّ الناس وبكوا، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحيّ،[١] وهم: عليّعليه السلام وعبد الله بن مسعود وأبو ذرّ الغفاريّ وسلام مولى أبي حذيفة وعبد الله بن عمر والمقداد بن الأسود الكنديّ وسلمان الفارسيّ ومعقل بن مقرن وأبو بكر،[٢] واتّفقوا على أن يصوموا النّهار، ويقوموا اللّيل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللّحم ولا الودك[٣]

١ـ من معاريف الصحابة، هاجر إلى الحبشة مع ابنه السائب الهجرة الأولى وله منزلة عظيمة عند النبيﷺ؛ فإنه عندما توفي إبراهيم ابنه قال: الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون. ماتَ في الثانية بعد ما شهد بدراً وهو أوّل من مات من المهاجرين بالمدينه وأوّل من دفن بالبقيع. ترجمه ابن حجر في الإصابة، ج ٢، ٤٥٧.

٢ـ الظاهر أن عثمان كان داخلاً فيهم وهو عاشرهم فإن الأفراد المعدوده هنا لايتجاوزون عن تسعة.

٣ـ الودك: الشحم.

ويلبسوا المسوح،[١] ويرفضوا الدّنيا، ويسيحوا في الأرض، وهمّ بعضهم أن يجبّ[٢] مذاكيره، فبلغ رسول اللهﷺ فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه، فقال لامرأته أمّ حكيم بنت أبي أميّة واسمها حولاء وكانت عطّارة: «أحقّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه؟» فكرهت أن تكذب رسول اللهﷺ وكرهت أن تبدي على زوجها فقالت: يا رسول الله إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدقك فانصرف رسول الله، فلمّا دخل عثمان أخبرته بذلك، فأتى رسول الله هو وأصحابه، فقال لهم رسول اللهﷺ: «ألم أنبئكم أنكم اتّفقتم على كذا وكذا؟» قالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلّا الخير فقال النّبيﷺ: «إنّي لم أومر بذلك»، ثمّ قالﷺ: «إنّ لأنفسكم عليكم حقّا، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإنّي أقوم وأنام، وأصوم وأفطر وآكل اللّحم والدسم، وآتي النساء، ومن رغب عن سنّتي فليس منّي» ثمّ جمع النّاس وخطبهم، وقالﷺ: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام الطيّب والنوم وشهوات الدنيا؟ أما إنّي لست آمركم أن تكونوا قسّيسين ورهباناً، فإنّه ليس من ديني ترك اللّحم والنّساء ولا اتّخاذ الصوامع، وإنّ سياحة أمّتي الصوم، ورهبانيّتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجّوا، واعتمروا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الأديار والصوامع»[٣]، فأنزل الله هذه الآية.[٤]

و روي عن أبي عبد اللهعليه السلام[٥] أنّه قال: «نزلت في عليّ وبلال وعثمان بن

١ـ ما يلبس من نسيج الشعر قهراً للجسد.

٢ـ جبّ الشيء يجبه: قطعه.

٣ـ جمع الدير: مسكن الرهبان.

٤ـ تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي، ج ٣، ص ٤٠٤.

٥ـ رواه عنهعليه السلام الطبرسيرحمه الله في المجمع، ج٣، ص ٤٠٥؛ وعن الطبرسي في البرهان، ج ١، ص ٤٩٤، وروى علي بن إبراهيم في تفسيره، ص ١٧٩ مسنداً رواية أخرى يقرب منه إلّا أنه مذيل بذيل ليس فيه هذا الخبر.

مظعون، فأمّا عليّ، فإنّه حلف أن لا ينام اللّيل أبدا إلّا ما شاء الله، وأمّا بلال، فإنّه حلف أن لا يفطر بالنهار أبدا، وأمّا عثمان بن مظعون، فإنّه حلف أن لا ينكح أبدا».

ووجه النّظم في الآية بهذا التّقرير، لأنّه تعالى لمّا مدح النصارى بأنّ منهم قسّيسين ورهبانا وكان عادتهم الاحتراز عن طيّبات الدّنيا ولذّاتها، ولمّا مدحهم أوهم ذلك المدح ترغيب المسلمين في مثل تلك الطّريقة فذكر سبحانه في هذه الآية إزالة ذلك التوهّم وأنّهم ليسوا مأمورين بذلك، فلو قيل: إنّ حبّ اللّذائذ مستول على الطباع فإذا توسّع الإنسان فيها يمنعه ذلك عن الاستغراق في العبادة والمعرفة، وإذا كان الأمر كذلك فما الحكمة في نهي الله عن الرهبانيّة؟ فالجواب أنّ الرهبانيّة والاحتراز التّامّ المفرط عن الطّيّبات ممّا يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسة الّتي هي القلب والدماغ فحينئذ تشوّش العقل، واختلّت الفكرة، وذلك يوجب النّقص في معرفة الله والعمل، فلا جرم وقع النّهي عنها، والرهبانيّة الكاملة توجب خراب العالم، وانقطاع الحرث والنّسل، وذلك يفضي إلى الفساد في الحكمة، لا سيّما في النّفوس الضّعيفة.

المعنى: قال سبحانه في أوّل السورة: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ فقال في هذه: إنّه كما لا يجوز استحلال المحرّم كذلك لا يجوز تحريم المحلّل أي: لا تعتقدوا تحريم ما أحلّ الله لكم، كما حرّمت العرب ما لم يحرّمه الله وهي البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام،[1] ولا تجتنبوا من المحلّلات اجتنابا شبيهاً بالاجتناب من المحرّمات، ولا تجروها مجرى المحرّمات في شدّة الاجتناب وكذلك لا تلزموا تحريمها بنذر، أو عهد، أو يمين، ومعنى الآية على جميع هذه الوجوه والمراد من الطيّبات في الآية اللّذائذ وقيل: الحلال ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ حدود الله وأحكامه وقيل: معنى ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ أي: لا تجبّوا أنفسكم، فسمّي

١ـ سورة النساء: ١٦٤.

الخصاء اعتداء، عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة، والأوّل أعمّ فائدة.

وقيل معناه: ولا تسرفوا في الطيّبات، لأنّه لمّا أباح الطيّبات حرّم الإسراف فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين الحدّ ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ ظاهر الأمر للوجوب، إلّا أنّ المراد هاهنا الإباحة والتّحليل وقوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ يحتمل أن يكون متعلّقاً بالأكل، وأن يكون متعلّقا بالمأكول، فعلى الأوّل يكون التقدير: كلوا حلالاً طيّبا ممّا رزقكم الله، وعلى التقدير الثاني: كلوا من الرزق الّذي يكون موصوفاً بالحلال والطيّب.

ثمّ إنّه تعالى لم يقل: كلوا ما رزقكم وقال: كلوا ممّا رزقكم ـ وكلمة من للتّبعيض ـ فكأنّه قال: اقتصروا في الأكل على بعض واصرفوا البقيّة إلى الخيرات والصدقات، وهو إرشاد إلى ترك السرف.

قالت المعتزلة: إنّ الرزق لا يكون إلّا حلالاً وقالت الأشاعرة: إنّ الرزق قد لا يكون حلالاً، لأنّه خصّص بقوله: ﴿حَلَٰلًا﴾ ولو كان الرزق كلّه حلالاً لم يكن لهذا التّخصيص والتّقييد فائدة، وأجاب المعتزلة بأنّه، إنّما ذكر ﴿حَلَٰلًا﴾ على وجه التّأكيد، كما قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[1] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ وهذا استدعاء إلى التّقوى بألطف الوجوه، وتقديره: أيّها المؤمنون بالله، لا تضيّعوا إيمانكم بالتّقصير في التّقوى، فيكون عليكم الحسرة العظمى.

وفي هاتين الآيتين دلالة على كراهة التفرّد والخروج عمّا عليه المسلمون في التأهّل وعمارة الأرض والزّواج وقد روي: أنّ النبيّ ﷺ كان يأكل الدّجاج والفالوذج، وكان يعجبه الحلوا والعسل وقال: «**إنّ المؤمن حلو يحبّ الحلاوة**» وقال: «**إنّ في بطن المؤمن زاوية لا يملؤها إلّا الحلو**»، وروي: أنّ

١ـ تفسير الرازي،ج٦، ص٢٢٠.

الحسن كان يأكل الفالودج فدخل عليه فرقد السبخيّ، فقال: يا فرقد ما تقول في هذا؟ فقال فرقد: لا آكله، ولا أحبّ أكله، فأقبل الحسن على غيره كالمتعجّب وقال: لعاب النّحل بلباب البرّ مع سمن البقر هل يعيبه مسلم؟[١]

وجاء رجل إلى الحسن بن عليّ عليهما السلام فقال له: إنّ لي جاراً، لا يأكل الفالودج قال الحسن عليه السلام: ولم؟ قال: لئلّا يؤدّي شكره، قال عليه السلام: **«أفيشرب الماء البارد؟»** قال: نعم، قال: **«إنّ جارك هذا جاهل، أن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته في الفالودج»**، وسئل فضل بن عياض[٢] عن ترك الطيّبات من الجواري واللّحم والخبيص للزهد. وقال لمن قال: لا آكل الخبيص: تأكل وتتّقي إنّ الله لا يكره أن تأكل الحلال الصرف، كيف برّك لوالديك؟ وصلتك للرّحم؟ كيف عطفك على الجار؟ كيف رحمتك للمؤمنين؟ كيف كظمك للغيظ؟ كيف عفوك عمن ظلمك؟ كيف إحسانك إلى من أساء إليك؟ كيف صبرك واحتمالك للأذى؟ أنت إلى أحكام هذه الأمور أحوج منك إلى ترك الخبيص وبالجملة فالاعتدال في الأمور وتناول الطعام حسن جداً، والزهد المشروع ممدوح جداً، فلا تفريط ولا إفراط في كلّ باب انظر إلى حديث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

١ـ روي الطبرسي مرسلاً في تفسيره، ج ٣، ص ٢٣٦ وروى علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: **«كان رسول الله يعجبه العسل»**، فروع كافي، ج ٢ ص١٧٣ أقول وإنما تركنا ذكر جملة «عليه السلام» بعد لفظ «الحسن» في رواية الأخيرة لما احتملناه من أن يكون «الحسن» في الحديث هو الحسن بن مهران الذي كان يجلس مع فرقد على المائدة على ذكره في الاصابة، ج٣، ص١٩٨؛ والاستيعاب ج٣، ص ١٩٩ وكذا ذكره الطبرسي بدون الجملة.

٢ـ هو فضل بن عياض بن مسعود التميمي، أصله من خراسان ترجمه النجاشي في رجاله، ص٢١٩، بصري ثقة عامي، روى عن أبي عبدالله عليه السلام، وهو من مشاهير الزهاد، وله مواعظ ونصائح ومجالس مع الإسراء وكان موجهاً عند الرشيد مات سنة تسع وثمانين ومائة على ما في توضيح المقال، ص ٢٤٢؛ قال: قيل: مات قبلها وترجمه الأردبيلي في جامع الرواة، ج ٢، ص ١٠.

حيث قال في الحديث: «**إنّ في بطن المؤمن زاوية لا يملؤها إلّا الحلو**»، ولم يقل: إنّ في بطن المؤمن هاوية، فافهم راشداً إن شاء اللّه تعالى.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

قرأ ابن عامر: عاقدتم وقرأ أهل الكوفة: عقدتم بالتّخفيف والباقون: عقّدتم بالتشديد، واليمين تقوية أحد الطّرفين بالمقسم به.

سبب النزول: قيل: لمّا نزلت ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ قالوا: يا رسول اللّه فكيف نصنع بأيماننا؟ فأنزل اللّه هذه الآية وقيل: نزلت الآية في عبد اللّه بن رواحة،[1] كان عنده ضيف وأخرت زوجته عشاه فحلف أن لا يأكل من الطعام، وحلفت زوجته أن لا تأكل إن لم يأكل وحلف الضيف أن لا يأكل إن لم يأكلا فأكل عبد اللّه بن رواحة وأكلا معه فأخبر النبيّ بذلك فقال له: أحسنت عن ابن زيد.

ومضى الكلام في لغو اليمين وحكمه في سورة البقرة ولا كفّارة فيه عند أكثر المفسرين والفقهاء إلّا ما روي عن إبراهيم النخعيّ أنّه قال: فيها الكفّارة ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾

١ـ خزرجي أنصاري شهد العقبة الثانية، كان أحد النقباء، الاثني عشر، وحضر المشاهد كلها إلّا الفتح وما بعهده لأنّه قتل بموته سنة ثمان. وكان عين الشعر في الإسلام ومدح النبيﷺ وممّا قال فيه «لو لم تكن فيه آيات مبينة كان بديهته تنبيك بالخبر» وتصويب النبيﷺ حداءه للإبل معروف في باب الغناء من الفقه، ترجمه ابن حجر في الإصابة، ج ٢، ص٢٩٨؛ وابو عمرو في الاستيعاب، ج ٣، ص٢٨٤.

إن جعلت ما موصولة، فمعناه، يؤاخذكم بالّذي عقدتم عليه الإيمان وإن جعلته مصدريّة، فمعناه: بعقدكم، أو بعقيدتكم الإيمان، أو بمعاقدتكم الإيمان. والمعاقدة أن يضمن الأمر ثمّ يحلف باللّه فيعقد عليه اليمين، وقيل: هو ما عقدت عليه قلبك، وتعمّدته ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ أي: كفّارة ما عقدتم إذا حنثتم، واستغني عن ذكر الحنث للدّلالة، لأنّ الامّة قد أجمعت على أنّ الكفّارة لا تجب إلّا بعد الحنث، ومعنى الكفّارة، الفعلة الّتي تذهب إثمه وتستره، ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ واختلف في مقدار ما يعطى كلّ مسكين، فقال الشافعيّ: مدّ وقال أبو حنيفة: صاع من حنطة أو صاع من شعير أوتمر، وكذلك عندهم سائر الكفّارات قال الطبرسيّ: وقال أصحابنا: يعطى كلّ واحد مدّين، أو مدّ، والمدّ رطلان وربع.[1]

أقول: ولا يبعد أن يكون معنى المدّ ملأ الكفّين من الشيء من امتداد الأصابع[2] المصطلح عندنا بـ [الحفنة] ولا يجوز أن يعطى خمسة ما يكفي عشرة فإن كان المساكين ذكوراً وإناثا جاز ذلك، ولكن دفع بلفظ التذكير لأنّه غلب في كلام العرب ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ قيل: فيه قولان: أحدهما: أن يكون المأكول متوسطاً، مثل أنّ الخبز واللّحم لا شكّ في أنّه أعلى الخبز والملح، والأوسط يكون الخبز والسّمن أو الزيت.

والآخر أن يكون لحاظ الأوسطيّة في الأكل، لأنّ الأكل متفاوت أيضاً

١ـ تفسير التبيان، ج ٤، ص ١٣؛ وتفسير مجمع البيان، ج٣، ص٤٨.

٢ـ ويساعده اللغة؛ ففي مجمع البحرين: المد بضم الميم والتشديد مقدر بأن يمد يديه فيملأ كفيه طعاماً وقال الجزري في النهايه: هو رطل وثلث بالعراقي عند الشافعي وأهل الحجاز هو رطلان عند أبوحنيفه وأهل العراق وقيل: إن أصل المد مقدر بأن يمد الرّجل يديه فيملأ كفيه طعاماً، انتهى. أقول: ويمكن أن يكون هذا الأصل هو المنشأ لقول الشافعي فإن المد على قوله يقرب من ٩١ مثقالاً وملؤ الكفين المعتدلين يبلغ هذا المقدار.

فتعطيهم كما تعطي أهلك في العسر واليسر ﴿أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ﴾ قال أصحابنا الإماميّة: «الكسوة» لكلّ واحد ثوبين: مئزرا وقميصا أو سربالاً، وسروالاً، وعند الضّرورة يجزي قميص واحد، ولعلّ المئزر الواحد لا يكفي، لأنّه لا يصدق عليه أنّه كساه، أو يكفي لأنّه يصدق عليه أنّه غير عريان أو تحرير رقبة أي: عتق رقبة عبد أو أمة والرقبة يعبّر بها عن جملة الشّخص، وهو كلّ رقبة سليمة من العاهات صغيرة كانت، أو كبيرة، مؤمنة كانت، أو كافرة، فإنّ اللّفظ مطلقة مبهمة إلّا أنّ الأفضل هو المؤمن. وهذه الثّلاثة واجبة على التخيير ومعنى الواجب المخيّر أنّه بأي: واحد من هذه الثلاثة شاء وأتى به خرج عن العهدة[1] قال الرازيّ: ومن الفقهاء من قال: إنّ الواجب المخيّر، واحد لا بعينه، وهذا الكلام يحتمل وجهين: الأوّل أن يقال: الواجب عليه أن يدخل في الوجود واحداً من هذه الثلاثة لا بعينه وهذا محال في العقول لأنّ الشيء الّذي لا يكون معيّناً في نفسه، يكون ممتنع الوجود لذاته، وما كان كذلك فإنّه لا يراد به التّكليف، الثّاني: أن يقال: الواجب عليه واحد معيّن في نفسه وفي علم اللّه إلّا أنّه مجهول العين عند العامل، وذلك أيضا محال، لأنّ معنى كون ذلك الشيء واجبا بعينه في علم اللّه هو أنّه لا يجوز تركه بحال، وقد أجمعت الأمّة على أنّه يجوز له تركه بتقدير الإتيان بغيره[2] ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾ أي: فمن لم يتمكّن إحدى الثلاث، فكفّارة حنث يمينه يكون صيام ثلاثة أيّام و«صيام» مرفوع بأنّه خبر المبتدأ، أو التقدير: فعليه صيام ثلاثة أيّام،

١ـ اختلفوا في معنى الوجوب التخييري على أقوال ستة: وجه الاختلاف هو أن الحكم فيه واحد والحكم الواحد له موضوع واحد أيضاً وحيث ان الأفراد التي يمكن إسقاط التكليف بها تكون أكثر من واحد اضطربت آراؤهم في تعيين ما هو المتعلق فيه الحقيقه لهذا الحكم. وما ذكره المصنف ﷺ هو نتيجه الجميع لا أنه قول من الأقوال، نعم ما نقله عن الرازي هو قول منها.

٢ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ٧٤.

فيكون صيام مبتدءاً، وحدّ من ليس بواجد هو من ليس له ما يفضل عن قوته، وقوت عياله يومه وليلته.

واعلم أنّ اليمين على ثلاثة أقسام: أحدها: ما يكون عقدها طاعة، ويكون حلّها معصية، وهذه تتعلّق بحنثها الكفّارة بلا خلاف، وهو كما لو قيل: والله لا شربت الخمر، والثاني: أن يكون عقدها معصية، وحلّها طاعة كما يقال: والله لا صلّيت، وهذا لا كفّارة في حنثه عند الإماميّة، وخالف ساير الفقهاء في ذلك، والثالث أن يكون عقدها مباحاً وحلّها مباحاً كما يقال: والله لا لبست هذا الثوب، وهذه تتعلق بحنثه الكفّارة بلا خلاف أيضا ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من الكفّارات ﴿كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ﴾ أي: إذا حلفتم وأحنثتم، لأنّ الكفّارة لا تجب بنفس اليمين، وإنّما تجب باليمين والحنث ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ قيل: أي: احفظوا أيمانكم عن الحنث ولا تحنثوا[1] وقال ابن عبّاس: معناه: لا تحلفوا، وفي الآية دلالة على أنّ اليمين في المعصية لا تنعقد، لأنّها، لو انعقدت للزم حفظها، وإذا كانت لا تنعقد فلا يلزم فيها الكفّارة ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: كما بيّن أمر الكفارة فجميع الأحكام يبيّن الله آياته وفروضه لتشكروه على تبيينه لكم أموركم ونعمته عليكم.[2]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

١ـ اختاره الطبرسي تبعاً للجبايي وهو الأوفق بالقواعد اللفظية حيث أن الحفظ في الآية حكم محمول على الايمان، والايمان هو الموضوع بوجه ما حتي يصح الحمل كما لا يخفى.

٢ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٤٠٩.

الخمر: عصير العنب المشتدّ الّذي يسكر كثيره وسمّي خمراً، لأنّها بالسكّر تغطي على العقل بمنزلة الخمار،[1] من قولهم: خمرت الإناء إذا أغطيته، وفلان دخل في خمار النّاس إذا خفي في ما بينهم والميسر: القمار بأقسامه، من تيسير أمر الجزور بالاجتماع على القمار فيه، وأصله من اليسر خلاف العسر، وسمّيت يد اليسرى، تفؤلاً بتيسّر العمل بها، أو لأنّها تعين اليد اليمنى فيكون العمل أيسر. والأنصاب: الأصنام وسمّيت بذلك لأنّها كانت ينصب للعبادة لها والانتصاب: القيام ومنه النصب بمعنى التّعب بسبب العمل الّذي ينتصب له، ومناصبة العدوّ: الانتصاب والقيام لعباته. قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنّه ... ولا تعبد الشيطان واللّه فاعبدا[2]

والأزلام: القداح، وهي سهام، كانوا يجيلونها[3] مكتوب على بعضها: أمرني ربّي، وعلى بعضها: نهاني ربّي يطلبون بها على ما قسّم من الخير والشرّ، وكان أهل الجاهليّة إذا أراد أحدهم سفرا أو تجارة أو غزوا أو غير ذلك، طلب علم أنّه خير أو شرّ من الأزلام وهي قداح كانت في الكعبة عند سدنة البيت، على بعضها: أمرني ربّي وعلى بعضها: نهاني ربّي وبعضها غفل لا كتابة عليها ولا علامة، فإن خرج السهم الآمر مضوا، وإن خرج الناهي يجتنبون عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانية.

وقداح يقتسمون الجزور وهي عشرة هي: قد، وقوام، ورقيب وهو من أقسام القمار كاللاّتري.

المعنى: نهى اللّه سبحانه عن أمور كان أهل الجاهليّة يرتكبونها، فقال:

١ـ ما يغطي الوجه.

٢ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١٠ والتبيان، ج ١، ص ٤٦٥

٣ـ أجال الشيء: أداره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ قال ابن عبّاس: يريد بالخمر جمع الأشربة الّتي تسكر[١]، وكانوا يتّخذونها من العسل ومن العنب والزبيب ومن التمر ومن الحنطة والذرّة والشعير، وغيرها ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ والرجس بمعنى النجس، إلّا أنّ النجس يقال في المستقذر طبعا، والرّجس أكثر ما يقال في المستقذر عقلا. وسمّيت هذه الأمور رجسا، لوجوب اجتنابها كما يجب اجتناب الشيء المستقذر ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ صفة لرجس، أي: رجس كائن من عمله، لأنّه هو الدّاعي والمرغّب إليه، والمزيّن له في قلوب فاعليه ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أي: الرجس وكونوا على جانب وناحية منه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لكي تفوزوا بالثواب قال الطبرسيّ: وفي هذه الآية دلالة على تحريم الخمر، وهذه الأشياء المذكورة من أربعة أوجه: أحدها أنّه وصفها بالرّجس وهو النّجس والنّجس محرّم بلا خلاف والثاني أنّه نسبها إلى عمل الشّيطان، وذلك يوجب تحريمها والثالث أنّه أمر باجتنابها والأمر يقتضي الإيجاب والرّابع أنّه جعل الفوز والفلاح في اجتنابها[٢] ويجوز أن يكون الهاء في قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ راجعة إلى عمل الشيطان، وتقديره: فاجتنبوا عمل الشيطان قال الباقر عليه السلام: **«مدمن الخمر كعابد الوثن»**[٣] وفي هذا دلالة على تحريم سائر التصرّفات في الخمر من الشرب والبيع والشّراء، والاستعمال على جميع الوجوه.

وفي الحديث: قال النبيّ صلى الله عليه وآله لیلة الإسراء: **«أوّل ما نهاني بعد عبادة الأوثان**

١ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١٠.

٢ـ المصدر السابق، ص ٤١١.

٣ـ رواه في فروع الكافي ج٢، ص ١٨٢ عن أبي علي الأشعري عن محمد بن حسان عن محمد بن علي عن أبي جميله وزراة أيضاً ومحمد بن أعين عنهما عليهما السلام ويطرق آخر عن أبي عبد الله عليه السلام: **«المدمن هو الذي إذا وجد المسكر شربه»** على ما في رواية نعيم البصري عن الصادق عليه السلام.

شرب الخمر».[١] والخطاب لأمّته، وإن كان المخاطب هو النبيّ ﷺ مثل قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٢] ثمّ بيّن سبحانه سبب النهي فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ قال ابن عبّاس: (نزلت في سعد بن أبي وقّاص ورجل كان من الأنصار مؤاخياً لسعد فدعاه إلى الطّعام فأكلوا وشربوا نبيذاً فوقع بين الأنصاريّ وسعد مراء ومفاخرة فأخذ الأنصاريّ لحي[٣] جمل فضربه سعدا ففزر[٤] أنفه، فأنزل اللّه تعالى ذلك فيهما).[٥]

والمعنى: يريد الشّيطان إيقاع العداوة بينكم بالإغواء المزيّن لكم، حتّى إذا سكرتم زالت عقولكم وأقدمتم من القبائح من الأمور الّتي يمنعكم عقولكم ارتكابها.

قال قتادة: كان الرجل منهم يقامر في ماله وأهله فيقمر[٦] ويبقى حزيناً، سليباً نادماً، فيكسبه ذلك العداوة والبغضاء ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿فِي الْخَمْرِ﴾ متعلّق بيوقع، على أن يكون كلمة «في» هنا لإفادة معنى السببيّة، كما في قوله ﷺ: **«إنّ امرأة دخلت النّار في هرّة»** أي: بسبب هرّة ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ أي: يمنعكم عن الذّكر للّه بالتّعظيم، وعن الصلاة الّتي هي قوام دينكم، فإنّ المخمور مع حالة نشاطه وسكره كيف يشتغل بالعبادة والذّكر؟ وكذلك المقامر فإن صار غالباً فصار استغراقه في لذّة الغلبة فتورثه الغفلة عن العبادة، وإن صار مغلوباً صار شدّة اهتمامه بأن يحتال بحيلة يصير بها غالباً فحينئذ لا

١ـ مجمع الزوائد، الهيثمي،ج ٥، ص٥٣.

٢ـ سورة الزمر: ٦٥.

٣ـ الحي ـ بالفتح فالسكون ـ عظم الحنك الذي عليه الأسنان.

٤ـ فزر الشيء: ثقه وكسره.

٥ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١١.

٦ـ بالبناء على المفعول أي: يصير مغلوباً.

يخطر بباله شيء سواه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ صيغة الاستفهام، ومعناه النّهي، وإنّما جاز في صيغة الاستفهام أن يكون على معنى النّهي، لأنّ اللّه ذمّ هذه الأفعال وأظهر قبحها، وإذا ظهر قبح الفعل للمخاطب ثمّ استفهم عن تركه لم يسعه إلّا الإقرار بالتّرك، فكان هذا أبلغ في باب النّهي من أن يقال: انتهوا، ونزلت آية التّحريم في سنة ثلاث من الهجرة بعد وقعة احد.

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

لمّا أمر اللّه باجتناب هذه الأمور عقّبه بالأمر بالطاعة له فيها وفي غيرها فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ والطاعة هي امتثال الأمر، والانتهاء عن المنهيّ عنه، ولذلك يصحّ أن يكون الطاعة طاعة لاثنين، بأن يوافق أمرهما وإرادتهما ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ المناهي، قال عطاء: يريد: واحذروا سخطي. والحذر امتناع القادر من الشيء لما فيه من الضرر ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم ولم تعملوا بما أمرتم به ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ معناه: الوعيد والتّهديد، كأنّه قال سبحانه: فاعلموا أنّكم قد استحققتم العقاب لتولّيكم عمّا أدّوا رسلنا إليكم من البلاغ الظاهر الواضح، و«ما» في قوله: «أنّما» كافّة عن عملها.

واعلم أنّ اللّه تعالى قرن الخمر والميسر بالأصنام، ففيه تحريم بليغ لهما وأيضا التعبير بالرجس بمعنى اللّعنة والعذاب دليل على الحرمة ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] ولعلّ قوله ﷺ: **«شارب الخمر كعابد الوثن»** مستفاد من هذه الآية، وفي الحديث: **«من شرب الخمر في الدنيا سقاه الله من سمّ الأساود وسمّ العقارب، إذا شربه تساقط لحم وجهه**

١ـ سورة يونس: ١٠٠.

في الإناء قبل أن يشربها، فإذا شربها تفسخ لحمه كالجيفة يتأذى به أهل الموقف، ومن مات قبل أن يتوب من شرب الخمر كان حقاً على الله أن يسقيه بكلّ جرعة شربها في الدنيا شربة من صديد جهنم». وفي الحديث: «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، وحاملها، والمحمولة إليه وآكل ثمنها».[١]

وفي الحديث: «من شرب الخمر بعد أن حرّمها الله على لساني فليس له أن يزوّج إذا خطب، ولا يصدّق إذا حدّث، ولا يشفّع إذا تشفّع، ولا يؤتمن على أمانة، فمن ائتمنه على أمانة، فاستهلكها فحقّ على الله أن لا يخلف عليه».[٢]

قال ﷺ: «الخمر أمّ الخبائث، وذلك لأنها تهيّج الصفات الخبيثة في النفس مثل الحرص والكبر، والغضب والعداوة، والحقد، والحسد، وبها يضلّ العبد عن سواء السبيل وأمّا الأنصاب فهي تعبد من دون الله، فهي تجعل العبد مشركا بالله، وأمّا الأزلام والالتفات إليها عند توقّع الخير والشرّ والنفع والضرّ من دون الله من المضلّات والفتن فإنّ الله هو الضارّ والنافع». فهذه الأربعة متقاربة في القبح والمفسدة.

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

قال ابن عبّاس وجماعة مثل أنس بن مالك والبراء بن عازب: (إنّه لمّا نزلت التحريم في الخمر والميسر، قالت الصحابة: يا رسول الله ما تقول في إخواننا الّذين مضوا وهم يشربون الخمور، ويأكلون الميسر؟ فنزلت هذه الآية).

وقيل: إنّها نزلت في القوم الّذين حرموا على أنفسهم اللّحوم، وسلكوا مسلك الترهّب فبيّن الله لهم أنّه لا جناح في تناول المباح مع اجتناب المحرّمات فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم

١ـ المبسوط للشيخ الطوسي، ج ٨، ص ٥٨؛ والسرائر، ج ٣ ،ص ٤٧٣.

٢ـ انظر: الكافي، ج ٥، ص ٣٠٠؛ وتهذيب الأحكام، ج ٩، ص ١٠٣.

وحرج ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾[1] أي: تناولوا، والطّعام في الأغلب من اللّغة خلاف الشّراب، فكذلك يجب أن يكون الطعم خلاف الشّرب، إلّا أنّ اسم الطّعام قد يقع ويستعمل على المشروب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ فعلى هذا يصحّ أن يكون قوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي: شربوا الخمر، ويجوز أن يكون معنى الطعم راجعاً إلى التلذّذ بما يؤكل ويشرب قالت العرب: «تطعّم تطعم» أي: ذق حتّى تشتهي[2] فإذا كان معنى الكلمة راجعاً إلى الذوق صلح للمأكول والمشروب معاً.

وهاهنا مسألة، وهي أنّه زعم بعض الجهّال أنّه تعالى، لمّا بيّن في الخمر أنّها محرّمة عند ما تكون موقعة للعداوة والبغضاء وصادّة عن ذكر اللّه وعن الصلاة بيّن في هذه الآية أنّه لا جناح على من طعمها إذا لم يحصل معه شيء من تلك المفاسد، بل حصل معه أنواع المصالح من الطاعة والتقوى والإحسان، ثمّ بجهلهم، قالوا: ولا يمكن حمله على أحوال من شرب الخمر قبل نزول آية التّحريم لأنّه لو كان المراد ذلك لقال: ما كان جناح على الّذين طعموا كما ذكر مثل ذلك في آية تحويل القبلة فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[3] ولكنّه لم يقل ذلك، بل قال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ ولا شكّ أنّ «إذا» للمستقبل لا للماضي انتهى كلامهم فأمّا الجواب، قال أبو بكر الأصمّ: إنّه لمّا نزلت آية تحريم الخمر قال بعض الأصحاب: يا رسول اللّه كيف بإخواننا الّذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار؟ وكيف بالغائبين عنّا في البلدان ولا يشعرون بعد بأنّ اللّه حرّم الخمر،

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١٢.

٢ـ في الأساس: ذق تشته، وهو الصحيح.

٣ـ سورة البقرة: ١٤٣.

وهم يطعمونها؟ فأنزل الله هذه الآية، وعلى هذا التّقدير فالحمل قد ثبت في الزمان المستقبل عن وقت نزول الآية، لكن في حقّ الغائبين الّذين لم يبلغهم النّصّ.

تفسير الآية: ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات إثم ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ وفي تفسير أهل البيت: فيما طعموا من الحلال ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ شربها بعد التحريم ﴿وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الطاعات ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ أي: داموا على الاتّقاء ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ أي: داموا على الإيمان ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ عن المخالفة بفعل الطّاعات والفرائض ﴿وَّأَحۡسَنُواْ﴾ بفعل الخيرات وإتيان النوافل. قال الطبرسيّ: الاتّقاء الأوّل اتّقاء الشّرب بعد التّحريم والاتّقاء الثاني الدوام على ذلك، والاتّقاء الثّالث اتّقاء مطلق المعاصي مع ضمّ الإحسان إليه، فعلى هذا يكون الاتّقاء الأوّل هو اتّقاء الشرب بعد التحريم، والاتّقاء الثّاني هو الدوام على ذلك، والاتّقاء الثّالث اتّقاء مطلق المعاصي وضمّ الإحسان إليه وقيل: الاتّقاء الأوّل هو اتّقاء المعاصي العقليّة، والإيمان الأوّل هو الإيمان بالله، وبما أوجب الله الإيمان به، والإيمان بقبح هذه المعاصي، والاتّقاء الثّاني هو اتّقاء المعاصي السمعيّة والإيمان بقبحها ووجوب اجتنابها، والاتّقاء الثّالث مختصّ بمظالم العباد، وبما يتعدّى إلى الغير من الظلم والفساد.[١] وقال أبو عليّ الجبّائيّ: إنّ الشرط في قوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ يتعلّق بالزمان الماضي، والشرط الثاني يتعلّق بالدوام على ذلك والاستمرار على فعله، والشرط الثالث يختصّ بمظالم العباد، واستدلّ على أنّ هذا الاتّقاء إنّما اختصّ بالمظالم لقوله: ﴿وَّأَحۡسَنُواْ﴾ فإنّ الإحسان إذا كان متعدّياً وجب أن يكون المعاصي الّتي أمروا باتّقائها قبله أيضا متعدّية به.[٢]

١ـ تفسير مجمع البيان، ج٢، ص ٤١٣؛ وانظر: تفسير جوامع الجامع، ج ١، ص ٥٣١.

٢ـ تفسيرمجمع البيان، ج ٢، ص ٤١٣؛ وبحار الأنوار، ج ٦٢، ص ١١٤.

قال الطَّبرسيّ: وهذا الاستدلال ضعيف لأنّه لا يمتنع أن يكون الإحسان يراد به الفعل الحسن فيكون لازماً، ويراد من الباب في الفعل المبالغة كما يقولون لمن بالغ في فعل الحسن: أحسنت وأجملت، ثمّ لو سلّم أنّ المراد به الإحسان المتعدّي فلم لا يجوز أن يعطف فعل متعدّ على فعل لا يتعدّى[1]؟.

فلو قيل: إنّه لو كان المراد في قوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا﴾ المباحات والحلال لزم تقييد إباحتها باتّقاء ما عداها من المحرّمات، لقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ وليس الأمر كذلك بل الكافر إذا أكل حلالاً لم يكن عليه إثم فالجواب أنّه إنّما تخصصت بذلك الطارئ عليها، فالجواب أنّ هذا القيد ليس المراد منه أنّ المباح مشروط إباحته بالتّقوى، بل المراد من الآية، بيان أحوال أولئك الأقوام الّذين فيهم هذه الآية ولمّا يعلموا بعد بحرمتها وكانوا على هذه الصفة، والآية ثناء عليهم وحمد لأحوالهم من الإيمان والتقوى والإحسان. ثمّ إنّهم لمّا لم يعلموا بعد بحرمتها وطعموا منها لم يكن لهم حراماً، فصحّ القول بأنّ المراد من قوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا﴾ الحلال.

وفي الآية قول آخر، وهو أنّ المقصود من هذا التّكرير التأكيد والمبالغة في الحثّ على الإيمان والتّقوى.

قال الطبرسيّ: وجدت في بعض رسائل السيّد المرتضى﵀ أنّه قال: إنّ المفسّرين تشاغلوا بإيضاح الوجه في التّكرار الّذي تضمّنته هذه الآية، وظنّوا أنّه المشكل فيها وتركوا ما هو أشدّ إشكالاً من التكرار، وهو أنّه قد نفي الجناح عن الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فيما يطعمونه بشرط الاتّقاء والإيمان وعمل الصّالحات والحال أنّ الإيمان وعمل الصّالحات ليس بشرط في نفي الجناح فإنّ المباح إذا وقع من الكافر فلا إثم عليه، قال: ولنا في حلّ

١ـ المصدر السابق نفسه.

هذه الشبهة طريقان:

أحدهما: أن يضمّ إلى هذا الشّرط المصرّح بذكر كلمة: (غيره) حتّى يظهر تأثير ما شرط فيكون تقدير الآية: ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جناح في ما طعموا وغيره، إذا ما اتّقوا وآمنوا وعملوا الصّالحات، لأنّ الشّرط في نفي الجناح لابدّ من أن يكون له تأثير حتّى يكون متى انتفى ثبت الجناح، وقد علمنا أنّ باتّقاء المحارم ينتفي الجناح فيما يطعم فهو الشّرط الّذي لا زيادة عليه، ولمّا ذكر الاتّقاء والإيمان وعمل الصالحات ـ ولا تأثير لهما في نفي الجناح ـ علمنا أنّه أضمر ما تقدّم ذكره ليصحّ الشّرط ويطابق المشروط لأنّ من اتّقى الحرام لا جناح عليه فيما يطعم، ولكنّه قد يصحّ أن يثبت عليه الجناح فيما أخلّ به من واجب فإذا شرطنا أنّه وقع اتّقاء القبيح ممّن آمن بالله وعمل الصّالحات ارتفع الجناح عنه من كلّ وجه، وليس بمنكر حذف ما ذكرناه لدلالة الكلام عليه، فمن عادة العرب أن يحذفوا ما يجري هذا المجرى ويكون قوّة الدلالة عليه مغنية عن النطق به، قال شاعرهم:

تـراه كـأنّ اللّـه يجـدع أنفـه ... وعينيه أن مولاه يأت له وفـر

لمّا كان الجدع[1] لا يليق بالعين وكانت معطوفة على الأنف الّذي يليق الجدع به أضمر ما يليق بالعين من البخص،[2] وما يجري مجراه.

والطّريق الثّاني: هو أن يجعل الإيمان وعمل الصّالحات هنا ليس بشرط حقيقيّ، وإن كان معطوفاً على الشّرط فكأنّه تعالى لمّا أراد أن يبيّن وجوب الإيمان وعمل الصّالحات عطفه على ما هو واجب من اتّقاء المحارم لاشتراكهما في الوجوب وإن لم يشتركا في كونهما شرطا في نفي الجناح

١ـ جدع أنفه: قطعه.

٢ـ بخص العين بخصاً ـ بسكون الخاء: قلعها.

فيما يطعم، وهذا توسّع في البلاغة يحار فيه العقل استحساناً واستغراباً.[١]

قال الطبرسيّ: وقد قيل أيضا في الجواب عن ذلك: إنّ المؤمن يصحّ ويجوز أن يطلق عليه: لا جناح عليه، أو جناح عليه، وأمّا الكافر فمغمور في العقاب بكفره، فلا يطلق عليه هذا اللّفظ، والكافر قد سدّ على نفسه طريق معرفة التّحريم والتّحليل، ولذلك خصّ المؤمن بالذّكر.[٢]

وروي أنّ قدامة بن مظعون شرب الخمر في أيّام عمر بن الخطّاب فأراد أن يقيم عليه الحدّ[٣]، فتلا قدامة: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ فأراد عمر أن يدرأ عنه الحدّ فقال عليّ عليه السلام: «**أديروه على الصّحابة، فإن لم يسمع أحداً منهم قرأ عليه آية التّحريم فادرؤوا عنه، فإذا كان قد سمع فاستتيبوه فأقيموا عليه الحدّ، فإن لم يتب وجب عليه القتل**».[٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٢، ص١١٧.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ رواه الطبرسي مرسلاً في تفسيره: ، ج ٣، ص٢٤٢ وقدامة هو أخو عثمان بن مظعون، أحد السابقين الأولين، هاجر الهجرتين ـ الحبشة والمدينة ـ وشهد بدراً، وكان زوج صفية أخت عمر، واستعمله عمر على البحرين. مات سنة ست وثلاثين عن ثمان وستين. الإصابة، ج ٣، ص٣١٩ـ ٣٢١).

وجه النّظم أنّه تعالى لمّا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾[١] ثمّ استثنى الخمر والميسر فكذلك استثنى في هذه الآية هذا النوع من الصّيد عن المحلّلات وبيّن دخوله في المحرّمات، ونزلت الآية عام الحديبية في السّنة السّادسة من الهجرة، والحديبية بتخفيف الياء الأخيرة ـ وقد تشدّد ـ موضع قريب من مكّة، وذلك أنّهﷺ أراد زيارة الكعبة فسار هو وأصحابه من المدينة وهم ألف وخمسمائة وأربعون رجلاً ، فنزلوا بالحديبية، فابتلاهم اللّه بالصيد وهم محرمون، كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث كانوا متمكّنين من صيدها أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم فهمّوا بأخذها، قال أصحاب المعاني: امتحن اللّه امّة محمّدﷺ بصيد البرّ كما امتحن امّة موسى بصيد البحر، فأنزل اللّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ واللام في قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ لام القسم لأنّ اللام والنّون قد يكونان جواباً للقسم وإذا ترك القسم جيء بهما علامة على القسم التقدير: واللّه ليعاملكم معاملة المختبر والممتحن، وخصّ المؤمنين بالذّكر وإن كان الكفّار أيضا مخاطبين بالشّرائع لأنّهم القابلون لذلك المنتفعون به أو لأنّه لم يعتد بالكفّار ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ أي: بتحريم بعض من الصيد لأنّه عنى صيد البرّ خاصّة، منعهم اللّه عن الصّيد وهم محرمون، ولعلّ المراد من قوله: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ أن يعلم أنّه ليس بفتنة من الفتن العظام الّتي يكون التكليف فيها صعباً شاقّاً كالابتلاء ببذل الروح والمال وإنّما هو ابتلاء سهل ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قيل: الّذي تناله الأيدي، صغار الوحش وفراخ الطير، والّذي تناله الرماح الكبار من الصّيد عن ابن عبّاس، وهو المرويّ عن أبي عبد اللّهؑ. وقيل: إنّ صيد الحرم تنال بالأيدي والرماح لأنّه كان يأنس بالناس ولا ينفر منهم فيه، بخلاف الحلّ فإنّه كان ينفر فيه،

١ـ سورة المائدة: ٨٧.

وذلك آية من آيات اللّه عن أبي عليّ الجبّائيّ، وثالث الأقوال أنّ المراد ما قرب من الصّيد وما بعد ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾[1] والخوف من اللّه الخوف من عقابه وغضبه، والمعنى: ليتميّز الخائف من عقابه الاخرويّ وهو غائب مترقّب لقوّة إيمانه، فلا يتعرّض للصّيد ممّن لا يخاف كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه، ولمّا كان علم اللّه مقتضى ذاته وامتنع عليه التجدّد والتغيّر كما امتنع ذلك على ذاته جعل هاهنا مجازاً عن تمييز المعلوم وظهوره على طريق إطلاق السبب على المسبّب، قال القاضي والمولى أبو السّعود: إنّما عبّر بالعلم إيذاناً بمدار الجزاء ثواباً وعقاباً لأنّ حصول الجزاء منوط بحصول المعلوم وتميّزه، ويجوز أن يكون معنى من يخافه بالغيب أي: من يخاف حال إيمانه بالغيب كما ذكر في أوّل كتابه وهو قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أو المعنى من يخافه بإخلاص وتحقيق، ولا يختلف حاله بسبب حضور واحد أو غيبته كما في حقّ المنافقين الّذين إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا: آمنّا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنّا معكم، والباء في قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ في محلّ النّصب بالحال ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد بيان أنّ ما وقع امتحان من جهته تعالى وتعرّض للصّيد ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنّ الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة، وعدم مبالاة بحكم اللّه وانخلاع عن طاعته، والمراد عذاب الآخرة إن مات قبل التّوبة، ثمّ ذكر سبحانه ما يجب على ذلك الاعتداء من الجزاء في الدنيا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ واختلف في معنى الصيد قيل: هو كلّ الوحش أكل أو لم يؤكل، وهو قول أهل العراق، واستدلّوا بقول عليّ عليه السلام:

صيد الملوك أرانـب وثعالـب ... وإذا ركبت فصيدي الأبطال[2]

١ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١٩.

٢ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١٩؛ وبحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٤٣٤.

قال الطبرسيّ: وهو مذهب أصحابنا، وقيل: هو كلّ ما يؤكل لحمه، وهو قول الشّافعيّ ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: محرمون بحجّ أو عمرة وقيل: معناه: وأنتم في الحرم. قال الجبّائي: الآية تدلّ على تحريم قتل الصّيد على الوجهين وهو الصّحيح لكن قال عليّ بن عيسى: الآية تدلّ على الإحرام بالحجّ أو العمرة فقط ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ قيل: معناه هو أن يتعمّد القتل ناسياً لإحرامه عن الحسن ومجاهد وابن زيد وابن جريح وإبراهيم النّخعيّ قالوا: وأمّا إذا تعمّد في القتل ذاكراً لإحرامه فلا جزاء فيه لأنّه أعظم من أن يكون له كفّارة.

وقال ابن عبّاس والزّهريّ وعطاء[١]: (هو أن يتعمّد القتل وإن كان ذاكراً لإحرامه)، وهو قول أكثر الفقهاء فأمّا إذا قتل الصّيد خطأ ونسيانا، فهو كالمتعمّد من وجوب الجزاء عليه وهو مذهب عامّة أهل العلم والبصيرة. قال الطبرسيّ: وهو المرويّ عن أئمتنا عليهم السلام[٢]، قال الزّهريّ: نزل القرآن بالعمد وجرت السنّة في الخطأ ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ قرئ جزاء منوّناً، وقرء بالإضافة وبالتّنوين. المعنى: فعليه جزاء من النّعم مماثل للمقتول والواجب عليه جزاء من النّعم مماثل ما قتل من الصّيد، وبالإضافة أيضا يؤول المعنى إلى معنى واحد باختلاف يسير، قال الزّجاج: ويجوز أن يكون المعنى: فجزاء ذلك القتل مثل ما قتل فيكون جزاء مبتدءاً، و«مثل» خبره.[٣] قال الطبرسيّ: واختلف في هذه المماثلة أهي في القيمة أو الخلقة؟ فالّذي عليه معظم أهل العلم أنّ المماثلة معتبرة في الخلقة ففي النعامة بدنة، وفي حمار الوحش وشبهه بقرة، وفي الظّبي والأرنب وأمثالها شاة، وهو المرويّ عن أهل البيت،

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ المصدر السابق، ص٤٢١.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

وهو قول ابن عبّاس والحسن والضحّاك والسدّيّ ومجاهد وعطا وغيرهم وقال إبراهيم النخعيّ: يقوّم الصيد قيمة عادلة ثمّ يشترى بثمنه مثله من النّعم، فاعتبر المماثلة بالقيمة، والصّحيح القول الأول[١]، ومنشأ الاختلاف: القراءتان.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ وفي قراءة محمّد بن عليّ الباقر وجعفر بن محمّد الصّادق عليهما السلام: **«يحكم به ذو عدل منكم»** وفي تفسير أهل البيت منقولاً عن السيّدين الإمامين عليهما السلام أنّ المراد بذي العدل رسول الله وأولو الأمر من بعده لأن التّقويم مع تشخيص المماثلة لا يعرفه كلّ أحد من الناس ولا يهتدي إليه إلّا الربّانيّون قيل: إنّ الشافعيّ أوجب في قتل الحمامة شاة بناء على ما أثبت بينهما من المماثلة من حيث إنّ كلّا منهما يعبّ ويهدر مع أن النسبة بينهما في سائر الحيثيّات كما بين الضّب والنون، وعلى القراءة التثنية قال ابن عبّاس: (يريد: يحكم في الصّيد بالجزاء رجلان صالحان من أهل دينكم، فينظران إلى أشبه الأشياء به من النّعم)، أي: الأنعام الثّلاثة من الإبل والبقر والغنم، فيحكمان به.

﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: يهديه هدياً يبلغ الكعبة، قال ابن عبّاس: يريد إذا أتى مكّة ذبحه وتصدّق به[٢]، قال أصحابنا: إن كان أصاب الصّيد وهو محرم بالعمرة ذبح جزاءه أو نحر بمكّة قبالة الكعبة، وإن كان محرّماً بالحجّ ذبحه أو نحره بمعنى، والهدي ما يهدى إلى البيت تقرّباً إلى الله من النّعم أيسره شاة وأوسطه بقرة وأعلاه بدنة أي: ناقة، و﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ صفة لهديا، والإضافة لفظيّة، والأصل بالغاً إلى الكعبة ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ قيل: في معناه قولان: أحدهما: أن يقوّم عدله ومثله من النّعم، ثمّ يجعل قيمته طعاماً ويتصدّق به، عن عطاء وهو الصحيح، والآخر: أن يقوّم الصّيد المقتول حيّا،

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ فقه القرآن، للقطب الراوندي، ج ١، ص ٣٠٩؛ وتفسير مجمع البيان ،ج ٣، ص ٤٢٠.

ثمّ يجعل طعاماً، وقرأ نافع وأبي عامر: أو كفّارة طعام على الإضافة، والباقون: أو كفارة منوّناً بالرّفع.

ووجه القراءة الأولى، فهو أنّه تعالى لمّا خيّر المكلّف بين ثلاثة أشياء: الهدي والصيام والطّعام حسنت الإضافة، لكون الكفّارة من هذه الأشياء، وأمّا وجه التّنوين فهو أنّه عطف على قوله: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ فيكون ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ عطف بيان لأنّ الطّعام هو الكفّارة ولم تصف الطعام لأنّ الكفّارة ليست للطعام، وإنّما الكفّارة لقتل الصّيد.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ وذلك إشارة إلى الطعام و﴿صِيَامًا﴾ منصوب على التمييز للعدل، «واو» عطف على ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ وعدل بكسر العين: المثل من جنسه، والعدل بالفتح: المثل من غير جنسه، فحاصل معنى الآية أنّ من جنى هذه الجناية فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النّعم، أو طعام مساكين حسب ما ذكر، أو صيام أيّام بعدد المساكين المطعمين وفيه قولان أيضا: أحدهما: أن يصوم عن كل مد يقوّم من الطّعام يوماً، وهو مذهب الشّافعيّ، والآخر: أن يصوم عن كل مدّين يوماً، وهو المرويّ عن أئمّتنا وهو مذهب أبي حنيفة.

ثمّ اختلفوا في هذه الكفّارات الثلاث هل هي مرتّبة أمّ مخيّرة؟ قيل: مخيّرة، وقيل: مرتّبة، وحجّة القائل بالتّخيير أنّ كلمة «أو» في أصل اللّغة للتّخيير، والقول بأنّها للتّرتيب ترك للظّاهر، وحجّة القائلين بالتّرتيب أنّ كلمة «أو» قد تجيء لغير معنى التّرتيب، كما في قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾[1]، فإنّ المراد منه تخصيص كلّ واحد من هذه الأحكام للمحارب بحالة معيّنة، فثبت أنّ هذا اللّفظ يحتمل

١ـ سورة المائده: ٣٣.

الترتيب وقالوا: والدليل دلّ على أنّ المراد هو الترتيب، لأنّ الواجب هنا حكم وشرّع على سبيل التّغليظ بدليل قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ والتّخيير ينافي التّغليظ، وأجابوا عنه بأنّ إخراج المثل ليس أقوى عقوبة من إخراج الطّعام، فالتّخيير لا يقدح في القدر الحاصل من العقوبة في إيجاب المثل[1]، وأمّا في موضع التّقويم فقال أكثر الفقهاء من العامّة: إنّما يقوّم في المكان الّذي قتل الصيد فيه وقيل: يقوّم بمكّة.

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: عقوبة ما فعله ووخامة أمره وثقله، يقال: مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة، وماء وبيل إذا لم يستمرّ، وإنّما سمّي الجزاء وبالاً مع أنّها عبادة ونعمة ومصلحة، لأنّه تعالى شدّد عليهم التّكليف وثقل ذلك عليهم، كما حرّم الشّحم على بني إسرائيل لمّا اعتدوا في السّبت فثقل ذلك عليهم، وإن كان مصلحة، لأنّ الله كلّفهم وخيّرهم بين ثلاثة أمور اثنان منها يوجب نقصان المال وهما الجزاء بالمثل والإطعام، والثّالث يوجب إيلام البدن وهو الصوم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من أمر الجاهليّة، وقيل: المعنى: عفا الله عمّا سلف منهم قبل أن يسألوا رسول الله، فإن قيل: إنّهم قبل التّحريم ما كانوا خاطئين حتّى يعفوا وذلك لأنّهم كانوا قبل الإسلام متعبّدين بشرائع من قبلهم وكان الصّيد فيها محرّما. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصّيد بعد النّهي عنه وهو محرم ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: فهو ينتقم الله منه، والمراد بالانتقام: التّعذيب في الآخرة، واختلف في لزوم الجزاء بعد العود: قال ابن عبّاس والحسن: لا جزاء عليه، ويقولون: إنّ ذنبه أعظم من أن يكفّره التصدّق بالجزاء، وعلى هذا القول يكون المراد من قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ في

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص٩٥.

المرة الأولى بسبب أداء الجزاء، ومن عاد إليه مرة ثانية وصاد فلا كفارة لجرمه، بل الله ينتقم منه. وحجة هذا القول أن الفاء في قوله: ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾ فاء الجزاء والجزاء هو الكافي، وكونه كافياً يمنع من وجوب شيء آخر فلا يجب الجزاء عليه، قال الطبرسيّ: وهذا القول هو الظاهر من روايات أصحابنا، وقيل: إنّه يلزمه الجزاء، عن عطا وسعيد بن جبير وإبراهيم، وبه قال بعض أصحابنا. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ غالب في حكمه ينتقم ممّن تعدّى أمره ويرتكب نهيه.

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٦﴾

المراد بالصيد المصيد، علي بالبحر جميع المياه، والعرب تسمّي النهر بحراً أي: أبيح لكم، والخطاب للمحرمين وإن كان غير المحرم داخلاً فيه. صيد الماء: الطريّ منه ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي: طعام البحر، ثمّ اختلف في معناه، فقيل: يريد به ما قذفه البحر ميّتاً وقيل: يريد بصيد البحر السّمك الطريّ وبطعامه المملوح، عن سعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير ومجاهد، وهذا الّذي بمذهبنا، وإنّما سمّي طعاماً لأنه يدّخر ليطعم ويؤكل كالمعتاد من الأغذية.

قال الطبرسيّ: فيكون المراد بصيد البحر: الطريّ وبطعامه: المملوح، لأنّ عندنا لا يجوز أكل ما يقذف البحر ميّتاً للمحرم وغير المحرم وقيل: المراد بطعامه ما ينبت بمائه من الزروع والثّمار.[1]

﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ في انتصاب ﴿مَتَٰعٗا﴾ قال الزجّاج: انتصب لكونه مصدراً مؤكّداً، ولمّا قال سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ﴾ كان دليلاً على أنه

١ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٤٢٢.

منعم به وذكر ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾ تصريحاً بأنّه أنعم عليكم[1] وقال صاحب «الكشّاف»: انتصب لكونه مفعولاً له، أي: أحلّ لكم تمتيعاً لكم[2] ومنفعة وللسيّارة، أي: للمقيم والمسافر فالطريّ للمقيم والمالح للمسافر وقيل: معناه لأهل الأمصار والقرى وقيل: للمحلّ والمحرم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗا﴾ اتّفق المسلمون على أنّ المحرم يحرم عليه الصّيد بنصّ الآية واختلفوا في الصيد الّذي يصيده المحلّ هل يحلّ للمحرم؟ قال عليّ عليه السلام وابن عبّاس وسعيد بن جبير وطاوس وجماعة: «**إنّه يحرم بكلّ حال للمحرم**»، وعوّلوا فيه على قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗا﴾ وذلك لأنّ صيد البرّ يدخل فيه ما اصطاده المحرم والمحلّ وكلّ ذلك صيد البرّ، هذا أحد الأقوال وعليه المعتمد وقيل: إنّ لحم الصيد لا يحرم على المحرم إذا صاده غيره، وهذا القول عن عمر وعثمان والحسن وقال الشافعيّ: إنّ لحم الصّيد مباح للمحرم بشرط أن لا يصطاده المحرم ولا يصطاد له.

و اعلم أنّ صيد البحر هو الّذي لا يعيش إلّا في الماء، وليس كلّه حلالاً أكله، وأمّا الّذي لا يعيش إلّا في البرّ والّذي يمكنه أن يعيش في البرّ تارة وفي البحر اخرى فذاك كلّه صيد البرّ فعلى هذا فمثل السلحفاة والسرطان والضفدع وطير الماء، وأمثالها كلّ ذلك يحسب من صيد البرّ ويجب على قاتله الجزاء إذا كان محرما. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ والمقصود من الآية التهديد ليكون المرء مواظباً على الطاعة محترزاً عن المعصية.

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص٩٨.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٩٨.

اتّصال هذه الآية بما قبلها هو أنّ اللّه تعالى لمّا حرّم في الآية المتقدّمة الاصطياد على المحرم بيّن في هذه الآية أنّ الحرم كما أنّه سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات، وسبب لحصول الخيرات والسعادات.

قرأ ابن عامر: «قيما» بغير ألف، والباقون بالألف: قياما. وسمّيت الكعبة كعبة لتربيعها،[١] والكعوبة النتوّ ومنه كعب الإنسان لنتوّه، وكعبت المرأة: إذا نتا ثديها والعرب تسمّي كلّ بيت مربّع كعبة، وإنّ المتفرّد من البنيان يسمّى كعبة لنتوّه من الأرض، والبيت الحرام سمّي بذلك لأنّ اللّه تعالى حرّم أموراً فيها وعظّم حرمته، وفي الحديث: «**مكتوب في أسفل المقام: إنّي أنا الله ذو بكّة حرّمتها يوم خلقت السماوات والأرض ويوم وضعت هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك ضياء، من جاءني زائراً لهذا البيت عارفاً بحقّه مذعناً لي بالربوبيّة حرّمت جسده على النار**».

المعنى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ﴾ أي: حكم وصيّر الكعبة وحجّها ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما يجيء الصفة كذلك، والحرام بمعنى المحرّم.

قال الحقّيّ في تفسيره المسمّى بـ«روح البيان»: وقد جاء في بعض التفاسير في قوله: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[٢] أنّه لم تجبه بهذه المقالة من الأرض إلّا أرض الحرم فلذلك حرّمها فصارت حرمتها كحرمة المؤمن إنّما حرّم دمه وعرضه وماله بسبب طاعته لربّه، فأرض الحرم لمّا قالت: أتينا طائعين حرّم صيدها وشجرها وفي الخبر أنّه لم يأكل الحيتان الكبار صغارها في أرض الحرم في الطوفان لحرمتها ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ وأصله

١ـ وهو مروي في الفقيه مرسلاً في باب علل الحج، ص ٢٠١.

٢ـ سورة فصلت: ١١.

قوام لأنّه من قام يقوم مصدر كالصيام فإذا صحّ قلب حرف العلّة في الفعل صحّ في مصدره، وإذا اعتلّ في الفعل اعتلّ في مصدره وذكروا في كون الكعبة سبباً لقوام مصالح النّاس وجوهاً:

الأول: أنّ أهل مكّة كانوا محتاجين إلى حضور أهل الآفاق عندهم ليشتروا منهم ما يحتاجون إليه. فاللّه تعالى جعل الكعبة معظّمة في القلوب حتّى صاروا أهل الدنيا راغبين في زيارتها، مسافرين إليها من كل فجّ عميق لأجل التجارة وصار ذلك سبباً لإسباغ النعم على أهل مكّة.

الثاني: أنّ العرب كانوا يتقاتلون ويغزون إلّا في الحرم، فكان أهل الحرم آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم حتّى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم لم يتعرّض له[١]، ولو جنى الرجل أعظم الجنايات ثمّ التجأ إلى الحرم لم يتعرّض له، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[٢]

الثالث: أنّه تعالى جعل الكعبة قواماً للناس في دينهم بسبب ما جعل فيها من المناسك العظيمة والطاعات الشريفة، وجعل تلك المناسك سبباً لحطّ الذنوب ورفع الدرجات وكثرة الكرامات، والآية محمولة على جميع هذه الوجوه ومن المعلوم أنّ قوام أمور الناس إمّا بكثرة المنافع وهو الوجه الأوّل، أو بدفع المضارّ وهو الوجه الثاني، أو بحصول الدين والسعادة وهو الوجه الثالث، فصارت الكعبة سبباً لقوام الناس والمراد من الناس بعض الناس وهم العرب، وإنّما حسن هذا المجاز لأن أهل كلّ بلد إذا قالوا: الناس فعلوا كذا وصنعوا كذا فإنّهم لا يريدون إلّا أهل بلدتهم، فلهذا السبب خوطبوا على وفق عادتهم.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١١١.

٢ـ سورة العنكبوت: ٦٧.

وقيل: إنّ معنى قياماً للنّاس أنّهم لو تركوه عاماً واحداً لا يحجّونه ما نوظروا أن يهلكوا، عن عطا، ورواه عليّ بن إبراهيم عنهم‌عليهم‌السلام: «**مادامت الكعبة يحجّ الناس إليها لم يهلكوا فإذا هدمت وتركوا الحجّ هلكوا**».[1]

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني: أشهر الحرم وهي أربعة: واحد فرد وثلاثة سرد أي: متتابعة فالفرد رجب والسرد ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم، وإنّما خرج مخرج الواحد لأنّه ذهب به مذهب الجنس وهو عطف على المفعول الأوّل لجعل أي: وجعل الشهر الحرام الّذي يؤدّى فيه الحجّ قياماً لهم أيضا، مثل قولك: ظننت زيداً منطلقاً وعمرو، فالشهر الحرام أيضا سبب لقوام النّاس وذلك لأنّه إذا دخل الشهر الحرام زال الخوف منهم وقدروا على الأسفار والتجارات وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم ويحصلون فيه من الأقوات ما كان يكفيهم طول السنة، فلو لا حرمة الشهر لهلكوا وتفانوا من الشدّة والجوع بزيادة اكتساب الثواب العظيم إذا أقاموا مناسك الحجّ.

﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ أي: وجعل الله الهدي أيضاً قياماً لهم وهو ما يهدي إلى البيت ويذبح هناك ويفرّق لحمه بين الفقراء، فهو قوام لمعيشة الفقراء. والقلائد أي: وجعل القلائد أيضاً قياماً للنّاس، وهي جمع قلادة وهي ما يقلّد به الهدي من نعل أو لحاء شجر أو علامة ليعلم أنّه هدي فلا يتعرّض له بركوب أو حمل، والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهي البدن والبقرة والأضاحيّ، ووجه كون القلائد سبباً لقوام النّاس أنّ من قلّد هدياً لم يتعرّض له أحد، وربما كانوا يقلّدون رواحلهم إذا رجعوا من مكّة من لحاء شجر

١ـ رواه مرسلاً علي بن إبراهيم، ص١٤٧ من تفسيره المطبوع. وفي الفقيه، عن حنان بن سرير قال ذكرت لأبي جعفر‌عليه‌السلام البيت فقال: «**لو عطلوه سنة واحدة لم يناظروا**» وفي خبر آخر «**لنزل عليهم العذاب**». وفي تفسير مجمع البيان، ج٣ ص٤٢٤.

الحرم، فيأمنون بذلك، فكان أهل الجاهليّة يأكل الواحد منهم القضيب والشجر من الجوع وهو يرى الهدي والقلائد فلا يتعرّض له تعظيماً، فكانت هذه الأمور دالّة على عظمة البيت وشرفه. ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ إشارة إلى الجعل منصوب بفعل مقدّر أي: شرع الله ذلك وبيّن لتعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنّ تشريع هذه الشرائع لدفع المضارّ الدينيّة والدنيويّة قبل وقوعها من أوضح الدلائل على حكمة الشارع، وعلى عدم خروج شيء من علمه المحيط، فإنّه تعالى لمّا علم في الأزل أنّ مقتضى عادة العرب وحرسهم الشديد على القتل والغارة وأنّه لو دامت بهم هذه الحالة لعجزوا عن تحصيل ما يحتاجون إليه، ولأدّى ذلك إلى فنائهم وانقطاعهم بالكلّيّة دبّر في ذلك تدبيراً لطيفاً وهو أنّه ألقى في قلوبهم اعتقاداً قويّاً في تعظيم البيت، فصار ذلك سبباً لحصول الأمن في البلد الحرام وفي الأشهر الحرم، فاستقامت بذلك مصالح معاشهم وقلّت مفسدتهم، وذلك التدبير بسبب علمه الأزليّ بجميع المعلومات من الجزئيّات والكلّيات ولهذا قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثمّ قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تعميم بعد تخصيص للتأكيد وما أحسن هذا الترتيب في هذا البيان!.

ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾

لمّا ذكر سبحانه رحمته لعباده عقّبه بذكر الوعيد والوعد فقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن انهتك محارمه وعصاه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لمن تاب وأناب وانقطع عن الانتهاك وأطاع وجمع بين الوعيد والوعد لأنّ الإيمان لا يتمّ إلّا بالخوف والرجاء كما قال ﷺ: «**لو وزن خوف**

المؤمن ورجاؤه لاعتدلا».[1] ثمّ ذكر ما يدلّ على الرحمة وهو كونه غفوراً رحيماً، وفي الآية إشعار بأنّ جانب الرحمة أغلب لأنّه أتي بوصفين من أوصاف الرحمة، ولمّا أنذر وبشّر عقّبه بقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وأداء الرسالة وبيان الشريعة، فأمّا القبول والردّ فهما من شأن المكلّف ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ولا يخفى عليه شيء من أحوالكم الّتي تظهرونها وتخفونها، وفي قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ دلالة على وجوب معرفة العقاب والثواب لكونهما لطفا في باب التكليف.

قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

سبب النزول: لمّا بيّن سبحانه الترغيب في الطاعة والتنفير عن المعصية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ بيّن في هذه الآية أنّ الحلال والحرام لا يستويان، قيل: نزلت الآية في حجّاج اليمامة لمّا همّ المسلمون أن يوقعوا بهم، وذلك بسبب أنّه كان فيهم رجل يقال له الحطيم وقد أتى المدينة في السّنة السابقة، واستاق سرح المدينة فخرج في العام القابل ـ وهو عام عمرة القضاء ـ حاجا، فبلغ ذلك أصحاب السرح، فقالوا للنبيّ ﷺ: هذا الحطيم خرج حاجّا مع حجّاج اليمامة فخلّ بيننا وبينه، فقال ﷺ: **«إنّه قلّد الهدي وما أذن لهم أن يوقعوا به بسبب استحقاقهم الأمن بتقليد الهدايا»** فنزلت الآية تصديقاً له ﷺ في نهيه إيّاهم عن تعرّض الحجّاج وإن كانوا مشركين، وقد مضت هذه القصّة في أوّل السورة أيضاً عند تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، وبقي حكم هذه الآية إلى أن نزلت سورة البراءة فنسخ بنزولها

١ـ فبهذا المعنى روايات رواها الكليني في الأصول من الكافي، ج ٢، ص٦٧ـ٧١؛ ورواه في تفسير الرازي، ج١٢، ص ١٠٢.

لأنه قد كان فيها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾(١) وفيها أيضا: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢) فنسخ حكم الهدي والقلائد والشهر الحرام والإحرام وأمنهم بدون الإسلام، وتبدّل الحكم بعد نزول سورة البراءة.

وبالجملة ففي الآية ترغيب في الجيّد والحلال، وتحذير عن الردي، والحرام. ويتناول الخبيث والطيّب أموراً كثيرة فمنها الحلال والحرام فمثقال حبّة من الحلال أرجح عند الله من ملء الدنيا من الحرام، وكيف وهو خبيث مردود، والحلال طيّب مقبول؟ وطالب الخبيث خبيث وطالب الطيّب طيّب؟ كما قال سبحانه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾(٣) الآية، وأيضا الخبيث من الأموال ما لم يخرج منها حقّ الله، والطيّب ما أخرجت منه الحقوق، والخبيث ما أنفق في وجوه الفساد، والطيّب ما أنفق في وجوه الطاعات ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ يعني: أنّ الّذي يكون خبيثاً في عالم أحكام الله وفي نواهيه قد يكون طيّباً وعظيم اللّذة عندك أيها الإنسان، إلّا أنّه مع لذّته وكثرة مقداره سبب لحرمان السعادات الباقية، ومورث للعقاب الدائم لكنّ الباقيات الصالحات الطيّبات خير عند ربّك ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ واجتنبوا الخبائث وما حرّم الله عليكم ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وذوي العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفوزوا وتفلحوا بالنّعيم المقيم والثواب العظيم.

قال أهل المعرفة: حقيقة التّقوى هو صدق قولك: لا إله إلّا الله وليس في قلبك شيء سواه، ومن وصايا بعض الكاملين قبل وفاته: أوصيكم بتقوى الله في

١ـ سورة التوبة: ٢٨.

٢ـ سورة التوبة: ٥.

٣ـ سورة النور: ٢٦.

السرّ والعلانية وبقلّة الطعام وبقلّة المنام وبقلّة الكلام وهجر المعاصي والآثام، وترك الشّهوات على الدوام واحتمال الجفاء من جميع الأنام، وبترك مجالسة السفهاء ودوام مصاحبة الصالحين الكرام، فإنّ خير النّاس من ينفع النّاس وخير الكلام ما قلّ ودلّ، واعلم أنّ الله يحبّ أن تعمل برخصه كما تعمل بفرائضه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)﴾

روي أنّه لمّا نزلت آية الحجّ وهي: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[١] قال سراقة بن مالك:[٢] أكلّ عام؟ فأعرض عنه رسول اللهﷺ حتّى أعاد ثلاثاً فقال: «**لا ولو قلت: نعم لوجب ولو وجب لما استطعتم فاتركوني ما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»[٣] فنزلت الآية، وعن ابن عبّاس انّهﷺ كان يخطب ذات يوم غضبان من كثرة ما يسألون عنه ممّا لا يعنيهم، فقال: «**لا أسأل عن شيء إلّا أجبت**»، فقال رجل: أين أبي؟ فقال: «**في النّار**»، وقال آخر: من أبي؟ فقال: «**حذافة**» ـ وكان يدعا لغيره ـ فنزلت الآية.[٤]

وذكر الرّازيّ أنّ الآية لعلّها متّصلة في النظم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[٥] أي: فاتركوا الأمور على ظواهرها، ولا تسألوا عن أحوال خفيّة إن تبد لكم تسؤكم، وإن شرطيّة والمعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا

١ـ سورة آل عمران: ٩٧.

٢ـ قال في مجمع البيان: فقام عكاشة بن عصن وقيل: سراقة بن مالك، انظر: ج ٣، ص٢٥٠.

٣ـ اختلف إلى المكان: تردد.

٤ـ شرح أصول كافي، ج ٢، ص ٢٨٥.

٥ـ سورة المائدة: ٩٩.

عنها في زمان الوحي تظهر لكم وإن تظهر لكم تغمّكم و«أشياء» جمع شيء غير منصرفة قال الخليل وسيبويه: شيء جمعه في الأصل شياء على وزن فعلاء فاستثقلوا اجتماع الهمزتين في آخره فنقلوا الهمزة الأولى الّتي هي لام الفعل إلى أوّل الكلمة فجعلت فعلاء تشبيهاً بالمعدول كما في: عامر وعمر، وزافر وزفر قال الرازيّ: إنّه لمّا كانت في الأصل على وزن فعلاء مثل حمراء لا جرم لم تنصرف ـ كما لم تنصرف حمراء ـ وأيضاً إنّا لمّا قطعنا الحرف الأخير منه وجعلناه أوّله والكلمة من حيث إنّها قطع منها الحرف الأخير صارت كنصف الكلمة ونصف الكلمة لا يقبل الإعراب، ومن حيث إنّ ذلك الحرف الّذي انقطع منها ما حذف بالكلّيّة بل ألصق بأوّلها كانت الكلمة كأنّها باقية بتمامها فلا جرم منعت بعض وجوه الإعراب دون البعض تنبيهاً على هذه الحالة، لكنّ الكسائيّ قال: إنّ «أشياء» على وزن أفعال إلّا أنّهم لم يصرفوه لكونه شبيهاً في الظاهر بحمراء وصفراء.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: عفا الله عن تبعة سؤالكم الّذي سلف منكم ممّا كرهه النبيّ، استئناف مسوق لبيان أنّ نهيهم عنها لم يكن لمجرّد صيانتهم عن المساءة بل لأنّها في نفسه معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفي عنها، وضمير «عنها» راجع إلى المسألة المدلول عليها بقوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا﴾ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فبالغ في مغفرة الذنوب والإغضاء عن المعاصي حيث لم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم. فجملة قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ افتراض تذييليّ مقرّر لعفوه تعالى وقال بعض المفسّرين: إنّ الآية نزلت في ما سألت الأمم أنبياءها من الآيات، ويؤيّده الآية الّتي بعدها.[١]

١ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٤٣٠.

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

أي: سألوا هذه المسألة لكن لا عينها، بل مثلها في كونها محظورة ومستتبعة للوبال وعدم التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بـ(سألها) ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا﴾ أي: بسببها ﴿كَٰفِرِينَ﴾ فإنّ بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء فإذا أمروا تركوها فهلكوا، كما سأل قوم ثمود صالحاً عليه السلام الناقة، وسأل قوم عيسى عليه السلام مائدة ثمّ كفروا بها، عن ابن عبّاس، أو إنّ قريشاً سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مثل هذه الأشياء، مثل سؤال ذلك الرجل عن حال أبيه فلمّا أخبرهم بذلك قالوا: ليس الأمر كذلك فكفروا بالردّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.(1)

فإن قيل: ما الّذي يجوز أن يسأل عنه، وما الّذي لا يجوز أن يسأل عنه؟ فالجواب أنّ الّذي يجوز السؤال عنه هو ما يجوز العمل به، وما لا يجوز في الأمور الدينيّة والدنيويّة فلا يجوز أن يسأل الإنسان من النبيّ أنّه من أبي؟ لأنّ المصلحة اقتضت أن يحكم على كلّ من ولد على فراش إنسان بأنّه ولده وإن لم يكن مخلوقاً من مائه. أو أنّ جبرئيل هل خلقة رأسه مثل خلقة رأسنا؟ وأمثال هذه السؤالات وقيل: في معنى الآية المتقدّمة تقديم وتأخير، والتقدير: لا تسألوا عن أشياء عفا اللّه عنها إن تبد لكم تسؤكم، قال الرازيّ: وهذا القول ضعيف، لأنّ الكلام إذ استقام من غير تغيّر النظم لم يجز المصير إلى التقديم والتأخير.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ و«جعل» يستعمل في معان: أحدها: الحكم، ومنه قوله:

١ـ المصدر السابق، ص ٤٣١.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾[١] وثانيها: الخلق، ومنه قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[٢] وبمعنى التقصير مثل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[٣] فمعنى قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ أي: ما حكم ولا شرع ولا أمر به.

ثمّ ذكر أربعة أشياء ـ و﴿مِنْ﴾ مزيدة للتأكيد في النفي ـ: ﴿بَحِيرَةٍ﴾ وهي فعيلة من البحر وهو الشقّ يقال: بحر ناقته إذا شقّ أذنها وهي بمعنى المفعول وذلك أنّه إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً شقّوا أذنها وامتنعوا من ركوبها وذبحها وسيّبوها لآلهتهم ولا يجزّ لها وبر، ولا يحمل على ظهرها ولا تطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى ولا ينتفع بها وإذا لقيها لم يركبها تحريجا.

﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾ هي فاعلة من ساب إذا جرى على وجه الأرض يقال: سابت الحيّة وساب الماء إذا جرى، فالسائبة هي الّتي تركت حتّى تسبّب إلى حيث شاءت، وهي المسيّبة كـ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: مرضيّة. قال أبو عبيدة: إنّ الرجل إذا مرض أو قدم من سفر أو نذر نذراً أو وصل نعمة وشكر اللّه سيّب بعيرا فكان بمنزلة البحيرة في جميع ما حكموا لها، عن الزجّاج وهو قول علقمة وقيل: هي الّتي تسيّب للأصنام أي: تعتق لها، وكان الرجل يسيّب من ماله يشاء فيجيء به إلى السدنة وهم خدمة آلهتهم فيطعمون من لبنها أبناء السبيل ونحو ذلك، عن ابن مسعود وابن عبّاس وقيل: إنّ السائبة هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس فيهنّ ذكر سيّب فلم يركبوها ولم يجزّوا وبرها ولم يشرب لبنها إلّا الضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقّ

١ـ سورة الزخرف: ١٩.

٢ـ سورة الأنعام: ١.

٣ـ سورة الزخرف: ٣.

اذنها ثمّ يخلّى سبيلها مع أمّها وهي البحيرة عن محمّد بن إسحاق.

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ وهي في الغنم كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها واستحيوا الذكر من أجل الأنثى ولم يذبحوه لآلهتهم وقيل: كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم ولحمه للرجال دون النساء، وإن كان عناقاً استحيوها وكان في عرض الغنم، وإن ولدت في البطن السابع جدياً وعناقاً قالوا: إنّ الأخت وصلت أخاها فحرّمتا جميعاً، وكانت المنفعة واللّبن للرّجال دون النساء وقال محمّد بن إسحاق: الشاة إذا نتجت عشر إناث في خمسة أبطن ليس فيها ذكر جعلت وصيلة فقالوا: قد وصلت فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الإناث.

﴿وَلَا حَامٍ﴾ وهو الذكر من الإبل، كانت العرب إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى، عن ابن عبّاس وابن مسعود وقيل: إنّه الفحل إذا لقح ولد ولده قيل: حمى ظهره فلا يركب عن الفرّاء، واللّه تعالى لم يحرّم من هذه الأشياء وكلّها من آثار الجاهليّة والشرك.

فإن قيل: إذا جاز إعتاق العبيد والإماء فلم لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذبح والإتعاب والإيلام؟: فالجواب أنّ الإنسان مخلوق لخدمة اللّه وعبوديّته فإذا تمرّد عوقب بضرب الرقّ عليه فإذا أزيل الرقّ عنه تفرّغ لعبادة اللّه فكان ذلك أمر مستحسن، وأمّا هذه الحيوانات فإنّها مخلوقة لمنافع المكلّفين فتركها وإهمالها يقتضي فوات منفعة على مالكها من غير أن يحصل في مقابلتها فائدة فظهر الفرق، وأيضاً إنّ الإنسان إذا كان عبداً فأعتق قدر على

١ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٣٢؛ وانظر: بحار الأنوار، ج ٩، ص ٨٤؛ وتفسير العياشي، ج ١، ص ٣٤٧.

تحصيله مصالح نفسه، وأمّا البهيمة إذا تركت وأهملت لم تقدر على رعاية مصالح نفسها فوقعت في أنواع من المحنة أشدّ وأشقّ ممّا كانت فيها حال ما كانت مملوكة فظهر الفرق.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ هذا إخبار من الله بأنّ الكفّار يكذبون على الله بادّعائهم أنّ هذه الأمور من أمره تعالى ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ خصّ الأكثر لأنّهم أتباع ولا يعقلون أنّ ذلك كذب كما يعقله رؤساؤهم، والجهلة يتّبعون الرؤساء ولا يعقلون ما حرّم الله عليهم وما حلّل لهم، قال الطبرسيّ: وفي هذه الآية دلالة على بطلان قول المجبّرة لأنّه سبحانه نفى أن يكون جعل البحيرة وغيرها، وعندهم أنّه هو الجاعل لذلك والخالق له، لأنّه تعالى بيّن أنّ هؤلاء قد كفروا بهذا القول وافتروا على الله ونسبوا إليه تعالى ما ليس بفعل له.[1]

قال المفسّرون: إنّ عمرو بن لحيّ بن قمعة الخزاعيّ كان قد ملك مكّة وكان أوّل من غيّر دين إسماعيل فاتّخذ الأصنام ونصب الأوثان وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام[2]، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**فلقد رأيته في النّار يؤذي أهل النّار بريح قصبه**» ـ والقصب: المعى وجمعه الأقصاب ـ ويروى: «**يجرّ قصبته في النار**»[3]، قال ابن عبّاس: قوله: ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ يريد عمرو بن لحيّ وأصحابه يقولون على الله هذه الأكاذيب في تحريمهم هذه الأنعام[4] وما استحدثه أهل الضّلالة.

١ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٣٣.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١١٠؛ وبحارالأنوار، ج٩، ص ٨٤ .

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

قال الرازيّ: الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار وقيل: للعطف، والتقدير: أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا هم يهتدون؟

يعني: الأمر كذلك وهو ردّ على أصحاب التقليد في الأصول فإنّ الاقتداء إنّما يجوز بالعالم المهتدي في الفروع إذا بنى قوله على الحجّة والدليل، فإذا لم يكن كذلك لم يكن عالماً مهتدياً فوجب أن لا يجوز الاقتداء به.[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

لمّا بيّن التكاليف والأحكام وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل اللّه وإلى الرّسول قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا فكأنّه قال سبحانه: إنّ هؤلاء الجهّال بقوا مصرّين على جهالتهم وضلالتهم فلا تبالوا أيّها المؤمنون بجهالتهم بل كونوا منقادين لتكاليف اللّه، فلا يضرّكم ضلالتهم، فلهذا قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: ألزموا واحفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي قال النحويّون: كلمة «عليك وعندك ودونك» من أسماء الأفعال ويقيمونها مقام الفعل وينصبون بها الاسم الواقع بعدها على المفعوليّة ومعناها الإغراء، وقد يقيم العرب غير هذه الأحرف مقام الفعل لكن لا تعدّيه إلى المفعول نحو قولهم: إليك عنّي أي: تأخّر عنّي و«وراك» بمعناه، ولا يجوز ذلك إلّا في الخطاب. و﴿لَا يَضُرُّكُم﴾

١ـ المصدر السابق نفسه.

الأصل فيه: لا يضرركم وقرء بصيغة النّهي وفي ذلك أربع لغات: ضارّه يضورّه، ضارّه يضيرّه، ضرّه يضرّه، ضرّه يضرّه، وحاصل المعنى: احفظوا أنفسكم وألزموها عن المعاصي ولا يضرّكم ضلال من ضلّ من آبائكم وغيرهم إذا كنتم مهتدين.

فلو قيل: إنّ ظاهر الآية يوهم أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر غير واجب فالجواب أنّ الآية لا تدلّ على ذلك بل توجب أنّ المطيع لربّه لا يكون مؤاخذاً بذنوب العاصي فأمّا وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فثابت بالدلائل.

قال عبد اللّه بن المبارك: هذه الآية أوكد آية في وجوبهما فإنّه قال: عليكم أنفسكم يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغّب بعضكم بعضاً في الخيرات وينفّره عن القبائح لأنّ قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ معناه احفظوا أنفسكم[1] فإذا لم يكن هذا الحفظ إلّا بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كان ذلك واجباً والمؤمنون كنفس واحدة وقيل: وجه آخر وهو أنّ الآية مخصوصة بالكفّار الّذين علم أنّه لا ينفعهم التذكّر ولا يتركون الكفر بسبب الأمر والنّهي فعند ذلك لا يجب على الإنسان أن يأمرهم وينهاهم أو أنّ الآية مخصوصة بما إذا خاف الإنسان عند الأمر والنّهي على نفسه أو على عرضه أو على ماله وأيضا في الآية وجه آخر وهو أنّ قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: من أداء الواجبات الّتي من جملتها الأمر بالمعروف عند القدرة فإن لم يقبلوا ذلك منكم فلا يضرّكم ضلال غيركم ولا ينبغي أن تستوحشوا من ذلك فإنّكم خرجتم عن عهدة التكليف، وأنّ اللّه قال لرسوله: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وذلك لا يدلّ على ثبوت الأمر

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١١٣.

بالمعروف والنهي عن المنكر فكذا هاهنا. وروي عن ابن مسعود وابن عمر وجه آخر في تأويل الآية قالا: قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يكون في آخر الزمان.

قال الرازيّ: وهذا الوجه ضعيف لأنّ قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب عامّ وهو أيضا خطاب مع الحاضرين فكيف يخرج ويخصّ الغائب[1]؟ وروي أنّ أبا ثعلبة سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «**ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتّى إذا رأيت دنياً مؤثرة وشحّاً مطاعاً وهوى متّبعاً وإعجاب كلّ ذي رأي رأيه فعليك بخويصة نفسك**»[2] وقد روي أنّه ﷺ قال يوماً على المنبر: «**يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها ولا تدرون ما هي إنّ النّاس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه عمّهم الله بعقاب فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر أو ليستعملنّ الله عليكم أشراركم فيسومونكم سوء العذاب ثمّ ليدعنّ خياركم فلا يستجاب لهم**».[3] وبالجملة إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فرض لا يسقط إلا عند العجز عن ذلك.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إليه مصيركم ومصير من خالفكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم هو وعد ووعيد للفريقين المهتدين والضالّين، واعلم أنّ الآمر والنّاهي لابدّ وأن يعرف المعروف والمنكر حتّى لا يأمر بالمنكر وهو يحسبه معروفاً، ولا ينهى عن المعروف وهو يحسبه منكراً ويشتغل بتزكية نفسه قبل الخلق، فالهادي الجاهل هدايته إضلال كبعض الدّجاجلة الّذين في زماننا من المتصوّفة حيث يغرّون النّاس بكلمات متشابهة وضلالات مبتدعة، والعوامّ الجهلة يقتدون بهم يرفعون لجام

١ـ المصدر السابق، ص ١١٢.

٢ـ تفسير الأصفي، ج ١، ص ٣٠٢؛ وكنز العمال، ج ٣، ص ٦٩؛ ورواه في مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٣٥.

٣ـ الكافي للشيخ الكليني، ج ٥ص ٥٦.

الشريعة وقيد بعض التّكاليف عن أنفسهم وهم يدّعون أنّهم أهل الحقّ فتارة يبيحون المحرّمات واخرى يستحرمون المحلّلات بالرياضات المبتدعة فيظنّون أنّهم بلغوا مقام الوحدة وأنّهم مجنّبون عن النقصان ولا يضرّهم مخالفات الشريعة إذ هم بادّعائهم وصلوا إلى مقام الحقيقة وهم غافلون عن الله وجاهلون بالأمر ولم يعلموا أنّ مقام الحقيقة لا يحصل إلّا بامتثال أوامر الشريعة بأسرها وليس مقام إلّا مقام العبوديّة وهو الامتثال بالسنن والباقي ترّهات واصطلاحات موضوعة كثّرها الجاهلون ولا رخصة لأحد فيها والعاملون بهذه المجعولات أهل الخديعة، ولقد شاع في الآفاق هذه الفتنة بحيث ضاع تمام الأصول والفروع منها وماله من دافع، فإذا كان هذا حال من يدّعي الإيمان فكيف بحال الزنادقة والطبيعيّين والملاحدة؟

فيا لله وللإسلام! وإنّ الخرق قد اتّسع على الراقع خصوصاً منذ توسّعت دائرة نطاق الحريّة فعلى الإسلام فليبك الباكون وليندب النادبون. قال الشاعر:

أرى ألف بان لا يقوم لهادم ... فكيف ببان خلفه ألف هادم

وبالجملة إنّ العالم والهادي والآمر والنّاهي لابدّ وأن يكون يقوم بتكليفه في إرشاد الجاهل وتنبيه الغافل من طريق الشريعة حذو النعل بالنعل باحتياط وافر وجدّ متكاثر ولا يجعل هذا الشأن العظيم لعب الصبيان وضحك الشيطان. قال الشاعر:

وفي الصمت زين للخليّ وإنّما ... صحيفة لبّ المرء أن يتكلّما

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ

ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

نزلت الآية في قصّة تميم الداريّ وهي: أنّ تميما وأخاه عديّا كانا نصرانيّين خرجا إلى الشام ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما مهاجرا، خرجوا للتجارة فلمّا قدموا الشام مرض بديل فكتب كتاباً فيه نسخة جميع ما معه وألقاه فيما بين الأقمشة ولم يخبر صاحبيه بذلك، ثمّ أوصى إليهما وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله، فمات بديل فأخذا من متاعه إناء من فضة منقوشا بالذهب ثلاث مائة مثقال، ودفعا باقي المتاع إلي أهله لمّا قدما، ففتّشوا فوجدوا الصحيفة وفيها ذكر الإناء، فقالوا لتميم وعديّ، أين الإناء؟ فقالا: لا ندري، والّذي دفع إلينا دفعناه إليكم، فرفعوا الواقعة إلي رسول الله فأنزل الله هذه الآية[1] عن الواقديّ عن أسامة بن زيد عن أبيه وعن جماعة وهو المرويّ عن أبي جعفرعليه السلام.

المعنى: لمّا أمر سبحانه في الآية السابقة في الإتيان بما أنزل الله على رسوله عقّبه بذكر هذا الحكم المنزّل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قيل: في معنى الشهادة أقوال:

الأول: أنّها الشهادة التي تقام بها الحقوق عند الحكّام أي: شهادة الخصومات الجارية بينكم، و«بين» ظرف أضيف إليه «شهادة» على طريق الاتّساع في الظروف بأن يجعل الظرف مفعولاً للفعل الواقع فيه فيضاف ذلك الفعل إليه على طريق إضافته إلى المفعول نحو «يا سارق اللّيلة» أي: يا سارق في اللّيلة. و«شهادة» مرفوع على الابتداء وخبرها «اثنان» والمعنى: شهادة هذه الحالة شهادة اثنين فحذف «شهادة» وأقيم «اثنان» مقامها، ويجوز أن يكون

١ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ١١٤.

التقدير: وفيما فرض عليكم في شهادتكم أن يشهد اثنان إذا حضر أحدكم الموت أي: شارفه وظهرت علائمه والظرف متعلّق بالشهادة ولا يجوز أن يكون يتعلّق بالوصيّة لأنّ الوصيّة مصدر فلا يتعلّق به ما تقدّم عليه.

الثاني: أنّ الشهادة بمعنى الحضور فيكون تقدير الآية وليشهدكم في سفركم إذا حضركم الموت وأردتم الوصيّة ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ صفة للاثنان أي: صاحبا أمانة من أهل العدالة وصيّان، جعلهما اثنين تأكيداً للأمر في الوصيّة، منكم أي: من أهل دينكم عن سعيد بن جبير وأبي زيد وقيل: المراد: من أقاربكم لأنهم أعلم بحال الميّت وأنصح له.

الثالث: أنّ المراد شهادة إيمان بالله أنّ أرباب الورثة بالوصيّة من قول القائل في اللّعان: أشهد بالله أنّي لمن الصادقين. قال الطبرسيّ: والقول الأوّل أقوى وأليق بالآية.

وقال صاحب كتاب «نظم القرآن»: شهادة مصدر بمعنى الشهود كما يقال: رجل عدل ورجلان عدل وقدّر حذف المضاف فيكون المعنى: عدد شهود بينكم اثنان كقوله: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ أي: وقت الحجّ أشهر وقال ابن جنّيّ: ويجوز أن يكون التقدير: تقيموا شهادة بينكم اثنان، فيكون على هذين القولين حذف المضاف في المبتدأ وعلى القولين الأوّلين الحذف في الخبر.

﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي: من غير أهل ملّتكم، عن ابن عباس وسعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير ومجاهد وشريح وابن سيرين وإبراهيم وهو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام فيكون «أو» للتفصيل لا للتخيير، لأنّ المعنى: أو آخران من غيركم إن لم تجدوا شاهدين منكم[١] وقيل: المعنى: ذوا عدل من عشيرتكم أو آخران من غير عشيرتكم وقالوا: لا يجوز شهادة كافر في

١ـ من لا يحضره الفقيه للصدوق، ج٣، ص ٤٧؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٤٠.

سفر ولا حضر واختاره الزجّاج وذهب جماعة إلى أنّ الآية كانت في شهادة أهل الذمّة فنسخت وقد بيّن هذه الأقاويل أبو عبيدة ثمّ قال جلّ العلماء يتأوّلونها في أهل الذمّة ويرونها محكمة. قال الطبرسيّ ويقوّي هذا القول تتابع الأخبار في سورة المائدة بقلّة المنسوخ وأنّها من محكم القرآن وآخر ما نزل.[١]

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: إن أنتم سافرتم فأصابتكم مصيبة الموت ولمّا علم الله أنّ من الناس من يصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين أو ينزل القرية الّتي لا يسكنها غيرهم ويحضرهم الموت ولا يجدون شهوداً من المسلمين فقال: أو آخران من غير أهل دينكم إن أنتم سافرتم فأصابتكم مصيبة الموت فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر إن أمكن إشهادهما، والذمّيّان في السفر خاصّة إذا لم يوجد غيرهما ثمّ قال: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: تحبسونهما من بعد صلاة العصر لأنّ الناس كانوا يحلفون بالحجار بعد صلاة العصر لاجتماع الناس وتكاثرهم في ذلك الوقت وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم وقيل: هي صلاة الظهر أو العصر عن الحسن وقيل: بعد صلاة أهل دينهما يعني الذمّيّين عن ابن عبّاس والسدّيّ ومعنى ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ تقفونهما كما تقول: مرّ بي فلان على فرس محتبس على دابّته أي: وقفه وقيل: معناه تصيرونهما على اليمين وهو أن يحمّل على اليمين[٢] إن شككتم أن يكونا قد غيّرا أو بدّلا أو خانا والخطاب في تحبسونهما للورثة أو الخطاب للقضاة وهو بمعنى الأمر أي: احبسوهما. والفاء في «فيقسمان» للجزاء أي: فيقدمان لأجل ذلك الحبس على القسم ﴿لَا

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٤٠.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

﴿نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ جواب القسم أي: لا نأخذ به ثمنا والضمير في «به» لله أو لا نشتري بتحريف الشهادة ثمنا أي: ذا ثمن لأنّ الثمن لا يشترى، وإنّما يشترى المبيع دون ثمنه وحاصل المعنى: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال أو لاشتراء البيع، أي: لا نبيعه بعرض من الدنيا لأنّ من باع شيئاً فقد اشترى ثمنه.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام وهو الميّت قريباً منّا في الرحم تأكيداً لتبرئهم من الحلف كاذباً ومبالغة في التنزّه عنه وخصّ ذا القربى بالذكر لأنّ الميل إليه أتمّ والمداهنة بسببهم أعظم وهو كقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.(1)

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ عطف على قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ يعني إنّهما يقسمان حال ما يقولان ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها وإظهارها ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي: إذا كتمناها كنّا من الآثمين أي: العاصين.

فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

القراءة المشهورة: استحقّ بضمّ التاء وكسر الحاء وقرأ حفص وحده بفتح التاء والحاء وكذلك القراءة المشهورة: الأوليان بصيغة التثنية تثنية الأولى. وقرأ حمزة وعاصم: الأوليين بالجمع نعتا لجميع الورثة المذكورين في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ وفي إعراب كلمة الأوليان قيل فيه وجوه:

١ـ سورة النساء: ١٣٥.

الأول: أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً والتقدير: هما الأوليان وذلك لأنّه لمّا قال: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ وكانّه قيل: ومن هما؟ فقيل: الأوليان.

والثاني: أن يكون بدلاً من الضمير الذي في يقومان ويكون التقدير: فيقوم الأوليان.

والثالث: أجاز الأخفش أن يكون قوله «الأوليان» صفة لقوله: فآخران وذلك لأنّ النكرة إذا تقدّم ذكرها ثم أعيد عليها الذكر صارت معرفة كقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فمصباح نكرة ثمّ قال: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ ثمّ قال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾.

الرابع: يجوز أن يكون قوله «ٱلْأَوْلَيَانِ» بدلاً من قوله «آخران» وإبدال المعرفة من النكرة كثير ومعنى الأوليان إلى الميّت أو الأوليان باليمين والاختلاف بسبب اختلاف القراءة والإعراب[1] قال الزجّاج: هذا الموضع من أصعب ما في القرآن في الإعراب واختصرت في البيان ومن أراد التفصيل فليراجع المجمع فإنّ الطبرسيّ شرحه على أحسن بيان.

سبب النزول: قالوا: لمّا نزلت الآية الأولى وهي ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ صلّى رسول اللهﷺ العصر ودعا بتميم وعديّ فاستحلفهما عند المنبر بالله أنّه ما قبضنا منه غير هذا ولا كتمناه فخلّى سبيلهما به ثمّ اطّلعوا على إناء من فضة منقوش معهما فقالوا: هذا من متاعه فقالا: اشتريناه منه ونسينا أن نخبركم به فرفعوا أمرهما إلى رسول الله فنزل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ الآية أي: اطّلع بعد التحليف على أنهما فعلا ما يوجب إثماً من تحريف وظهر بأيديهما شيء من التركة وادّعيا استحقاقهما له كذباً ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ أي: رجلان آخران من قرابة الميّت ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: مقام

١ـ تفسير مجمع البيان، ج٣، ص٤٤١ وفتح الباري، ج٥، ص ٣٠٧.

الرجلين اللّذين حلفا كذباً فيحلفان بالله بأن اطّلعنا على خيانة الذمّيين وكذبهما وتبديلهما وما اعتدينا في ذلك وما كذبنا.

روي أنّه لمّا حلّف الرسولﷺ الذمّيين بموجب حكم الآية السابقة وخلّى النبيﷺ سبيلهما وانقضت مدّة، أظهرا الإناء فبلغ ذلك بني سهم فطالبوهما فقالا: قد اشتريناه منه وكرهنا أن نخبركم ونزلت الآية الثانية قام عمرو بن العاص والمطّلب بن أبي رفاعة السهميّان فحلفا بالله بموجب ما في الآية فدفع النّبيﷺ الإناء إليهما وإلى أولياء الميّت وكان تميم الداريّ يقول بعد ما أسلم: صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله، قال ابن عبّاس: (إنّه بقيت تلك الواقعة مخفيّة إلى أن أسلم تميم الداريّ فلمّا أسلم أخبر بذلك وقال: حلفت كاذباً وأنا وصاحبي خنّا في الإناء)[١].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ المراد به موالي الميّت قال الرازيّ: وقد أكثر الناس في أنّه لم وصف موالي الميّت بهذا الوصف؟ والأصحّ عندي وجه واحد وهو أنّهم إنّما وصفوا بذلك لأنّه لمّا أخذ ما لهم فقد استحقّ عليهم ما لهم فإنّ من أخذ مال غيره فقد حاول أن يكون تعلّقه بذلك المال مستعلياً على تعلّق مالكه به فصحّ أن يوصف المالك بأنّه قد استحقّ عليه ذلك المال. ووصفهما بالأوليان لأنهما أقرب إلى الميّت وأولى بالمال بسبب القرابة أو بسبب اليمين الّتي حلفوا كما ذكرناه قبل ذلك.

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بيان صوره تقرير الحلف والمعنى ظاهر ثمّ بيّن سبحانه وجه الحكمة في استحلاف اليهود فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ أي: ذلك الحلف والإقسام أو ذلك الحكم أقرب ﴿أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ وصدقها وحقّها لا

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١٢٠.

يكتمون شيئاً ولا يزيدون شيئاً خوفاً من العذاب الاخرويّ بسبب اليمين الكاذبة ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ كأنّه قيل: ذلك الإقسام أقرب أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح في الدنيا على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدّية إليه فأي: الخوفين وقع حصل المقصود الّذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها.

وقيل في معنى الآية وجه آخر وهو: أنّ قوله: أو «يخافوا» عطف على «يأتوا» على معنى أنّ ذلك أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو إلى أن يخافوا الافتضاح بردّ اليمين على الورثة فلا يحلفوا على موجب شهادتهم إن لم يأتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أن تحلفوا أيمانا كاذبة أو تخونوا أمانة ولا تخالفوا أحكامه ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما توعظون به كائناً ما كان سمع طاعة وقبول ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الدّين والإطاعة إلى ثوابه وحسنته.

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

أي: اتّقوا يوم يجمع اللّه الرسل وهو يوم القيامة والمراد جمعهم وجمع أممهم. وانتصب «يوم» على أنّه مفعول به ولم ينتصب على الظرف لأنّهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم، والمعنى: اتّقوا عقاب يوم يجمع اللّه الرسل لأنّ اليوم لا يتّقى ولا يحذر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ولم يذكر الأمم للدلالة ولأنّهم أتباع لهم ﴿فَيَقُولُ﴾ اللّه تعالى: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي: إجابة أجبتم من جهة الأمم حين دعوتهم إلى توحيدي وطاعتي؟ إجابة إقرار وقبول أمّ إجابة إنكار وتكذيب؟ وما الذي أجابكم قومكم فيما

دعوتموهم إليه؟ وهذا تقرير في صورة الاستفهام على وجه التوبيخ للكافرين والمنافقين عند إظهار فضيحتهم على رؤوس الأشهاد ﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ كأنّه قيل: فماذا يقول الرسل هنالك؟

فقيل: يقولون: لا علم لنا بما كنت أنت تعلم وقيل: في هذا الكلام أقوال: أحدها: القول الأوّل.

الثاني: أنّ للقيامة أهوالاً حتّى يزول القلوب عن مواضعها فإذا رجعت إلى مواضعها شهدوا لمن صدّقهم وعلى من كذّبهم يريد أنّه عزبت عنهم أفهامهم من هول يوم القيامة فقالوا: لا علم لنا عن عطا وابن عبّاس والحسن والمجاهد والسدّيّ والكلبيّ وقيل: المعنى الأوّل هو المراد أي: لا علم لنا كعلمك لأنك تعلم ظاهرهم وباطنهم واختار الجبّائي هذا القول وأنكر القول الثاني وقال: كيف يجوز ذهولهم مع قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟[1] ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنّ الفزع الأكبر دخول النار وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾[2] إنّما هو كالبشارة بالنجاة مثل ما يقال للمريض: لا بأس عليك والقول الثالث: أنّ معناه لا حقيقة لعلمنا إذ كنّا نعلم جوابهم وأفعالهم وقت حياتنا وما نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا وإنّما الثواب والعقاب بما يقع به في الخاتمة على ما يموتون عليه، عن ابن الأنباري.

ورابعها: لا علم لنا إلّا ما علّمتنا فحذف لدلالة الكلام عليه، عن ابن عبّاس في رواية اخرى.

وخامسها: أنّ المراد تحقيق فضيحتهم أي: أنت أعلم بحالهم منّا لا تحتاج إلى شهادتنا.

١ـ سورة المائدة: ٦٩.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج٣، ص ٤٤٦؛ وبحارالأنوار، ج ٧، ص ٢٧٧؛ وتفسير الآلوسي، ج ٧، ص ٥٥.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ للمبالغة أو المراد تكثير المعلوم قال الطبرسيّ: في المجمع أنّه ذكر الحاكم أبو سعيد في تفسيره أنّها تدلّ على بطلان قول الإماميّة أنّ الأئمّة يعلمون الغيب وأقول: أنّ هذا القول ظلم منه لهؤلاء القوم فإنّا لا نعلم أحداً منهم بل أحداً من أهل الإسلام يصف أحداً من الناس بعلم الغيب ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين والشيعة الإماميّة بريئون من هذا القول فمن نسبهم إلى ذلك فالله بينه وبينهم.[١]

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

متعلّق الظرف: يوم يجمع الله الرسل، أو المعنى: اذكر إذ قال الله والمعنى: إذ يقول الله في الآخرة وذكر لفظ الماضي للدلالة على قرب القيامة وتحقق وقوع القول لأنّ ما هو آت قريب مكان قد وقع. أو أنّه ورد على حكاية الحال ونظيره قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾[٢] و﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٣].

﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يجوز أن يكون عيسى في محلّ الرفع لأنّه منادى مفرد وصف بمضاف ويجوز أن يكون في محلّ النصب على الإضافة وكلّ ما

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ سورة سبأ: ٥١.

٣ـ سورة سبأ: ٣١.

كان كذلك جائز الوجهين نحو يا زيد بن عمرو ويا زيد بن عمرو. وهذا الكلام فيه إشارة إلى بطلان قول النصارى لأنّ من له أمّ لا يكون إلها ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى﴾ والمراد جمع النعمة لقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وإنّما جاز ذلك لأنّه مضاف يصلح للجنس ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾.

ثمّ فسّر نعمته بأن قال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ الروح: هو جبرئيل والقدس هو الله، أضافه جبرئيل إلى نفسه تعالى تعظيماً وتشريفاً له، والأرواح مختلفة فمنها طاهرة نورانيّة ومنها خبيثة ظلمانيّة كما قال ﷺ: «**الأرواح جنود مجنّدة فالله سبحانه خصّ عيسى بالروح الطاهرة المقدّسة**».

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ قيل: المراد من المهد حجر أمّه أي: تكلّم مع الناس في حال صباك وحال ما كنت كهلا سواء، من غير أن يوجد تفاوت في الكلام بين الحالين وذلك لقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[1] وهذه المعجزة حصلت له لنبوّته وهذه المعجزة أيضاً نعمة حصلت لأمّه لأنّها على براءة ساحتها ممّا نسبوها إليه واتّهموها به وكذلك ولادة عيسى وخلقته ما كانت من نطف الرجال وإنّما كانت كلمة ألقاها إلى مريم. والكهل من الرجال: الّذي جاوز الثلاثين وخالطه الشيب كما قيل: إنّ المراد بتكلّمه كهلا أن يكلّم الناس بعد أن ينزّل من السماء في آخر الزمان بناء على أنّه رفع قبل أن اكهل فيكون قوله تعالى: ﴿وَكَهْلًا﴾ دليلاً على نزوله.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ قيل: المراد من الكتاب الكتابة والخطّ وقيل: المراد جنس الكتب فإنّ الإنسان يتعلّم أولاً كتبا سهلة ثمّ يترقّى إلى الكتب الشريفة. وأمّا الحكمة فهي عبارة من العلوم

١ـ سورة مريم: ٣٠ ـ ٣١.

النظرية والعملية الشرعية ثمّ فصّل الكتاب بذكر التوراة والإنجيل.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ قرأ نافع: فتكون طائرا. وطير: جمع طائر كركب جمع راكب وطعن جمع طاعن والتأنيث باعتبار الهيئة، بإذني وأمري وتيسيري ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أي: في الهيئة المصوّرة ﴿فَتَكُونُ﴾ تلك الهيئة ﴿طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ فالخلق حقيقة للّه تعالى ظاهر على يده كما أنّ النفخ في مريم كان من جبرئيل والخلق من اللّه.

سألوا منه على وجه التعنّت فقالوا: اخلق لنا خفّاشاً واجعل فيه روحاً بسؤالك من اللّه إن كنت صادقا في مقالتك فأخذ طيناً وجعل منه خفّاشا ثمّ نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض، وإنّما طلبوا منه خلق خفّاش لأنّه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه أنّه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، وله ضرع يخرج منه اللبن ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل وإنّما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس وبعد طلوع الفجر قبل أن يسفرّ جداً ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة فلمّا رأوا ذلك منه ضحكوا وقالوا: هذا سحر.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ الأكمه: الذي ولد أعمى، والأبرص هو الذي به بياض في الجلد وكان بحيث إذا غرز بإبرة لا يخرج الدم منه لا يقبل العلاج ولذا خصّا بذكر وكلاهما ممّا أعيى الأطبّاء ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ من قبورهم أحياء بفعلي ذلك عند دعائك وعند قولك للميّت: اخرج بإذن اللّه قال الكلبيّ: كان يحيي الموتى بـ (يا حيّ ويا قيّوم) وهو الاسم الأعظم عند أهل التحقيق. وذكر الإذن في هذه الأفاعيل على معنى إضافة حقيقيّة إلى اللّه كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]

١ـ سورة آل عمران: ١٤٥.

أي: إلّا بخلق اللّه الموت فيها.

وسابع النعم في الذكر قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: منعت اليهود الذين أرادوا لك السوء عن التعرض لك. قال الرازيّ: يحتمل أن يكون المراد منه البيّنات الّتي تقدّم ذكرها بالألف واللّام. ويحتمل أن يكون المراد جنس البيّنات: روي أنّه لمّا أظهر هذه المعجزات قصد اليهود قتله فخلصه اللّه منهم حيث رفعه إلى السماء.[١]

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرء ساحر، وكلاهما حسن قال الواحديّ: والاختيار: سحر لجواز وقوعه على الحدث والشخص، أمّا وقوعه على الحدث فظاهر[٢] وأمّا على الشخص فيقول: هذا سحر أي: ذو سحر، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾[٣] أي: ذا البرّ. قالت الخنساء: (فإنّما هي إقبال وإدبار).[٤]

فان قيل: إنّه سوق الآيات في تعديد نعمه على عيسى وقول الكفّار في حقّه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من النعم فكيف ذكره هاهنا؟ لأنّ من الأمثال المشهورة أنّ «كلّ ذي نعمة محسود» وطعن الكفّار يدلّ على أنّ نعم اللّه في حقّه كثيرة، ولإفادة هذا المعنى حسن ذكره عند تعديد النعم.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

من قال: إنّ الحواريّين كانوا أنبياء قال: ذلك الوحي هو الوحي الذي

١ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ١٢٧.

٢ـ تفسير مجمع البيان.، ج ٣، ص ٤٤٨؛ وتفسير الرازي، ج ١٢، ص ١٢٧.

٣ـ سورة البقرة: ١٧٧.

٤ـ تفسير الرازي، ج ٥، ص ٤٢؛ وانظر: التبيان، ج ٥، ص ٤٩٥.

يوحى إلى الأنبياء، ومن قال: إنّهم ما كانوا قال: المراد بذلك الوحي الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[1] وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[2] والحواريّ: خالصة الرجل وخلصاؤه، مأخوذ من الخبز الحواري لأنّه أخلصه من كلّ ما يشوبه. والحواريّون كانوا من وزراء عيسى وأصحابه وصفوته، ويمكن أن يكون معناه مأخوذا من الحور، وهو البياض الخالص، سمّوا به لخلوص نيّاتهم ونقاء سرائرهم قيل: كان بعضهم من الملوك وبعضهم صيّاد السمك وبعضهم من القصّارين وبعضهم من الصبّاغين فصاروا بالصدق والإيمان أولياء اللّه وأطبّاء النفوس.

حكي عن بعض الزهّاد أنّه اعتلّ فحمل إلى البيمارستان وكتب عليّ بن عيسى الوزير إلى الخليفة المقتدر في ذلك فأرسل الخليفة اليه مقدّم الأطباء ليداويه فما أنجحت مداواته قال الطبيب للزاهد: واللّه لو علمت أنّ مداواتك في قطعة لحم من جسدي ما عسر ذلك عليّ فقال الزاهد: دواني في ما دون ذلك قال الطبيب: وما هو؟ قال بقطعك الزنّار فقال الطبيب: أشهد أن لا اله إلّا اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه فأخبر الخليفة فبكى وقال:

نفذنا طبيباً إلى مريض وما علمنا أنّا نفذنا مريضاً إلى طبيب. والماحضون في الإيمان والتقوى هم أطبّاء النفوس ويعالجون المرضى حسب حذقهم فمريضا يسقونه عسلا وآخر حنظلا.

وكان فضيل بن عياض لم ير متبسّماً ثلاثين سنة لمّا سمع في تفسير قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[3] عن ابن

١ـ سورة القصص: ٧.

٢ـ سورة النحل: ٦٨.

٣ـ سورة الكهف: ٤٩.

عبّاس: (الصغيرة: التبسّم والكبيرة: الضحك) ورواه يوم عرفة وهو يبكي بكاء الثكلى حتّى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ورفع رأسه إلى السماء وقال: وا سوأتاه منك وإن غفرت، ومن كلامه: لو أنّ الدنيا بحذافيرها عرضت عليّ بشرط أن لا أحاسب يوماً لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم بجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه.

قال الفضيل: إذا قيل لك: تخاف الله؟ فاسكت فإنّك إن قلت: لا فقد جئت بأمر عظيم وإن قلت: نعم فالخائف لا يكون على ما أنت.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي: اذكر يا محمّد وقت أن أمرتهم على ألسنة الرسل أو بالإلقاء والإلهام في قلوبهم ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى﴾ «أن» مفسّرة لما في الإيحاء أي: صدّقوا بوحدانيّتي بالربوبيّة وبرسالة رسولي ﴿قَالُوٓا۟﴾ كأنّه قيل: فما ذا قالوا؟ قالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ومخلصون في إيماننا ومنقادون ومطيعون في الظاهر والقلب. روي أنّ عيسى كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدّخر لغد شيئاً ولم يكن له بيت ولا أهل ولا ولد وأينما أدركه اللّيل بات.[1]

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

قرأ الكسائيّ: تستطيع بالتاء على الخطاب أي: هل تستطيع سؤال ربّك؟ وهذه القراءة مرويّة عن عليّ وابن عبّاس، وعن معاذ بن جبل قال: أقرأني رسول الله بالخطاب وبنصب ربّك. قال الرازيّ في تفسيره: والخطاب أولى

١ـ تفسير الرازي، ج ٢، ص ١٢٨؛ وانظر: تفسير البحر المحيط، ج ٤، ص ٥٦.

من الغياب، لأنّ قراءة الخطاب توجب شكّهم في استطاعة عيسى وبالغياب توجب شكّهم في استطاعة الله ولا شكّ أنّ الأولى أولى بجلالة شأنهم.[١]

فلو قيل: إنّ على قراءة الغياب كيف يجوز لهم أن يكونوا باقين شاكّين في اقتدار الله مع أنّه سبحانه حكى عنهم أنّهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[٢] وبعد الإيمان كيف يجوز هذا القول؟ فالجواب أنّه تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام بل حكى عنهم ادّعاءهم لهما بل دلّ قولهم: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ على مرض في قلوبهم وكذلك قول عيسى لهم: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يدلّ على أنّهم ما كانوا كاملين في الإيمان أو أنّهم كانوا مؤمنين إلّا أنّهم طلبوا هذه الآية ليحصل لهم كمال الإيمان كما قال إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[٣] ولهذا السبب قالوا: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أو يكون المراد من طلبهم هذا الأمر استفهام أنّ ذلك هل يجوز في الحكمة أم لا؟ وذلك لأنّ أفعال الله لمّا كانت موقوفة على رعاية وجوه الحكمة ففي الموضع الّذي لا يحصل فيه شيء من الحكمة يكون الفعل ممتنعا فإنّ المنافي من جهة الحكمة كالمنافي من جهة القدرة، وهذه الأجوبة يتمشّى على قول المعتزلة وأمّا على قول الأشاعرة فهو محمول على أن الله هل قضى بذلك أم لا؟ وقال السدّيّ: معنى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: هل يستطيع ربّك إن سألته؟ وهذا تفريع على أنّ (استطاع) بمعنى أطاع والسين زائدة.[٤]

قال ابن الأنباريّ: سمّيت المائدة بالمائدة لأنّها عطيّة من قول العرب: ماد فلان فلاناً يميده ميدا إذا أحسن إليه فالمائدة على هذا القول فاعلة من

١ـ المصدر السابق، ص١٢٩.

٢ـ سورة المائدة: ١١١.

٣ـ سورة البقرة: ٢٦٠.

٤ـ تفسير الرازي، ج ٢، ص ١٢٩.

الميد بمعنى معطية[١] وقال أبو عبيدة: المائدة فاعلة بمعنى المفعولة مثل عيشة راضية.(٢) وقال الزجّاج: فاعلة من ماد يميد إذا تحرّك فكأنّها تميد بما عليها، والحاصل المائدة: الخوان الّذي عليه الطعام.

في كتاب «الشرعة» قال: وضع الطعام على الأرض أحبّ إلى رسول الله ثمّ على السفرة وهي على الأرض، والأكل على الخوان آداب الملوك والجبّارين لئلّا يتطأطئوا عند الأكل وعلى السفرة فعل العرب.[٣]

﴿قَالَ لَهُمْ﴾ عيسى بعد طلبهم المائدة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال وإساءة الأدب ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بقدرته أو بصحّة نبوّتي ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ ولا نريد إلّا اليقين والاطمئنان ونحبّ أكلها فإنّ الجوع قد غلبنا ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنّك رسول الله وهذا يقوي قول من قال: إنّهم كانوا شاكّين في ابتداء الأمر في دينهم. قال الطبرسيّ: والصحيح أنّهم طلبوا المعانية والعلم الضروريّ ومعجزة سماويّة ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لله بالتوحيد ولك بالنبوّة. أو المعنى: تكون من الشاهدين عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم.[٤]

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ المصدر السابق، ص ١٣٠.

٣ـ روى الطريحي مرسلا أن رسول الله ﷺ ما أكل خوان قط لئلّا يفتقر إلى التطاول وهو التمرد قائماً ومنه يظهران المراد بالخوان كرسي معه للأكل.

٤ـ تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٥٣.

قوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾ نداء وقوله :﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان وقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ صفة للمائدة وفي قراءة عبد الله: تكن لنا بناء على أنّه جواب للأمر قال الفراء: وما كان من نكرة قد وقع عليها أمر جاز في الفعل الجزم والرفع مثل قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾[١] بالجزم والرفع ومثل قوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾[٢] بالجزم والرفع.

و العيد اسم لما عاد إليك من شيء في وقت معلوم واشتقاقه من عاد يعود وأصله: العود قال اللّيث: العيد كلّ يوم مجمع فسمّي العيد عيدا لأنّه يعود كلّ سنة بفرح جديد[٣] أي: نتّخذ اليوم الّذي تنزل فيه المائدة عيدا نعظّمه نحن ومن يأتي بعدنا. ونزلت يوم الأحد فاتّخذه النصارى عيدا ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ كائنة دالّة على قدرتك وصحّة نبوّتي ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ خير من يرزق لأنّه خالق الأرزاق.

قال الرازيّ: تأمّل في هذا الترتيب فإنّ الحواريّين لمّا سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً فقدّموا ذكر الأكل فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ وأخّروا الأغراض الدينيّة الروحانيّة، فأمّا عيسى فإنّه لمّا طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدّم الأغراض الدينيّة وأخّر الأغراض الدنيويّة حيث قال: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح. ثمّ إنّه عليه السلام بصفاء دينه وشدّة إشراق روحه لمّا ذكر الرزق بقوله: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ لم يقف عليه وانتقل من الرزق إلى الرازق.[٤]

قال الطبرسيّ: وفي هذا دلالة على أنّ العباد قد يرزق بعضهم بعضا لأنّه

١ـ سورة مريم: ٥ ـ ٦.

٢ـ سورة القصص: ٣٤.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١٣١؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٦١.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

لو لم يكن كذلك لم يصحّ أن يقال: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.[(١)]

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ مجيبا له إلى ما التمسه: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ أي: المائدة ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ﴾ إنزالها عليكم ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قيل: في معناه أقوال: أحدها: أنّه أراد عالمي زمانه فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير. وقيل: خنازير. وثانيها: أنّه أراد عذاب الاستئصال. والثالث: أنّه أراد جنساً من العذاب لا يعذّب به أحداً غيرهم وذلك لأنّهم رأوا الآية الّتي هي من أزجر الآيات عن الكفر بعد سؤالهم فاقتضت الحكمة اختصاصهم بفنّ من العذاب.

واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ قال الحسن ومجاهد: إنّها لم تنزل وأنّ القوم لمّا سمعوا الشرط استعفوا عن نزولها وقالوا: لا نريدها فلم تنزل، قال المحقّقون من العلماء: إنّها نزلت لقوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ولا يجوز أن يقع في خبره الخلف ولأنّ الأخبار قد استفاضت عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والتابعين أنّها نزلت.[(٢)]

روي أنّ عيسى اغتسل ولبس جبّته وهي من صوف وصلّى ركعتين فطأطأ رأسه وغضّ بصره ثمّ دعا واختلف في كيفيّتها فروي عن عمّار بن ياسر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**نزلت المائدة خبزاً ولحماً وذلك لأنّهم سألوا عيسى طعاماً لا ينفد يأكلون منها فقيل لهم: فإنّها مقيمة معكم ما لم تخونوا وتخبؤوا فإن فعلتم ذلك عذّبتم**». قال: «**فما مضى يومهم حتّى خبؤوا ورفعوا وخانوا**» قال ابن عبّاس: (إنّ عيسى بن مريم قال لبني إسرائيل: صوموا ثلاثين يوماً ثم اسألوا اللّه ما شئتم

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٥٤؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٤٢؛ وروى البحراني+ في تفسير البرهان، ج ١، ص ٥١١ ـ ٥١٢؛ وعدّة روايات مسندة ومرسلة تدل على ذلك، ومنها رواية عمار الآتية، وفي بعضها ذكر ما كان فيها من الطعام ومن أكل منها من الناس.

يعطكموه فصاموا ثلاثين يوماً فلمّا فرغوا قالوا: يا عيسى إنّا لو عملنا لأحد من الناس فقضينا عمله لأطعمنا طعاماً وإنّا صمنا وجعنا فادع اللّه أن ينزّل علينا مائدة من السماء فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتّى وضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم). وهو المرويّ عن الصادق.[١] وروي أنّها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون حتّى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلنا من الشاكرين ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثمّ قام وتوضّأ وصلّى وبكى ثمّ كشف المنديل الّذي عليها وقال: بسم اللّه خير الرازقين فإذا سمكة مشويّة بلا فلوس ولا شوكة يسيل دسمها وعند رأسها ملح وعند ذنبها خلّ وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبنّ وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريّين: يا روح اللّه أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما ولكنّه اخترعه اللّه بقدرته، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم اللّه ويزدكم من فضله.

فقالوا: يا روح اللّه لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال عيسى: يا سمكة أحي بإذن اللّه فاضطربت ثمّ قال لها: عودي كما كنت فعادت مشويّة فلبثت المائدة يوماً واحداً فأكل من أكل منها ثمّ طارت ولم تنزل بعد ذلك اليوم وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوماً غبّاً[٢] يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتّى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون، ولم يأكل

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٥٤؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٦٣؛ وتفسير جوامع الجامع، ج ١، ص ٥٤٧.

٢ـ أي: يجيىء يوماً ولا يجيىء يوماً.

منها فقير إلّا غنى مدّة عمره ولا مريض إلّا بريء ولم يمرض أبدا فأوحى اللّه إلى عيسى: اجعل مائدتي للفقراء دون الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء حتّى شكّوا وشكّكوا الناس فيها فأوحى اللّه إلى عيسى: إنّي شرطت على المكذّبين أنّ من كفر بعد نزولها أعذّبه فقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] فمسخ منهم ثلاث مائة وثلاثة وثلاثون رجلاً باتوا من ليلهم على فراشهم مع نسائهم في بيوتهم فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة في الحشوش فلمّا رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى وبكوا وبكى على المسوخين أهلوهم فعاشوا ثلاثة أيّام ثمّ هلكوا.

و في تفسير أهل البيت: كانت المائدة تنزل عليهم يجتمعون عليها ويأكلون منها ثمّ ترفع فقال كبراؤهم ومترفوهم: لا ندع سفلتنا يأكلون منها معنا فرفع اللّه المائدة ببغيهم وكبرهم ومسخوا قردة وخنازير.[2]

و صار يوم نزل المائدة عيداً لأمّة عيسى كما أنّ السبت عيداً لأمّة موسى وكان لقوم إبراهيم عيد وكانوا قد خرجوا لعيدهم[3] ودخل إبراهيم معبدهم وكسر أصنامهم ولامّة محمّد صلى الله عليه وآله أعياد، فالعيد المكرّر في الأسبوع: الجمعة وهو عيد الأسبوع مرتّب على إكمال الصلوات المكتوبات باجتماع الناس فيه مع النبيّ صلى الله عليه وآله بأداء صلاة الجمعة وإدراك مثوباتها فإن اللّه تعالى فرض على المؤمنين في اليوم والليلة خمس صلاة وإنّ الدنيا تدور على سبعة أيّام فكلّما كمل دور أسبوع من أيّام الدنيا واستكمل المسلمون صلاتهم شرع

١ـ سورة المائدة: ١١٨.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٥٧.

٣ـ لا وجه ظاهر للتشريك بين أعياد اليهود والنصارى والمسلمين وبين عيد قوم إبراهيم، فإن أعياد اليهود والنصارى والمسلمين كانت بتشريع أو بتصويب من الله تعالى بخلاف قوم إبراهيم فإنّ عيدهم كان صناعياً من مجعولات أنفسهم والعلم عند اهله.

لهم في يوم استكمالهم عيد يوم الجمعة وهو اليوم الّذي كمل فيه الخلق[1] وفيه خلق آدم وأدخل الجنّة وأخرج منها، وفيه منتهى أمر الدنيا فتنزل وتقوم الساعة فيه فجعل فيه الاجتماع على سماع الذكر والموعظة وصلاة الجمعة عيداً لهم. و في اجتماع يوم الجمعة شبه من الحجّ حتّى قيل: إنّها حجّ المساكين قال سعيد بن المسيّب: شهود الجمعة أحبّ إليّ من حجّة النافلة والتكبير فيه يقوم مقام الهدي وشهود الجمعة يوجب تكفير الذنوب إلى الجمعة الاخرى إذا سلم ما بين الجمعتين من الكبائر كما أنّ الحجّ المبرور يكفر ذنوب تلك السنة إلى الحجّة الاخرى. وقد روي إذا سلمت الجمعة سلمت الأيّام.

وامّا الأعياد الّتي تكرّر في السنة فعيد الفطر من صوم رمضان وهو مرتّب على إكمال الصيام ويزيد ثوابه بأداء صلاته وآدابه والصوم الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه. والعيد الثالث في الإسلام باعتبار والثاني باعتبار عيد النحر وهو أكبرهما وأفضلهما وهو مترتّب على إكمال الحجّ وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه فإذا أكمل المسلمون حجّتهم غفر لهم ومن أعياد المسلمين النيروز وكان عيدا للعجم وقد أمضته الشريعة وسنّه النبي ﷺ[2] ومن الأعياد الغدير بل من أعظمها وأتمها وأكملها كيف لا وفيه تمّت نقائص الإسلام وقد وقع القوس بيد باريها وجرت أنهار الهداية على مجاريها.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ

١ـ أي: خلق السموات والأرض على مافي إحتجاج النبي مع اليهود. فإنّ الأخبار الوارده في باب الخلق تدل على إن بدء خلق السماوات والارض يوم الأحد والآخرة يوم الجمعة والسبت معطل.

٢ـ بلسان الاختيار من أهل بيته، وأما إمضاء الشريعة فمن حيث تصويب مطلق أسباب التراؤف والتراحم.

عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ
وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ
وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

قيل: إنّ هذا الكلام قيل لعيسى حين رفعه إلى السماء وتعلّق بظاهر قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ و«إذ» تستعمل للماضي وقيل: عطف على قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ وعلى هذا القول إنّما يذكره لعيسى يوم القيامة، وهذا القول أصحّ لأنه تعالى عقّب الكلام بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والمراد به يوم القيامة ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صيّروني وأمّي معبودين بطريق إشراكهما في العبادة معي.

فلو قيل: إنّ الاستفهام كيف يليق به تعالى على أنه تعالى كان عالماً بأنّ عيسى لم يقل ذلك فكيف بهذا الخطاب؟ فالجواب أنه هذا الاستفهام توبيخ للقائل واستفهام لتعيين القائل حتّى يجازى.

فإن قيل: إنّ أحداً من النصارى لم يذهب إلى القول بإلهيّة عيسى ومريم مع القول بنفي إلهيّة الله تعالى فكيف ينسب هذا القول إليهم؟ قال الرازيّ: إنّ الله هو الخالق والنصارى يعتقدون أنّ خالق المعجزات الّتي ظهرت على يد عيسى ومريم هو عيسى ومريم والله ما خلقها فهم قالوا: إنّ الخالق لتلك الأمور هما، والله ليس خالقها فأثبتوا في خلق بعض الأشياء

إلهيّتهما ونفوا فيها إلهيّة اللّه فصحّ بهذا التأويل هذه الحكاية.[١] ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ كأنّه قيل: فماذا يقول عيسى حينئذ؟ فقيل: يقول سبحانك أي: أنزّهك تنزيها من أن أقول هذه المقالة أو من أن يقال في شأنك هذه المقالة.

﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ أي: ما يستقيم لي أن أقول ما ليس بحقّ لي أن أقوله والمراعات حسن الأدب والخضوع لم يقل: ما قلته فوّض ذلك إلى علمه تعالى. قال أبو ردق: إذا سمع عيسى هذا الخطاب ـ والمراد إذا يسمع ـ ارتعدت فرائصه وتنفجر من أصل كلّ شعرة في جسده عين من دم[٢] وهذا الخطاب وإن كان ظاهره مع عيسى ولكن حقيقته مع الامّة. ومعنى ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ أنّ صدور هذا القول مستلزم لعلمك قطعاً فحيث انتفى العلم انتفى الصدور قطعاً ضرورة استلزام عدم اللّازم عدم الملزوم.

﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ أي: تعلم ما اخفي ولا أعلم ما تخفي وتعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك وقيل: المراد: تعلم ما كان منّي في الدنيا ولا أعلم ما كان منك في الآخرة. وتمسّك المجسّمة بهذه الآية وقالوا: النفس هو الشخص وذلك يقتضي كونه تعالى جسماً وهذا الكلام لا يصدر إلّا عن أحمق بحت لأنّ النفس عبارة عن الذات، نفس الشيء وذاته بمعنى واحد ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ تأكيد للجملتين المتقدّمين أعني: قوله: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ وقوله: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾.

ثمّ حكى سبحانه عن عيسى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ «أن» مفسّرة والمفسّر هو الهاء في «به» الراجع إلى القول

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١٣٤.

٢ـ تفسير البغوي، ج ٢، ص ٨١؛ وتفسير المحيط، ج ٤، ص ٦٣.

المأمور به أي: ما قلت لهم إلّا قولا أمرتني به وهو أن أقول لهم: اعبدوا اللّه خالقي وخالقكم ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ رقيبا أراقب أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك وأمنعهم عن المخالفة أو أشاهد أحوالهم من كفر وإيمان ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ أي: مدّة دوامي فيما بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ أي: قبضتني إليك من بينهم ورفعتني إلى السماء ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أنت لا غيرك كنت حافظاً لأعمالهم والمراقب لها ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ مطّلع عليه مراقب له و«على» متعلّق بشهيد والتّقديم لمراعاة الفاصلة ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ﴾ فبدأ اختيارهم ولا اعتراض على المولى والمالك المطلق فيما يفعله بملكه ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: فلا عجز ولا استقباح فإنّك القادر والقويّ على الثواب والعقاب الّذي لايثيب ولايعاقب إلّا عن حكمة وصواب فإن عذّبت فعدل وإن غفرت ففضل.

فإن قلت: مغفرة المشرك قطعيّة الانتفاء بحسب الوجود وتعذيبه قطعي الوجود فما معنى «إن» المستعمل فيما كان كلّ واحد من جانبي وجوده وعدمه جائزاً محتمل الوقوع؟ فالجواب كون غفران المشرك قطعيّ الانتفاء بحسب الوجود لا ينافي كونه جائز الوجود بحسب العقل فصحّ استعمال كلمة «إن» فيها لأنّه يكفي في صحّة استعمالها مجرّد الإمكان الذاتي والجواز العقلي. وقيل وجه آخر وهو أنّ الترديد بالنسبة إلى فرقتين والمعنى: إن تعذّبهم أي: من كفر منهم وإن تغفر لهم أي: من آمن منهم.

روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية أحيى رسول اللّه بها ليلته وكان بها يقوم وبها يقعد وبها يسجد ثمّ قال: **«أمّتي أمّتي يا ربّ»**. فبكى فنزل جبرئيل فقال: **«اللّه يقرؤك السلام ويقول لك: إنّا سنرضيك في أمّتك ولا نسوؤك»**.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ أي: يقول اللّه يوم القيامة عقيب جواب عيسى مشيراً إلى

صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الّذين هو في زمرتهم: ﴿هَٰذَا﴾ أي: يوم القيامة وهو مبتدأ وخبره ما بعده ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ المراد الصدق في الدنيا، فإنّ النافع ما كان حال التكليف فالجاني المعترف يوم القيامة بجنايته لا ينفعه عذره واعترافه. والمراد من الصدق في الأمور الدينيّة الّتي معظمها التوحيد فالصادقون المراد بهم في الآية الرسل الناطقون بالصدق الداعون إلى ذلك والأمم المصدّقون لهم عقداً وعملاً ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ كأنّه قيل: ما لهم من النفع؟ فقيل: نعيم دائم وثواب خالد ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالطاعة ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بنيل الكرامة والرضوان فيض زائد على الجنّات لا غاية وراءه ولذلك قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرضوان هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة الوافرة.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ تنبيه على كذب النّصارى وفساد ما زعموا في حقّ المسيح وأمّه أي: له خاصّة تلك السماوات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم يتصرّف فيها كيف يشاء وعيسى وأمّه فيها فكيف يكونان إلهين وهو يتصرّف كيف يشاء فيها إيجاداً وإعداماً وإماتة وإحياء وأمراً ونهياً من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك لا عيسى ولا غيره؟ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ منزّه عن العجز والضعف ومن كان له الأمر والإيجاد ومالك الملك فله بحكم المالكيّة أن تنسخ شرع موسى ويجعل شرع عيسى، وليس لليهود حقّ الاعتراض على نبوّة عيسى، وكذلك يرفع شريعته ويضع شريعة محمّد ﷺ ويخلّدها إلى يوم القيامة وليس للنصارى الرّد والنكول.

تمّت سورة المائدة مع ما فيها من الفائدة.

سورة الأنعام

نزلت بمكّة جملة واحدة معها سبعون ألف ملك قد سدّوا ما بين الخافقين ولهم زجل بالتسبيح والتحميد حتّى كادت الأرض ترتجّ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سبحان ربّي العظيم سبحان ربّي الأعلى وخرّ ساجداً» وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعاً: «من قرأ ثلاث آيات من أوّل سورة الأنعام إلى قوله: ﴿تَكۡسِبُونَ﴾ حين يصبح وكّل الله به سبعين ألف ملك يحفظونه وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة، وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مرزبة من حديد كلّما أراد الشيطان أن يلقي في قلبه شيئاً من الشرّ ضربه بها وجعل بينه وبين الشيطان سبعين ألف حجاب فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: يا ابن آدم امش تحت ظلّي وكل من ثمار جنّتي واشرب من ماء الكوثر واغسل من ماء السلسبيل فأنت عبدي وأنا ربّك لا حساب عليك ولا عذاب». كذا رواه الواحديّ في «البسيط».

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ سورة الأنعام نزلت جملة واحدة ومعها سبعون ألف ملك يعظّموها ويجلوها فإنّ اسم الله فيها في سبعين موضعاً ولو يعلم النّاس ما في قراءتها من الفضل ما تركوها»[1]، ثمّ قال عليه السلام: «من كانت له حاجة إلى الله يريد قضاءها فليصلّ أربع ركعات بفاتحة الكتاب والأنعام وليقل في صلاته إذا فرغ من العبادة: يا كريم يا كريم يا كريم يا عظيم يا عظيم يا عظيم يا أعظم

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٦؛ والكافي، ج ٢، ص ٦٢٢.

من كلّ عظيم يا سميع الدعاء يا من لا يغيّره اللّيالي والأيّام صلّ على محمّد وآل محمّد وارحم ضعفي وفقري وفاقتي ومسكنتي يا من رحم الشيخ يعقوب حين ردّ عليه يوسف قرّة عينه، يا من رحم أيّوب بعد طول بلائه، يا من رحم محمّداً من اليتم آواه ونصره على جبابرة قريش وطواغيتها وأمكنه منهم يا مغيث يا مغيث يا مغيث تقول ذلك مراراً فو الّذي نفسي بيده لو دعوت الله بها ثمّ سألت الله جميع حوائجك لأعطاك».[١] وروى أبو صالح عن ابن عبّاس قال: (من قرأ سورة الأنعام في كلّ ليلة كان من الآمنين يوم القيامة ولم ير النار بعينه أبدا).[٢]

أقول: ولعلّ السبب في إنزال هذه السورة جملة واحدة أنّها مشتملة على الأصول ودلائل التوحيد والعدل والنبوّة والمعاد، وإنزال ما يدلّ على الأحكام قد يكون المصلحة أن تنزّل اللّه قدر حاجتهم وبحسب الحوادث والنوازل ولكن ما يدلّ على علم الأصول أنزل اللّه جملة واحدة وذلك يدلّ على أنّ تعلّم الأصول واجب على الفور لا على التراخي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

بدأ اللّه سبحانه هذه السورة بالحمد لنفسه إعلاماً بأنّه المستحقّ لجميع المحامد لأنّ أصول النعم وفروعها منه تعالى ولأنّ له الصفات العليا فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعلم أنّ المدح أعمّ من الحمد والحمد أعمّ من الشكر وذلك

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ ورواها وبعض ما تقدم في ثواب الأعمال: ١٠٥.

لأنّ المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل فكما يحسن مدح الرجل العاقل كذلك يمدح اللؤلؤ الحسن شكله وصفاته لكنّ الحمد لا يحصل إلّا للعاقل المختار بسبب ما يصدر عنه من الإنعام والإحسان فثبت أنّ المدح أعم من الحمد وأمّا بيان أنّ الحمد أعمّ من الشكر فلأنّ الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر منه من الإنعام سواء كان ذلك الإنعام واصلاً إليك أو إلى غيرك لكنّ الشكر فهو عبارة عن تعظيم المنعم لأجل إنعام وصل إليك فصار أعمّ من الشكر.[١]

فكان قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تصريحاً بأنّ المؤثر في وجود هذا العالم فاعل مختار خلق بالقدرة والمشيئة ولم يقل: الشكر للّه لأنّ الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر عنه ووصل إليك، وهذا مشعر بأنّ العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعم فحينئذ يكون هذا التعظيم بسبب وصول النعمة إليه وهو المطلوب الأصليّ له، وهذه درجة حقيرة فأمّا إذا قال العبد: الحمد للّه يدلّ على أنّ العبد حمده لأجل كونه مستحقاً للحمد لا لخصوص أنّه تعالى أوصل النعمة إليه فيكون حينئذ الإخلاص أكمل، واستغراق القلب أتمّ وانقطاعه عمّا سوى الحقّ أقوى وأثبت. وكلمة الحمد لفظ مفرد محلّى بالألف واللّام فيفيد أصل الماهيّة والحقيقة فيفيد هذه الكلمة أنّ هذه الماهيّة والحقيقة للّه وذلك يمنع من ثبوت الحمد لغير اللّه واختصاصه على الحقيقة به تعالى فاقتضى أنّ جميع أقسام الحمد والثناء والتعظيم ليس إلّا اللّه.

فإن قيل: إنّ شكر المنعم واجب مثل شكر الأستاذ على تعليمه وشكر السلطان على عدله وشكر المحسن على إحسانه كما قال ﷺ: «**من لم يشكر**

١ـ مجمع البيان للطبرسي، ج ٤، ص٦؛ ورواها وبعض تقدم في ثواب الأعمال، ص١٠٢.

الناس لم يشكر الله» فالجواب أنّ المحمود والمشكور في الحقيقة ليس إلّا اللّه لأنّ صدور الإحسان من العبد يتوقّف على داعية الإحسان، وحصول الداعية ليس من العبد وإلّا لافتقر في حصولها إلى داعية اخرى ولزم التسلسل، بل حصولها ليس إلّا من اللّه فيكون المحسن في الحقيقة هو اللّه وكلّ إحسان يقدم عليه أحد من الخلق، فالانتفاع به لا يكون إلّا بواسطة إحسان اللّه، ألا ترى أنّه لولا أنّ اللّه خلق أنواع النعمة وإلّا لم يقدر الإنسان على إيصال تلك الحنطة والفواكه والذهب إلى الغير، ولو لا أنّه سبحانه أعطى الإنسان الحواسّ والقوى لم يمكنه الانتفاع بتلك النعم وإلّا لعجز عن الانتفاع بها فثبت أنّ كلّ إحسان يصدر عن محسن سوى اللّه فالانتفاع به يكون بواسطة إحسان اللّه.

وبالجملة فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يفيد هذه المعاني فقيل: معناه: «احمدوا اللّه» وإنّما جاء بصيغة الخبر لإفادة معنى أنّه تعالى مستحقّ للحمد سواء حمده حامد أو لم يحمده. ثمّ إنّ المقصود من الآية ذكر الحجّة فذكره بصيغة الخبر أولى.

وقيل: معناه: قولوا: الحمد للّه وقد يقرّر في العقول أنّ القلوب مجبولة على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها فإذا أمر اللّه العبد بالتحميد وكان الأمر بالتحميد ممّا يحمله على تذكّر النعم صار ذلك الأمر موجباً للعبد على تذكّر أنواع النعم فيوجب رسوخ محبّة اللّه في قلب العبد وهو من أحسن الفوائد للعبد ومن موجبات القرب ولذلك وقع الابتداء في الكتاب الكريم بهذه الكلمة فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الفاتحة وفي هذه السورة بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والسماوات والأرض حاوية لأكثر موادّ العالم من الأجسام والفلكيّات وما فوقها من العرش والكرسيّ، فينبغي للعبد أن يتأمّل ويتفكّر في طبقات السماوات واتّساعها

وأجرامها وأبعادها، والكواكب الثابتة والسيّارة، ثمّ يتأمّل في عالم الأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان وكيفيّة حكمة خلق الله في الأشياء الحقيرة والضعيفة وجامعيّة أجزائها مع صغرها في الحجم كالبقّ والبعوض وأمثالهما، ثمّ ينتقل إلى معرفة الأجناس وأعراضها والمنافع الحاصلة من كلّ نوع منها، ثمّ إذا استكمل نظره يتأمّل إلى تعرّف مراتب الأرواح السفليّة والعلويّة والفلكيّة، ومراتب الأرواح المقدّسة، فإذا استحضر مجموع هذه الأشياء المحدثة المخلوقة بقدر القوّة البشريّة فقد حضر في عقله من المدركات ذرّة من معرفة قدرة الله من العوالم، وعرف حينئذ أنّ إيجاد الله هذه العوالم العظيمة من جوده تعالى ووجوده، فعند هذا يعرف من قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ذرّة وهذا بحر لا ساحل له وكلام لا آخر له.

فمثل هذا القادر الخالق لهذا الخلقة العظيمة منزّه عن المثل والشبيه في الذات والصفات والأفعال فأفعاله تعالى لا تشبه أفعال الخلق وكذلك ذاته وصفاته، فعند ذلك يحصل معرفة التوحيد معرفة ما والمعاني المتوجّهة في هذه كثيرة مثل أنّ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ جار مجرى ما يقال: جاءني الرجل الرجل الفقيه فإنّ هذا يدلّ على أنّ الجائي كان موصوفاً بهذه الصفة فالإله هو الّذي يخلق السماوات والأرض ولا يكون غيره إلها.

واعلم أنّ السماوات جارية مجرى الفاعل والأرض مجرى القابل ولذلك ذكر السماوات بلفظ الجمع والأرض بصيغة الواحد. والكثرة والتعدّد في السماء اقتضت الاختلافات بسبب الاتّصالات الكوكبيّة ليحصل بها الفصول وسائر الأحوالات المختلفة الّتي بسببها يحصل نظام هذا العالم.

والمقصود من هذه الآية ذكر الدلالة على وجود الصانع وبيانه أنّ أجرام

السماوات والأرض مقدّرات في أمور مخصوصة بمقادير مخصوصة وذلك لا يمكن حصوله إلّا بتخصيص الفاعل المختار بدليل أنّ كلّ حركة فإنّه يمكن وقوعها أسرع ممّا وقع وأبطأ ممّا وقع فاختصاص تلك الحركة المعيّنة بذلك القدر المعيّن من السرعة والبطيء اختصاص مجعول فيه، ولابدّ لذلك من جاعل بدليل أنّ الأجسام متساوية في الطّبيعة الجسميّة باتّصاف بعضها بالحركة وبعضها بالسكون دون العكس، وبعضها بالفلكيّة وبعضها بالعنصريّة يحتاج إلى مقدّر ومخصّص بتصرّف فيها كيف شاء، والحركة فعل حادث لابدّ له من أوّل فإنّ وجود حركة الأوّل لها محال لأنّ حقيقة الحركة انتقال من حالة إلى حالة وهذا الانتقال والحركة يقتضي كونها مسبوقة بالغير ووجب كون ذلك الغير والفاعل متقدّماً على هذه الحركات، والأثر غير المؤثّر فلا يمكن أن يقال: إنّ المؤثّر علّة موجبة بالذات بل فاعل مختار خارج من ذات الأشياء خالق لها مستغن عنها خلقها إفاضة وخيرا. كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ يعني: الليل والنهار وقيل: المراد: الجنّة والنار و«الجعل» هو الإنشاء والإبداع كالخلق والفرق بين الخلق والجعل أنّ الخلق فيه معنى التقدير والإنشاء التكويني وفي الجعل معنى التصيير كإنشاء شيء من شيء وتصيير شيء شيئاً مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[١] ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[٢] وإنّما حسن لفظ الجعل في الآية لأنّ النور والظلمة لمّا تعاقبا صار مكان كل واحد منها تولّد من الآخر وقدّم ذكر الظلمات لأنّ عدم المحدثات متقدّم على وجودها كما روي أنّه تعالى خلق الخلق في ظلمة ثمّ

١ـ سورة النساء: ١.

٢ـ سورة النباء: ٨ .

رشّ عليهم من نوره. وذكر الظلمات بصيغة الجمع فعلى قول من قال: الظلمات الكفر، والنور الإيمان فظاهر لأنّ الحقّ واحد والباطل كثير وأمّا على قول من فسّرهما على الكيفيّة المحسوسة لأنّ النور عبارة عن تلك الكيفيّة الكاملة القويّة والظلمة تقبل التناقص قليلاً قليلاً وتلك المراتب كثيرة.

ثمّ ذكر بطريق التعجّب سبحانه ممّن جعل له شريكاً مع ما يرى من الآيات الدالّة على وحدانيّته فقال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا الحقّ ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يسوّون به غيره بأن جعلوا له أنداداً. ومن وجوه التعجّب أنّ هؤلاء الكفّار مع اعترافهم بأنّ أصول النعم منه تعالى وأنّه هو الخالق والرازق كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1] فنقضوا ما اعترفوا به وعبدوا غيره ما لا ينفع ولا يضرّ من الحجارة وغيرها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي: ابتدأ خلقكم أيّها الناس من تراب مخلوط بالماء لما أنّه أصل البشر قال السدّيّ: بعث الله جبرئيل إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها فقالت الأرض: إنّي أعوذ بالله منك أن تنقص منّي فرجع جبرئيل ولم يأخذ شيئاً حياء من اسم الله قال: يا ربّ إنّها عاذت بك فبعث ميكائيل فاستعاذت كالمرّة الأولى، فاستعاذت فرجع ميكائيل فبعث إسرافيل فكان كذلك فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره فأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلف ألوان بني آدم ثمّ عجنها بالماء العذب والملح والمرّ فقال الله لملك الموت: رحم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل الأرض ولم ترحمها لا جرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك فلمّا خلق الله آدم من تراب وجعله طيناً ثمّ تركه حتّى كان حمأ مسنون أي: أسود

١ـ سورة لقمان: ٢٥، وسورة الزمر: ٣٨.

متغيّراً، منتنا ثمّ خلقه وصوّره وتركه حتّى كان صلصالاً كالفخّار أي: يابساً مصوّتا كالمطبوخ بالنار، ثمّ نفخ فيه من روحه ولمّا كان آدم أصلنا ونحن من أصله جاز أن يقول لنا: خلقكم من طين أو أنّا متولّدون من النطفة وهي تتولّد من أجزاء الأرض، فصحّ هذا القول.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي: كتب وقدّر أجلاً، والقضاء يكون بمعنى الحكم وبمعنى الأمر وبمعنى الخلق وبمعنى الإتمام والإكمال. والمعنى: كتب لموت كلّ واحد منكم أجلاً خاصّاً به وحدّاً معيّناً من الزمان ينفى عند حلوله لا محالة و«ثم» للإيذان بتفاوت بين خلقهم وتفاوت آجالهم.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: وحدّ معيّن لبعثكم جميعاً و«أجل» مبتدأ وخبره ﴿عِندَهُۥ﴾ أي: ثبت معيّن في علمه لا يتغيّر ولا يقف على وقت حلوله أحد وعلمه عنده وهو يوم القيامة وقيل: الأجل الأوّل في الآية: النوم والثاني: الموت وقيل: الأجل الأوّل مقدار ما انقضى من عمره والأجل الثاني مقدار ما بقي.

قال حكماء الإسلام: إنّ لكلّ إنسان أجلين: أحدهما: الآجال الطبيعيّة والثاني: الآجال الاخترامية. أمّا الآجال الطبيعيّة فهو الّذي لو بقي الشخص على طبيعته ومزاجه ولم يتعرّضه العوارض الخارجيّة والآفات المهلكة لانتهت مدّة بقائه إلى أن تتحلّل رطوبته وينطفئ حرارته الغريزيّتان. وأمّا الآجال الاختراميّة فهي الّتي تحصل بسبب من الأسباب الخارجيّة كالحرق والغرق ولدغ الحشرات وشرب السمّ وأمثالها.

فان قيل: إنّ قوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1]

١ـ سورة الحجر: ٥.

١ـ سورة نوح: ٣ و٤.

صريح في الدلالة على السبق على المسمّى فالجواب أنّ تعدّد الأجل إنّما هو بالنسبة إلينا وأمّا بالنسبة إليه فهو واحد قطعاً، وبيانه أنّه تعالى عالم في الأزل بكلّ الموجودات ومقدّر لها حسبما شمله علمه، فهو يقول في الأزل مثلاً: إنّ فلاناً إن اتّقى وأطاع يبلغ إلى أجله المسمّى ـ والأجل هاهنا الأجل الثاني الأطول ـ وإن لم يتّق لم يبلغ هذه المرتبة لكن يعلم أنّه يفعل أحد الفعلين معيّناً فيقدّر له الأجل المعيّن فيكون المقدّر في علم الله الأجل المعيّن، وإنّا لعدم اطّلاعنا من علم الله لم نعلم أنّ ذلك الفلان أي: الفعلين فعل، وأيّما الأجلين قضي له فإذا فعل أحدهما المعيّن، وحلّ الأجل المرتّب عليه علمنا أنّ ذلك هو المقدّر المسمّى.

فالتردّد بالنسبة إلينا لا في التقدير، وعلى هذا قول الله للكافر: «**أسلم تدخل الجنة ولا تكفر تدخل النار**»، مع علمه عدم إسلامه في الأزل والأمر والنهي لإظهار الإطاعة أو المخالفة في الظاهر كمن يريد إظهار عدم إطاعة عبده للحاضرين فيأمره بشيء وهو يعلم أنّه لا يفعله، والعلم بعدم الإطاعة للحاضرين المترددين إنّما يحصل بأمره وكذا جميع المقدّرات الإلهيّة من أفعال العباد الاختياريّة من هذا القبيل. فظهر أنّ التردّد بالنسبة إلينا دون علم الله إلّا أن يطّلعنا عليه بأخباره الواقع في علمه كما أخبر النبي صلى الله عليه وآله على بعض ما وقع من حال الكفّار في زمانه مثل قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] ومثل قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2] فهذا إخبار بما في علمه من أنّهم لا يختارون الإيمان.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ خطاب للكفّار والّذين شكّوا في البعث والنشور

١ـ سورة يس: ١٠.

٢ـ سورة البقرة: ٧.

استبعاد لامترائهم في البعث واحتجاج عليهم بأنّه سبحانه خلقهم وقضى عليهم الموت وهم يشاهدون ذلك ثمّ بعد هذا يشكّون ويكذّبون بالبعث.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

قال الطبرسي: الأشبه أن يكون «هو» في الآية ضمير القصّة والشأن وتقديره: الأمر: اللّه يعلم في السماوات وفي الأرض سرّكم وجهركم فاللّه مبتدأ و«يعلم» خبره[١] وعلى قول من قال: إنّ أصل اللّه إله فيكون المعنى: هو المعبود في السماوات والأرض أو الشأن: المعبود في السماوات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويجوز أنّ الضمير راجع إلى المذكور.

قيل: ويكون الخطاب في سرّكم لجميع الخلق من الملائكة والجنّ والإنس فهو سبحانه عالم بجميع أسراركم وأحوالكم لكن إذا جعلت اسم اللّه علما ثمّ علّقت به قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ لم يجز وإن علّقته بمحذوف ويكون خبر «للّه» أو حالاً عنه أو هم بأن يكون الباري سبحانه في محلّ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

وقال أبو بكر السرّاج: إنّ لفظ «اللّه» وإن كان علماً ففيه معنى الثناء والتعظيم الذي يقرب من الفعل، فيجوز أن يتعلّق لذلك بالمحلّ، وتأويله: وهو المعظّم والمنزّه في السماوات وفي الأرض. قال الزجّاج: لو قلت: هو زيد في الدار لم يجز إلّا أن يكون في الكلام دليل على أنّ زيداً يدبّر أمر الدار فيؤول المعنى أنّ زيداً هو المدبّر في الدار وحينئذ على قول أبي بكر السرّاج والزجّاج يكون الكلام في متعلّقه ما دلّ عليه اسم اللّه فيصحّ المعنى ويكون «هو اللّه» مبتدءاً وخبراً أي: هو المتفرّد بالألوهيّة في السماوات وفي الأرض، يعني في كلّ مكان إله فلا يكون إلى مكان أقرب من مكان.

١ــ مجمع البيان، ج ٤، ص٩.

ثمّ أكّد بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي: الظاهر المشكوف والخفيّ المكتوم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من نيّاتكم وأعمالكم وأحوالكم.

وتمسّك بعض الحمقاء القائلون بأنّ اللّه في مكان تمسّكوا بهذه الآية، قالوا: هذه الآية تدلّ على أنّ الإله مستقرّ في السماء وهو غلط لأنّه يستلزم كونه في المكانين معا لأنّه قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ وهو محال، وأجابوا عن هذا الجواب بأنّه أجمعوا على أنّه ليس بموجود في الأرض، ولا يلزم من ترك أحد الظاهرين ترك العمل بالظاهر الآخر فوجب أن يبقى ظاهر قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ على ذلك الظاهر ثمّ قالوا: ولأنّ من القرّاء من وقف عند قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ ثمّ يبتدئ فيقول: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ والمعنى أنّه سبحانه يعلم سرائركم الموجودة في الأرض فيكون قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صلة لقوله: ﴿سِرَّكُمْ﴾ هذا تمام كلامهم الباطل.

قال الرازيّ: إنّا نقيم الدلالة أولاً على أنّه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره من وجوه لأنّه تعالى قال في هذه السورة: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾[1] وبيّن بهذه الآية وغيرها من الآيات أن كلّ ما في السماوات والأرض فهو ملك اللّه ومملوك له كان اللّه أحد الأشياء الموجودة في السماوات لزم كونه ملكاً لنفسه وذلك محال.[2] فإن قالوا: إنّه قال: ﴿مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكلمة «ما» مختصّة بمن لا يعقل، فلا يدخل فيها ذات اللّه فالجواب أنّ هذا غير مسلّم والدليل عليه قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[1] وكذلك ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[2] ولا شكّ أنّ

١ـ سورة الأنعام: ١٢.

٢ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ١٥٥.

١ـ سورة الشمس: ٥ـ٧.

٢ـ سورة الكافرون: ٣.

المراد بكلمة «ما» هو الله سبحانه.

والوجه الثاني: أنّ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إمّا أن يكون المراد منه أنّه موجود ومتمكّن في جميع السماوات أو المراد أنّه موجود في سماء واحدة، والثاني ترك للظاهر والأوّل على قسمين لأنّه إمّا أن يكون الحاصل منه تعالى في أحد السماوات عين ما حصل منه في سائر السماوات أو غيره، والأوّل يقتضي حصول المتحيّز الواحد في مكانين وهو باطل ببديهة العقل والثاني يقتضي كونه مركّباً من الأبعاض والأجزاء وهو باطل.

والوجه الثالث: أنّه لو كان موجوداً ومتمكّنا في السماوات لكان محدوداً متناهيا، وما كان كذلك كان قبوله للزيادة والنقصان ممكناً، وكلّ ما كان كذلك كان اختصاصه بالمقدار المعيّن لتخصيص مخصّص وتقدير مقدّر وكلّ ما كان كذلك فهو محدث.

والدليل الرابع: على بطلان قولهم أنّه تعالى قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[3] وكلّ ذلك تبطل القول بالمكان.

قيل: إنّ إمام الحرمين أستاذ الإمام الغزّاليّ نزل ببعض الأكابر ضيفا فاجتمع عنده العلماء فقام واحد من أهل المجلس فقال: ما الدليل على تنزّهه عن المكان وهو قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1]؟ فقال: الدليل عليه قول يونس: في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ

١ـ سورة الحديد: ٤.

٢ـ سورة ق: ١٦.

٣ـ سورة الزخرف: ٨٤.

١ـ سورة طه: ٥.

﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1] فتعجّب منه الناظرون فالتمس صاحب الضيافة بيانه فقال الإمام: إنّ هاهنا فقيراً مديوناً بألف درهم، أدّعنه دينه حتّى ابيّنه فقال صاحب الضيافة: عليّ دينه فقال: إنّ رسول اللهﷺ لمّا ذهب في المعراج إلى ما شاء الله قال هناك: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»، ولمّا ابتلى يونس بالظلمات في قعر البحر ببطن الحوت قال: لا اله إلّا أنت فكلّ منهما خاطبه بقوله «أنت» وهو خطاب الحضور ولو كان هو في مكان لما صحّ ذلك فدلّ ذلك على أنّه ليس في مكان.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

«ما» نافية «و من» الأولى لاستغراق الجنس الّذي يقع في النفي كقولك: ما أتاني من أحد، و«من» الثانية للتبعيض. أخبر سبحانه عن أحوال الكفّار المذكورين في أوّل الآية فقال: لا تأتيهم حجّة من حججه وبيّناته من المعجزات ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يقبلونهما ولا يستدلّون لها من التوحيد وصدق رسوله ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ رتّب وشرح أحوالهم مراتب، الأدنى: كونهم معرضين عن التامّل والنظر في الدلائل، والمرتبة الثانية: كونهم مكذّبين بها لأنّ المعرض عن الشيء قد يكون غير مكذّب به، والمرتبة الثالثة: يستهزءون لها لأنّ المكذّب بالشيء قد يكون لا يبلغ تكذيبه به إلى حدّ العناد والاستهزاء فبيّن سبحانه أنّهم على هذا الترتيب أحوالهم. والمراد بالحقّ في الآية أنّه المعجزات قال ابن مسعود: المراد: انشقاق القمر. وقيل: القرآن. وقيل: إنّه محمّدﷺ وقيل: إنّه الشرع الذي أتى به الرسول وقيل: إنّه الوعد

١ـ سورة الأنبياء: ٨٧ .

والوعيد الّذي يرغّبهم به تارة ويرهّبهم ويحذّرهم به اخرى والأولى شمول الكلّ. والمراد من الأنباء العذاب الّذي أنبأ الله به لا نفس الأنباء. ومعنى الاستهزاء قال الزجّاج: إبهام التفخيم في معنى التحقير.(١)

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

ثمّ حذّرهم سبحانه ما نزل بالأمم قبلهم مثل قوم نوح وعاد وثمود وفرعون، وأجرى كلامه مجرى الموعظة والنصيحة فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للإنكار لتقرير الرؤية والرؤية عرفانيّة متعدّية بمفعول واحد والضمير لأهل مكّة أي: ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الأخبار المتواترة ﴿كَمْ﴾ عبارة عن الأشخاص استفهامية كانت أو خبريّة ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: من خلق أهل مكّة وأهل زمانهم من قرن وعصر من الأعصار، سمّوا بذلك لاقترانهم ببرهة من الدهر قال ﷺ: **«خير القرون قرني ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم»**. وقيل: القرن عبارة عن مدّة من الزمان ثمانين سنة أو سبعين، أو ستّين، أو أربعين، أو مائة.

ومنشأ هذا الاختلاف في معنى القرن بسبب اختلاف الأعمار في الأدوار والأزمنة فعلى هذا المضاف محذوف، أي: أهل قرن لأنّ نفس الزمان لا يتعلّق به الهلاك فالمدّة الّتي يجتمع فيها قوم ثمّ يتفرّقون بالموت فهي قرن لأنّ الّذين يأتون بعدهم اقترنوا بالّذين مضوا.

﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وتمكين الشيء في الأرض جعله قاراً فيها

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ١١.

ومكّن استعمل باللّام وبدون اللام مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: أعطيناهم ما لم نعطكم من العمر والمال وغيره ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي المطر: والغيث ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ والمدرار الكثير الجري والصبوب وهو حال من السماء صيغة مبالغة كمفضال ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: من تحت أشجارهم وقصورهم وأبياتهم ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكت كلّ قرن من تلك القرون بسبب ما يخصّهم من الذنوب ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وأحدثنا من بعد إهلاك كلّ قرن ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ بدلاً من الهالكين وهو بيان كمال قدرته وسعة سلطانه وأنّ إهلاكهم لم ينقص من ملكه وقدرته شيئاً بل كلّما أهلك أمّة أنشأ عوضها اخرى.

وفي تفسير «روح البيان» عن أبي الدرداء أنّه قال: إنّ لله عبادا يقال لهم الأبدال لم يبلغوا ما بلغوا بكثرة الصوم والصلاة وحسن الحلية ولكن بلغوا بصدق الروع وحسن النيّة وسلامة الصدر والرحمة للمؤمنين اصطفاهم الله بعلمه واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون رجلاً على مثل قلب إبراهيم لا يموت الرجل منهم حتّى يكون الله قد أنشأ من يخلفه وقد قيل في حقّهم: إنّهم لا يؤذون من تحتهم ولا يحقّرونه ولا يحسدون من فوقهم أطيب الناس خبراً، وألينهم عريكة، وأسخاهم نفساً لا تسبقهم الخيل المجراة، ولا الرياح العواصف فيما بينهم وبين ربّهم، إنّما قلوبهم تصعد في الصفوف العلى ارتياحاً الله في استباق الخيرات أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون.

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

نزلت الآية في النضر بن الحارث وعبد الله بن أميّة ونوفل بن خويلد قالوا: يا محمّد لن نؤمن لك حتّى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من

الملائكة يشهدون عليه أنّه من عند الله وأنّك رسوله، عن الكلبيّ.

المعنى: أخبر الله سبحانه عن جحودهم ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿كِتَٰبًا﴾ مصدر بمعنى مفعول أي: مكتوباً في رقّ وصحيفة وقيل: كتاباً معلّقاً من السماء إلى الأرض، عن ابن عبّاس ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: فعاينوا ذلك معاينة ومسّوه. واللّمس باليد أبلغ في الإحساس من المعاينة فلذلك قال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ دون أن يقول: فعاينوه ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لقال الكفّار عناداً بعد ظهوره كما هو دأب المحجوج اللّجوج: ما هذا الكتاب إلّا السحر الظاهر. قال الطبرسيّ: وفي هذه الآية دلالة على ما يقول أهل العدل في اللّطف لأنّه بيّن أنّه لم يفعل ما سألوه حيث علم أنّهم لا يؤمنون عنده.[1]

وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

أخبر سبحانه تعالى عن حالهم ما يقولون في إنكار نبوّته ﷺ والضمير في «عليه» للنبيّ أي: هلّا أنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلّمنا أنّه نبيّ ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ على هيئته حسبما اقترحوه ـ والحال أنّه من هول المنظر بحيث لا يطيق مشاهدته قوى الآحاد البشريّة. ﴿لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: هلاكهم بالكلّيّة، والقضاء في اللّغة على ضروب كلّها يرجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه.

وذلك لأنّ إنزال الملك آية باهرة فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء فربّما لم يؤمنوا وإذا لم يؤمنوا وجب عليهم عذاب الاستئصال فإنّ سنّة الله جارية

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ١٣.

بأنّ عند ظهور الآية الباهرة إن لم يؤمنوا جاءهم عذاب الاستئصال كناقة صالح مثلاً، فما أنزل الله الملك لهذه الحكمة أو أنّهم إذا شاهدوا الملك بصورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ألا ترى أنّ أشرف الخلق لمّا رأى جبرئيل على صورته الأصليّة غشي عليه؟ أما ترى أنّ جميع الرسل ما عاينوا الملائكة إلّا بصورة البشر كأضياف إبراهيم وأضياف لوط وكاللّذين تسوّرا المحراب، وكجبرئيل حيث تمثّل لمريم بشراً سويّاً. والوجه الثالث: أنّ إنزال الملك آية جارية مجرى الإلجاء وإزالة الاختيار وذلك مخلّ بصحّة التكليف.

﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول ملكاً والّذي ينزل عليه ليشهد بالرسالة كما يطلبون ذلك ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لأنّهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته لأنّ أعين الخلق يحار عن رؤية الملائكة إلّا بعد التجسّم بالأجسام الكثيفة ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: إذا امتنع إرسال الملك للجهات الّتي بيّنا من أنّ رؤية الملك غير ممكنة وأرسلناه بصورة البشر فهم يظنّون كون ذلك الملك بشراً فيعود سؤالهم بأنّا لا نرضى برسالة هذا الشخص ولو أنّا فعلنا هكذا بأن نبعث الملك بصورة البشر لصار فعل الله نظيراً لفعلهم في التلبيس ويبقون في اللبس والشبهة الّتي كانوا فيها وقيل: معنى قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: ولو أنزلنا ملكاً لما عرفوه إلّا بالتفكّر وهم لا يتفكّرون فيبقون في اللبس الّذي كانوا فيه فأضاف اللبس إلى ذاته لأنّه يقع عند إنزاله الملائكة.

ثمّ قال على سبيل التسلية لنبيّه من تكذيب المشركين إيّاه واستهزائهم فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: لقد استهزئت الأمم الماضية برسلها كما استهزأ بك قومك فلست بأوّل رسول استهزئ به ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ

سَخِرُواْ مِنۡهُم ﴾ أي: فحلّ بالساخرين منهم من وعيد أنبيائهم بالعقاب في الدنيا وقيل: أحاط بهم العذاب الّذي كان توعّدهم به نبيّهم إن لم يؤمنوا وحاصل المعنى: أحاط بهم العذاب الّذي كان يسخرون بوقوعه. والحيق: ما يشمل على الإنسان من مكروه فعله ويجوز أن يكون المراد من «ما» عبارة عن القرآن والشريعة في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾فتصير هذه الآية من باب حذف المضاف والتقدير: فحاق بهم عقاب ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾

﴿قُلۡ ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار المكذّبين: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وسافروا ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ ﴾ بأبصاركم وتفكّروا بقلوبكم ﴿كَيۡفَ ﴾ صار وآل عاقبة أمر المكذّبين المستهزئين، وإنّما أمرهم بذلك لأنّ ديار المكذّبين من الأمم السالفة كانت باقية وأخبارهم في الخسف والهلاك كانت شائعة فإذا سار هؤلاء في الأرض وسمعوا أخبارهم وعاينوا آثارهم دعاهم ذلك إلى الإيمان وزجرهم عن التكذيب والطغيان. ثمّ قال: ﴿قُلۡ ﴾يا محمّد لهؤلاء الكفّار: ﴿لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ اللّه الّذي خلقكما أم للأصنام؟ فإن أجابوك فقالوا: للّه وإلّا فـ ﴿قُل ﴾ أنت: ﴿لِّلَّهِ﴾. وفي تصدّي السائل للجواب قبل أن يجيب غيره إيماء إلى أنّ مثل هذا السؤال لكون جوابه متعيّناً ليس من حقّه أن ينتظر جوابه بل حقّه أن يبادر إلى الاعتراف بالجواب ولزوم الحجّة ولهذه الجهة أمر اللّه نبيّه بالسؤال أوّلاً ثمّ بالجواب ثانياً وهذا يحسن في الموضع الّذي يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر

ولا يقدر على دفعه دافع.

والمقصود من تقرير هذه الآية تحذير الكفّار وتقرير إثبات الصانع الأحد، وتقرير النبوّة والمعاد وبيانه أنّ أحوال العالم العلويّ والسفليّ يدلّ على أنّ جميع هذه الأجسام مملوك للّه وهو المالك والملك المطاع المتصرّف، له الأمر والنهي على مملوكه وعبيده، والأمر لابدّ له من مبلّغ وذلك يلزم بعثة المبلّغ والرسول من جانبه تعالى إلى الخلق ولمّا كان الكلّ تحت قدرته وسلطته فهو قادر على إيجاده وإفنائه وإعادته والآية مقرّرة لجميع هذه الأمور.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أي: أوجب على ذاته الرحمة وأوجبه إيجاب الفضل والكرم واختلفوا في المراد بهذه الرحمة فقال بعضهم: المراد من الرحمة هي أنّه تعالى يمهلهم مدّة عمرهم ويرفع عنهم عذاب الاستئصال ولا يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا وهذا لأمّة محمّد، وقيل: إنّ المراد أنّه كتب على نفسه الرحمة لمن ترك التكذيب بالرسل وتاب وأناب وصدّق شريعتهم وفي الحديث ورد أنّهﷺ قال: **«لمّا فرغ الله من الخلق كتب كتاباً إنّ رحمتي سبقت غضبي»**.[1]

فإن قيل: الرحمة إرادة الخير والغضب إرادة الانتقام وظاهر هذا الحديث يقتضي كون إحدى الإرادتين سابقة على الاخرى والمسبوق بالغير محدث فهذا يقتضي كون إرادة اللّه محدثة فالجواب أنّ المراد بهذا السبق الكثرة لا سبق الزمان، قاله الرازيّ، وعن سلمان أنّه تعالى لما خلق السماوات والأرض خلق مائة رحمة كلّ رحمة ملء ما بين السماء والأرض فعنده تسع وتسعون رحمة وقسّم رحمة واحدة بين الخلائق فيها يتعاطفون ويتراحمون

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١٦٥؛ وانظر: مسند أحمد، ج ٢، ص ٤٦٦.

فإذا كان آخر الأمر قصّرها على المتّقين.[١]

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ اللّام لام قسم مضمر أي: واللّه ليجمعنّكم واختلفوا في أنّ قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ابتداء كلام أو متعلّق بما قبله؟ فقال بعض المفسّرين: إنّه ابتداء كلام وقالوا: إنّه تعالى بيّن كمال إلهيّته بقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ ثمّ بيّن أنّه يرحمهم في الدنيا بالإمهال وبيّن أنّه يجمعهم إلى يوم القيامة ولا يهملهم بل يحشرهم ويحاسبهم على كلّ ما فعلوا، وقيل: إنّه متعلّق بما قبله، والتقدير: كتب ربّكم على نفسه الرحمة وكتب على نفسه ليجمعنّكم إلى يوم القيامة. وقيل: البيان يفيد هذا المعنى وهو أنّه لمّا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فكأنّه قيل: وما تلك الرحمة؟ فقيل: إنّه ليجمعنّكم وذلك لأنّه لو لا خوف العذاب من يوم القيامة لحصل الهرج والمرج ولارتفع الضبط وكثر الخبط، فصار التهديد بيوم القيامة من أعظم أسباب الرحمة في الدنيا فيكون قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ كالتغير كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

و«إلى» في الآية بمعنى «في» وقيل: إنّها صلة فالتقدير ليجمعنّكم يوم القيامة وقيل: فيه حذف أي: ليجمعنّكم إلى المحشر في يوم القيامة لأنّ الجمع يكون إلى المكان لا إلى الزمان وقيل: المعنى ليجمعنّكم في الدنيا بخلقكم قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شكّ أنّه واقع لا محالة. قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الأخفش: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضعه نصب على البدليّة من الضمير في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ والمعنى: ليجمعنّ هؤلاء الّذين خسروا أنفسهم وقال الزجّاج: إنّ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ رفع بالابتداء وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره لأنّ قوله:

١ـ المصدر السابق نفسه.

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مشتمل على الكلّ على الّذين خسروا وعلى غيرهم، فالّذين خسروا أنفسهم هم الّذين لا يؤمنون بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الأصليّة الّتي فطر الناس عليها. فإن قيل: كيف يحذّر المشركين بالبعث والنشور وهم لا يصدّقون به؟ فالجواب أنّه جار مجرى الإلزام بسبب ذكر الدليل. فإن قيل: كيف نفى الريب مطلقاً والكافر منكر أو مرتاب بعضهم؟ فالجواب أنّ الحقّ حقّ وإن ارتاب المبطل فإنّ الدليل حكم بالسمع والعقل أنّ التمكين من الظلم من غير انتصاف إمّا في العاجل أو في الآجل قبيح فوجب أن يكون دار اخرى وينتصف المظلوم من الظالم.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: كلّ متمكّن ساكن خلقاً وملكاً وذكر في السابق السماوات والأرض وهنا اللّيل والنهار لأنّ الأوّل مجمع المكان والثاني مجمع الزمان وهما ظرفان لكل موجود فكأنّه تعالى أراد الأجسام والأعراض وإنّما ذكر الساكن دون المتحرّك لأنّ عاقبة التحرّك السكون والساكن أعمّ وأكثر من المتحرّك أو أنّ المراد الساكن والمتحرّك والتقدير: ما سكن وما تحرّك إلّا أنّ العرب قد يذكر أحد وجهي الشيء ويحذف الآخر بسبب أنّ المذكور ينبّه عن المحذوف كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[1] والمراد الحرّ والبرد.

والمراد من الآية باختصاص الذكر في المخلوقات بالسكون والحركة من بين سائر كيفيّاتها التنبيه على حدوث العالم وإثبات الصانع لأنّ كلّ جسم لا ينفكّ من الحوادث الّتي هي الحركة والسكون فإذاً لابدّ من محرّك ومسكّن لاستواء الوجهين في الجواز والإمكان فلابدّ من وجود المخصّص بأحدهما دون الآخر وقيل: المراد من السكون الحلول كما يقال: فلان يسكن بلد كذا.

١ـ سورة النحل: ٨١.

وعلى هذا يعمّ كلّ ما خلق.

ولمّا ثبت بالبيان والأدلّة ثبوت الصانع ووجوب ذاته عقّبه بذكر صفته.

فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والسميع هو الّذي على صفة يصحّ لأجلها أن يسمع المسموعات إذا وجدت وهو كونه حيّاً لا آفة به ولذلك يوصف به فيما لم يزل، والعليم هو العالم بوجوه التدبير والأمر في خلقه وبكلّ ما يصحّ أن يعلم.

قيل في سبب نزول هذه الآية: إنّ كفّار مكّة أتوا رسول اللهﷺ فقالوا: قد علمنا أنّك ما يحملك على ما تدعونا اليه إلّا الفقر والحاجة، فنحن نجمع لك من القبائل أموالاً تكون أغنانا رجلاً وترجع عمّا أنت عليه من الدعوة فنزلت: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ الآية وقيل: إنّ شأن النزول في الآية الّتي بعد هذه الآية وهي :﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ وهو الأقرب.

قيل في سبب تقديم اللّيل في الذكر: لشرافة الليل مع أنّ النهار مضيء والليل مظلم، وفي الخبر أنّ الله تعالى خلق جوهرتين أحدهما مظلمة والآخر مضيئة، فاستخلص من المضيئة كلّ نور فخلق من نورها النهار ومن الباقي النار، واستخلص من الظلمة كلّ ظلمة فخلق منها اللّيل وخلق من الباقي الجنّة فاللّيل من الجنّة والنهار من النار ولذلك كان الأنس بالليل أكثر واللّيل أنس المحبّين وقرّة أعين المخلصين، واللّيل لخدمة المولى والنهار لخدمة الخلق، ومعراج النبيﷺ كان باللّيل والقدر في اللّيل وهي خير من ألف شهر وكان بعض الأولياء يقول: إذا جاء اللّيل جاء الخلق الأعظم.

قال: الحقّيّ في تفسيره: وفي الخبر عن سلمانرضي الله عنه قال: (اللّيل موكّل به ملك يقال له شراهيل فإذا حان وقت اللّيل أخذ خرزة سوداء فدلّاها من قبل المغرب فإذا نظرت إليها الشمس وجبت في أسرع من طرفة العين وقد أمرت أن لا تغرب حتّى ترى الخرزة، فإذا غربت جاء اللّيل وقد نشرت الظلمة من

تحت جناحي ملك فلا تزال الخرزة معلّقة حتّى يجيء ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء فيعلّقها من قبل المطلع فإذا رأتها الشمس طلعت في طرفة عين وقد أمرت أن لا تطلع حتّى ترى الخرزه البيضاء فإذا طلعت جاء النهار فنشر النور من تحت جناحي ملك فلنور النهار ملك موكّل ولظلمة الليل ملك موكّل عند الطلوع والغروب).(١)

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

قال ابن عبّاس: (ما كنت أدري معنى الفاطر حتّى احتكم إليّ أعرابيّان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: ابتدأت حفرها وأصل الفطر الشقّ)(٢) ومنه إذا السماء انفطرت أي: انشقّت. قال الزجّاج: فإن قال قائل: كيف يكون الفطر في معنى الخلق والانفطار بمعنى الانشقاق؟ قيل: إنّهما يرجعان إلى شيء واحد لأنّ معنى فطرهما خلقهما خلقاً قاطعاً.(٣)

المعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لكفّار مكّة ونزلت حين دعوه إلى الشرك ودين قومه ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ومعبوداً فعلى هذا يكون شأن نزول الآية السابقة في هذه الآية أولى وقد ذكره الحقّي في شأن الآية السابقة وأظنّه وهماً منه. و«غير» منصوب على المفعول الأوّل لأتّخذ و«وليّا» مفعول ثان، أي: لا أتّخذ غير اللّه ربّاً وإلهاً ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما ابتداء لا على مثال سبق وهو يدلّ على الجلالة ﴿وَهُوَ﴾ والحال أنّه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: يرزق

١ـ فتح القدير، للشوكاني، ج ١، ص ٥٠.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٨، ص٢١٧.

٣ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ١٨؛ وزاد المسير، ج ٣، ص ١٠.

الخلق ولا يرزق وتخصيص الطعام بالذكر لشدة الحاجة إليه.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ وجهه للّه مخلصاً له لأنّ النبيّ إمام أمّته في الإسلام ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: لا تكوننَّ من المشركين به في أمر من أمور الدين، وحاصل المعنى: أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك قال الرازيّ: و يجوز أن يكون المعنى في قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أن يكون وهو يطعم تارة ولا يطعم اخرى على حسب المصالح كقوله: يعطي ويمنع ويبسط ويقدر ويغني ويفقر.

وحقيقة الإسلام الإخلاص من حبس الوجود وما خلص منه غيره ﷺ بالكلّيّة ولهذا يقول الأنبياء: «**نفسي نفسي**»؛ وهو يقول: «**أمّتي امّتي**» وهذا هو السرّ في تفاوت المثوبات.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بمخالفة أمره ونهيه أي: عصيان كان ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب يوم القيامة وفيه تعريض بأنّهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم.

مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

أي: من يصرف عنه العذاب في ذلك اليوم العظيم و«يومئذ» ظرف للصرف ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي: نجّاه وأنعم عليه ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الصرف ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ والنجاة الظاهرة، قال الطبرسيّ:

ويحتمل أن يكون معنى الآية أنّه لا يصرف العذاب عن أحد إلّا برحمة اللّه كما روي عن النبيّ ﷺ قال: «**والّذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنّة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول اللّه قال: «**ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله برحمته وفضله**» ووضع يده على فوق رأسه وطوّل بها صوته رواه الحسن في تفسيره.[1]

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص٢٠؛ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ١١.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

دليل آخر على أنّه لا يجوز للإنسان أن يتّخذ غير اللّه وليّاً وإن يمسسك ببليّة أو فقر أو مرض فلا قادر على كشفه ولا مفرّج له عنك إلّا هو تعالى ولا يملك كشفه سواه ممّا يعبده المشركون ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ ويصبك بغنى أو سعة في الرزق أو صحّة أو شيء من محابّ الدنيا ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على إدامته ولا رادّ لفضله.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ القادر الّذي لا يعجزه غيره، وهو قادر على أن يقهر غيره وهو مستعل ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بالقدرة والإحاطة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في كلّ ما يفعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأفعال عباده وعبّر قدرته وقهره وعلوّ شأنه بالعلوّ الحسّيّ وعبّر عنه بالفوقيّة بطريق الاستعارة التمثيليّة فإنّه تعالى يقهر المعدومات بالإيجاد والتكوين والموجودات بالإفناء والإعدام لا من حيث المكان لعلوّ شأنه عن ذلك.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

سبب النزول: قال الكلبيّ: أتى أهل مكّة رسول اللّه فقالوا: أما وجد اللّه رسولاً غيرك؟ ما نرى أحداً يصدّقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنّه ليس لك عندهم ذكر فأرنا من يشهد أنّك رسول اللّه

كما تزعم فأنزل الله هذه الآية.[١] ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ لهؤلاء الكفّار: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ وأعظم وأصدق حتّى آتيكم به وأدلّكم بذلك على أنّي صادق؟ وقيل: معناه: أي: شيء أكبر شهادة حتّى يشهد لي بالبلاغ وعليكم بالتكذيب، عن الجبّاني. وقيل معناه أي: شيء أعظم حجّة وأصدق شهادة، عن ابن عبّاس، فإن قالوا: الله وإلّا فقل لهم: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالرسالة والنبوّة لأنّه أوحى إليّ هذا القرآن[٢] وهو معجزة لأنّكم أنتم الفصحاء والبلغاء وقد عجزتم عن معارضته فإذا كان إظهار الله إيّاه على وفق دعواي: شهادة من الله على كوني صادقاً في دعواي، والحاصل أنّهم لمّا طلبوا شاهداً مقبول الحجّة يشهد على نبوّته سبحانه أنّ أكبر الأشياء شهادة هو الله وشهد له بالنبوّة، وهو المراد من قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ ولأخوّفكم بما فيه من الوعيد أيّها الموجودون وقت نزول القرآن ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ عطف على ضمير المخاطبين في «لأنذركم» أي: ومن بلغه القرآن من الإنس والجنّ إلى يوم القيامة. والعائد محذوف أي: ومن بلغه القرآن وقيل: معنى من بلغ أي: من احتلم وبلغ حدّ التكليف فعلى هذا لا يحتاج إلى العائد، وهو قول ضعيف قال محمّد بن كعب القرطبيّ من بلغه القرآن فكأنّما رأى محمّداً وسمع منه، قال أهل التفسير: وفي قوله: ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ دلالة على أنّه مبعوث إلى الكافّة.

ثمّ قال توبيخاً لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ استفهام معناه الجحد والإنكار، وإلجاء لهم إلى الإقرار بإشراكهم أو لا سبيل لهم إلى الإنكار لاشتهارهم وإذعانهم بهذا الشرك، أي: وكيف تشهدون أنّ مع الله آلهة اخرى بعد وضوح الحجّة بوحدانيّته؟ ﴿قُلْ﴾

١ـ مجمع البيان، ج٤، ص ٢٢؛ والمناقب آل أبي طالب، ج ١، ص٤٧.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

لهم: ﴿لَآ أَشْهَدُ﴾ بذلك فإنّه باطل. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ تكرير الأمر للتأكيد أي: بل إنّما أشهد أنّه تعالى متفرّد بالألوهيّة ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من إشراككم ومن تعدّد الآلهة قال أهل العلم: ينبغي ويستحبّ لمن أسلم بل للمسلم أن يأتي بالشهادات ويتبرّأ من كلّ دين سوى الإسلام.

ثمّ ذكر سبحانه أنّ الكفّار بين جاهل ومعاند فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ المراد بالموصول اليهود والنصارى وبالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والإنجيل يعرفون محمّداً بحليته ونعوته في كتابهم كما يعرفون أولادهم روي أنّ رسول الله لما قدم المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام: أنزل الله على نبيّه هذه الآية فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله: يا عمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني وأنا أشدّ معرفة بمحمّد منّي بابني لأنّي لا أدري ما صنع النساء، وأشهد أنّه حقّ من الله تعالى.[1]

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: غبنوا أنفسهم من أهل الكتابين والمشركين بأن ضيّعوا فطرة الله وأعرضوا عن البيّنات الموجبة للإيمان وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء سببيّة تدلّ على أنّ تضييع الفطرة الأصليّة سبب لعدم الإيمان وذلك أنّ الله جعل لكل آدميّ منزلاً في الجنّة ومنزلاً في النار فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة ولأهل النار منازل أهل الجنّة في النار وذلك هو الخسران.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾

المعنى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لو صفهم محمّداً ﷺ المبعوث

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١٧٩؛ وتفسير أبي السعود، ج ٣، ص ١١٨.

في الكتابين بخلاف أوصافه فإنّ تحريف أوصافهﷺ افتراء على الله وكذلك بقولهم: الملائكة بنات الله أي: لا أحد أظلم منه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ مثل أن كذّبوا بالقرآن وبالمعجزات وسمّوها سحرا وحرّفوا بعض أحكام التوراة وغيّروا نعوتهﷺ فإنّ كلّ ذلك تكذيب بآياته. وكلمة «أو» للإيذان بأنّ كلّا من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم، كيف وهم قد جمعوا فأثبتوا ما نفاه الله ونفوا ما أثبته؟.

﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ولا ينجحون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب وإذا كان حال الظالمين هذا فما ظنّك بمن في غاية القاصية من الظلم؟ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ وقرء بالياء والحشر جمع الناس إلى موضع معلوم والضمير للكلّ و﴿جَمِيعًا﴾ حال للضمير أي: ويوم نحشر الناس جميعاً كلّهم﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ للمشركين خاصّة للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ والعطف بثمّ للتراخي الحاصل بين مقامات يوم القيامة في الموقف فإنّ فيه مواقف بين كلّ موقف وموقف تراخ على حسب طول ذلك اليوم، أين آلهتكم الّتي جعلتموها شركاء لله؟ والإضافة مجازيّة باعتبار إثباتهم الشركة في العبادة لآلهتهم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: الشركاء الّذين تزعمون أنّها شركاء وشفعاء. والزعم القول الباطل والكذب في أكثر استعمال.

قيل: لكلّ شيء لقب ولقب الكذب الزعم، وتقدير الكلام أنّ ذلك اليوم بعد ذلك القول للمشركين كان من الأحوال والأهوال مالا يحيط به دائرة المقال.

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ الفتنة مرفوع على أنّه اسم ﴿تَكُنْ﴾ والخبر ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ والفتنة إمّا كفرهم يراد به عاقبة أي: لم تكن عاقبة كفرهم الّذي التزموه في الدنيا بأن يقولوا: واللهِ ربّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ وقرء ربّنا

بالنصب بإضمار أعني أو على النداء أي: والله يا ربّنا. وقرأ الباقون بكسر الباء على أنّه صفة لله تعالى وبالجملة حلفوا أنّهم ما كانوا مشركين ووجه السؤال في الآية لأنّهم لمّا رأوا تجاوز الله عن أهل التوحيد قال بعضهم لبعض: إذا سألتم فقولوا إنّا موحّدون فلمّا جمعهم الله قال: أين شركاؤكم؟ ليعلموا أنّ الله يعرف شركهم في الدنيا وأنّه لا ينفعهم الكتمان وهم أنكروا الشرك وحلفوا فلعلّ لمّا رأوا معاملة الله مع أهل التوحيد قالوا: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. قال ابن عباس وقتادة: إنّ المعنى في قوله: ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ أي: لم يكن معذرتهم[1] إلّا أن قالوا: والله ربّنا ما كنّا مشركين وهو المرويّ عن الصادق، ويجوز أن يكون الفتنة افتتانهم بالأوثان والشرك كما قال ابن عبّاس: فتنتهم يريد شركهم في الدنيا وهذا القول يرجع إلى حذف المضاف[2]، فحينئذ المعنى: لم يكن عاقبة فتنتهم إلّا البراءة منها وهذا المعنى قريب من القول المرويّ عن الصادق.

و قال الزجّاج في معنى الآية: إنّه لمّا ذكر أمر المشركين وأنّهم مفتونون بشركهم أخبر في هذه الآية أنّه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلّا أن تبرّؤوا منه وانتفوا منه فحلفوا أنّهم ما كانوا مشركين قال الزجّاج: وهذا المعنى حسن شائع لا يعرف تأويله إلّا من عرف معاني الكلام وتصرّف العرب في ذلك، ومثاله أن ترى إنساناً يحبّ رجلاً مذموم الطريقة فإذا وقع في محنة بسببه تباعد وتبرأ منه فيقال له: ما كانت محبّتك لفلان إلّا أن أنفت منه.

فإن قيل: إنّ كلّ الناس ملجؤون في الآخرة بترك القبيح لمشاهدته الحقائق ولمعرفتهم بالله ضرورة فكيف يجوز لهم أن يكذّبوا؟ الجواب أنّ

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص٢٦؛ وتفسير نورالثقلين، ج ١، ص٧٠٨.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

معناه ما كنّا مشركين في اعتقادنا وهم يعتقدون في الدنيا كونهم مصيبين فيحلفون على هذا، فعلى هذا يكون قولهم وحلفهم بزعمهم يقعان على وجه الصدق. وقيل وجه آخر وهو أنّهم إنّما يحلفون على ذلك لزوال عقولهم بما يلحقهم من الدهشة من أهوال يوم القيامة.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

المعنى: يقول اللّه عند حلف هؤلاء انظر يا محمّد كيف يفترون على أنفسهم وهذا وإن كان لفظه لفظ الاستفهام فالمراد التنبيه على التعجّب منهم وحاصل المعنى: انظر إلى إخباري عن افترائهم كيف هو بأنّه لا يمكن النظر إلى ما يوجد في الآخره وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، المراد أوثانهم الّتي كانوا يعبدونها ويفترون الكذب بقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه غداً فذهبت عنهم فلم ينتفعوا بها، أو هو عامّ في كلّ ما يعبد من دون اللّه أنّها تضلّ عن عابديها يوم القيامة ولا يغني عنهم شيئاً واختلف في أنّ أهل الآخرة هل يجوز أن يقع منهم الكذب أم لا؟ قيل: يجوز ذلك لما يلحقهم من الحسرة والدهش في القيامة لكن بعد ما استقرّ أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار لا يجوز أن يقع منهم القبيح وبه قال أبو بكر الاخشيديّ وأصحابه وقال بعضهم: إنّه لا يجوز وقوعه منهم على جميع الأحوال.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

سبب النزول: قيل: إنّ نفرا من مشركي مكّة منهم النضر بن الحرث وأبو سفيان ابن الحرب والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة

وغيرهم جلسوا إلى رسول اللهﷺ وهو يقرء القرآن فقالوا للنضر: ما يقول محمّدﷺ؟ فقال النضر: أساطير الأوّلين مثل ما كنت أحدّثكم عن القرون الماضية فأنزل اللّه هذه الآية فقال: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: ومن الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: يستمعون إلى كلامك إذا قرأت القرآن ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وقد مرّ شرح هذا العنوان في سورة البقرة عند قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ...﴾ قال القاضي أبو عاصم العامريّ: أصحّ الأقوال فيه ما روي أنّ النبيّﷺ كان يصلّي بالليل ويقرأ القرآن في الصلاة جهراً رجاء أن يستمع إلى قراءته إنسان من قريش أو غير قريش فيتدبّر في معانيه ويؤمن به، فكان المشركون إذا سمعوه آذوه ومنعوه عن الجهر بالقراءة فكان اللّه تعالى يلقي عليهم النوم أو يجعل في قلوبهم أكنّة ليمتنعوا عن أذاهﷺ ويقطّعهم عن مرادهم وذلك بعد أن بلغهم ما يقوم به الحجّة وينقطع به المعذرة وأسمعهم، وبعد ما علم اللّه سبحانه أنّهم لا ينتفعون بسماعه ولا يؤمنون فشبّه إلقاء النوم بجعل الغطاء على قلوبهم وبوقر آذانهم وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[1] وهو قول أبي عليّ الجبّائيّ أيضا.

ويجوز أن يكون سمّى الكفر الّذي في قلوبهم تشبيهاً ومجازاً وقراً وأكنّة توسّعا لأنّ مع الكفر والإعراض لا يحصل الإيمان والفهم كما لا يحصلان مع الكن والوقر. ونسب ذلك إلى ذاته لأنّه الّذي شبّه أحدهما بالآخر كما يقول أحدنا لغيره إذا أثنى على إنسان وذكر مناقبه: جعلته فاضلاً وبالضدّ إذا ذكر مقابحه وفسقه يقال له:

جعلته فاسقاً وكما يقال: جعل القاضي فلاناً عدلاً، وكلّ ذلك يراد به

١ـ سورة الإسراء: ٤٥.

الحكم عليه بذلك والإبانة عن حاله، كما قال الشاعر:

جعلتني باخلا كلّا وربّ مني إنّي لأسمح كفّا منك في اللزب

ومعناه: سمّيتني باخلا.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ أي: إن يروا كلّ عبرة لم يعتبروا بها، أو وإن يروا كلّ معجزة دالّة على نبوّتك لا يؤمنوا بها لعنادهم، عن الزجّاج وقال تعالى في وصف بعض الكفّار: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا...﴾[1] ولو أجري معنى الآية على ظاهرها لم يكن لهذا معنى لأنّ من لا يمكنه أن يسمع ويفقه لا يستحقّ المذمّة لأنّه لم يعط آلة السمع فكيف يذمّ على ترك السمع؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي: أنّهم إذا دخلوا عليك يجيؤون مخاصمين رادّين عليك قولك ولم يجيؤوا مجيء من يريد الرشاد وبلغ بهم ذلك العناد إلى أنّهم إذا جاءوك جاءوك رادّين ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: لا يكتفون بعدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: إنّ هذا القرآن من القصص القديمة الّتي يحكونها، جمع أسطورة كالأعاجيب جمع أعجوبة.

وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾

وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ويَنأوْنَ عَنْهُ أي: يمنعون وينهون غيرهم عن القرآن والإيمان به ويتباعدون عن القرآن بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم منه فإنّ اجتناب الناهي عن المنهيّ عنه من متمّمات النهي.

قال الرازيّ: الضمير في قوله: ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾ وقد سبق ذكر القرآن وذكر محمّد فمحتمل أن يرجع إلى القرآن وأن يكون عايداً إلى

١ـ سورة لقمان: ٧.

محمّد، فلهذا السبب اختلف المفسّرون فقال بعضهم: أي: عن القرآن وتدبّره وقال آخرون[١]: بل المراد: ينهون عن الرسول والمراد أنّهم ينهون عن اتّباعه والإقرار برسالته قال عطا ومقاتل: نزلت في أبي طالب كان ينهى قريشاً عن إيذاء النبيّ ثمّ يتباعد منه ولا يتّبعه على دينه.

أقول: والعجب من هذين الرجلين كيف فسّروا هذه الآية بهذا المعنى مع أنّ هذا المعنى يخرج الآية عن سوقها ويجعلها غير متناسبة وغير مربوطة المعنى؟

قال الرازيّ في «المفاتيح»: والقول الأوّل أشبه لوجهين: الأوّل أنّ جميع الآيات المتقدّمة على هذه الآية يقتضي ذمّ طريقتهم فكذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينبغي ويقتضي أن يكون محمولاً على مذمّتهم فلو حملناه على أنّ أبا طالب كان ينهى عن إيذائه لما حصل هذا النظم والثاني أنّه تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني به ما تقدّم ذكره، ولا يليق ذلك بأن يكون المراد من قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ النهي عن أذيّته ﷺ لأنّ ذلك أمر حسن جداً لا يوجب الهلاك.[٢]

فإن قيل: إنّ قوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يرجع إلى قوله: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ لا إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ لأنّ المراد بذلك أنّهم يبعدون عنه بمفارقة دينه، وذلك ذمّ فلا يصحّ ما رجّحتم به هذا القول. قلنا: إنّ ظاهر قوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يرجع إلى كلّ ما تقدّم ذكره لأنّ هذا الكلام بمنزلة أن يقال: إنّ فلاناً يبعد عن الشيء الفلانيّ وينفر عنه ولا يضرّ بذلك إلّا نفسه فلا يكون هذا الضرر معلّقاً بأحد الأمرين دون الآخر.[١]

١ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ١٨٩.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ١٨٩؛ وانظر: الغدير، ج ٨، ص ٧.

١ـ المصدر السابق نفسه.

قال الطبرسيّ: وقول عطاء ومقاتل لا يصحّ لأنّ هذه الآية معطوفة على ما تقدّمها وما تأخّر عنها معطوف عليها وكلّها في ذمّ الكفّار المعاندين للنبيّ ﷺ هذا وقد ثبت إجماع أهل البيت على إيمان أبي طالب عليه السلام، وإجماعهم حجّة لأنّهم أحد الثقلين اللّذين أمر النبيّ ﷺ بالتمسّك بهما بقوله: **«إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا»**.

ويدلّ على ذلك أيضا ما رواه ابن عمر من أنّ أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة ـ اسمه عتبة ـ يوم الفتح إلى رسول الله فأسلم فقال النبيّ لأبي بكر: **«هلّا تركت الشيخ فأنا آتيه وكان أعمى؟»** فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله والّذي بعثك بالحقّ لأنّي كنت بإسلام أبي طالب أشدّ فرحاً منّي بإسلام أبي ألتمس بذلك قرّة عينك فقال ﷺ: **«صدقت»**.[1]

وأشعار أبي طالب المنبئة عن إسلامه كثيرة لا تحصى لا يسعه هذا المختصر فمن ذلك:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّـداً ... نبيّاً كموسى خطّ في أول الكتب

وقوله في قصيدة:

ألا إنّ أحمـــد قـــد جـــاءهم ... بحـقّ ولـم يـأتهم بالكـذب

و قوله في قصيدة يحضّ ويحثّ أخاه حمزة على اتّباع النبيّ والصبر في طاعته:

صبراً أبا يعلى على دين أحمـد ... و كن مظهراً للدين وفّقت صابراً

فقد سرّني إذ قلت أنّك مؤمن ... فكن لرسول الله في اللّـه ناصـراً

وقوله أيضاً يحضّ النجاشيّ على نصر النبيّ ﷺ

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٣١؛ ومجمع الزوائد، ج٦، ص ١٧٤.

تعلّم مليك الحبش إنّ محمّداً وزير لموسى والمسيح بن مريم
أتى بهدى مثل الّذي أتيا بـه و كلّ بأمر اللّه يهدي ويعصم
و أنّكـم تتلونـه فـي كتـابكم بصدق حديث لا حديث المـرجّم
فلا تجعلوا للّه نـدّاً وأسـلموا و إنّ طريق الحقّ ليس بمظلم

وأمثال هذه البيانات كثيرة في قصائده المشهورة وكذلك في وصاياه وخطبه، يطول بها الدفاتر على أنّ أبا طالب لم ينأ عن النبيّ قطّ بل كان ملازماً لهﷺ وقائماً بنصرته فكيف يكون المعنى كما قال مقاتل وعطاء؟ أقول: بل هو صرف الخطا ولو اقتل على تخطئة قول مقاتل.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الخطاب للنبيﷺ أو لكلّ أحد من شأنه المشاهدة والعيان والوقف الحبس وجواب «لو» ومفعول «ترى» محذوف، أي: لو تراهم حين يوقفون على النار حتّى يعاينوها لرأيت ما لا يساعده التعبير ﴿فَقَالُوا۟﴾ أي: الموقوفون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ القرآنيّة ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها العاملين بمقتضاها حتّى لا نرى هذا الموقف، ونصب الفعلين على جواب التمنّي بإضمار «أن» بعد الواو وإجرائها مجرى الفاء والمعنى: إن رددنا لم نكذّب ونكن من المؤمنين.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ليس الأمر على ما قالوه من أنّهم لو ردّوا إلى الدنيا لآمنوا فإنّ التمنّي الواقع منهم يوم القيامة ليس لأجل كونهم راغبين في الإيمان بل لأجل خوفهم من العقاب الّذي يعاينوه وظهر لهم في

الآخرة ما أخفوه في الدنيا بشهادة جوارحهم وظهور جزاء كفرهم الّذي أخفوه.

وقد اختلفوا في ذلك الّذي أخفوه على وجوه قال الزجّاج: بدا للتابعين ما أخفاه الرؤساء عنهم من أمر البعث والنشور، قال: والدليل على صحّة هذا القول أنّه تعالى ذكر عقيبه[1]: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. والوجه الثاني في معنى الآية أنّها في المنافقين وقد كانوا يرون الكفر ويظهرون الإسلام وبدا لهم يوم القيامة حالهم لغيرهم، وعرف غيرهم بأنّهم كانوا كفّارا. والوجه الثالث: بدا لهم ما كان علماؤهم يخفون من جحد نبوّة الرسول ونعته وصفته في الكتب والبشارة بهﷺ وما يحرّفونه من التوراة.

وقال المبرّد: وبدا لهم وبال عقائدهم وسوء عاقبتها، وذلك لأنّ كفرهم ما كان مضارّه بادياً لهم فلمّا ظهرت يوم القيامة ظهر لهم فقال اللّه: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فإنّ التكذيب بالشيء كفر وستر به فإخفاء له لا محالة. وحاصل تمام الأقوال أنّه ظهرت فضيحتهم في الآخرة وتهتّكت أستارهم وهو معنى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[2].

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: علم اللّه أنّه تعالى لو ردّهم لم يحصل لهم ترك التكذيب وفعل الإيمان، بل كانوا يستمرّون على طريقتهم الأولى في الكفر والتكذيب.

فإن قيل: إنّ أهل القيامة قد عرفوا اللّه بالضرورة وشاهدوا ثمرات الكفر فلو ردّهم اللّه إلى الدنيا كيف يتصوّر أن يقال: إنّهم يعودون إلى الكفر وإلى معصيته تعالى قال القاضي: تقرير الآية: ولو ردّوا إلى حالة التكليف، وإنّما يحصل الردّ لو لم يحصل في القيامة معرفة اللّه بالضرورة، وهذا الشرط

١ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ١٩٤.

٢ـ سورة الطارق: ٩.

يكون مضمراً لا محالة في الآية لا أنّهم بعد ما علموا بالضرورة أمرهم وأمور العذاب لو يردّون يعودون.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: هم قوم ديدنهم الكذب فقال الطبرسيّ لو قيل: إنّ التمنّي كيف يصحّ فيه الكذب وإنّما يقع الكذب في الخبر؟ فالجواب أنّ المعنى أنّهم كاذبون إن خبّروا عن أنفسهم بأنّهم متى ردّوا آمنوا، ويجوز أن يحمل كلامهم على غير الكذب الحقيقيّ بأن يكون المراد أنّهم تمنّوا مالا سبيل إليه فكذّب تمنّيهم وأملهم، وهذا مشهور في كلام العرب يقولون: كذَبك أملك، لمن تمنّى ما لم يدرك؛ قال شاعرهم:

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها　　　مراغمة مادام للسيف قائم

و المراد: الخيبة في الأمل. وقرأ أبو عمرو بن العلا: «لا يكذب ويكون» بالرفع واستدلّ بأنّ قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيه دلالة على أنّهم أخبروا بذلك عن أنفسهم ولن يتمنّوه لأنّ التمنّي لا يقع فيه الكذب، والتمنّي وقع منهم للردّ فبعضهم جعل بعض الكلام تمنّياً وبعضه إخباراً، وعلّق تكذيبهم بالخبر دون «ليتنا» وإذا كان بعض الكلام خبراً فيكون الإعراب بالرفع دون النصب.

وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾

في الآية قولان: الأوّل: أنّه تعالى ذكر في الآية الأولى أنّه بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل فبيّن في هذه الآية: إنّ ذلك الّذي يخفونه هو أمر المعاد والحشر، وذلك لأنّهم كانوا ينكرونه ويخفون صحّته وكانوا يقولون: ما لنا إلّا هذه الحياة الدنيويّة وليس بعد هذه الحياة لا ثواب ولا عقاب.

والثاني: أنّ التقدير: ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ولأنكروا الحشر والنشر، وقالوا: إن هي إلّا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين فيكون عطفاً على «عادوا».

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ﴾ أي: ما الحياة، فإنّ من الضمائر ما يذكر مبهماً ولا يعلم مرجعه إلّا بذكر ما بعده ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد ما فارقنا هذه الحياة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ وحبسوا للسؤال كما توقف العبد الجاني، وجواب «لو» محذوف أي: لرأيت أمراً عظيماً ﴿قَالَ﴾ وأتى بلفظ الماضي لتحقّق وقوعه والماضي والحال والاستقبال عنده تعالى سواء. قال لهم على لسان الملائكة على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ البعث والحساب ﴿بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ الّذي عاينتموه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم وتكذيبكم وخصّ لفظ الذوق لبيان أنّ ما يجدونه من العذاب في كلّ حال هو ما يجده الذائق لكون ما يجدون بعده أشدّ من الأوّل، وهكذا إلى ما لا يتناهى لأنّ عذاب الكافرين كذلك.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي: كانوا مكذّبين بلقاء ما وعد الله من الثواب والعقاب وجعل لقاءهم لذلك لقاءه مجازاً كما يقال للميّت: لقي فلان عمله أي: لقي جزاء عمله، أي: كذّبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتة فندموا حيث لا ينفعهم الندامة.

﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ كأنّه قيل: يا حسرتنا تعالى فهذا أوان حضورك كما يقال: يا للعجب احضر وابصر خسراننا وهذا الكلام أبلغ من أن يقول: إنّا متحسّرون على التفريط في ما فعلنا وقصّرنا في الدنيا وضيّعنا وتركنا من تقديم أعمال الآخرة. وقيل: إنّ الهاء في قوله ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الساعة. وقيل: يعود إلى الجنّة وطلبها لمّا يروا منازلهم في الجنة وحرمانهم

عنها وحصول الخسران، وحمل الأوزار لهم وما أعظم هذه الخسارة! لأنّ الله سبحانه بعث جوهر النفس الناطقة القدسيّة إلى هذا العالم الجسماني وأعطاه هذه الآلات الجسمانيّة وأعطاه التفكّر والتدبّر لأجل أن يتوصّل باستعمال هذه الأدوات إلى تحصيل المعارف والأخلاق الفاضلة الّتي يعظم منافعها بعد الموت، فإذا استعمل الإنسان هذه الآلات والقوّة العقليّة في تحصيل هذه اللذّات الفانية، ثمّ انتهى إلى آخر عمره فقد خسر لأنّ رأس المال قد فني، والربح الّذي ظنّ أنّه هو المطلوب فني أيضا فلم يبق في يده لا من رأس المال أثر ولا من الربح شيء وحصل العقاب العظيم.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: أثقال ذنوبهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ حال من فاعل ﴿قَالُوا﴾ والأوزار جمع وزر وهو الحمل والثقل يقال: وزرته أي: حملته ثقيلاً. ومنه: وزير الملك لأنّه يتحمّل أعباء ما قلّده الملك من مؤونة رعيّته وحشمه. سمّي به الإثم لغاية ثقله على صاحبه وتثقّل ظهر من عمل بها. وأوزار الحرب أثقالها من السلاح. واختلف في كيفيّة حملهم الأوزار قال بعضهم: هذا على سبيل التمثيل والتشبيه مجازا، قالوا: الحمل من توابع الأعيان الكثيفة لأمن عوارض المعاني فلا يوصف به العرض إلّا على التمثيل مجازا. وقال جماعة: لا مانع من حمل الكلام على الحقيقة، وفي الحديث: إنّ المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحا فيقول:

هل تعرفني؟ فيقول: لا فيقول: أنا عملك الصالح فاركبني، فقد طالما ركبتك في الدنيا فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[1] أي: ركباناً، وإنّ الكافر إذا خرج من قبره استقبله أقبح شيء صورة وأخبثه ريحاً فيقول: أنا عملك السيّئ طالما ركبتني في الدنيا فأنا أركبك اليوم وذلك قوله:

١ـ سورة مريم: ٨٥ .

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[1] فيكون الحمل على حقيقته لأنّ للأعمال صوراً تظهر في الآخرة وإن كان نفسها أعراضاً.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس الحمل حملهم. أو المعنى: ساء ما ينالهم جزاء ذنوبهم إذ كان ذلك عذاباً ونكالاً ثمّ ردّ سبحانه عليهم قولهم حيث قالوا: ما هي إلّا حياتنا الدنيا فبيّن أنّ ما يتمتّع به في الدنيا يزول ويبيد فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: باطل وغرور إذا لم يجعل ذلك طريقاً إلى الآخرة، والمراد أعمال الدنيا لأنّ نفس الدنيا لا يوصف باللعب ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الّتي هي محلّ الحياة الباقية ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي، لأنّ منافعها خالصة عن المضارّ ولذّاتها غير منقصة بالآلام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والفاء للعطف على مقدّر أي: أتغفلون فلا تعقلون أي: الأمرين خير؟ وفي الآية تسلية للفقراء المؤمنين وتقريع للأغنياء المنهمكين في لذّات الدنيا.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ «قد» هنا للتكثير والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلّقه ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ يا محمّد ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ فاعل «يحزنك» والعائد محذوف أي: الّذي يقوله كفّار مكّة، وهو ما حكى عنهم من قولهم ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1] وساحر وشاعر ومجنون وأمثالها ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وقرء لا يكذبونك بالتخفيف وهو قراءة عليّ عليه السلام أي: لا تعتدّ بما يقولون فإنّهم في تكذيبهم آيات الله لا يكذبونك في الحقيقة.

١ـ راجع: فروع الكافي، ج ١، ص٦٦، باب ما ينطق به موضوع القبر.

١ـ سورة الأنعام: ٢٥.

واختلف في معناه على وجوه: أحدها: هذا الّذي ذكرناه. والثاني: أنّ معناه: لا يكذّبونك بقلوبهم اعتقادا وإن كانوا يظهرون بأفواههم التكذيب عنادا، ويجحدون القرآن والنبوّة كما أنّ حرث بن عامر من قريش قال: يا محمّد ما كذبتنا قطّ ولكنّا إن اتّبعناك نتخطّف من أرضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب. وقال أخنس بن شريق لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمّد أصادق هو أم كاذب؟ فإنّه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له: إنّ محمّداً لصادق وما كذب قطّ ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللّواء والسقاية والحجابة والنبوّة فماذا يكون لسائر قريش؟.

قال الرازيّ: وهذا الوجه في معنى الآية غير مستبعد، ونظيره قوله تعالى في قصّة موسى وفرعون[١]: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.[٢]

والوجه الثالث: في تأويل الآية: أنّهم لا يقولون: إنّك كذّاب لأنّهم جرّبوك الدهر الطويل وما وجدوا منك كذباً وسمّوك بالأمين فلا يقولون: إنّك كاذب ولكن جحد واضحة نبوّتك لأنّهم اعتقدوا أنّ محمّداً عرض له نوع خبل ونقصان في عقله، فلأجله تخيّل في نفسه أنّه رسول وبهذا التقدير لا ينسبونه إلى الكذب.[٣]

والوجه الرابع: أنّ معناه أنّهم لا يصادفونك كاذباً فقول العرب: قاتلناكم فما أجبنّاكم أي: ما وجدناكم جبناء وقال الأعشى:

«فمضى وأخلف من قبيله موعدا»؛ أراد: صادف منها خلف الوعد.

﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنّهم ينكرون آيات الله

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٢٠٥.

٢ـ سورة النمل: ١٤.

٣ـ تفسير الرازي، ج١٢، ص ٢٠٥.

ويكذّبون بها فما يفعلون في حقّك، والتقديم للقصر.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ تسلية للرسول فإنّ البليّة إذا عمّت طابت أي: وبالله لقد كذّبت من قبل تكذيبك رسل كانوا قبل زمانك فصبر الرسل على تكذيبهم وإيذائهم إيّاهم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي: كان غاية صبرهم نصر الله لهم فتأسّ بهم واصطبر على ما نالك من قومك، والنصر الموعود للصابرين إمّا بطريق الحجج وإمّا بطريق الغلبة وبإهلاك الأعداء ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا خلف في مواعيده بالنصر والغلبة ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من خبرهم ما يسكن به قلبك وسمعت بعض أخبارهم.

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

قال ابن عبّاس: (أتى الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف إلى رسول الله ﷺ في نفر من قريش فقالوا: يا محمّد ائتنا بآية نقترحها من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فإنّا نصدّق بك فأبى الله أن يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول الله، فشقّ ذلك عليه)[1] فبيّن سبحانه أنّ هؤلاء الكفّار لا يؤمنون فخاطب نبيّه ﷺ أنّه إن كان عظم عليك وشقّ واشتدّ إعراضهم عليك بسبب امتناعهم من اتّباعك ولم يقبلوا القرآن ولم يعدّوه من قبيل الآيات وأحببت أن

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٢٠٧.

تجيبهم إلى ما سألوا اقتراحاً لحرصك على إسلامهم. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ وسرباً ومنفذاً في الأرض. والنفق: سرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر. ومنه ما فقأ اليربوع[1] لأنّ اليربوع يخرق الأرض إلى القعر ثمّ يصعد من ذلك إلى وجه الأرض من جانب آخر ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ أي: مصعداً ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ دروجا ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: حجّة تلجئهم إلى الإيمان وتجمعهم على ترك الكفر فافعل ذلك، والجواب فافعل، وحذف الجواب شائع في كلّ موضع يعرف فيه معنى الجواب ألا ترى أنّك تقول للرجل: إن استطعت أن تتصدّق؟ فتترك الجواب للمعرفة به ولكن حذف الجواب ليس في كلّ موضع فإذا قلت: إن تصم تصب خيراً فلابدّ من الجواب[2] لأنّ معناه لا يعرف إذا ترك الجواب. والسلّم مأخوذ من السلامة لأنه الّذي يسلّمك إلى مصعدك قال ابن عبّاس: المراد أنّه لا آية أفضل وأظهر ممّا أتيت به وهو القرآن.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ بالإلجاء ولم يفعل ذلك لأنه ينافي التكليف ويسقط استحقاق الثواب الّذي هو الغرض بالتكليف وإنّما نفى سبحانه المشيئة لما يلجئهم إلى الإيمان لا أنّه نفى مشيئة إيمانهم وليس في الآية أنّه سبحانه لا يشاء منهم أن يؤمنوا بل إنّهم مختارون في الإيمان والكفر، والغرض من الآية أنّهم لم يغلبوه بكفرهم فإنّه تعالى لو أراد أن يحول بينهم وبين الكفر لفعل.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا تجزع في مواطن الصبر وقيل: إنّ هذا إثبات لعلمه ﷺ ونفي للجهل عنه، أي: بعد أن كنت عالماً لا تكن تقارب حالك حال من لا يعلم وهو الجاهل والتغليظ في الخطاب للزجر والتبعيد عن مثل هذه الحالة بأن لا يقترح المقترحون في طلب الآيات.

١ـ فقأ الشيء: شقه.

٢ـ أي: جواب الشرط وهو «تصب خيراً».

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ كلامك ويصغون إليك وإلى ما تقرء عليهم من القرآن ويتفكّر في آياته، ومن لم يتدبّر ولم يستدلّ بآياتك بمنزلة من لم يسمع. قال الشّاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً   و لكن لا حياة لمن تنادي

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يريد أنّ الّذين لا يصغون إليك من هؤلاء الكفّار ولا يتدبّرون فيما تقرؤه عليهم من القرآن والحجج بمنزلة الموتى فكما أنت مأيوس أن تسمع الموتى كلامك إلى أن يبعثهم اللّه ولا يقدرون على إجابتك فكذلك فأيس من هؤلاء أن يستجيبوا لك وإنّما يستجيب المؤمن السامع للحقّ فأمّا الكافر فهو بمنزلة الميّت فلا يجيب إلى أن يبعثه اللّه يوم القيامة فيلجئه إلى الإيمان ضرورة. والفرق بين «يستجيب» و«يجيب» أنّ «يستجيب» أي: قبل لما دعي إليه وليس كذلك «يجيب» لأنّه قد يكون يجيب بالمخالفة والردّ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ﴾ يردّون إلى جزاء أعمالهم فحينئذ يستجيبون. وقرء «يرجعون» على البناء للفاعل. ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذا إخبار عن رؤساء قريش لمّا عجزوا من معارضته في ما أوتي له من القرآن اقترحوا عليه مثل آيات الأولين كعصا موسى وناقة ثمود، فقالوا لإلقاء الشبهة: لو كان رسولاً من عند اللّه فهلّا أنزل عليه آية قاهرة؟

وقد طعن بعض الملاحدة فقال: لو كان محمّدﷺ قد أتى بآية معجزة لما صحّ أن يقول أولئك الكفّار: لو لا أنزل عليه ولما قال سبحانه: إنّ اللّه قادر على أن ينزّل آية والجواب عنه أنّ القرآن معجزة قاهرة باقية إلى القيامة بدليل أنّهﷺ تحدّاهم به فعجزوا عن معارضته، وليس المراد من المعجزة إلّا أمر يعجز عن إتيان بمثله جميع الخلق.

بقي أن يقال: فإذا كان الأمر كذلك فكيف قالوا: لو لا أنزل عليه آية من

ربّه؟ فالجواب أنّهم طعنوا في كون القرآن معجزاً على سبيل العناد، وقالوا: إنّه من جنس الكتب، والكتاب لا يكون من جنس المعجزات فطلبوا من جنس معجزات سائر الأنبياء مثل فلق البحر، لا أنّهم ما أقرّوا بعجزهم بالإتيان بمثله فإذا ثبت إقرارهم وعجزهم ثبت المعجزة، لأنّه لا نعني بالمعجزة إلّا هذا الأمر، ولمّا كان غرضهم التعنّت والعناد فلو كان يأتي ﷺ بما يقترحونه فينسبونه إلى السحر أيضاً كما نسبوا.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ أي: إنّه يجمعهم على الهدى، عن الزجّاج. وقيل: المراد آية كما يسألونها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما في اقتراحهم وإنزالها من وجوب الاستئصال إذا لم يؤمنوا بعد إنزال الآية المقترحة وما في الاقتصار على ما أوتوه من المصلحة ولهذا السبب ما أعطاهم مطلوبهم، ولعلمه سبحانه أنّهم طلبوا هذا الأمر على سبيل التعنّت والعناد لا لحصول اليقين، ولو أتى سبحانه على يد رسوله أيضاً ما يقترحونه ممّا كانوا يؤمنون به فلا فائدة فيه.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

قال القاضي: لمّا قدّم ذكر الكفّار وبيّن أنّهم يرجعون إلى الله ويحشرون بيّن بعده: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في أنّهم يحشرون[1] وهذا هو الوجه في النظم.

الحيوان إمّا أن يكون بحيث يدبّ أو يكون بحيث يطير فجميع ما خلق

١ـ تفسير الرازي ج ١٢، ص ٢١٢.

اللّه من ذي الروح فإنّه لا يخلو عن هاتين الصفتين حتّى ما يسبح في الماء ويعيش فيه فيوصف بعضها بالدبيب النهاية دبيبه في الماء، وبعضها يسبح في الماء كما أن الطير يسبح في الهواء إلّا أنّ البحريّة وصفها بالدبيب أقرب من وصفها بالطيران وخصّ ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء احتجاجاً بالأظهر لأنّ ما في السماء وإن كان كذلك لكن غير ظاهر لنا والفائدة في قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ مع أنّ كلّ طائر إنّما يطير بجناحيه التأكيد كقوله: نعجة أنثى. ومثل قوله: رأيت بعيني ومشيت برجلي.

وفي الآية ذكر في المماثلة بيننا وبين كلّ الدوابّ، ولا يمكن أن يقال: إنّ حصول المماثلة من جميع الوجوه، ولابدّ أن يكون المماثلة من وجه. قال الواحديّ: عن ابن عبّاس أنّه قال: يريد سبحانه: يعرفونني ويوحّدونني ويسبّحونني، وإلى هذا القول ذهب طائفة عظيمة من المفسّرين[١] وقالوا: إنّها تعرف اللّه وتحمده وتسبّحه، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٢] وبقوله في صفة الحيوانات: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾.[٣]

وعن أبي الدرداء أنّه قال: ابهمت عقول البهائم عن كلّ شيء إلّا عن أربعة أشياء: معرفة اللّه، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيّؤ كلّ واحد لصاحبه، وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعجّ إلى اللّه يقول: يا ربّ إنّ هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من حشاش الأرض»** وقيل: المراد بالمثليّة في كونها أمماً وجماعات وفي كونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضاً ويأنس بعضها ببعض ويتوالد بعضها من بعض كالإنس.

١ـ المصدر السابق، ص ٢١٣.

٢ـ سورة الإسراء: ٤٤.

٣ـ سورة النور: ٤١.

والقول الثالث: أنها أمثالنا في أن خلقها الله فكما أحصي في الكتاب كلّ ما يتعلّق بأحوال البشر من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة فكذلك أحصي في الكتاب جميع هذه الأحوال في كلّ الحيوانات ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وليس لذكر هذا الكلام عقيب قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ فائدة إلّا ما ذكرناه.

والقول الرابع: أنها أمثالنا في أنّها تحشر يوم القيامة، يوصل إليها حقوقها كما قال ﷺ: «**يقتصّ للجمّاء من القرناء**».

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ فرّط في الشيء تركه وضيّعه أي: ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المبهمة الّتي فيها مصالح العباد على ما ينبغي، بل بيّنا كلّ شيء فيه إمّا مفصّلا أو مجملاً. أمّا المفصّل مثل قوله: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾[1] وأمّا المجمل كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2] والمجمل قد بيّنه على لسان الرسول وأمر باتّباعه وهو ﷺ قد بيّن فحينئذ ما فرّط في الكتاب شيئاً. روي عن ابن مسعود أنّه قال: مالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه؟ يعني الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة فقرأت امرأة جميع القرآن ثمّ أتته وقالت: يا ابن أمّ عبد: إنّي تلوت البارحة ما بين الدفّتين فلم أجد فيه لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة فقال ابن مسعود: لو تلوتيه لوجدتيه قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1] وثاني الأقوال: أنّ المراد بالكتاب هاهنا الكتاب المشتمل على ما كان وما

١ـ سورة المائدة: ٤٥.

٢ـ سورة الحشر: ٧.

١ـ تفسير مجمع البيان ،ج٤، ص ٤٩؛ وتفسير الرازي، ج ١٢، ص ٢١٦.

يكون وهو اللوح المحفوظ وفيه آجال الحيوان وأرزاقه وآثاره ليعلم ابن آدم أنّ عمله أولى بالإحصاء. وثالثها: أنّ المراد بالكتاب الأجل أي: ما تركنا شيئاً إلّا وقد أجّلنا له أجلاً ثمّ يحشرون جميعاً قال الطبرسيّ: وهذا الوجه بعيد.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ إلى الله بعد موتهم يوم القيامة كما يحشر العباد فينتصف لبعضها من بعض. وعن أبي ذرّ قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذا انتطحت غزالان فقال النبي ﷺ: **«أتدرون فيما انتطحا؟»** فقالوا: لا، قال: **«ولكنّ الله يدري وسيقضي بينهما»**. وعلى هذا فإنّما جعلت أمثالنا في الحشر والاقتصاص واختاره الزجّاج فقال:

يعني: أمثالكم في أنّهم يبعثون ويؤيّده: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[1] ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: إلى من لا يملك النفع والضرّ إلّا هو.

قال الطبرسيّ: واستدلّ جماعة من أهل التناسخ بهذه الآية على أنّ البهائم والطيور مكلّفة لقوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ وهذا باطل لأنّا قد بيّنّا أنّها من أي: وجه تكون أمثالنا ولو وجب حمل ذلك على العموم لوجب أن تكون أمثالنا في كونها على مثل صورنا وهيآتنا وخلقنا. والحال أنّه ليس كذلك وكيف يصحّ تكليف البهائم وهي غير عاقلة والتكليف لا يصحّ إلّا مع كمال العقل[2]؟.

قال الرازيّ: وفي بيان الآية دلالة على أنّ عنايته وصلت إلى جميع الحيوانات كما وصلت إلى الإنسان ومن بلغت عنايته إلى حيث لا يبخل بها على البهائم، ويقتصّ من القرناء للجمّاء كان بأن لا يبخل بها على الإنسان أولى فدلّ منع الله من إظهار ما اقترحوا من المعجزات القاهرة على أنّه لا مصلحة لأولئك المقترحين في إظهارها ويوجب الضرر العظيم إليهم فهذا هو

١ـ سورة التكوير: ٥.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج٤، ص ٥٠؛ وبحارالأنوار، ج٧، ص ٢٥٦.

الوجه في نظم هذه الآية بما قبلها[١].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: القرآن أو بسائر الحجج ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ لا يسمعونها سمع تدبّر وفهم ولذا لا يعدّونها من الآيات ويقترحون غيرها. والصمّ جمع أصمّ والمقصود تشبيه حالهم بالأصمّ وحذف حرف التشبيه للمبالغة. وبكم لا يقدرون على أن ينطقوا بالحقّ ولذلك لا يستجيبون دعوتك وهو جمع أبكم ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر ثالث للمبتدأ أي: في ظلمات الكفر والجهل أو في الظلمات على الحقيقة في الآخرة عقابا على كفرهم، عن الجبّائيّ.

﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي: من يشاء يخذله ويمنعه ألطافه لأنّه تعالى أوضح له الحجج والأدلّة فأعرض عنها ولم يقبلها أو من يشأ اللّه إضلاله عن طريق الجنّة ونيل ثوابها يضلله بسوء كسبه واختياره لا ابتداء ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: ومن يشأ أن يرحمه ويهديه إلى الجنّة يجعله على الصراط الّذي يسلكه المؤمنون إلى الجنّة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾

قال الفرّاء: للعرب في ﴿أَرَأَيْتَ﴾ لغتان إحداهما: المراد رؤية العين فإذا قلت للرجل: أرأيتك كان المعنى أهل رأيت نفسك ثمّ يثنّى ويجمع فتقول: أرأيتكما أرأيتكم والمعنى الثاني أن تقول: أرأيتك وتريد أخبرني، وإذا أردت هذا المعنى تكون التاء مفتوحة تقول: أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم أرأيتكنّ والكاف حرف خطاب أكد به ضمير الفاعل المخاطب، لا محلّ له من الإعراب وهذا على قول البصريّين.[١]

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٢١٤.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٢٢٢.

و قال الفرّاء: ليس الأمر كذلك فإنّه لو كان كذلك وجيء به للتأكيد لوقعت التشبيه والجمع على التاء كما يقعان عليها عند عدم الكاف، فلمّا فتحت التاء في خطاب الجمع ووقعت علامة الجمع على الكاف دلّ ذلك على أنّ الكاف ليس للتوكيد ألا ترى أنّ الكاف لو سقطت لم يصحّ أن يقال لجماعة: أرأيت؟ فثبت بهذا انصراف الفعل إلى الكاف وأنّها واجبة مفتقر إليها.(۱)

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ـ ﷺ ـ، أمر سبحانه رسوله بأن يبكّتهم ويلقمهم الحجر بما لا سبيل لهم إلى الإنكار: أخبروني أيّها الكفّار ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ حسب ما أتى الأمم السابقة من أنواع العذاب الدنيويّ ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ الّذي لا محيص عنها ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: أتدعون فيها لكشف العذاب عنكم هذه الأوثان أو تدعون اللّه الّذي هو خالقكم وسبب إلزام هذه الحجّة عليهم هو أنّهم مع كفرهم كانوا إذا مسّهم الضرّ الشديد دعوا اللّه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم في أنّ أصنامكم آلهة، والحذف ثقة بدلالة الكلام عليه.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ عطف على جملة منفيّة ينبئ عنها الجملة الّتي تعلّق بها الاستخبار كأنّه قيل: لا غيره تدعون بل إيّاه تدعون ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي: يكشف الضرّ الّذي من أجله طلبتم الخلاص عنه إن شاء أن يكشفه، فقبول الدعاء تابع لمشيئته فقد يقبله وقد لا يقبله كما يتعلّق بالعذاب الاخرويّ الّذي من جملته عذاب الساعة فإنّه تعالى لا يغفر أن يشرك به فلا يشاء في الآخرة، وقد يكون أنّ المصلحة تقتضي عدم إجابتهم في الدنيا ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ عطف على تدعون أي: تتركون ما تشركون به تعالى من الأصنام. والنسيان في الآية بمعنى الترك لا بمعنى الغفلة أو المعنى:

۱ـ المصدر السابق نفسه.

تعرضون عنه إعراض الناسي لليأس من النجاة من مثله فإذا كان الأمر كذلك فلم تعبدون غيره؟ وهذا هو المعنى اللازم في الآية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أعلم الله رسوله حال الأمم السابقة في مخالفة رسله والمراد أنّ حال هؤلاء إذا سلكوا طريق المخالفة كحالهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ كثيرة كائنة قبل زمانك و«من» لابتداء الغاية في الزمان أي: من زمان قبل زمانك كقولهم: نمت من أوّل اللّيل وصمت من أوّل الشهر. وفي الآية تقدير أي: فخالفوهم وحسن الحذف للإيجاز من غير إخلال لدلالة مفهوم الكلام عليه. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ والفاء فصيحة مفصحة عن المحذوف، فبعد المخالفة والتكذيب أخذناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: بالشدّة والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: الآفات والأسقام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ لكي يدعوا الله في كشفها بالإيمان والتذلّل والتوبة عن معاصيهم فأخبر الله أنّه أرسل الرسل إلى أقوام بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدّة في أنفسهم وأموالهم ليذلّوا لأمر الله فلم يخضعوا ولم يتضرّعوا وهو كالتسلية للرسول ﷺ ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ أي: فهلّا تضرّعوا لمّا رأوا بأسنا؟ ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأقاموا على كفرهم ويبست وجفّت قلوبهم ولو كان في قلوبهم رقّة وخوف لتضرّعوا ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: حسّن لهم الكفر والمعاصي بأن أغواهم ودعاهم إلى اللّذّة والراحة دون التدبّر والعبادة، ولم يخطر ببالهم أنّ ما اعتراهم من البأساء

والضراء ما اعتراهم إلّا لأجله.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ عطف على مقدّر، أي: فانهمكوا فيه ونسوا ما ذكّروا من البأساء والضراء فلمّا نسوه ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من فنون النعماء على منهاج الاستدراج ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لقوله «فتحنا» ﴿إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ معجبين بحالهم فرح البطر كفرح قارون بما أصابه من الدنيا.

وحاصل المعنى أنّه تعالى امتحنهم بالشدائد لكي يتضرّعوا ويتوبوا فلم ينجح وتركوا التضرّع فتح عليهم أبواب النعم والتوسعة في المال ليرغبوا بذلك في نعيم الآخرة وإنّما فعل ذلك بهم وإن كان موضع العقوبة والانتقام دون الإكرام ليدعوهم ذلك إلى الطاعة، فإنّ الدعاء إلى الطاعة يكون تارة بالعنف وتارة باللّطف أو لتشديد العذاب والعقوبة بالاستحقاق لهم بالنقل من النعيم إلى العذاب الأليم.

﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ بالعذاب ﴿بَغْتَةً﴾ وفجاة ليكون أشدّ عليهم وقعاً وأفظع هولا ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آئسون متحيّرون غاية الحيرة والإبلاس بمعنى اليأس من النجاة عند ورود الهلكة ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أخّرهم بحيث لم يبق منهم أحد فالدابر يقال للتابع للشيء من خلفه، دبر فلان القوم إذا كان أخّرهم فاستوصلوا بالعذاب ولم يبق لهم باقية ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلّة الحكم فإنّ هلاكهم بسبب ظلمهم الّذي هو وضع الكفر موضع الشكر والمعاصي مقام الطاعات. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على إهلاكهم فإنّ هلاكهم من حيث تخليص أهل الأرض من شؤمهم وعقائدهم الفاسدة نعمة جليلة يحقّ أن يحمد عليها مع ما فيه من إعلاء الكلمة الّتي نطقت بها رسلهم قال النبيّ ﷺ: «**إذا رأيت الله يعطي على المعاصي فإنّ ذلك استدراج من الله**» ثمّ قرأ هذه الآية.

قال الشاعر:

فاستوصلوا بعذاب حصَّ دابرهم فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا

احرص وفيك بقيّة على أن تكون لك نفس تقيّة قبل أن ترى الشيب المجلّل، والصلب المهلّل.[1] لتكن مشيتك في المسجد أوقر مشية، وخشيتك في الصلاة أوفر خشية واذكر عسرة الملك العزيز، ولا تنس ما جاء من الحديث العزيز: انظر بين يدي أي: جبّار أنت مماثل، ولأي: مكّار أنت مقاتل، ولا يقوم في مثل هذا المقام الصعب إلّا عبد خير المنابت مثبت بالقول الثابت، أوّاه من خوف العقاب وثّاب إلى نيل الثواب، ولا أقلّ من أن تحفظ من حديث النفس مادمت في الصلاة حتّى لا يفوتك الحضور فتكون صلاتك جسداً بلا روح ولن تشايعك الدنيا إلى ما تروم وإن ساعدتك فمساعدتها لا تدوم وحديث نفسك للدنيا في صلاتك يحجب أن يصعد كلمات الدعاء، وأن تهبط بركات السماء يا عبد الدينار والدرهم متى أنت عتيقهما؟! هيهات لا عتاق إلّا أن تكاتب على دينك يا من يشبعه القرص ما هذا الحرص؟ ويا من ترويه الجرع ما هذا الجوع؟ ستعلم غداً إذا تندّمت أن ليس لك إلّا ما قدّمت وإذا لقيك المؤمنون لم ينفعك مال ولا بنون، ما تصنع بالقناطير المقنطرة؟ عابر هذه القنطرة، ولا تعبر هذه القنطرة إلّا بزهدك فيك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ
أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ

١ـ الظهر المنكوس

﴿وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

احتجاج على المشركين في التوحيد فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، فإنّ الرؤية بصريّة كانت أو علميّة يصحّ الخبر عنه ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ وذهب بهما فصرتم صمّاً وعمياً ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ وطبع عليها. وقيل: معناه ذهب بعقولكم وسلب عنكم التميز حتّى لا تفقهون شيئاً. وإنّما خصّ هذه الأشياء بالذكر لأنّ بها يتمّ النعمة ديناً ودنيا ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: من يأتيكم بما أخذ منكم؟ وحاصل المعنى أنّ هؤلاء الّذين تعبدونها لا يقدرون أن يجعلوا لكم أسماعاً وأبصاراً وقلوباً إن أخذ اللّه منكم، فكما لا يقدر ردّها غيره تعالى فكذلك يجب أن لا تعبدوا غيره.

﴿انظُرْ﴾ يا محمّد وتعجب ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ ونكرّرها ونقرّرها من أسلوب إلى أسلوب تارة بالمقدّمات العقليّة، وتارة بطريق الترهيب والتنبيه والتذكّر بأحوال المتقدّمين ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ و«ثمّ» لاستبعاد صدفهم وإعراضهم عن تلك الآيات.

قال الكعبيّ: دلت الآية على أنّه مكّنهم من الفهم ولم يخلق فيهم الإعراض والصدّ، ولو كان تعالى هو الخالق لما فيهم من الكفر والإعراض لم يكن لهذا الكلام معنى.[1] ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ مفاجأة أو علانية. وإنّما قابل البغتة بالجهر لأنّ البغتة تتضمّن معنى الخفية لأنّه يأتيهم من حيث لا يشعرون. وقيل: البغتة أن يأتيهم ليلاً والجهرة أن يأتيهم

١ـ تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٢٢٨.

نهاراً ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ بهذا العذاب ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ استفهام معناه النفي، أي: لا يهلك إلّا القوم الظالمون أي: الكافرون. فإن قيل: إنّ العذاب قد يكون يعمّ الأبرار أيضا؟ لكنّ الهلاك في الحقيقة مختصّ بالظالمين والأخيار يستوجبون بسبب تلك الدرجات الرفيعة عند الله وليس فيه لهم هلاك.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالتان مقدّرتان من المرسلين وموجب رسالتهم الاختبار بالخبر السارّ النافع والخبر الضارّ القطع ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بهم ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله ودخل في الصلاح ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب الّذي أنذروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات ما بشّروا به من الثواب ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي ما ينطق به الرسل عند التبشير والإنذار ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الأليم وأسند المسّ إلى العذاب ـ مع أنّ المسّ من شأن الحيّ القاصد المختار ـ على طريق الاستعارة بالكناية كأنّه حيّ مدرك يطلب إيلامهم ويقصدهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن الدين والطاعة. في الكلمات القدسيّة: يا ابن آدم لا تأمن مكري حتّى تجوز على الصراط.

روي أنّ الله تعالى قال: يا إبراهيم ما هذا الوجل الشديد الّذي أراه منك؟ فقال: يا ربّ كيف لا اوجل وآدم أبي كان محلّه من القرب أنّك خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأمرت الملائكة بالسجود له فبزلّة واحدة أخرجته من جوارك، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أما عرفت أنّ معصية الحبيب على الحبيب شديدة؟

قال مالك بن دينار: دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت: كيف حالك وكيف أنت؟ قال: يا مالك كيف يكون حال من أمسى وأصبح يريد سفراً بعيداً بلا أهبة ولا زاد، ويقدم على ربّ عدل حاكم بين العباد، ثمّ بكى بكاء شديداً فقلت: ما يبكيك؟ فقال: والله ما بكيت حرصاً

على الدنيا ولا جزعاً من الموت والبلى لكن بكيت ليوم مضى من عمري لم يحسن فيه عملي، أبكاني والله قلّة الزاد وبعد المفازة والعقبة الكؤود، ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنّة أم إلى النار. فقلت له: إنّ الناس يزعمون أنّك مجنون فقال: ما بي جنّة ولكن حبّ مولاي: خالط قلبي، وجرى بين لحمي ودمي وعظامي.

﴿قُل﴾ يا محمّد للكفرة الّذين يخالفونك: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أدّعي أنّ خزائن الله ومقدوراته مفوّضة إليّ أتصرّف فيها كيف أشاء حتّى تقترحوا عليّ تنزيل المعجزات أو إنزال العذاب أو قلب الجبال ذهبا أو غير ذلك ممّا لا يليق بشأن العبوديّة، وكانوا يقترحون منه بعض الآيات وكانوا يقولون: إن كنت رسولاً من عند الله فوسّع علينا منافع الدنيا وأرزاقها، فقل لهم: لا أدّعي أنّ مفاتيح الرزق بيدي حتّى أقبض وأبسط.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: ولا أدّعي أيضاً أنّي أعلم الغيب من أفعاله تعالى حتّى تسألوني عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب. و«لا» في قوله: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ زائدة تأكيد للنفي، والحاصل أنّي لا أدّعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتّى تقترحوا عليّ وتجعلوا عدم إجابتي إلى مقترحاتكم دليلاً على عدم صحّة ما أدّعيه من الرسالة بل الرسالة هي عبارة عن تلقّي الوحي من جهته تعالى والعمل بمقتضاه فحسب، حسب ما ينبئ عنه قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعل إلّا اتّباع ما يوحى إليّ من غير أن يكون لي مدخل ما في الوحي أو في الموحى.

والوحي ثلاثة: ما ثبت بلسان الملك، والقرآن من هذا القبيل بإشارة الملك من غير أن يبيّنه بالكلام وإليه الإشارة بقوله: إنّ روح القدس نفث في روعي والثالث: ما تبدي لقلبه بلا شبهة إلهاماً من الله بأن أراه الله بنور من

عنده كما قال: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[1] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ قل يا محمّد لهم: هل يستوي العارف باللّه العالم بدينه والجاهل به وبدينه وهو مثل للضالّ والمهتدي لمّا وصف نفسه بأنّه متّبع للوحي الإلهيّ لزم منه أن يصف نفسه بالاهتداء ويصف من عانده بالضلال فالعمل بغير الوحي يجري عمل الأعمى. والعمل بمقتضى الوحي يجري مجرى عمل البصير ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في هذا الأمر فتهتدوا باتّباع الوحي.

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

أي: خوّف من العذاب بما يوحى إليك قيل: الضمير في «به» راجع إلى القرآن وقيل: إلى اللّه راجع ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يريد أنّ المؤمنين يخافون يوم القيامة وما فيها من شدّة الأهوال وقيل: معناه: يعلمون، قال الزجّاج: المراد بهم كلّ معترف بالبعث من مسلم وكتابيّ. وإنّما خصّ الّذين يخافون الحشر دون غيرهم وهو نذير على جميع الخلق؟ لأنّ الّذين يخافون ويعلمون الحشر الحجّة عليهم أوجب لاعترافهم بالمعاد.

قال الصادق عليه السلام: «**أنذر بالقرآن من يرجون الوصول إلى ربّهم ترغبهم فيما عنده فإنّ القرآن شافع مشفّع لهم**». وقيل: المراد من قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الكلّ ويتناول الجميع، لأنّه لا عاقل إلّا وهو يخاف الحشر سواء قطع بحصوله أو كان شاكّاً فيه لأنّه بالاتّفاق أنّه غير معلوم البطلان، النهاية أنّ بعضهم ينكرونه من غير دليل، فكان هذا الخوف قائماً في حقّ الكل.

وتمسّكت المجسّمة بهذه الآية على كون اللّه مختصّاً بمكان وجهة

١ـ سورة النساء: ١٠٥.

قالوا: لأنّ كلمة «إلى» للانتهاء من الغاية، والجواب: المراد إلى المكان الّذي جعله اللّه مجمعاً لهم للقضاء عليهم.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ موضع «ليس» نصب على الحال كأنّه قيل: متخلّين عن الناصر والشافع وعلى هذا التقدير فظاهر الكلام أنه هذا الأمر للكافر والمفسّرون على أنّ الآية في المؤمنين فحينئذ يكون المعنى أنّ شفاعة الأنبياء وغيرهم للمؤمنين لمّا كان بإذن اللّه فذلك راجع إلى اللّه وغيره لا يكون وليّاً وشفيعاً ما لم يأذن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ والأمر بالإنذار لكي يتّقوا ويخافوا في الدنيا وينتهوا عمّا نهاهم اللّه.

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

سبب النزول: الثعلبيّ بإسناده عن عبد اللّه بن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول اللّه ﷺ وعنده صهيب وخبّاب وبلال وعمّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمّد أرضيت لهؤلاء من قومك أفنحن نكون تبعا لهم؟ أهؤلاء الّذين منّ اللّه عليهم؟ اطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم اتّبعناك فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾ الآية.

قال الطبرسيّ: قال سلمان وخبّاب: (نزلت هذه الآية فينا جاء الأقرع بن حابس التميميّ وعينية بن حصن الفزاريّ وذووهم من المؤلّفة قلوبهم فوجدوا النبيّ ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمّار وخبّاب في ناس من ضعفاء المسلمين فحقّروهم فقالوا: يا رسول اللّه لو نحيّتهم عنك حتّى نخلو بك فإنّ وفود العرب يأتينك فنستحيي أن يرونا مع هؤلاء الأعبد ثمّ إذا

انصرفنا فإن شئت فأعدهم إلى مجلسك فأجابهم النبيّ إلى ذلك فقالا: اكتب لنا بهذا على نفسك كتاباً فدعى بصحيفة وأحضر عليّاً ليكتب قال: ونحن قعود في ناحية إذ نزلت الآية إلى قوله[١]: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فنحّى رسول اللّه الصحيفة وأقبل علينا ودنونا منه وهو يقول: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكنّا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية[٢]. قال: فكان رسول اللّه يقعد معنا ويدعونا حتّى كادت ركبتنا عن ركبتيه فإذا بلغ الساعة الّتي يقوم فيها وتركناه حتّى يقوم وقال لنا: «**الحمد لله الّذي لم يمتني حتّى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمّتي معكم المحيا ومعكم الممات**»[٣].

المعنى: نهى سبحانه عن إجابة المشركين فيما اقترحوه عليه من طرد المؤمنين أقول: وإنّما أراد الإجابة لحرصهﷺ على إسلامهم ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي: يعبدون اللّه بالصلاة المكتوبة يعني صلاة الصبح والعصر، عن ابن عبّاس والحسن وجماعة وقيل: إنّ المراد بالدعاء هاهنا مطلق الذكر أي: يذكرون ربّهم طرفي النهار، عن إبراهيم النخعيّ وروي عنه أيضا إنّ هذا في الصلوات الخمس.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يطلبون ثواب اللّه ولا يعدلون باللّه شيئاً وقد شهد اللّه لهم في هذه الآية بصدق النيّات والمراد من الوجه الجهة والطريق

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٦٢؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٢١.

٢ـ سورة الكهف: ٢٨.

٣ـ وفبهذا الخبر آية باهرة لمن تدبر في صدره وذيله فإن الأقرع وعينية حيث كانا جديدا الإسلام ولم يحصل لهما روح التفكر الإسلامي بعد لم يكن بدمي المماشاة معهم والتسليم لما إقترحوه ظاهراً إلى أن نزلت الآية وأراحت النبي مما أشكل عليه فإنّ الله لايستحيي مما يستحيي النبي، وهذا أظهر مما ستعرفه عن المصنف وابن الأنباري.

والسبيل إليه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[١] واختلفوا في ضمير «حسابهم» و«عليهم» إلى ماذا يعود القول الأوّل: يعود إلى المشركين، والمعنى: ما عليك من حساب المشركين من شيء ولا حسابك على المشركين وإنّما الله هو الّذي يدبّر عبيده. والقول الثاني: أنّ الضمير عائد إلى الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ وهم الفقراء قال الرازيّ وهو أشبه بالظاهر، والدليل عليه أنّ الكناية في قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ عائدة إلى هؤلاء الفقراء فلزم أن يكون سائر الكنايات عائدة إليهم وعلى هذا التقدير معنى ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أنّ الكفّار كانوا يطعنون في إيمان الفقراء ويقولون: يا محمّد ـ صلى الله عليه وآله ـ إنّهم إنّما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنّهم فقراء ويجدون عندك مأكولاً وملبوساً وإلّا فهم فارغون عن دينك، فقال الله: إن كان الأمر كما يقولون فما يلزمك إلّا اعتبار الظاهر وحسابهم عليه تعالى، ولازم لهم لا يتعدّى إليك؟ كما أنّ حسابك عليك لا يتعدّى إليهم كأنّه قيل: لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك.

وهذه القصّة شبيهة بقصّة نوح إذ قال له قومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فأجابهم نوح: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾[١] وقيل: المراد بقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ أي: من حساب رزقهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ فتملّهم وتطردهم، ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنّما يرزقك الله ويرزقهم.

﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ عطف على قوله ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ على وجه التسبّب لأنّ كونه ظالماً معلول طردهم ومسبّب له، ويجوز أن تكون من

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٦٢.

١ـ سورة شعراء: ١١١ـ١١٣.

الظالمين لنفسك بعد الطرد أو تكون من الظالمين لهم لأنّهم بما استوجبوا التقريب والترحيب كان طردهم ظلماً لهم أيضا. قال ابن الأنباريّ: عظم الأمر في هذا على النبيّ ﷺ من خوف الدخول في جملة الظالمين: لأنّه ﷺ لحرصه على إسلام أولئك همّ بتقديم الرؤساء وأولى الأموال على الضعفاء، مقدّراً أنّه يستجير بإسلامهم إسلام قومهم ومن لفّ لفّهم، وكان ﷺ لم يقصد بذلك إلّا الخير ولم ينو ازدراء الفقراء، فأعلمه الله أنّ ذلك غير جائز.[1]

ثمّ أخبره تعالى أنّه يمتحن الفقراء بالأغنياء والأغنياء بالفقراء فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: كما ابتلينا قبلك الغنيّ بالفقير والشريف بالوضيع ابتلينا هؤلاء الرؤساء من قريش بالموالي، فإذا نظر الشريف إلى الوضيع قد أمن يعني: حمى أنفا أن يسلم ويقول:

سبقني هذا بالإسلام[2]، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ وإنّما قال: فتنّا وهو لا يحتاج إلى الاختبار؟ لأنّه عاملهم معاملة المختبر لكون ترتّب الثواب والعقاب متوقّفاً على وقوع الكفر والإيمان ولا يكون أن يعاملهم بعلمه.

﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ اللّام للعاقبة، أي: فعلنا هذا ليصبروا أو يشكروا فانتهى وآل أمرهم إلى هذه العاقبة ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ والاستفهام معناه الإنكار كأنّهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضله. قال أبو عليّ الجبّائيّ: إنّ معنى «فتنّا» شددنا التكليف على شرفاء العرب بأن أمرناهم بالإيمان وبتقديم هؤلاء الضعفاء عليهم لتقدّمهم إيّاهم في الإيمان، وهذا أمر شاقّ عليهم فلهذا سمّاه الله فتنة[1] ليرضوا بذلك من فعل رسول الله ولم يجعل هذه الفتنة

١ـ تفسيرمجمع البيان، ج ٤، ص ٦٣.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٦٤.

والشدّة من التكليف ليقولوا ذلك على وجه الإنكار: أهؤلاء منّ الله عليهم لأنّ إنكارهم لذلك كفر بالله ومعصية، والله سبحانه لا يريد ذلك ولا يرضاه، لأنّه لو أراد ذلك وفعلوه كانوا مطيعين لا عاصين، وبهذا البيان ثبت فساد قول المجبَرة.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ استفهام تقريريَ أي: إنَه كذلك وهذا دليل واضح على أنّ فقراء المؤمنين وضعفاءهم أولى بالتقديم والتعظيم من أغنيائهم، ولقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«من أتى غنياً فتواضع لغنائه ذهب ثلثا دينه»**.

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)

سبب النزول: قيل: نزلت في الّذين نهى الله نبيّه عن طردهم، فكان النبيّ إذا رآهم بدأهم بالسلام وقيل: نزلت في جماعة من الصحابة منهم حمزة وجعفر ومصعب بن عمير وعمّار وغيرهم، عن عطاء. وقيل: إنّ جماعة أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: إنّا أصبنا ذنوباً كثيرة فسكت عنهم فنزلت الآية، عن أنس بن مالك. وقيل: نزلت في التائبين، عن الصادق عليه السلام.

فعلى هذا كلّ من تاب وآمن وأصلح دخل تحت هذا التشريف وهو الأولى لأنّ الناس اتّفقوا على أنّ هذه السورة نزلت دفعة واحدة[1] وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كلّ واحدة من آيات السورة: إنّ سبب نزولها هو الأمر الفلاني؟ كما أورد هذه المناقشة الإمام الرازيّ في تفسيره.

أقول: يمكن أن يقال: إنّه لسابقة علمه تعالى بوقوع هذه الأمور متدرّجاً فأنزل هذه السورة جملة، فكلّ آية وحكم في ترتيبه موافق للأمور الّتي يقع

١ـ قال به أبي بن كعب وعكرمة وقتادة، وقال ابن عباس: (نزلت ست آيات منها بالمدينه). وفي رواية عنه: ثلاث آيات، قاله الطبرسي.

متدرّجاً، والخطاب متوجّه لما يقع تدريجاً بياناً لتكليفهم فصحّ إطلاق شأن النزول إذ كلّ آية يختصّ بحكم حالهم موافقاً لما يحتاجون بيانه.

﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أمر سبحانه نبيّه أن يسلّم عليهم من الله فهو محبّة من الله على لسان نبيّه، وقيل: إنّ الله أمر نبيّه أن يسلّم عليهم تكرمة لهم، عن الجبّائيّ. وثالثها: أنّ معناه اقبل عذرهم واعترافهم وبشّرهم بالسلامة ممّا اعتذروا منه، عن ابن عبّاس.

وقال أبو بكر الأنباريّ: قال قوم: السلام هو الله فمعنى «السلام عليكم» يعني الله عليكم أي: على حفظكم.[1] قال الرازيّ وهذا بعيد لتنكير السلام في قوله: سلام عليكم، ولو كان معرّفا لصحّ هذا الوجه.[2]

أقول: ولو كان معرّفاً أيضاً لكان في المعنى تكلّف وبعدو «كتب» معناه الوجوب و«على» تفيد الإيجاب والإيجاب بحكم التفضّل والكرم، وهو لا ينافي كونه تعالى فاعلاً مختاراً بل هو عبارة عن تأكيد وقوع الرحمة تفضّلاً.

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال الرازيّ: إنّ هذا لا يتناول التوبة من الكفر لأنّ هذا الكلام خطاب مع الّذين وصفهم بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فثبت أنّ المراد منه توبة المسلم عن المعصية، والمراد من قوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ ليس هو الخطأ والغلط لأنّ ذلك لا حاجة له إلى التوبة بل المراد أن يقدم على المعصية بسبب الميل والشهوة[1] فعمل عملاً متلبّساً بجهالة حقيقة أو حكماً بأن يكون جاهلاً بمقدار المكروه فيه أو أنّه علم أنّ عاقبته قبيحة ومكروهة ولكنّه آثر العاجلة فهو جاهل لأنّه آثر النفع

١ـ تفسير الرازي، للرازي، ج ١٣، ص ٣.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

١ـ المصدر السابق، ص ٤.

القليل على الراحة الكثيرة الدائمة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: بعد المعصية تاب ورجع عن فعله وأصلح ما أفسده من عمله فهو تعالى يمنّ عليه بالغفران والرحمة.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

وقرئ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء وسبيل بالرفع. والسبيل استعمل مؤنّثة مثل قوله: ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ واستعمل مذكراً مثل: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.[1] المعنى: أي: كما قدّمناه من الآيات والدلالات على التوحيد والنبوّة فكذلك نخبر ونشرّح ونفصّل لك دلائلنا في كلّ حقّ ينكره أهل الباطل، و«ليستبين» عطف على محذوف والتقدير: ليظهر الحقّ وليستبين وجاز الحذف لأنّ في ما ابقى دليلاً على ما ألقي. وليستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين.

في النهج: «**اعلموا رحمكم الله أنكم في زمان القائل فيه بالحقّ قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللّازم للحقّ ذليل، أهله معتكفون على العصيان مصطلحون على الإدهان فتاهم عارم، وشائبهم آثم، وعالمهم منافق، وقارءوهم ممازق، لا يعظّم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيّهم فقيرهم**».

أقول: لازموا الحقّ وجانبوا الباطل، واعرف الحقّ من الباطل، يا ابن مسجود الملك! لم تعبد الشيطان؟ ويا ابن خليفة الله لمَ تخرّب البنيان؟ ويا بعل الحور لا تباضع هذه العجوز الدردبيس،[1] ولا تبادل الكوثر بالخندريس[2] تسعى للدنيا وعن قليل تقلعك، وترفل[3] على وجه الأرض وعن قريب تبلعك.

١ـ سورة الأعراف: ١٤٦.

١ـ الدردبيس: الداهية. الشيخ العجوز الفانية.

٢ـ الخمر القديمة.

٣ـ رفل: جر ذيله وتبختر.

ولم يذكر سبيل المؤمنين لأنّ ذكر أحد القسمين يدلّ على القسم الآخر، نحو قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[1] وعلى قراءة التاء فبعض نصب السبيل والتاء للخطاب، فالمعنى: لتستبين يا محمّد سبيل هؤلاء المجرمين وبعض رفع السبيل على أنّه فاعل. وجعلوا السبيل مؤنثاً أي: لتستبين السبيل.

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

كان كفّار قريش يدعونه إلى طريقتهم فنزلت الآية أن قل لهم: إنّي زجرت ومنعت ـ بما نصب لي من الأدلّة والوحي في أمر التوحيد ـ عن عبادة ما تعبدونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كائناً ما كان ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ إشارة إلى الموجب للنهي كأنّهم قالوا: لم نهيت عما نحن فيه؟ أجاب ﷺ بأنّ ما أنتم عليه هوى وليس بهدى، فكيف أتّبع الهوى وأترك الهدى؟ ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾ أي: إذا اتّبعت أهواءكم فقد ضللت وتركت سبيل الحقّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ومن الّذين سلكوا طريق الحقّ.

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ كائنة حاصلة لي. والبيّنة: الحجّة الواضحة الّتي يفصل بين الحقّ والباطل، وأنا على يقين من الله والمراد بها القرآن والوحي ﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦ﴾ والضمير المجرور تذكيره باعتبار القرآن أو البيان

١ـ سورة النحل: ٨٣.

والبرهان، أي: كذّبتم بها وبما فيها من الأخبار الّتي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: ليس عندي ما تستعجلون به العذاب الموعود في القرآن، وتجعلون تأخيره ذريعة لتكذيبي فإنّه ليس أمره بمفوّض إليّ. وذلك أنّ رؤساء قريش كانوا يقولون لهﷺ: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم في ذلك ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يقوله ويخبره ولا يحكم إلّا بما هو حقّ فتأخير العذاب وتعجيله حقّ ثابت جار على حكمة بليغة. وقرء «يقضي الحقّ» قالوا: والمناسب في المعنى: «يقضي» لا «يقصّ» لقوله: ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لأن الفصل في الحكم لا في القصص، ولو أنّ القول أيضاً بمعنى الفصل ويؤول إليه، لكنّ القضاء أظهر ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: خير الحاكمين والقاضين.

واحتجّت الأشاعرة بقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ على أنّه لا يقدر العبد على أمر من الأمور إلّا إذا قضى اللّه به فيمتنع منه فعل الكفر إلّا إذا قضى اللّه به، وهذا يفيد الحصر، وأجاب المعتزلة بقوله: ﴿يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ والمعنى أنّ كلّ ما قضى به فهو الحقّ، وهذا يقتضي أن لا يريد الكفر من الكافر ولا المعصية من العاصي لضرورة أنّ ذلك ليس الحقّ، ومن المعلوم أنّ كلّ شيء صنعه اللّه فهو حقّ والكفر باطل، فامتنع وجود الكفر منه تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ وفي قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب الّذي ورد به الوعيد ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ولأهلكتكم غضباً لربّي باستهزائكم لآياته، ولتخلّصت سريعاً ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبما يجب في الحكمة من التأخير والتعجيل.

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

المعنى: لمّا قال سبحانه إنّه أعلم بالظالمين بيّن في هذه الآية أنّه العالم بكلّ شيء فهو يعجّل ما تعجيله أصلح ويؤخّر ما تأخيره أصلح. المفتاح جمع مفتح فالمفتح بالكسر: المفتاح الّذي يفتح به. والمفتح بفتح الميم: الخزانة، وكلّ خزانة كانت محرزاً لصنف الأشياء فهو مفتح بفتح الميم.

قال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾[1] يعني: خزائنه فلفظ المفاتح يمكن أن يراد منه المفاتيح، ويمكن أن يكون المراد منه الخزائن، أمّا على التقدير الأوّل فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأنّ المفاتيح يتوصّل بها إلى ما في الخزائن المستوثق بالأغلاق والأقفال، فالعالم بتلك المفاتيح يمكنه أن يتوصّل بتلك المفاتيح إلى ما في الخزائن فكذلك هاهنا الحقّ لمّا كان عالماً بجميع المعلومات عبّر عن هذا المعنى بهذه العبارة. وقرء مفاتيح، وأمّا على التقدير الثاني فالمعنى: وعنده خزائن الغيب. فعلى التقدير الأوّل يكون المراد العلم بالغيب، وعلى التقدير الثاني المراد: القدرة على كلّ الممكنات كما في قوله[1]: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[2]

والحكماء قالوا: إنّه تعالى مبدأ لجميع الممكنات، والعلم بالمبدأ يوجب العلم بالأثر فوجب كونه تعالى عالماً بكلّها، وهذه الآية أيضاً دليل على أنّه تعالى عالم بجميع الجزئيّات، ومعنى «و عنده خزائن الغيب» الّذي

١ـ سورة القصص: ٧٦.

١ـ تفسير الرازي، للرازي، ج ١٣، ص ١٨.

٢ـ سورة الحجر: ٢١.

فيه علم العذاب المستعجل به والمتأخّر به وغيره من العلوم لا يعلمها أحد إلّا هو أو من هو أعلمه ببعضه. وقيل: معناه: وعنده خزائن الغيب من الأرزاق والآجال والمقدورات. وقال ابن عمر: مفاتح الغيب خمس ثمّ قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾.[1]

ولمّا ذكر سبحانه أولاً وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو وهذا أمر معقول كلّيّ أكّد بيانه بمعاونة الأمثلة محسوساً مفهوماً لكلّ أحد بجزئيّات محسوسة فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وذلك لأنّ أحد أفراد معلومات الله هو جميع دوابّ البرّ والبحر، فذكر سبحانه هذا المحسوس لكشف ذلك المعقول فإنّ الإنسان إذا شاهد أحوال البرّ وما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة الحيوان والنبات وكذلك عجائب البحر وطوله وعرضه وما فيه من أجناس ما خلق في البحار فإذا استحضر الخيال صورة البرّ والبحر، وعرف أنّ مجموع هذه الأمور قسم حقير تحت قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ فيصير هذا المثال المحسوس مكمّلاً للعظمة في علمه تعالى. ثمّ ذكر جزئيّاً آخر كاشفاً عن عظمة علمه تعالى بقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ فإذا عرف الإنسان إحاطة علمه تعالى بسقوط ورقة من أوراق الأشجار تبيّن للمتأمّل درجة زائدة في علم خالقه وربّه، ثمّ يجاوز من هذا المثال أيضاً إلى مثال آخر أشدّ هيبة وأدقّ إحاطة بقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك لأنّ الحبّة في غاية الصغر، وظلمات الأرض موضع يكون أكبر الأجسام وأعظمها مخفيّاً فيها على اتّساعها فصارت هذه الأمثلة كلّها منبّهة على عظمة علمه تعالى قال ابن عبّاس: (المراد من ظلمات الأرض تحت الصخرة في أسفل الأرضين السبع).

١ـ سورة لقمان: ٣٤.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ وقد جمع الأشياء كلّها في قوله: «وَ لا رَطْبٍ ولا يابِسٍ» لأنّ الأجسام كلّها لا تخلو من أحد هذين. وقيل: المراد ما ينبت وما لا ينبت.

وقيل: الرطب: الحيّ، واليابس: الميّت. وعن أبي عبد الله عليه السلام: الورقة: «**السقط، والحبّة: الولد، وظلمات الأرض: الأرحام، والرطب: ما يحيى واليابس ما يغيض**»[1] ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ما يحيى الناس به. أي: إلّا وهو مكتوب في اللّوح المحفوظ وهو أمّ الكتاب و﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بدل من الاستثناء الأوّل بدل الاشتمال وبدل الكلّ على الكتاب المبين المراد به علمه تعالى لأنّ بعض المفسّرين فسّروا الكتاب المبين هاهنا بعلمه تعالى وهو محفوظ غير منسيّ كما يقول القائل لغيره: ما تفعله عندي مسطور ومكتوب، يريد أنّه حافظ له وعالم به. قال الجرجانيّ صاحب «النظم» عبد القاهر: إنّ الكلام تمّ عند قوله: ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾ ثمّ استأنف خبر آخر بقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ يعني وهو في كتاب مبين أيضا لأنّك لو جعلت قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ متّصلاً بالكلام الأوّل لفسد المعنى.[1]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ الخطاب عامّ للمؤمن والكافر، أي: ينمكم في الليل، ويجعلكم كالميّت في زوال الإحساس والتميز، ومن هنا ورد: النوم أخ الموت والتوفّي في الأصل: قبض الشيء بتمامه. قال أمير المؤمنين عليه السلام: يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى الجسد بأسرع من لحظة، وإنّ الّذي يرى الرؤيا هو الروح الإنسانيّ وإنّه يرى في عالم المثال والبرزخ ما صدر عن الروح الحيوانيّ من القبيح والحسن، والروح الحيواني ظلّ الروح الإنسانيّ.

١ـ رواه البحراني في البرهان، ج ١، ص ٥٢٨، عن أبي الربيع عنه عليه السلام. وفيه: «**ما يحيي الناس به**».

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٧٢.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ وما كسبتم فيه بعلمه تعالى وخصّ الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على العادة ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يوقظكم في النهار عطف على ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ وتوسيط قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ بين الجملتين لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم بالتنبيه على أنّه بعد ما يكسبونه من السيّئات مع كونها موجبة لإبقائهم على التوفّي بل إهلاكهم بالمرّة يفيض عليهم بالحياة ويمهلهم كما ينبئ عنه كلمة التراخي ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ليبلغ المتيقّظ آخر أجله المسمّى في الدنيا المتعيّن له المدّة والمراد بقضاء الأجل: فصل مدّة العمر من غيرها بالموت لأنّ معنى القضاء الفصل والأجل آخر مدّة من الحياة. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعكم بالموت إليه تعالى وإلى حكمه وجزائه لا إلى غيره ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجزئكم بأعمالكم بالمجازاة في أعمالكم الّتي كنتم تعملونها في تلك اللّيالي والأيّام فالآية السابقة بيان علمه تعالى وهذه الآية بيان قدرته لأنّ الإحياء والإماتة من شأن قدرته تعالى.

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)

ثمّ شرح أيضا قدرته فقال: وهو القاهر أي: والله المقتدر المستعلي على عباده، المتفوّق عليهم بالقدرة لا بالمكان لأنّ ذلك من صفة الأجسام وهو تعالى منزّه عن ذلك، كما يقال: أمر فلان فوق أمر فلان مثل قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1] ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: وهو الّذي يقهر عباده

١ـ سورة الفتح: ١٠.

ويرسل ملائكة يحفظون أعمالكم ويكتبونها وهم الكرام الكاتبون، والحكمة في البيان أنّ المكلّف إذا علم أنّ أعماله يكتب عليه ينزجر عن المعاصي وأنّهم يشهدون بها عليهم يوم القيامة لعلّ ينزجر ويتأدّب ولا يكثر العصيان.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: يحفظون أعمالكم مدّة حياتكم حتّى إذا انتهت مدّة الحياة وجاءه أسباب الموت ومباديه ﴿وَهُمْ﴾ أي: الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ولا يقصّرون فيما أمروا به من الحفظ بالتواني والتأخّر طرفة عين، والمتوفّي في الحقيقة هو اللّه وإنّ ملك الموت وأعوانه وسائط، ولذلك أضيف التوفّي إليهم، وقد يكون التوفّي بدون وساطتهم كما نقل في وفات الصدّيقة الطاهرةعليها السلام وأعوان ملك الموت على ما قيل: أربعة عشر ملكاً سبعة منها ملائكة الرحمة وإليهم يسلّم روح المؤمن بعد القبض، وسبعة منهم ملائكة العذاب وإليهم يسلّم روح الكافر بعد الوفاة. وقد جعلت الأرض لملك الموت كالطست يتناول من حيث يشاء[1] وإن كثرت وكانت في أمكنة مختلفة.

قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف وإنّما هو انقطاع تعلّق الروح بالبدن وحيلولة بينهما، وتبدّل حال وانتقال من دار إلى دار، ولمّا خلق اللّه الموت على صورة كبش أملح قال له: اذهب إلى صفوف الملائكة على هيئتك هذه فلم يبق ملك إلّا غشي عليه ألفي عام، ثمّ أقاموا فقالوا: يا ربّنا ما هذا؟ قال الموت، قالوا: لمن ذلك؟ قال: على كلّ نفس، قالوا: لم خلقت الدنيا؟ قال: ليسكنها بنو آدم، قالوا لم خلقت النساء؟ قال ليكون النسل، قالوا: من يسلّط عليه هذا هل يشتغل بالنساء والدنيا؟ قال: إنّ طول الأمل ينسيهم

١ـ وبه ورد روايات كثيرة أورد أكثرها المجلسي رحمه الله في، ج ٦، ص١٣٩ ـ ١٤٥ من البحار المطبوع جديداً. وفي بعضها أنها جعلت له مثل جام وفي بعضها كالقصعة.

الموت. ولذلك قيل: الموت من أعظم المصائب وأعظم منه الغفلة عنه.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عطف على «توفّته» أي: ردّوهم الملائكة بعد البعث إلى حكم اللّه وجزائه في موقف الحساب وقيل: المردودون الملائكة حيث لا حاكم فيه سواه ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ مالكهم الّذي يملك أمورهم على الإطلاق وأمّا قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[1] فالمولى بمعنى الناصر هناك فلا تناقض والحقّ الّذي لا يقضي إلّا بالعدل وهو صفة للمولى ﴿أَلَا﴾ أي: اعلموا وتنبّهوا ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء بين العباد يومئذ ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان وأقصره لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن لا يتكلّم بآلة ولا يحتاج إلى فكرة ورويّة وعقد يد.

وللرازيّ تحقيق حقيق في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ قال: في «المفاتيح»: وتقرير هذا القهر من وجوه: الأوّل: قهّار للعدم بالتكوين والإيجاد. والثاني: قهّار للوجود بالإفناء والإفساد فإنّه تعالى تارة ينقل الممكن من العدم إلى الوجود، وتارة من الوجود إلى العدم. والثالث: أنّه قاهر لكلّ ضدّ بضدّه، مثل أن يقهر النور بالظلمة واللّيل بالنهار والنّهار باللّيل[1]، وحصول التضادّ بينها يقضي عليها بالمقهوريّة والعجز والنقصان مثل أنّ هذا البدن مؤلّف من الطبائع الأربع وهي متنافرة متباغضة بالطبع متباعدة بالخاصيّة فإنّ الحرارة ضدّ البرودة واليبوسة ضدّ الرطوبة، فاجتماعها مع مضادّتها لابدّ وأن يكون بقسر قاسر.

وأخطأ من قال، إنّ ذلك القاسر هو النفس الانسانيّ وهو الّذي ذكره ابن سينا في الإشارات لأنّ تعلق النفس بالبدن إنّما يكون بعد حصول المزاج والقاهر لهذه الطبائع المتضادّة على الاجتماع سابق على هذا الاجتماع والسابق

١ـ سورة محمد: ١١.

١ـ تفسير الرازي، للرازي، ج ١٣، ص ١٣.

على حصول الاجتماع مغاير للمتأخّر عن حصول الاجتماع فثبت أنّ القاهر لهذه الطبائع على الاجتماع ليس إلّا الله فإنّ الجسد كثيف ظلمانيّ فاسد عفن والروح لطيف علويّ نورانيّ مشرق باق نظيف وبينهما أشدّ المنافرة والمباعدة وهو سبحانه الجامع بينهما على سبيل القهر والقدرة ومع هذه المنافرة جعل سبحانه كلّ واحد منهما مستكملاً لصاحبه منتفعاً بالآخر فالروح تصون البدن عن العفونة والفساد والتفرّق والبدن يصير آلة للروح في استكمال تحصيل السعادات الأبديّة فهذا الاجتماع وهذا الانتفاع ليس إلّا بقهره تعالى لهذه الطباع.

فالقاهر للعباد يحاسب عباده بسرعة روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل كيف يحاسب الله الخلق ولا يرونه؟ قال: «**كما يرزقهم ولا يرونه**». وروي أنّه تعالى يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة! فاستعدّ لحسابك. قال عليّ بن الحسين عليه السلام: «**يا ابن آدم إنّك لا تزال بخير مادام لك واعظاً من نفسك، وما كان الخوف شعارك، والحزن دثارك إنّك ميّت ومحاسب فأعدّ الجواب**». وأوحى الله إلى موسى: «**يا موسى خفني في سرائرك أحفظك في عوراتك واذكرني في سرائرك وخلواتك وعند سرور لذّاتك أذكرك عند غفلاتك. واملك غضبك عمّن ملّكتك أمره أكفّ غضبي عنك، واكتم مكنون سرّي وأظهر في علانيتك المداراة عنّي لعدوّك وعدوّي**». أقول: لا المداهنة.

قال الصادق عليه السلام: «**ما الدنيا عندي إلّا بمنزلة الميتة إذا اضطررت إليها أكلت منها يا حفص إنّ الله علم ما العباد عاملون وإلى ما هم سائرون، فحلم عنهم عند أعمالهم السيّئة بعلمه السابق فيهم وإنّما يعجل من يخاف الفوت فلا يغرّنّك تأخير العقوبة**»، ثمّ تلا قوله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا

﴿فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وجعل يبكي ويقول: «ذهبت الأمانيّ عند هذه الآية...».

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)﴾

قرئ «خفية» بكسر الخاء وبضمّ الخاء وقرء «خيفة» والآية احتجاج على الكفّار. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ ويخلّصكم ﴿مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وشدائد أهوالهما. أراد ظلمة اللّيل وظلمة الغيم وظلمة النسيئة والحيرة في البرّ والبحر ﴿تَدْعُونَهُ﴾ أي: تدعون الله عند معاينة هذه الشدائد ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: علانية وسرّا، أو متضرّعين بألسنتكم وخفية في أنفسكم، قال الطبرسيّ: والمعنى الثاني أظهر ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ أي: في أي: شدّة وقعتم قلتم هذا القول ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لإنعامك علينا وهذا يدلّ على أنّ السنّة من الدعاء التضرّع والإخفاء وقد روي عن النبيّ أنّه قال: «**خير الدعاء الخفيّ وخير الرزق ما يكفي**». ومرّ ﷺ بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء قال: إنّكم لا تدعون أصمّا ولا غائباً وإنّما تدعون سميعاً قريباً.

﴿قُلِ﴾ يا محمّد: ﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ أي: ينعم عليكم بالفرج ومن هذه الظلمات ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ وغمّ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بالله بعد قيام الحجّة عليكم بأن لا يقدر على الإنجاء غيره.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾

في الآية بيان من دلائل التوحيد ممزوج بنوع من التهديد والتخويف ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار: ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾

١ـ سورة القصص: ٨٣.

بسبب المخالفة ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ومعنى الفوقيّة والتحتيّة قيل محمول على الحقيقة فالعذاب النازل عليهم من فوق مثل المطر النازل من فوق كما في قصّة نوح والصاعقة وكذا الصيحة والريح وحصبة قوم لوط وكما رمي أصحاب الفيل. وأمّا العذاب الّذي ظهر من تحت أرجلهم فمثل الرجفة ومثل خسف قارون، فهذه الآية تتناول جميع أنواع العذاب الّتي يمكن نزولها من فوق وظهورها من أسفل. وقال ابن عبّاس في رواية: المراد من عذاب الفوق: الظلم من الأمراء، ومن تحت أرجلكم من العبيد والأراذل والسفلة.

وأمّا قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ الشيعة الّذين يتّبع بعضهم بعضا. المراد: يلبسكم ويخلطكم خلط اضطراب لا خلط اتّفاق فيجعلكم فرقا فرقا فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً وهذا معنى ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وعن ابن عبّاس: لمّا نزل جبرئيل بهذه الآية شقّ ذلك على رسول اللهﷺ وقال: «**ما بقاء أمّتي إن عوملوا بذلك؟**» فقال له جبرئيل: «**إنّما أنا عبد مثلك فادع ربّك لأمّتك**» فسأل ربّهﷺ أن لا يفعل بهم ذلك فقال جبرئيل: «**إنّ الله قد أمّنهم من اثنتين: أن لا يبعث عليهم عذاباً من فوقهم كما بعث على قوم نوح ولوط، ولا من تحت أرجلهم كما خسف بقارون ــ والمراد جميع الأمّة لا بعضها ــ لكن لم يجرهم من أن يلبسهم شيعاً بالأهواء المختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض بالسيف**».[1]

قال الكلبيّ: قال رسول اللهﷺ: «**يا جبرئيل ما يبقى أمّتي مع قتلهم بعضهم بعضا**»، فقامﷺ وعاد إلى الدعاء فنزل قوله: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[2] وفي حديث أنّهﷺ قال: «**إذا وضع السيف في أمّتي لم يرفع عنها إلى يوم الساعة**». وقال ابيّ بن كعب: سيكون في هذه الأمّة بين

١ــ تفسير الرازي، للرازي، ج ١٣، ص ٢٣.

٢ــ تفسير الرازي، للرازي، ج ١٣، ص ٢٣.

يدي الساعة خسف وقذف ومسخ.

﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ كيف نردد الآيات ونظهرها مرّة بعد اخرى بوجوه أدلّتها حتّى تزول الشبهة ﴿لعلهم يفقهون﴾ لكي يعلموا الحقّ فيتّبعوه والباطل فيجتنبوه.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

لمّا ذكر سبحانه تصريف الآيات فقال: ﴿وكذب﴾ بما نصرّف من الآيات. أو الضمير في ﴿به﴾ راجع إلى القرآن وكلا المعنيين متقاربان ﴿قومك﴾ يعني قريشاً والعرب ﴿وهو الحق﴾ أي: القرآن وتصريف الآيات، أي: يدلّ على الحقّ وما فيه حقّ. ثمّ بيّن أنّ عاقبة تكذيبهم يعود عليهم فقال: ﴿قل﴾ يا محمّد: ﴿لست عليكم بوكيل﴾ أي: لم أومر أن أحول بينكم وبين اختياركم ولست بحافظ لأعمالكم لأجازيكم بها، إنّما أنا منذر والله هو المجازي.

﴿لكل نبإ مستقر﴾ أي: لكلّ خبر من أخبار الله قرار على غاية ينتهي إليها ويظهر عندها. قال ابن عبّاس: المعنى لكلّ خبر حقيقة كائنة إمّا في الدّنيا وإمّا في الآخرة وسمّي الوقت مستقراً لأنه ظرف للفعل الواقع فيه. وقيل: المعنى: لكلّ عمل مستقرّ عند الله حتّى يجازى به يوم القيامة، عن الحسن.

﴿وسوف تعلمون﴾ فيه وعيد وتهديد لهم إمّا بعذاب الآخرة وإمّا بالحرب قال السدّيّ: استقرّ الوعيد يوم بدر وتقديره: وسوف تعلمون ما يحلّ بكم من العذاب، وحذف لدلالة الكلام عليه. والمستقرّ يجوز أن يكون موضع الاستقرار ويجوز أن يكون نفس الاستقرار لأنّ ما زاد على الثلاثيّ كان المصدر على زنة اسم مفعول نحو المدخل والمخرج بمعنى الإدخال والإخراج فيكون المعنى: لكلّ خبر وقت أو مكان يحصل فيه وإن جعلت

المستقرّ بمعنى الاستقرار يكون المعنى: لكلّ وعيد ووعد استقرار.[1]

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

بيّن سبحانه أنّ أولئك المكذّبين بالقرآن والآيات إن ضمّوا إلى كفرهم وتكذيبهم الاستهزاء بالدين والطعن بالرسول فإنّه يجب الاحتراز عن مقارنتهم وترك مجالستهم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ قيل: إنّه خطاب للرسول والمراد به غيره وقيل: الخطاب لغيره أي: إذا رأيت أيها السامع ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قال الواحدي: إنّ المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله ﷺ والقرآن وقالوا ما لا ينبغي واستهزءوا، فأمرهم أن لا يقعد معهم حتّى يخوضوا في حديث غيره، ولفظ الخوض في اللّغة عبارة عن المفاوضة على وجه العبث واللعب ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مجالستهم عند خوضهم في الآيات ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي: استمرّ على الإعراض إلى أن يشرعوا في كلام غير ذلك الكلام.

﴿وَإِمَّا﴾ أصله إن ما فأدغمت نون إن الشرطيّة في ما المزيدة ﴿يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ما أمرت به من ترك مجالستهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: بعد أن تذكره. والذكرى مصدر بمعنى الذكر ولم يجيء مصدر على «فعلى» إلّا القليل ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الّذين وضعوا التكذيب موضع التصديق وهذا الإنساء لو كان هو المخاطب فمجرّد الاحتمال والفرض ولا يلزم وقوعه، يدلّ عليه كلمة إن الشرطيّة، والمراد بالشيطان إبليس لأنّ الشيطان الّذي هو

١ـ تفسير الرازي، للرازي، ج ١٣، ص ٢٤.

قرينه[1] ليس إلّا ملكاً فلا يأمره إلّا بخير بخلاف قرين كلّ واحد من الأمّة وهو دلالة على أنّ المخاطب في الآية غيره ﷺ مثل: إيّاك أعني.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الضمير في ﴿حِسَابِهِم﴾ راجع إلى الخائضين، أي: وما على المؤمنين الّذين يجتنبون عن قبائح أعمال الخائضين شيء من الجرائم الّتي ارتكبوا بخوضهم، وذلك لأنّ المسلمين قالوا: لئن كنّا نقوم كلّما استهزءوا هؤلاء بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ونطوف بالبيت، لأنّهم يخوضون أبدا فرخّص الله لهم في مجالستهم على سبيل الوعظ والتذكير ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ أي: عليهم أن يذكروا الخائضين ذكرى، ويمنعوهم عن الخوض بما أمكن من العظة ويظهروا لهم الكراهة والإنكار ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ويجتنبون الخوض وقيل: المعنى: ليس على المتّقين من الحساب يوم القيامة مكروه ولا تبعة ولكنّه سبحانه أعلمهم أنّهم محاسبون بخوضهم وحكم بذلك عليهم لكي يعلموا أنّ الله يحاسبهم فيتّقوا، عن البلخيّ. وعلى هذا فالهاء والميم على الوجه الأوّل يعود إلى الكفّار وفي الثاني إلى المؤمنين.

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

بيّن سبحانه عاقبة الكفّار فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ﴾ أي: دعهم وأعرض عنهم والمراد من الإعراض الإنكار لأنّه قال: بعد ذلك و«ذكّر» يريد: دع

١ـ أي: قرين النبي ﷺ. وفي التعبير تسامح.

ملاطفتهم ولا تدع مذاكرتهم نظير قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ والمراد بالموصول الخائضون في الآيات. و﴿دِينَهُمْ﴾ أي: دين الّذي أمروا بإقامته وهو دين الإسلام الّذي هم مكلّفون به وقد أخذوه لعباً ولهواً، واللعب عمل يشغل النفس وينفرها عمّا تنتفع به، واللهو صرف النفس عن الجدّ إلى الهزل ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾. ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن وعظ، وقيل: باليوم القيامة ذكّرهم وقيل: بالحساب ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ والمبتسل الّذي يعلم أنّه لا يقدر على التخلّص من أمر وقع فيه، والمعنى: لكي لا تسلّم نفس للهلكة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وعملت وقيل: معنى تبسل تهلك. وقيل: تؤخذ وقيل: تسلم إلى خزنة جهنّم. وقيل؟ يجازى والمعاني متقاربة ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ﴾ أي: ناصر ينجّيها من العذاب ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لها ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: لا خلاص لها وإن تفد كلّ فداء ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ وقيل: وإن تقسط كلّ قسط في ذلك اليوم لا يقبل منها لأنّ التوبة هناك غير مقبولة وإنّما تقبل في الدنيا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ﴾ أي: اهلكوا فلا مخلص لهم وجوزوا ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: بعملهم وكسبهم ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء مغيور شديد الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ مؤلم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: جزاء على كفرهم واختلف في الآية فقيل: إنّها منسوخة بآية السيف، عن قتادة. وقيل: ليست بمنسوخة وإنّما هي تهديد، وفي الآية دلالة على الوعيد العظيم بالاستهزاء في الدين وبآيات الله قال الفرّاء: عن ابن عبّاس: ما من أمّة إلّا ولهم عيد يلعبون فيه ويلهون إلّا أمّة محمّدﷺ فإنّ أعيادهم صلاة ودعاء وعبادة.

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى

ﭐﺋْﺘِﻨَﺎ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

أمر سبحانه نبيّه والمؤمنين بخطاب الكفّار فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار الّذين يدعون إلى عبادة الأصنام، أو المعنى قل: أيّها الإنسان أو أيّها السامع ﴿أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ إن عبدناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركنا عبادته ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ هذا مثل يقال لكلّ خائب لم يظفر بحاجته: ردّ على عقبيه. وكلّ من أعرض عن الحقّ إلى الباطل رجع على عقبيه رجع القهقرى ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: أنّ نرجع عن ديننا الّذي هو خير الأديان وأنقذنا من الشرك.

﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ صفة لمصدر محذوف وتقديره: أندعو من دون اللّه دعاء مثل الّذي استهوته الشياطين، وذهبت به مردة الجنّ، وأوقعته إلى المهانة وأضلّته؟ ومثل من هوي من حالق[1] واستغوته الغيلان في الغياض ﴿حَيْرَانَ﴾ لا يهتدي سبيلاً؟

وقيل: من الهوى أي: دعته الشياطين إلى اتّباع الهوى. و«حَيْران» حال من «هاء» استهوته، صفة مشبّهة مؤنثه حيرى.

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ أي: لذلك الحيران أصحاب يقولون له: ﴿ائْتِنَا﴾ وهو لا يقبل منهم طريق الهداية لأنّه قد تحيّر لاستيلاء الشيطان عليه يهوي ولا يهتدي وقيل: والمراد أنّ لذلك الكافر الضالّ أصحاباً يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمّونه بأنّه هو الهدى قال الرازي: والصحيح هو الأوّل.

ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ الكامل النافع وهو الإسلام وما عداه ضلال محض وغيّ بحت وقل أيضا: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ واللّام بمعنى الباء والعرب يقول: أمرتك لتفعل أي: بأن تفعل أي:

١ـ الحالق مِنَ الجبال: المرتفع المنيف.

نوحّده ولا نشرك به شيئاً ونؤمن بكتابه وقيل: نسلم أمورنا ونفوسنا إلى اللّه.

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

أي: أمرنا لأن نسلم ولأن نقيم الصلاة أو أمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ وقيل لنا: تجنّبوا معاصي اللّه واتّقوا عذابه ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وتجمعون يوم القيامة، يجازى كلّ عامل منكم بعمله.

فإن قيل: كيف حسن عطف قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ على قوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾؟ ذكر الزجاج أنّ التقدير: وأمرنا فقيل لنا: أسلموا لربّ العالمين وأقيموا الصلاة.[1]

فإن قيل: هب إنّ المراد كذلك لكن ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر إلى التقدير والتأويل؟ قال الرازي: لأنّ الكافر مادام باق على كفره كان كالغائب الأجنبيّ فلا جرم يخاطب بخطاب الغائبين فيقال: ﴿وَأُمِرْنَا﴾ وإذا أسلم ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضر فلا جرم يخاطب بخطاب الحاضرين ويقال له: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ﴾ والمقصود من ذكر هذين النوعين من الخطاب التنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان فإنّ الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر.[1]

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: خلقهما للحقّ لا للباطل وخلقهما حقّاً وصواباً لا خطأً وعبثاً وقيل: معناه: خلق السماوات

١ـ تفسير الرازي، للرازي، ج ١٣، ص ٣١.

١ـ المصدر السابق نفسه.

والأرض بكلامه الحقّ فالحقّ صفة كلامه قال الطبرسيّ: والصحيح المعنى الأوّل ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ ويوم منصوب ومعطوف على الهاء في قوله ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ والمعنى: واتّقوه يوم يقول: كن فيكون وقيل: التقدير: واذكروا يوم يقول: كن فيكون. أو عطف على السماوات والمعنى: وهو الّذي خلق السماوات والأرض، وخلق يوم يقول: كن فيكون. فإن قيل: إنّ يوم القيامة لم يأت بعد فالجواب أنّ ما أنبأ اللّه بكونه حقيقة كائنة لا محالة. والخطاب في «كن» قيل: للصور فيكون المعنى: يقول اللّه للصور: كن فيكون. فالمراد أنّه لا يتأخّر الأمر عن إرادته تعالى وسرعة وقوعه.[1]

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ أي: يأمر فيقع أمره والحقّ صفة «قوله». و«قوله» فاعل «يكون» أي: ما وعد به من الثواب والعقاب حقّ ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ والتخصيص بهذا اليوم لأنّ هذا اليوم هو اليوم الّذي لا يظهر من أحد نفع ولا ضرّ والأمر يومئذ للّه فلهذا السبب حسن التخصيص، والمراد من الصور ذلك القرن الّذي ينفخ فيه إسرافيل على ما ذكره اللّه هذا المعنى في مواضع من الكتاب الكريم وقيل: إنّ الصور في هذه الآية جمع الصورة مثل صوف وصوفة وثوم وثومة.

قال الفرّاء: كلّ جمع على لفظ الواحد المذكّر فواحده بزيادة هاء فيه إذا سبق جمعه واحده، وذلك مثل الصوف والشعر والوبر والقطن والعشب، فكلّ واحد من هذه الأسماء اسم لجميع جنسه وإذا أفردت واحدته زيدت فيها هاء لأنّ جمع هذا الباب سبق واحده، ولو أنّ الصوفة كانت سابقة للصوف لقالوا: صوفة وصوف ووبرة ووبر كما قالوا: غرفة وغرف وزلفة وزلف.

وأمّا الصور بمعنى القرن فهو واحد لا يجوز أن يقال: واحدته صورة،

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٨٦.

وإنّما يجمع صورة الإنسان صوراً لأنّ واحدته سبقت جمعه[1]، وأخطأ أبو الهيثم قول من قال: إنّ المراد في الآية معنى الجمعيّة في الصور فقالوا: إنّ هذا القول تبديل في كلام اللّه لأنّ اللّه تعالى قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2] بل المراد وهو الفرق، ويؤيّد القول الأوّل ما رواه أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وجناحيه، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ؟

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم مالا يشاهده الخلق وما يشاهدونه، ومالا يعلمه الخلق وما يعلمون ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بعباده.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧)

احتجّ سبحانه على المشركين بأحوال إبراهيم عليه السلام حيث إنّ الكلّ معترفون بفضله ويدّعون بأنّهم من أولاده، واليهود والنصارى يعظّمون له وهذه المرتبة المسلّمة عند أهل العالم لم يتّفق لأحد لأنّه عليه السلام سلّم قلبه للعرفان، وماله للضيفان، وبدنه للنيران، وولده للقربان، ولسانه للبرهان، وسأل ربّه وقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْأٓخِرِينَ﴾[1] فاستجاب اللّه دعاءه وحقّق

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٣٣.

٢ـ سورة غافر: ٦٤.

١ـ سورة الشعراء: ٨٤.

مطلوبه وجعل جميع الطوائف والملل يعظّمونه معترفين بفضله حتّى المشركين يفتخرون بأنّهم أولاده فقال: [وَ] اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ فيه أقوال: أحدها: أنّه اسم أب إبراهيم، عن الحسن والسدّيّ والضحّاك. وثانيها: أنّ اسم أب إبراهيم تارخ قال الزجّاج: ليس بين النسّابين اختلاف في أنّ اسم أب إبراهيم تارخ، والّذي في القرآن يدلّ على أنّ اسمه آزر وقيل: آزر عندهم ذمّ في لغتهم كأنّه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه: يا المخطئ فإذا كان كذلك فالاختيار الرفع، وجائز أن يكون وصفاً له كأنّه قال لأبيه: المخطئ وقيل: آزر اسم صنم، عن سعيد بن المسيّب ومجاهد. وقال الزجّاج: فإذا كان كذلك فآزر موضعه النصب على إضمار الفعل والتقدير: وإذ قال إبراهيم لأبيه: أتتّخذ آزر؟ و﴿أَصْنَامًا﴾ بدل من آزر وأشباهه فقال بعد أن قال: أتتّخذ آزر إلها؟: أتتّخذ أصناما آلهة؟[1]

قال الطبرسيّ: وهذا الّذي قاله الزجّاج من أنّه لا خلاف بين النسّابين في أنّ اسم أب إبراهيم تارخ يقوّي ما قاله أصحابنا: إنّ آزر كان جدّ إبراهيم لأمّه أو كان عمّه من حيث صحّ عندهم أنّ آباء النبيّ إلى آدم كلّهم كانوا موحّدين. واجتمعت الطائفة على ذلك، وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتّى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهليّة**». ولو كان في آبائه كافر لم يصف جميعهم بالطهارة مع قوله[1]: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[2] ولنا أدلّة أيضا في ذلك ليس هنا موضع ذكره.[3]

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٨٩؛ والتبيان، ج ٤، ص ١٧٥.

١ـ المصدر السابق، ص ٩٠.

٢ـ سورة التوبه: ٢٨.

٣ـ واستدل له أيضاً الآية الشريفة: و﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فإن الجمع المحلى باللام يدل على ساجدية عموم من تحول الرسول ﷺ في أصلابهم وأرحامهم.

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ الاستفهام إنكاريّ أي: لا تفعل ذلك ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحقّ والصواب ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر وفي الآية حثّ للنبيّ ﷺ على محاجّة قومه الّذين دعوه إلى عبادة الأصنام والاقتداء بأبيه إبراهيم لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1] وتسلية له بذلك.

قال الرازيّ: وهاهنا يقتضي مزيد بيان وهو أنّه لا دين أقدم من دين عبدة الأصنام والدليل عليه أنّ أقدم الأنبياء وهو نوح إنّما جاء بالردّ على عبدة الأصنام كما قال سبحانه حكاية عن قومه أنّهم قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[2]. وذلك يدلّ على أنّ دين عبدة الأصنام قد كان موجوداً زمن نوح أو قبله، وقد بقي ذلك الدين إلى هذا الزمان[3]، والمذهب الّذي هذا شأنه مع العلم بأنّ هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني وخلق السماوات، والعلم الضروريّ يحكم ببداهة العقل بطلانه، كيف يكون بينهما التوفيق؟ لأنّه يمتنع إطباق الخلق الكثير في المدّة المتطاولة في أمر ضروريّ البطلان. والعلماء ذكروا في كشف هذا المعنى وجوهاً كثيرة:

الأوّل: أنّ الناس رأوا تغيّرات أحوال هذا العالم الأسفل مربوطة بتغيّرات أحوال الكواكب فإنّه بحسب قرب الشمس وبعدها من سمت الرأس تحدث الفصول الأربعة، وبسبب حدوث الفصول الأربعة تحدث الأحوال المختلفة في هذا العالم، ثمّ إنّ الناس ترصّدوا أحوال سائر الكواكب فاعتقدوا ارتباط السعادات والنحوسات بكيفيّة وقوعها في طالع الناس على أحوال مختلفة،

١ـ سورة الأنعام: ٩٠.

٢ـ سورة نوح: ٢٣.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٣٥.

فلمّا اعتقدوا ذلك غلب على ظنون أكثر الخلق أنّ مبدأ حدوث الحوادث في هذا العالم هو الاتّصالات الفلكيّة والمناسبات الكوكبيّة، فلمّا اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها ثمّ منهم اعتقدوا أنّها واجبة الوجود لذواتها، ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للإله الأكبر إلّا أنّهم قالوا: إنّها وإن كانت مخلوقة للإله الأكبر إلّا أنّها هي المدبّرة لأحوال هذا العالم وهؤلاء هم الّذين أثبتوا الوسائط بين الإله الأكبر وبين أحوال هذا العالم وعلى كلا التقديرين فالقوم اشتغلوا بعبادتها وتعظيمها.

ثمّ إنّهم لمّا رأوا أن هذه الكواكب قد تغيب عن الأبصار في أكثر الأوقات اتّخذوا لكلّ كوكب صنماً من الجوهر المنسوب إليه فاتّخذوا صنم الشمس من الذهب وزيّنوه بالأحجار المنسوبة إلى الشمس مثل الياقوت والألماس، واتّخذوا صنم القمر من الفضّة وعلى هذا القياس، ثمّ أقبلوا على عبادة هذه الأصنام، وغرضهم من عبادة هذه الأصنام هو عبادة تلك الكواكب والتقرّب إليها، والمقصود الأصليّ من عبادة هذه الأصنام كان عبادة الكواكب، وسبب عبادة الأصنام كان هذا البيان الّذي ذكرناه.

الوجه الثاني: في سبب عبادة الأصنام ما ذكره أبو معشر جعفر بن محمّد المنجّم البلخيّ أنّ كثيراً من أهل الصين والهند كانوا يثبتون الإله والملائكة إلّا أنّهم يعتقدون أنّه تعالى جسم وصورة كأحسن ما يكون من الصور، وللملائكة أيضاً صور حسنة إلّا أنّهم كلّهم محتجبون عنّا بالسماوات فلا جرم اتّخذوا صوراً وتماثيل أنيقة حسنة الرؤيا والهيكل، فيتّخذون صورة في غاية الحسن ويقولون: إنّها صورة الإله وصورة اخرى دون الصورة الأولى ويجعلونها على صورة الملائكة، ثمّ يواظبون على عبادتها، قاصدين بتلك العبادة طلب الزلفى من الله ومن الملائكة.

الوجه الثالث: أنّ القوم يعتقدون أنّ اللّه فوّض تدبير كلّ واحد من الأقاليم إلى ملك بعينه وفوّض تدبير كلّ قسم من أقسام العالم إلى روح سماويّ بعينه مثل أنّ مدبّر البحار ملك ومدبّر الجبال ملك آخر فلمّا اعتقدوا ذلك اتّخذوا لكلّ واحد من أولئك الملائكة صنماً مخصوصاً وهيكلاً مخصوصاً ويطلبون من كلّ صنم ما يليق بذلك الروح الفلكيّ من الآثار والتدبيرات وذكروا أيضا وجوهاً أخر لا حاجة إلى الإطالة.

والأنبياء بيّنوا في إقامة الدلائل على أنّ هذه الكواكب لا تأثير لها في أحوال هذا العالم كما قال اللّه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[1] بعد أن بيّن في الكواكب أنّها مسخّرة وبتقدير أنّها يصدر عنها تأثيرات في هذا العالم إلّا أنّ دلائل الحدوث حاصلة فيها فوجب كونها مخلوقة والاشتغال بعبادة الأصل أولى بعبادة الفرع، سيّما إذا ورد المنع كما أفتى إبراهيم لمّا قال لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بأنّ عبادة الأصنام جهل وضلالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الكاف للتشبيه وذلك إشارة إلى غائب جرى ذكره والمذكور هاهنا هو أنّه استقبح عبادة الأصنام وهو قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى: ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومثل ذلك التبصير نبصّره مالكيّته تعالى لهما. و«الملكوت» مصدر على وزن صيغة المبالغة كالرهبوت والجبروت. ومعنى الملكوت: السلطنة القاهرة أو آثارها مثل الشمس والقمر وما في الأرض من البحار والمياه والرياح ليستدلّ بها على معرفة اللّه فأجري الملكوت على المملوك الّذي هو فيها مجازا قال أبو جعفر: كشف اللّه له عن الأرضين حتّى رآهنّ وما تحتهنّ،

١ـ سورة الأعراف: ٥٤.

وعن السماوات حتّى رآهنّ وما فيهنّ من الملائكة وحملة العرش.[١]

وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**لمّا رئي إبراهيم ملكوت السماوات والأرض رأى رجلاً يزني فدعا عليه فمات، ثمّ رأى آخر فدعا عليه فمات، ثمّ رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا، فأوحى الله إليه يا إبراهيم: إنّ دعوتك مستجابة فلا تدع على عبادي فإنّي لو شئت أن أميتهم بدعائك ما خلقتهم، إنّي خلقت خلقي على ثلاثة أصناف صنف يعبدني لا يشرك بي شيئاً فأثيبه، وصنف يعبد غيري لا يفوتني، وصنف يعبد غيري فأخرج من صلبه من يعبدني**».[٢]

واعلم أنّ دلالة ملك الله وملكوته على نعوت جلاله تعالى وسمات عظمته غير متناهية، وحصول المعلومات الّتي لا نهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال، فإذن لا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلّا بأن يحصل بعضها عقيب بعض لا إلى نهاية ولا إلى آخر فلهذا السبب لم يقل: وكذلك أريناه ملكوت السماوات والأرض كما قال المحقّقون: السفر إلى الله له نهاية وأمّا السفر في الله لا نهاية له.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي: من المتّقين بأنّه سبحانه هو المالك والخالق لها. «واللام» متعلّقة بمحذوف مؤخّر مقرّر لما قبلها، تقديره: ليكون من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين فعلنا ما فعلنا من التبصّر البديع.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: ستره بظلامه ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ جواب «لمّا» بأنّ رؤيته إنّما تحقّق بزوال نور الشمس، عن الحسن. قيل: كان الكوكب هو الزهرة، وقيل: هو المشتري ﴿قَالَ﴾ كأنّه قيل: ماذا صنع عليه السلام حين رأى

١ـ تفسير مجمع البيان، ج٤،ص٩٠.

٢ـ رواه علي بن إبراهيم في تفسيره، ص ٢٠٦؛ وأورد فيه أيضاً قصة نشوئه في الغار ورواه البحراني في البرهان عن تفسير الإمام وغيره، ج ١، ص٥٣٢ـ٥٣٣؛ والكافي، ج٨ ص ٣٠٥.

الكوكب؟ فقيل: قال على سبيل الموافقة مع الخصم لإبطال حجّة الخصم وإثبات حجّته: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾. فإن قيل: إنّه عليه السلام بعد أن رأى الشمس بازغة قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وأتى بلفظ التذكير، فالمراد أنّ هذا النور الطالع، أو أنّ تأنيث الشمس على لغة العرب وأمّا في كلام غير العرب فيجوز أن لا يكون مؤنّثة وإبراهيم لم يكن عربياً فحكى الله كلامه على ما كان في لغته.

فإن قيل: لم أنّث الشمس وذكّر القمر؟ قيل: إنّ تأنيثها تفخيم لها لكثرة ضيائها، على حدّ قولهم «نسّابة وعلّامة» وليس القمر كذلك لأنّه دونها في الضياء.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غرب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ واختلف في تفسيره قيل: إنّ إبراهيم إنّما قال ذلك عند كمال عقله عند النظر لأنّه أكمل الله عقله وحرّك دواعيه على التأمّل.

وأصل القضيّة أنّ ملك ذلك الزمان رأى رؤيا، وعبّرها المعبّرون بأنّه غلام ينازعه في الملك فأمر ذلك الملك بذبح كلّ غلام يولد فحملت أمّ إبراهيم اسمها أوفى بنت نمر، وما أظهرت حبلها للناس فلمّا جاءها الطلق ذهبت إلى كهف من جبل، ووضعت إبراهيم وسدّت الباب بحجر جاء جبرئيل ووضع إصبعه في فيه فمصّه فخرج منه رزقه وكان يتعهّده جبرئيل عليه السلام، وكانت أمّه تأتيه أحيانا وترضعه وتميّزه وبقي على هذه الصفة حتّى كبر وعقل وعرف أنّ له ربّا، وكانت أمّ إبراهيم بعد ما وضعته أخبرت زوجها أنّي وضعت ما في بطني فمات ودفنته في الغار فصدّقها تارخ وبقي إبراهيم في الغار سبعة سنين أو ثلاث عشرة سنة أو سبع عشرة. فلمّا شبّ إبراهيم أخبرت أو في زوجها أنّ ابنك قد كبر وأنّي كتمت أمره خوفاً من نمرود فأرت إبراهيم لأبيها فأسرّ تارخ بذلك غاية، فقال تارخ لأوفى: لابدّ أن نخرجه من الغار إلى البلدة فأخرجوه من الغار وقت المساء. فرأى إبراهيم لمّا

اخرج من الغار غنماً وخيلاً تحت هضبة الغار، فسأل أمّه إنّ لهذه الخيل والأغنام ربّاً يرزقها ويخلقها ولابدّ لي من ربّ فمن ربّي؟ فقالت أنا. فقال: ومن ربّك؟ قالت: أبوك. فقال: من ربّ أبي؟ فقالت: ملك البلد فعرف إبراهيم جهلها. فنظر من باب الغار ليرى شيئاً يستدلّ به على وجود الربّ، فرأى النجم الّذي هو أضوأ النجوم إمّا الزهرة أو المشتري ـ حسب ما ذكرنا ـ وكان ذلك وقت اضمحلال نور الشمس قريباً من الغروب فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.

وقيل: كان هذا الأمر بعد بلوغ إبراهيم، وجريان قلم التكليف عليه. ومنهم من قال: قبل البلوغ واتّفق أكثر المحقّقين على فساد قول الأوّل بوجوه: الأوّل: أنّ القول بربوبيّة النجم كفر بالإجماع، والكفر غير جائز بالإجماع على الأنبياء. الثاني: أنّهعليه السلام دعا لآزر إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾[١]

ومن دعا غيره إلى الله ولا شكّ أنّه إنّما اشتغل بدعوة أبيه يعني عمّه بعد فراغه من مهمّ نفسه ثبت أنّ هذه الوقعة إنّما وقعت بعد أن عرف الله.

ثمّ إنّ دلائل الحدوث في الأفلاك ظاهرة من خمسة عشر وجهاً كما شرحوها، كيف يليق بأعقل العقلاء أن يقول بربوبيّة الكواكب ومن كان منصبه في الدين كذلك بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض حتّى رأى من فوق العرش والكرسيّ وما تحتها إلى ما تحت الثرى، وقد شهد الله له حيث قال: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١] وأقلّ سلامة القلب سلامته عن الكفر وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[٢] أي: آتيناه

١ـ سورة مريم: ٤٢.

١ـ سورة الصافات: ٨٤.

٢ـ سورة الأنبياء: ٥١.

رشده من قبل من أوّل زمان الكفرة وكنّا به عالمين أي: بطهارته وكماله.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ أي: وليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين.

ثمّ قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ والفاء تقضي الترتيب، فثبت أنّ هذه الواقعة إنّما حصلت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربّه، فعلم أنّ هذه المباحثة إنّما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان، لا لأجل أنّ إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه.

قال الرازي: إنّ الّذين يقولون: إنّ إبراهيم إنّما اشتغل بالنظر إلى الكواكب والشمس والقمر حال ما كان في الغار غلط لأنّه لو كان الأمر كذلك فكيف يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ لأنه ما كان معه في الغار لا قوم ولا صنم وأنّ الله لمّا ذكر هذه القصّة قال: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ ولم يقل: على نفسه، وقال سبحانه: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ وكيف يحاجّونه وهم بعد وما رأوه وهو ما رآهم فثبت أنه عليه السلام إنّما اشتغل بالنظر إلى الكواكب والقمر والشمس بعد أن خالط قومه ورآهم يعبدون الأصنام ودعوه إلى عبادة الأصنام وهو ينكرهم بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ ردّاً عليهم، ولا يجوز[1] أن يكون النظر إلى الكواكب لأجل معرفة نفسه لأنّ تلك اللّيلة كانت مسبوقة بالنهار ولا شكّ أنّ الشمس كانت طالعة في اليوم المتقدّم ثمّ غربت فكان ينبغي أن يستدلّ بغروبها السابق على أنّها لا تصلح للإلهيّة، وإذا بطل بهذا الدليل صلاحيّة الشمس للإلهيّة بطل ذلك أيضا في القمر والكواكب بطريق أولى فتبيّن أنّ هذا الأمر والاحتجاج لإبطال الخصم وإلزامه الحجّة، ولمّا كانت المكالمة والمناظرة مع القوم حال طلوع

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٤٨.

النجم وامتدت المناظرة إلى أن طلع القمر وطلعت الشمس بعده صحّ نظم الكلام فثبت بهذا البيان والدلائل أنه لا يجوز أن يقال: إنّ إبراهيم قال على سبيل الجزم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ بل قال لإبطال كلام الخصم، ولمّا أبطل حجّتهم بالأفول والحدوث والتغيّر واستحال إلهيّتها قال في آخر كلامه:

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: وجّهت نفسي وتوجّهت مخلصاً مائلاً عن الشرك إلى الإخلاص لمن خلق السماوات والأرض والكواكب.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ثمّ ذكر سبحانه محاجّة إبراهيم مع قومه أي: خاصموه وجادلوه قومه وخوّفوه من ترك عبادة آلهتهم فقال: إبراهيم، أتحاجّونني في الله وقد هداني ووفّقني لمعرفته ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ من الأصنام لأنّ الخوف إنّما يحصل ممّن يقدر على النفع والضرّ وهي جمادات لا تقدر.

فإن قيل: إنّه للطلسمات باعتبار ارتباطها بالكواكب قد شوهد منها آثار مخصوصة فلم لا يجوز أن يحصل الخوف منها من هذه الجهة؟ فالجواب أنّ قوى الكواكب غير مستقلّة وإنّما هي من خلق الله فالخوف يكون من الله لا

منها ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾ أي: إلّا أن أذنب فيشاء إنزال العقوبة بي، أو إلّا أن يشاء أن يبتليني بمحن الدنيا فيقطع عنّي عادات نعمته، أو أن يحييها ويمكّنها من خيري ونفعي، واللّفظ يحتمل كلّ هذه الوجوه، والاستثناء متّصل والمستثنى منه محذوف، والتقدير: لا أخاف معبوداتكم في وقت من الأوقات إلّا وقت مشيئته شيئاً من أصابه مكروه بي من غير دخل لآلهتكم فيه أصلا.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط بكلّ شيء علماً، كأنه تعليل للاستثناء فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه بسبب من الأسباب لا بالطعن فيها ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ولا تتأمّلون في أنّ آلهتكم جمادات غير قادرة على إضراري.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ بالله من الأصنام والمراد إنكار الوقوع ونفي الضرر منها بالكلّية ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ أي: كيف أخاف أنا ما ليس في حيّز الخوف أصلا، وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات وهو إشراككم بالله، واجترأتم عليه وجعلتم له شركاء ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ وحجة على صحته، والمراد امتناع وجود الحجّة في مثل هذه القصّة وهذا المعنى نظير قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾.(١)

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أنحن أم أنتم؟ وحاصل المعنى: ما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ من أحقّ به فأخبروني.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٨٢)

في الآية مزيد بيان في من هو أحقّ بالأمن فقال: هم الّذين آمنوا

١ـ سورة المؤمنون: ١١٧.

وعرفوا اللّه وصدّقوا به وبما أوجبه عليهم ولم يخلطوا ذلك بظلم، والمراد «بظلم» في هذه الآية هو الشرك، عن أكثر المفسّرين وهو المرويّ عن سلمان الفارسيّ وحذيفة بن اليمان. وروى عبد اللّه بن مسعود قال: لمّا نزلت هذه الآية شقّ على النّاس وقالوا: يا رسول اللّه وأيّنا لم يظلم نفسه فقال ﷺ: **«إنّه ليس الّذي تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح**[1]: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».[2] وقال الجبّائيّ والبلخيّ: تدخل في الظلم كلّ كبيرة تحبط ثواب الطاعة قال البلخيّ: ولو اختصّ الشرك على ما قالوه لوجب أن يكون مرتكب الكبيرة إذا كان مؤمناً كان آمناً[3] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ فقط من العذاب ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى الحقّ ومن عداهم في ضلال وقيل: مهتدون إلى الجنّة، واختلف في هذه الآية فقيل: إنّها من تمام قول إبراهيم، وروى ذلك عن عليّ عليه السلام، وقيل: إنّ هذا القول من اللّه على جهة فصل القضاء بذلك بين إبراهيم وقومه، عن محمّد بن إسحاق وأبي زيد والجبّائيّ.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٠٠؛ والمسائل العكبرية، ص٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٥٠.

٢ـ سورة لقمان: ١٣.

٣ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٠٠؛ وبحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٥٠؛ والتبيان، ج ٤، ص ١٩٠.

وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتجَ به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ـ إلى قوله: ـ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿حُجَّتُنَآ﴾. الحجة عبارة عن الكلام المؤلّف للاستدلال على المطلوب ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أرشدناه إلى تلك الحجج وعلّمناه إيّاها وأخطرناها بباله حتّى تمكّن من إيرادها على قومه عند المحاجة ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ من المؤمنين ونفضّل بعضهم على بعض بحسب أحوالهم في الإيمان واليقين ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يجعل التفاوت بينهم على ما توجب حكمته، وقيل: معناه نرفع درجات من نشاء على الخلق بالاصطفاء للرّسالة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي: لإبراهيم ﴿إِسْحَٰقَ﴾ وهو ابنه من سارة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من إسحاق ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي: كلّ واحد منهما أرشدنا إلى الفضائل الدينيّة. ﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بمقدّر يفسّره ﴿هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إبراهيم. وعدّ هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنّه أبوه وشرف الوالد يتعدّى إلى الولد ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: ومن ذرّيّة نوح لأنّه أقرب المذكورين إليه، ولأنّ فيمن عدّدهم من ليس من ذرّيّة إبراهيم وهو لوط وإلياس ويونس وقيل: الضمير راجع إلى إبراهيم لكن قيل: إنّ يونس عن ذرّيّة إبراهيم لأنّه كان من الأسباط في زمن شعيب ﴿دَاوُۥدَ﴾ ابن إيشا ﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ابنه وسلسلتهما تنتهي إلى يهود ابن يعقوب ﴿وَأَيُّوبَ﴾ ابن أموص بن رازح بن روم بن عصيا بن إسحاق بن إبراهيم ﴿وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب ﴿وَمُوسَىٰ﴾ ابن عمران بن يصهر بن ماهت بن لاوي بن يعقوب ﴿وَهَٰرُونَ﴾ هو أخو موسى أكبر منه بسنة، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزينا المذكورين برفع الدرجات

نجزي من أحسن على قدر استحقاقهم أو كما تفضّلنا على هؤلاء الأنبياء بالنبوّة فكذلك نتفضّل على المحسنين بنيل الثواب.

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ ابن أذن بن بركيا ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ وهو ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم بنت عمران من بني ماثان الّذين هم ملوك بني إسرائيل.

قال الحقّيّ في تفسيره: وفي ذكر عيسى دليل على أنّ الأولاد والذرّيّة تتناول أولاد البنت، فيكون الحسن والحسين عليهما السلام ذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

﴿وَإِلْيَاسَ﴾ ابن أخ هارون أخي موسى ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهو الإيمان بما ينبغي والتحرّز عمّا لا ينبغي ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ عطف على «نوحاً» أي: وهدينا إسماعيل بن إبراهيم كما هدينا نوحاً، ولعلّ الحكمة في إفراد إسماعيل عن باقي ذرّيّة إبراهيم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان من ذرّيّة إسماعيل والكائنات كانت تبعاً لوجوده صلى الله عليه وآله فما جعل الله إسماعيل تبعاً لوجود إبراهيم فلذا أفرده بالذكر عنهم وأخّره في الذكر ﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب بن العجوز، قيل: اللّام زائدة لأنّه علم أعجميّ ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ولوط بن حاذان بن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: عالمي عصرهم[١]، والمقصود من هذه الآية تعديد أنواع النّعم على إبراهيم جزاء على قيامه عن دلائل التوحيد فرزقه أولاداً أنبياء مثل إسحاق ويعقوب وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلها وأخرجه من أصلاب طاهرين مثل نوح وإدريس وشيث. وكرامته عليه السلام بحسب الآباء والأبناء.

قال الرازي: إنّ حرف الواو ولا يوجب الترتيب بدليل هذه الآية فإنّ حرف الواو حاصل هاهنا مع أنّه لا يفيد الترتيب لا بحسب الشرف ولا

١ـ تفسير الرازي ،ج ١، ص ٢٤٥؛ وانظر: تفسير أبي السعود، ج ٣، ص١٥٩.

بحسب الزمان[١]، وهؤلاء المذكورون نالوا من الأمور العظيمة ما لم ينل أحد فإنّه تعالى أعطى من الملك والقدرة والسلطان والنبوة بعضهم مثل داود وسليمان نصيباً عظيماً وكذلك المحنة الشديدة والبلاء العظيم خصّ اللّه بها أيّوب ومنهم من جمع له الخصلتين البلاء الشديد والملك مثل يوسف، ومنهم أعطاه المعجزات العظيمة والصولة الشديدة مثل موسى وهارون، ومنهم أعطاه الزهد الشديد بالإعراض عن الدّنيا مثل زكريّا ويحيى وعيسى وإلياس بتخصيصهم بالذكر لكمال هذه المراتب فيهم.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ من تبعيضيّة أي: وفضّلنا بعض آباء المذكورين كآدم وشيث ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: وبعض ذرّياتهم من بعدهم كأولاد يعقوب ﴿وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ والمراد منهم كلّ من آمن معهم فإنّهم كلّهم دخلوا في هداية الإسلام ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ عطف على فضّلنا أي: اصطفيناهم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ وأرشدناهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين اللّه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا كانوا مستعدّين لقبول الهداية والإرشاد ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع علوّ شأنهم ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم﴾ وذهب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال المرضيّة فكيف من عداهم، وهم هم وأعمالهم أعمالهم، وليس في ذلك دلالة على أنّ الثواب الّذي استحقّوه على طاعتهم المتقدّمة يتحبّط، إذ ليس في ظاهر الآية ما يقتضي ذلك على أنّا قد علمنا بالدليل أنّ المشرك لا يكون له ثواب أصلا.

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٦٤.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الأنبياء الثمانية عشر ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب المتحقق في ضمن أي: فرد من الكتب السماويّة، والمراد بإيتائه التفهيم التامّ بما فيه من الحقائق والتمكين من الإحاطة بالدقائق منها أعمّ من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداء أو بالإيراث بقاء فإنّ المذكورين لم ينزل على واحد منهم كتاب معيّن ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي: الحكمة أو فصل الخطاب على ما يقتضيه الصواب ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ أي: الرسالة، فأعطاهم اللّه من العلوم والمعارف والوحي ما لأجله بها يقدرون على التصرّف في بواطن الأمور وظواهرها، ثمّ قال: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفّار قريش أو الكفّار الّذين جحدوا نبوّة النبيّ في ذلك الوقت ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا﴾ أي: غير إعادة أمر النبوّة وتعظيمها والأخذ بالهدى ﴿قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ في وقت من الأوقات بل مستمرّون على الإيمان بها. واختلف في المقصودين بذلك فقيل: عنى به الأنبياء الّذين جرى ذكرهم هم آمنوا بما أتى به محمّدﷺ قبل مبعثه، عن الطبريّ والجبّائيّ والحسن والزجّاج.

وقيل: عنى به الملائكة عن الفرّاء والضحّاك، وقيل: هم الأنصار والمهاجرون، وقيل: هم الفرس، وقيل من لم يكفر فهو من القوم. قال الرازيّ: إنّ المراد الملائكة بعيد لأنّ اسم «القوم» قلّما يقع على غير بني آدم.[١]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: هداهم اللّه إلى الصبر والحقّ ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فأمر نبيّه بطريقتهم في توحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ فإنّها بعد النسخ لا تبقى هدى بل متروكة.

واحتجّ العلماء على أنّه أفضل جميع الأنبياء لأنّ هؤلاء المذكورين كلّ

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص٦٨.

منهم قد غلب عليه خصلة معيّنة كما شرحنا قبل هذا فجمع اللّه كلّ هذه الخصال في محمّدﷺ لأنّه إذا كان مأموراً بالاقتداء لم يقصّر في التحصيل فكان مستجمعاً لها أجمع ﴿قُل﴾ لكفّار قريش ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن ﴿أَجْرًا﴾ وجعلا من جهتكم كما لم يسأله من قبلي من الأنبياء، وهذا من جملة ما أمر به من الاقتداء بهم فيه ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إلّا عظة وتذكيراً لهم من جهته تعالى فلا يختصّ بقوم دون قوم آخرين، وفي الآية دلالة على أن نبيّناﷺ مبعوث إلى كافّة العالمين وأنّ النبوّة مختومة لأنّه تعالى قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

لمّا تقدّم ذكر الأنبياء والنبوّة عقّبه بمن أنكر النبوّة فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: ما عرفوا اللّه حقّ معرفته وما عظّموه حقّ عظمته ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما أرسل اللّه رسولاً ولم ينزّل على بشر شيئاً وذلك أنّه جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف فخاصم النبيّ فقال له النبيﷺ: «**أنشدك بالّذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنّ الله يبغض الحبر السمين؟**» وكان سميناً فغضب فقال: واللّه ما أنزل اللّه على بشر من شيء، فقالﷺ: «**ويحك ولا موسى؟**» فنزلت الآية، عن سعيد بن جبير.

وقيل: إنّ الرجل كان فنحاص بن عازورا وهو قائل هذه المقالة عن السدّيّ. وقيل: إنّ اليهود قالت: يا محمّد أنزل اللّه عليك كتاباً؟ قال: «**نعم**»، قالوا: واللّه ما أنزل اللّه من السماء كتاباً، فنزلت الآية.

وفي رواية أخرى أنّها في الكفّار أنكروا قدرة اللّه عليهم ومن أقرّ أنّ اللّه على كلّ شيء قدير فقد قدر اللّه حقّ قدره. وقيل: نزلت في مشركي قريش.

واعلم أنّ منكر البعثة والرّسالة ما عرف اللّه حقّ قدره، وذلك لأنّه إمّا أن يقول: ما كلّف اللّه أحداً من الخلق تكليفاً أصلا أو يقول: إنّه كلّفهم التكاليف، والأوّل باطل لأنّ ذلك يقتضي أنّه تعالى أباح لهم جميع المنكرات والقبائح نحو وصفه تعالى بما لا يليق به وشتمه والاستخفاف بالأنبياء والرسل وأهل الدّين، وظلم بعضهم بعضا، ومعلوم أنّ ذلك كلّه باطل وأمّا أن يسلّم أنّه تعالى كلّف الخلق بالأوامر والنواهي فههنا لابدّ من مبلّغ ومبيّن وشارع، وما ذلك إلّا الرسول.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنّ العقل كاف في إيجاب الواجبات، واجتناب المقبّحات؟ قلنا: هب إنّ الأمر كما قلتم إلّا أنّه لا يمتنع تأكيد التعريف العقليّ بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء فثبت أنّ كلّ من منع البعثة والرسالة فقد طعن في حكمة اللّه، وما عرف اللّه، وكان جاهلاً بصفة الإلهيّه فما قدر اللّه حق قدره وبعضهم أنكروا في الإمكان خرق العادات وإيجاد شيء على خلاف ما جرت به العادة وهؤلاء أيضاً ما قدروا اللّه حقّ قدره.

ثمّ إنّه لمّا ثبت حدوث العالم بحدوثه يدلّ على أنّ الإله قديم قادر وأنّ الخلق كلّهم عبيده وهو مالك لهم على الإطلاق، وملك لهم على الإطلاق، والملك المطاع يجب أن يكون له أمر ونهي وتكليف على عباده، وأن يكون له وعد على الطاعة ووعيد على المعصية، وذلك لا يتمّ ولا يكمل إلّا بإرسال الرّسل وإنزال الكتب فكلّ من أنكر ذلك فقد طعن في كونه ملكاً مطاعاً فهو ما قدر اللّه حقّ قدره.

فلو قيل: إنّ هؤلاء الّذين حكى اللّه عنهم أنّهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ إمّا أنّهم كفّار قريش أو يقال: إنّهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى فإن كان الأوّل فكيف يمكن إبطال قولهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ وذلك لأنّ المشركين وكفّار قريش والبراهمة كما ينكرون رسالة محمّدﷺ فكذلك ينكرون رسالة سائر الأنبياء، فكيف يحسن إيراد هذا الإلزام عليهم؟ وإن كان الثاني وهو أنّ قائل هذا القول قوم من اليهود والنصارى فهذا أيضا مشكل لأنّهم لا يقولون هذا القول؛ وكيف يقولونه مع أنّ طبقاً لمذهبهم أنّ التوراة كتاب أنزله الله على موسى والإنجيل كتاب أنزله الله على عيسىؑ؟ وأيضا فهذه السورة مكّيّة، والمناظرات الّتي وقعت بين رسول الله وبين اليهود والنصارى كلّها مدنيّة فكيف هذا الإشكال؟

أمّا الجواب عن الأوّل أنّه لمّا قال رسول الله لمالك بن الصيف ـ وكان من أحبار اليهود ـ: «**هل وجدت في التوراة مذكوراً بأنّ الله يبغض الحبر السّمين؟ وأنت الحبر السّمين وقد سمنت من الأشياء الّتي قطعك اليهود**»؛ وضحك القوم، فغضب من هذا الكلام مالك والتفت إلى عمر، فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فقالوا له قوم: ويلك ما هذا الّذي بلغنا عنك؟ فقال: إنّه أغضبني.

ثمّ إنّ اليهود لأجل هذا الكلام عزلوه عن رئاستهم وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف. قال الرازيّ: هذا هو الرواية المشهورة ولعلّ الغضب المدهش للعقل حمله على طغيان اللّسان[1]، مع أنّه كان مفتخراً باليهوديّة.

وأمّا الجواب عن أنّ هذه السورة مكّيّة ونزلت دفعة واحدة فلا يمنع أن يقال: بأنّ سبب نزول الآية مناظرة اليهوديّ، وقال الرازيّ: القائلون بهذا القول قالوا: السورة كلّها مكّيّة ونزلت دفعة واحدة إلّا هذه الآية، فإنّها نزلت في

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٧٥.

المدينة.[١] ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ يعني: التوراة، حال كون ذلك الكتاب ﴿نُورًا﴾ بيّناً بنفسه ومبيّناً لغيره كما يستضاء بالضياء ﴿وَهُدًى﴾ بياناً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ و﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي: وحال كونه تضعونه في قراطيس مقطّعة وورقات متفرّقة، بحذف الجارّ، على تشبيه القراطيس بالظرف، جمع قرطاس بمعنى الصحيفة ﴿تُبْدُونَهَا﴾ صفة قراطيس، أي: تظهرون منها ما تحبّون إبداءه ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ ممّا فيها ممّا كتموه من أحكام التوراة. ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ أيها اليهود على لسان محمّد بالقرآن ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ وقيل: إنّه خطاب للمسلمين يذكّرهم ما أنعم به عليهم. قال أبو عليّ الفارسيّ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي: تجعلونه ذا قراطيس وتودعونه إيّاها[٢] ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: دعهم وما يختارونه من العناد وما خاضوا فيه من الباطل واللّعب، وليس هذا البيان لترك الإنذار والدعاء بل ضرب من التوعيد والتهديد، كأنّه سبحانه قال: دعهم فسيعلمون عاقبة أمرهم.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

لمّا احتجّ سبحانه بإنزال التوراة على موسى بيّن أنّ سبيل القرآن سبيلها، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ أي: القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ من السماء إلى الأرض لأنّ جبرئيل أتى به ﴿مُبَارَكٌ﴾ ممدوح مستسعد به فكلّ من تمسّك به نال الفوز، وثابت خيره لم يزل لأنّ قراءته خير والعمل به خير وفيه علم الأوّلين والآخرين وفيه بشارة المغفرة والحلال والحرام، وزيادة البيان على ما في الكتب المتقدّمة وباق حكمه إلى آخر الدهر ولا ينسخ إلى آخر التكليف، وقد

١ـ المصدر السابق، ص ٧٦.

٢ـ تفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي، ج٤، ص ١٠٩؛ وتفسير الآلوسي، ج ٧، ص ٢٢٠.

جرت سنّة اللّه بأنّ الباحث عن علم القرآن والمتمسّك به يحصل له خير الدنيا وسعادة الآخرة قال أمير المؤمنين: «**كونوا من خاصّة الله وخاصّة قرّاء كتابه العاملون به**». قال رسول اللّه: «**إنّ هذه القلوب لتصدى كما يصدى الحديد وإنّ جلاءها قراءة القرآن**». أي: مع التدبّر.

وقال ابن عبّاس: (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا النّاس غافلون وببكائه إذا النّاس ضاحكون، وبورعه إذا النّاس يطمعون وبصمته إذا النّاس يخوضون). قال النبيّ ﷺ: «**القرآن على خمسة: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، واتّبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالقصص، وما آمن بالقرآن من استحلّ محارمه**»، قال الصادق عليه السلام: «**ما هو والله حفظ آياته وتلاوة سوره حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنّما هو تدبّر آياته، والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ واعلموا أنّ سبيل الله سبيل واحد مصير العامل بها الجنّة والمخالف لها النّار، والإيمان ليس بالتمنّي ولكن ما ثبت في القلب وعملت به الجوارح وصدّقته الأعمال الصالحة، وقد ظهر الجفاء وقلّ الوفاء وتركت السنّة وظهرت البدعة**».

﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ وتصديقه للكتب على وجهين: أحدهما: أنّه يشهد بأنّها حقّ والثاني: أنّه ورد بالصفة الّتي نطق بها الكتب المتقدّمة ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ والمضاف محذوف أي: لتنذر أهل أمّ القرى. ومن حولها: أهل الأرض جميعاً عن ابن عبّاس. وإنّما سمّيت أمّ القرى لأنّ الأرض دحيت من تحتها فكأنّ الأرض نشأت منها. أو لأنّ أوّل بيت وضع في الدنيا وضع بمكّة، فكأنّ القرى تنشأت منها عن السدّيّ أو لأنّ على جميع الناس أن يستقبلوها ويعظّموها لأنّها قبلتهم كما يجب تعظيم الأمّ، عن الزجّاج والجبّائيّ.

وزعمت طائفة من اليهود أنّ محمّداً ﷺ كان رسولاً إلى العرب فقط،

واحتجّوا على صحّة قولهم بهذه الآية وقال: إنّه تعالى بيّن أنّه أنزل عليه هذا القرآن ليبلّغه إلى أهل مكّة وإلى القرى المحيطة بها والمراد منها جزيرة العرب ولو كان مبعوثاً إلى الكلّ من العالمين لكان التقييد بقوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ باطلاً والجواب أنّ تخصيص هذه المواضع بالذكر لا يدلّ على انتفاء الحكم فيما سواها إلّا بدلالة المفهوم ودلالة المفهوم ضعيفة لا سيّما وقد ثبت بالتواتر الظاهر المقطوع به من دين محمّد ﷺ أنّه كان يدّعي كونه رسولاً إلى كلّ العالمين. وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يتناول أهل الشرق والغرب وجميع البلاد على الّذي ذكره ابن عبّاس وغيره في معنى أمّ القرى. و لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾[١] وكذلك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا﴾[٢] ولقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣] ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن لأنّهم يخافون العاقبة، ويحتمل أن يكون كناية عن محمّد ﷺ لدلالة الكلام عليه ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: على أوقات صلاتهم مراعون فيؤدّوها فيها ويقوموا بإتمام ركعاتها وأركانها.

وفي الآية دلالة على أنّ المؤمن لا يجوز أن يكون مؤمناً ببعض ما أوجبه الله دون بعض وفيها أيضاً دلالة على عظيم منزلة الصلاة لأنّه سبحانه خصّها بالذكر من بين سائر الفرائض ونبّه على أنّ من كان مصدّقاً بالقيامة وبالنبي ﷺ لا يخلّ بها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ

١ـ سورة النساء: ٧٩.

٢ـ سورة سبأ: ٢٨.

٣ـ سورة الفرقان: ١.

﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

سبب النزول: قيل: نزلت في مسيلمة حيث ادّعى النبوّة إلى قوله ولم يوح إليه شيء وقوله: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في عبد الله بن سعد بن أبي سرح فإنّه كان يكتب الوحي للنبيّ ﷺ فكان إذا قال له: اكتب ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كتب ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وإذا قال له: اكتب ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ كتب ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وارتدّ ولحق بمكّة، وقال إنّي سأنزل مثل ما أنزل الله عن عكرمة وابن عبّاس ومجاهد والسدّيّ، وإليه ذهب الفرّاء والزجّاج والجبّائيّ، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام. وقال قوم: نزلت الآية في ابن أبي سرح خاصّة. وقال قوم: نزلت في مسيلمة خاصّة.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر نبوّة النبيّ ﷺ وإنزال القرآن عليه عقّبه بذكر الّذين كذّبوه وادّعوا أنّهم يأتون بمثل ما أوتي به فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام في معنى الإنكار أي: لا أحد أظلم ممّن كذّب على الله فادّعى أنّه نبيّ وليس بنبيّ ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ أي: يدّعي الوحي ولا يأتيه ولا يجوز في حكمة الله أن يبعث كذّاباً، وهذا وإن كان داخلاً في الافتراء وإنّما أفرد بالذكر تعظيماً.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[1] فادّعوا ولم يتمكّنوا وبذلوا الأموال واستعملوا سائر الحيل ولم يقدروا، قيل: إنّ عبد الله بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله فلمّا نزلت قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فلمّا بلغ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا

ـــــــــــــــ

١ـ سورة الأنفال: ٣١.

ءَاخَرَ﴾[١] قال عبد الله ـ تعجّباً من تفضيل خلق الإنسان ـ: تبارك الله أحسن الخالقين فقال: اكتبها فكذلك نزلت فشكّ عبد الله وقال: إن كان محمّد صادقاً في قوله فكذلك نزلت لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه فأنا مثله، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، فعليّ أن أدّعي نزول الوحي مثله، فارتدّ عن الإسلام ولحق بالمشركين.

قال قتادة: كان مسيلمة الكذّاب يسجّع ويتكهّن، وقال في معارضة سورة الكوثر: إنّا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربّك وهاجر، إنّا كفيناك المكابر والمجاهر انظر أيّها المتأمّل في الألفاظ الّتي ألحقها بالقرآن كيف كان سافل البناء فاسد المعاني مخلول الأسلوب.

والأسود العنسيّ ادّعى النبوّة في زمانه ﷺ وكان يختلق أحكاماً فاسدة، خرج بصنعاء، وقتل في مرض موت النبيّ ﷺ، قتله فيروز الديلميّ فلمّا قتل اللعين بلغ خبر قتله النبيّ ﷺ، قال: **«فاز فيروز»**، وأيضا قتل صاحب اليمامة مسيلمة الكذّاب في عهد أبي بكر، قتله الوحشيّ قاتل حمزة ﵇، فلمّا قتله قال: قتلت خير النّاس في الجاهليّة وشرّ الناس في إسلامي.

ولمّا ارتدّ عبد الله بن أبي سرح ولحق مكّة هدر رسول الله دمه، فلمّا كان يوم الفتح جاء به عثمان وقد أخذ بيده ورسول الله في المسجد فقال عثمان: يا رسول الله اعف عنه، فسكت رسول الله، ثمّ أعاد فسكت ﷺ ثمّ أعاد فقال: هو لك فلمّا مرّ قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«ألم أقل من رآه فليقتله؟»** فقال عباد بشر: كانت عيني إليك يا رسول الله أن تشير إليّ فأقتله فقال ﷺ: **«الأنبياء لا يقتلون بالإشارة»**.

قال القاضي عبد الجبّار: جميع من يفتري على الله الكذب يدخل في

١ـ سورة المؤمنون: ١٢ـ١٤.

هذه الآية ولا يقتصر الحكم على من يدّعي الرسالة كذباً لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب فكلّ من نسب إلى الله تعالى ما هو بريء منه إمّا في الذّات أو في الصفات وإمّا في الأفعال كان داخلاً تحت هذا الوعيد. فالافتراء على الله في صفاته كالمجسّمة، وفي عدله كالمجبّرة.[١]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يفيد التخويف العظيم على سبيل الإجمال، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تفصيل لذلك المجمل و«غمرات» جمع غمرة وغمرة كلّ شيء معظمه ومنه غمرة الماء وغمرة الدّين إذا كثر عليه هذا هو الأصل، ثمّ يقال للشّدائد والمكاره: الغمرات، وجواب «لو» محذوف وتقديره: لرأيت أمراً عظيماً.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عبّاس: ملائكة العذاب باسطوا أيديهم يضربونهم ويعذّبونهم ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: يضربونهم ويقولون لهم: أخرجوا أنفسكم والمراد من هذا الكلام العنف والتشديد في إزهاق الرّوح من غير تنفيس وإمهال وأنّهم يفعلون بهم فعل الغريم الملح الملازم يبسط يده إلى من عليه الدين ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله. ويقول له: أخرج إليّ مالي عليك الساعة، ولا أبرح من مكاني حتّى أنزعه من أحداقك فيكون قولهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ من هذا القبيل من الكلام، أو المراد أنّ الملائكة حين ينزعون أرواح الكفّار بالشدّة، يقولون: أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد إن كنتم قادرين على الدفع وإلّا فإنّهم لا يقدرون على إخراج أنفسهم.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ فيقول الملائكة لهم: اليوم تعذّبون عذاباً تلقون فيه الهوان، إمّا يوم النّزع أو يوم القيامة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٨٣.

﴿الْحَقِّ﴾ في الدنيا كنسبة الشريك أو اتّخاذ الولد وادّعاء النّبوّة والوحي كذباً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ناقعون عن قبول أوامره.

قال الواحديّ في تفسيره: المراد من قوله ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا تصلّون له. قال ﷺ: «**من سجد لله بنيّة صادقة فقد بريء من الكبر**».[1] وفي الحديث: «**أنّ المؤمن إذا احتضر آتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الرّيحان، وتسلّ روحه كما تسلّ الشعرة من العجين، ويقال لها: أيّتها النفس الطيّبة اخرجي راضية مرضيّة إلى روح الله وكرامته، فإذا خرجت وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى علّيين، وإنّ الكافر إذا احتضر آتته الملائكة بمسح**[2] **فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال لها: أيّتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وإنّ لها نشيجاً** ـ أي: صوتاً ـ **ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجّين**».

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يمكن أن يكون العطف على قول الملائكة: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ فيقولون حكاية عن الله، وهم الملائكة الموكّلون بعقاب الكفّار، أو القائل هو الله.

ومنشؤ الاختلاف أنّ الله هل يتكلّم مع الكفّار أولا؟ فقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ يوجب أن لا يتكلّم معهم، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٨٦؛ وانظر: تفسير الثعلبي، ج ٤، ص ١٧٠.

٢ـ المسح بالكسر، تسبيح من شعر يلبس قهراً للجسد.

أَجْمَعِينَ ﴾[١] يقتضي أن يكون يتكلّم معهم فلهذا السّبب وقع هذا الاختلاف، قال الرازيّ: والقول الأوّل أقوى لأنّ هذه الآية معطوفة على ما قبلها والعطف يوجب التشريك.[٢]

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ للحساب والجزاء وهو بمعنى المستقبل أي: يجيؤوننا، وإنّما أبرز في صورة الماضي لتحقّقه كقوله ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾[٣] قيل: الخطاب لكفّار قريش لأنّهم كانوا يفتخرون بأموالهم وأولادهم ويستخفّون بفقراء المؤمنين، ويقولون: نحن أكثر أموالاً وأولاداً في الدنيا وما نحن بمعذّبين في الآخرة، فقال: ولقد جئتمونا منفردين. ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على الهيئة الّتي ولدتم عليها مشتبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة وفي الخبر: «إنّهم يحشرون يوم القيامة عراة حفاة عزلا» أي: ليس لهم شيء ممّا كان في الدّنيا نحو البرص والعرج وأمثاله[١] قالت عائشة: وا سوأتاه! الرجل والمرأة كذلك؟ فقال‌ﷺ: **«لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، لا ينظر الرّجال إلى النساء ولا النساء إلى الرّجال شغل بعضهم عن بعض»**.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ وتفضّلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة، والتخويل تمليك الخول أي: الخدم والأتباع أو الإعطاء على غير جزاء ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: ما قدّمتم منه شيئاً بخلاف المؤمنين فإنّهم صرفوها في الأعمال الصالحة فبقيت معهم في قبورهم وحضرت معهم يوم القيامة فهم في الحقيقة ما حضروا فرادى.

١ـ سورة الحجر: ٩٢.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٨٧.

٣ـ سورة النحل: ١.

١ـ هذا بناء على قراءة عزل ـ بالعين والزاي ـ كما أورده في الوافي وفي الأصول من الكافي جاء بالغين والراء وهو جمع الأغرل بمعنى الأغلف وهكذا نقله العلامة المجلسي في البحار.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ أي: الأصنام ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي: شركاء لله في ربوبيّتكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: وقع الانقطاع بينكم وبينهم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ وضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنّهم شفعاؤكم، فلم يقدروا على دفع العذاب عنكم.

قيل: إنّ للإنسان أعداء أربعة: المال، والأهل، والأولاد، والأصدقاء، وهي لا تدخل في القبر فيبقى فريداً منهم وأيضاً له أصدقاء أربعة: هي كلمة الشهادة، والصلاة والصوم، وذكر الله، وهي تدخل في القبر وتشفع عند الله فتصحب الميّت فلا يبقى وحيدا قال النبيﷺ: **«إنّ عمل الإنسان يدفن معه في قبره فإن كان العمل كريماً أكرم صاحبه وإن كان لئيماً أهانه فإن كان العمل صالحاً أنس صاحبه وبشّره ووسع عليه في قبره ونوّره وحماه من الشدائد والأهوال، وإن كان عملاً سيّئا فزّع صاحبه وروّعه وأظلم عليه قبره وضيّقه وخلّى بينه وبين الشدائد والأهوال»**.

قال اليافعيّ: وقد سمعت عن بعض الصالحين في بلاد اليمن أنّه لمّا دفن بعض الموتى وانصرف النّاس سمع في القبر صوتاً ودقّاً عنيفاً، ثمّ خرج من القبر كلب أسود فقال له الشيخ الصالح: ويحك أبشر أنت؟ فقال: أنا عمل الميّت، فقال: فهذا الضرب فيك أم فيه؟ قال: بل فيّ، وجدت عنده سورة يس وأخواتها فحالت بيني وبينه فضربت وطردت.

أقول: ولا يبعد وقوع هذه القضيّة لصفاء خاطر الشيخ الصالح فإنّ أمثاله يرون أموراً لم يرها غيرهم، وبالجملة ففي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ حثّ من الله على اقتناء الطاعات الّتي بها ينال الفوز دون اقتناء المال الّذي لا شكّ في تركه وعدم الانتفاع به بعد الموت.

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ

وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

قرّر سبحانه بعض أفاعيله الدالّة على قدرته وعلمه، إذ المقصود الأصليّ من جميع المباحث العقليّة والنقليّة هو معرفة اللّه بالوحدانيّة والقدرة، وبيان صفاته تعالى وأفعاله فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ الفلق والفطر متقاربان في المعنى أو مترادفان، والحبّ مثل الحنطة والشعير وأمثالهما، والنوى هو الشيء الموجود في داخل التمرة: مثل نوى التمر والخوخ وغيرهما، والحبّة أو النواة إذا وقعت في الأرض الرطبة ثمّ مرّ به زمان من المدّة أظهر اللّه تعالى في تلك الحبّة والنواة من أعلاها شقًا ومن أسفلها شقًا آخر، فأمّا الشقّ الّذي يظهر من أعلى الحبّة والنواة يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، والشقّ السافل يخرج منه الشجرة الهابطة الراسخة في الأرض المسمّى بعروق الشجرة وتصير تلك الحبّة والنواة سبباً لاتّصال الصاعدة والراسخة.

ثمّ إنّ هاهنا عجائب ودلائل على إثبات الصانع الفرد تعالى شأنه: فإحداها: أنّ طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضي الهويّ في عمق الأرض فكيف تولّدت فيها الصاعدة في الهواء؟ وإن كانت يقتضي الصعود في الهواء فكيف تولّدت منها الهابطة؟ فلمّا تولّد منها هاتان الشجرتان الموصوفتان باقتضائين متناقضين في الصعود والهويّ مع أنّ الحسّ والعقل يشهد باختلاف الطبيعتين مع أنّ الحبّة طبيعة مقتضاها أحد الأمرين فثبت أنّ ذلك ليس بمجرّد الطبع والاقتضاء بل لابدّ من مقتض ومبدع آخر.

وثانيتها: أنّ باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلّة[1] القويّة فيه ولا يغوص السكّين الحادّ القويّ فيه ونحن نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقّة واللّطافة بحيث لو دلكها الإنسان بإصبعه بأدنى فرك لصارت

١ـ المسلة بكسر الميم وفتح السين الإبرة الكبيرة.

كالماء، وهي مع هذه اللّطافة والرّخوة يقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة على خلاف الطبيعة ولابدّ أن يكون بتدبير مدبّر ماهر وتقدير العزيز العليم.

وثالثتها: أنّه يتولّد من تلك النواة شجرة، ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة فإنّ قشر الشجرة له طبيعة مخصوصة وفي داخل ذلك القشر جرم الخشبة وفي وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف يشبه العهن المنفوش.(١)

ثمّ إنّه يتولّد من ساق الشجرة أغصانها ومن الأغصان الأوراق أوّلا وهي مخضرّة اللّون، ثمّ الأزهار وهي محمرّة ومصفرّة بألوان مختلفة من شجرة واحدة ثمّ الفاكهة وفي الفاكهة قشور وغشاء وجرم ولبّ، وكلّ منها له طبيعة مختلفة وطعوم متغايرة مع تساوي تأثيرات الطبائع والفصول الأربعة وتساوي تأثيراتها يقتضي طبيعة واحدة، فهذه المختلفات ولو يكون من تدبير الطبيعة لكان طبيعة الشجرة يظهر منها أثر واحد أو آثار متساوية الصورة والمعنى، فإنّك تجد الطبائع المتضادّة في فاكهة واحدة: مثل الأترج فقشره حارّ يابس ولحمه بارد رطب وخماضه بارد يابس وبذره حارّ يابس فتولّد هذه الخواصّ المتنافرة عن الحبّة الواحدة لا يكون إلّا بإبداع متصرّف قاهر.

ثمّ إنّا نرى أنّ نباتاً واحداً غذاء لحيوان وسمّ لآخر، فاختلاف هذه الصفات والآثار المتضادّة مع اتّحاد الطبائع لا يكون إلّا بتخليق الفاعل المدبّر، ثمّ إنّك إذا أخذت ورقة واحدة وجدت خطّاً واحداً مستقيماً في وسطها كأنّه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنّخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان، وكما أنّه ينفصل من النّخاع أعصاب كثيرة يمنة ويسرة في بدن الإنسان ثمّ لا يزال ينفصل عن كلّ شعبة شعب أخر ولا تزال تستدقّ حتّى تخرج عن الحسّ من فرط الدقّة،

١ـ الصوف المصبوغ المتفرق أجزاءه.

فكذلك في تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخطّ الكبير الوسط في خطوط منفصلة، وعن كلّ واحد منها خطوط مختلفة اخرى أدقّ من الأولى حتّى تخرج تلك الخطوط عن الحسّ.

فلمّا وقفت على عناية الخالق في اتّحاد الورقة علمت أنّ عنايته في تخليق تلك الشّجرة أكمل، ثمّ إذا عرفت أن عناية الخالق في تخليق الحيوان أكمل وفي الإنسان الّذي هو ذو المقدّمة لهذه المقدّمات أتمّ وأكمل لأنّه القابل للمعارف الإلهيّة وهو المقصود كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فاعرف أيّها الإنسان قدر نعم اللّه عليك ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وكلّ ذلك يظهر لك من تأمّل تلك الورقة. قال الشاعر:

وفـــي كـــلّ شـــيء لـــه آيـــة ... تـــدلّ علـــى أنّـــه واحـــد

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: يخرج ما ينمو من الحيوان والنّبات من النّطفة والحبّ ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالنّطفة والحبّ فهو سبحانه بقدرته ساق الجنّة اليابسة الميّتة فيخرج منها النّبات وساق النّواة اليابسة فيخرج منها النّخل، ويخرج النبات الغضّ الطريّ، ويخرج الحبّ اليابس من النبات الحيّ النامي، والعرب يسمّي الشّجر مادام غضّاً قائماً بأنّه حيّ، فإذا يبس أو قطع نموّه ميّتاً، عن الزجّاج. أو المعنى يخلق الحيّ من النطفة وهي موات، ويخلق النّطفة وهي موات من الحيّ أو يخرج الطير الحيّ من البيض والبيض من الطّير. عن الجبّائيّ: أو يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فاعل ذلك كلّه اللّه سبحانه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يذهب بكم عن هذه الأدلّة الظاهرة إلى الباطل وتصرفون من الحقّ؟ فإن قيل: إنّ عطف الاسم على الفعل بعيد بل لا يجوز فما السّبب؟ فالجواب أنّ

١ـ سورة الذاريات: ٥٦ .

قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالبيان والتفسير لقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ لأنّ فلق الحبّ والنوى والنبات والشجر النامي من جنس إخراج الحيّ من الميّت لأنّ النامي في حكم الحيوان، ألا ترى إلى قوله ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.[١]

ووجه آخر مذكور في البلاغة: وهو أنّ لفظ الاسم لا يفيد التجدّد ولفظ الفعل يدلّ على التجدّد ساعة بعد ساعة، وضرب الشيخ عبد القاهر الجرجانيّ بهذا مثلاً في كتاب «دلائل الإعجاز»، فقال: قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٢] إنّما ذكره بلفظ الفعل لأنّ صيغة الفعل تفيد أنّه تعالى يرزقهم حالاً فحالاً وساعة بعد ساعة، وأمّا الاسم فمثاله قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[١] فقوله باسط يفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ نوع آخر من دلائل التّوحيد من الأوضاع الفلكيّة لأنّ فلق ظلمة اللّيل بنور الصبح أعظم من فلق الحبّ والنوى بالنبات والشّجر، وفالق الإصباح خبر آخر لانّ والإصباح بكسر الألف مصدر بمعنى الدخول في ضوء النهار، سمّي به الصبح، أي: فالق عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره، والصبح صبحان فالصبح الأوّل هو الصبح المستطيل كذنب السرحان ثمّ تعقّبه ظلمة خاصّة ثم يطلع بعده الصّبح المستطير من جميع الأفق.

فالصبح الأوّل أقوى دليلاً على القدرة من الصبح الثاني لأنه لعل أن يقال: أنّ الصّبح الثّاني من أثر قرص الشمس لكن الصّبح الأوّل لا يقال فيه هذا لأنّه لو كان الصّبح الأوّل من أثر قرص الشّمس لامتنع كونه خطّاً مستطيلاً

١ـ سورة الروم: ١٩.

٢ـ سورة فاطر: ٣.

١ـ سورة الكهف: ١٨.

بل يجب أن يكون مستطيراً في الأفق منتشراً وأن يكون متزائداً متكاملاً بحسب كلّ حين وآن ولحظة، ولمّا لم يكن الأمر كذلك بل يحصل عقيبه ظلمة خالصة، ثمّ يحصل الصّبح المستطير بعد ذلك، فعلمنا أنّ ذلك الصّبح المستطيل ليس من تأثير الشمس ولا من جنس نوره وحاصل بتخليق اللّه ابتداء تنبيهاً على أنّ الأنوار ليس لها وجود إلّا بتخليقه على أنّ المراد من الصّبح هو النّور المنبسط والضّوء الحاصل من الشمس الواقع على الجرم المقابل. والمنوّر لذلك المبدء تخليق اللّه ذلك النور فيه فإنّه متغيّراً طوره وهو دليل حدوثه ولابدّ له من محدث قادر مختار فهو تعالى فالق ظلمة العدم بصباح التكوين والإيجاد وفالق ظلمة العالم الجسمانيّ بتخليص النّفس عن العلائق والشّهوات بصباح نور الاستغراق في معرفة مدبّر المحدثات.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ تسكنون فيه للرّاحة ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أي: وجعلهما ﴿حُسۡبَانًا﴾ والحسبان بالضمّ مصدر بمعنى الحساب والعدد بابه نصر. وأمّا الحسبان بكسر الحاء فهو من باب علم ومعناه التخمين والظنّ فالمعنى جعلها سبحانه على أدوار مختلفة يحسب بهما الأوقات، والشّمس معدن الأنوار الفلكيّة من البدور والنّجوم، وأنوارها مقتبسة من نور الشّمس على قدر تقابلهم وصفوة أجرامهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً أي: ذلك السير البديع بالحساب المعلوم تقدير العزيز العليم الّذي قهرهما على السير المخصوص والعالم بما فيهما من المنافع والمصالح المتعلّقة بمعاشهم وأوقات عباداتهم ومعاملاتهم ومقتضيات فصولهم لأثمارهم.

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾

هذا هو النّوع الثّالث من الدلائل على القدرة والحكمة: وهو خلق هذه النجوم لمنافع العباد وهي من وجوه: الأول: خلقها ليهتدي بهما الخلق إلى المسالك في ظلمات البرّ والبحر حيث لا يرون شمساً ولا قمراً. الثاني: أنّ النّاس يستدلّون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة والعبادات الوقتيّة والقبلة. وزينة للسّماء وكونها رجوماً للشّياطين، وفيها مصالح أخر لا يستدرك كنهها عقولنا فبعضها سيّارة وبعضها ثابتة، والثوابت بعضها في المنطقة وبعضها في القطبين وبعضها كبيرة درّيّة عظيمة الضوء وبعضها صغيرة خفيّة قليلة الضّوء، والثوابت لامعة والسيّارة غير لامعة، ولمّا ثبت أنّ الأجسام متماثلة فاختصاص كلّ واحد بصفة معيّنة دليل على تقدير الفاعل المختار.

ولمّا ذكر سبحانه الاستدلال بأحوال هذه النجوم قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ واختلاف أوضاع الكواكب يدلّ على أنّه لها منافع عظيمة لا ندركها بعقولنا، ولو كان خلقها فقط للاهتداء لما كان يخلقها صغاراً وكباراً أو اختلافها في المسير معنى. وفي تفسير عليّ بن إبراهيم بن هاشم: النجوم آل محمّد عليهم السلام.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ وأبدعكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: من آدم ومنّ علينا بهذا لأنّ النّاس إذا رجعوا إلى أصل واحد كانوا أقرب إلى التعاطف والتألّف، وحواء مخلوقة من ضلع من أضلاعه فصار كلّهم من نفس واحدة، فإن قيل: فما القول في عيسى فهو أيضا مخلوق من مريم الّتي مخلوقة من أبويها.[1]

فإن قيل: إنّ القرآن دلّ على أنه مخلوق من الكلمة أو من الروح المنفوخ فيها فالجواب أنّ كلمة «من» تفيد ابتداء الغاية ولا نزاع أنّ ابتداء تكوّن عيسى كان من مريم وهذا القدر كاف في صحّة هذا اللفظ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ

١ـ كذا في الأصل.

وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وقرء بكسر القاف، قال ابن عبّاس: إنّ المستقرّ هو الأرحام، والمستودع الأصلاب، كما قال سبحانه: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾[1] ويدلّ على قوّة هذا القول أنّ النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً، والجنين يبقى في الرّحم زماناً طويلاً، فحمل الاستقرار على المكث في الرحم أولى. وقيل: بالعكس والمستقرّ صلب الأب والمستودع رحم الأمّ قالوا: محصول تلك النّطفة في رحم الأمّ من قبل الرجل مشبه بالوديعة.

وقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ يقتضي كون المستقرّ متقدّماً على المستودع وحصول النطفة في طلب الأب مقدّم على حصولها في رحم الأمّ موجب على هذا التقرير كون المستقرّ متقدّماً على المستودع وهو ما في أصلاب الآباء والمستودع ما في الأرحام. وقيل في معنى المستقرّ والمستودع: إنّ المستقرّ حالة بعد الموت لأنّه إن كان سعيداً فقد استقرّت تلك السعادة، وإن كان شقيّا فقد استقرّت تلك الشقاوة، ولا تبديل للإنسان بعد الموت، وأمّا قبل الموت فالأحوال متبدّلة فالكافر قد ينقلب مؤمنا، والزنديق قد ينقلب صدّيقا فهذه الأحوال لكونها قابلة للتغيّر والتبدّل لا يبعد تشبيهها بالوديعة الّتي تكون مشرفة على الانتقال والزوال، عن الحسن.

والقول الرابع: وهو قول الأصمّ: أنّ المستقرّ من خلق في النفس الأولى ودخل الدنيا واستقرّ فيها، والمستودع الّذي لم يخلق بعد وسيخلق، قال لبيد:

وما المال والأهلون إلّا ودائع ... ولابدّ يوماً أن تردّ الودائع

أو المستقرّ من استقرّ في قرار الدنيا والمستودع من في القبور حتّى يبعث وهذا أيضا قول الأصمّ. وقال قتادة على العكس منه فقال: مستقرّ في القبر ومستودع في الدنيا.

١ـ سورة الحج: ٥.

وقال أبو مسلم الإصبهانيّ: إنّ المعنى هو الّذي أنشأكم من نفس واحدة فمنكم مستقرّ ذكر ومنكم مستودع أنثى، إلّا أنّه سبحانه عبّر عن الذكر بالمستقرّ لأنّ النطفة تتولّد في صلبه ويستقرّ هناك، وعبّر عن الأنثى بالمستودع لأنّ رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة[١] والاستدلال في الآية بأنّ الناس إنّما تولّدوا من شخص واحد، ومختلفة في الصّفات الّتي باعتبارها حصل التفاوت والاختلاف في تلك الصّفات لابدّ له من مؤثّر وسبب وليس السبب هو الجسميّة ولوازمها فإنّ الأجسام متماثلة وإلّا لامتنع حصول التفاوت في الصفات فوجب أن يكون المؤثّر هو الفاعل المختار الحكيم. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وفي الكلام تحثيث على الفهم ومواضع التأمّل والنظر في الأدلّة.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

النوع الخامس: من الدلائل على قدرته ووجوه إحسانه تعالى، والكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه، ونعمة من بعض الوجوه كان تأثيره في القلب عظيماً وعند هذا يظهر أنّ المشتغل بدعوة الخلق إلى طريق الحقّ ينبغي أن يسلك هذا المسلك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يقتضي نزول المطر من السماء وعند هذا اختلف الناس: فقال أبو عليّ الجبّائيّ في تفسيره: إنّه تعالى ينزل الماء من السماء إلى السحاب ومن السّحاب إلى الأرض قال: لأنّ ظاهر النصّ

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٠٤.

يقتضي نزول المطر من السماء والعدول عن الظاهر إلى التأويل إنّما يحتاج إليه عند قيام الدليل على أنّ إجراء اللّفظ على ظاهره غير ممكن، وفي هذا الموضع لم يقم دليل على امتناع نزول المطر من السماء فوجب إجراء اللّفظ على ظاهره.

وأمّا قول من قال: إنّ البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الأرض ثمّ تصعد وترتفع إلى الهواء فينعقد الغيم منها ويتقاطر، فذلك هو المطر فقد احتجّ الجبّائيّ وغيره على فساده من وجوه: الأول أنّ البرد قد يوجد في وقت الحرّ بل في صميم الصيف، ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جامد وذلك يبطل قولهم.

فلو قال قائل: إنّ البخار أجزاء مائيّة وطبيعتها البرد ففي وقت الصيف يستولي الحرّ على ظاهر السّحاب فيهرب البرد إلى باطنه فيقوى البرد هناك بسبب الاجتماع فيحدث البرد، وأمّا في وقت برد الهواء يستولي البرد على ظاهر السحّاب فلا يقوى البرد في باطنه فلا جرم لا ينعقد جمداً بل ينزل ماء.

وأجبت عن هذا الكلام بأنّ الطبقة العالية من الهواء باردة جداً عندكم فإذا كان اليوم يوماً بارداً شديد البرد في صميم الشتاء فتلك الطبقة باردة جداً والهواء المحيط بالأرض أيضاً بارد جداً فوجب أن يشتدّ البرد وأن لا يحدث المطر في الشتاء البتّة ونحن نشاهد حدوث المطر في الغالب ففسد القول.

والحجّة الثانية على فساد قولهم ما ذكره الجبّائيّ وهو أنّ البخارات إذا ارتفعت وتصاعدت تفرّقت وإذا تفرّقت لم يتولّد منها قطرات الماء بل البخار إنّما يجتمع إذا اتّصل بسقف متّصل أملس كسقوف الحمّامات المزجّجة أمّا إذا لم يكن كذلك لم يسل منه ماء فإذا تصاعدت الأبخرة في الهواء وليس فوقها سطح أملس متّصل به تلك البخارات وجب أن لا يحصل منها شيء من الماء. والدليل الأقوى في بطلان قول من قال: إنّ الأمطار بسبب صعود الأبخرة أنّه لو كان تولّد المطر من صعود البخارات فالبخارات دائمة الارتفاع

من البحار فوجب أن يدوم هناك نزول المطر ونحن نشاهد خلافه.

قال الجبّائي: إنّ القوم إنّما احتاجوا إلى هذا القول لأنّهم اعتقدوا أنّ الأجسام قديمة وإذا كانت قديمة امتنع دخول الزّيادة والنقصان فيها وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلّا اتّصاف تلك الذرّات بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفات اخرى، فلهذا السبب احتالوا في تكوين كلّ شيء عن مادّة معيّنة، وأمّا المسلمون فلمّا اعتقدوا أنّ الأجسام محدثة، وأنّ خالق العالم فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد فعند هذا لا حاجة إلى هذه التكلّفات، والآيات ناطقة بنزول المطر من السماء[1] قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[2] ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[1] فيخلق هذه الأجسام في السماء ثمّ ينزّلها إلى السحاب ثمّ من السحاب إلى الأرض.

وقيل: المعنى أنزل من السحاب ماء وسمّى اللّه السحاب سماء لأنّ العرب يسمّي كل ما فوقك سماء، ولكن هذا المعنى فيه تكلّف أيضا لأنّه خروج عن الظاهر في الجملة، ونقل الواحديّ في البسيط عن ابن عبّاس: يريد بالماء المطر هنا ولا ينزل قطرة من المطر إلّا ومعها ملك، والفلاسفة يحملون ذلك الملك على الطبيعة الحالّة في تلك الجسميّة الموجبة لذلك النزول وأنكروا كون الملك معها.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: فأخرجنا بالماء الّذي أنزلناه من السماء ما ينبت من غذاء الأنعام والوحش والطير وأرزاق بني آدم ما يأكلونه وينمون به ويتعيّشون منه، وإنّما قال سبحانه به لأنّه سبحانه جعل الماء سبباً

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٠٦.

٢ـ سورة الفرقان: ٤٨.

١ـ سورة الأنفال: ١١.

مؤدّياً إلى النبات وكان يمكنه الإنبات بغيره، وقد جعل الله لكلّ شيء سبباً. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ والضمير في «منه» راجع إلى الماء أو إلى النبات «خضرا» أي: زرعاً رطباً مثل ساق السّنبلة وأمثالها ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك الزّرع الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ قد تركّب بعضه على بعض مثل سنبل الحنطة والدخن والسمسم على تركيب مخصوص وهيئة خاصّة.[1]

﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ خبر مقدّم ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل منه بإعادة العامل والطلع شيء يخرج من النخل كأنّه نعلان مطبقان والثمر بينهما منضود ﴿قِنْوَانٌ﴾ مبتدأ أي: وحاصلة من طلع النخل قنوان جمع قنوة، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب ﴿دَانِيَةٌ﴾ سهلة المجتنى قريبة من القاطف.

والمعنى: من النخل ما قنوانها دانية، ومنها ما هي بعيدة فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لأنّ العمّة في القريبّة أكمل، وفي الحديث: «**أكرموا عمّاتكم النخل فإنّها خلقت من فضلة طينة آدم**عليه السلام **وليس من الشجرة شجرة أكرم عند الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران فأطعموا نساءكم الولد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر**».

وأوّل ما أكلت مريم حين وضعت عيسى عليه السلام هو الرطب كما قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[1] وفي الحديث: «**أنه شكا بعض الأنبياء إلى الله من قبح أولاد أمّته فأوحى الله إليه أن مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى بأكل السفر جل في الشهر الثالث والرابع لأنّ فيه تصوّر الجنين فإنّه يحسن الولد**».

﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: وأخرجنا به بساتين كائنة من أعناب وكلّ

١ـ أورد أخبار كثيرة في منافع أكثر الأثمار في فروع الكافي، ج٢، ص ١٧٨ـ١٨١، « كتاب الأطعمة والأشربة».

١ـ سورة مريم: ٢٥.

نبت متكاثف يستر بعضه بعضا فهو جنّة من جنّ إذا أستتر ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ وأخرجنا شجر الزّيتون وشجر الرّمان ﴿مُشْتَبِهًا﴾ أوراقهما. وو رقهما يشتمل على العود كلّه من أوّل الغصن إلى آخره في كلّ الشجرتين ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الطعم فيكون المعنى: مشتبهاً ورقه مختلفاً ثمره فمشتبه في الخلق ومختلف في الطعم، وقيل: المعنى مشتبهاً ما كان من جنس واحد وغير متشابه إذا اختلف جنسه. قال الطبرسيّ: والأولى في المعنى أن يقال: إنّ جميع ذلك المذكور مشتبه من وجوه مختلف من وجوه.

قال الرازيّ في تفسير ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وجوهاً: الأوّل: أنّها متشابهة قد تكون في اللون والشكل مع أنّها مختلفة في الطعم واللذة فإنّ الأعناب والرمّان قد تكون متشابهة في الصورة واللّون والشكل ثمّ إنّها مختلفة في الحلاوة والحموضة وبالعكس.[١]

قال قتادة: أوراق الأشجار متقاربة في التشابه أمّا ثمارها فتكون مختلفة أو الأشجار متشابهة والثّمار مختلفة[٢] أو أنّ عنقود العنب مثلاً ترى جميع حبّاته مدركة نضجة حلوة طيّبة إلّا حبّات مخصوصة منها بقيت على أوّل حالها من الخضرة والحموضة والعفوصة وكذلك التمر مثلاً، وعلى هذا فبعض حبّات ذلك العنقود متشابهة وبعضها غير متشابهة. وقد ذكر سبحانه من الأشجار هذه الأربعة، لشرافتها وكثرة نفعها، وقدّم النّخل لكرامتها كما ذكر في الحديث سابقاً.

والعنب ألذّ الفواكه، ويؤخذ منه الزبيب والدبس والخلّ حتّى أنّ الأطبّاء يأخذون من عجمها جوارشات عظيمة النّفع للمعدة الضعيفة الرّطبة، وقيل: هو سلطان الفواكه، وأمّا الزيتون فهو أيضا كثير النّفع فيمكن تناوله كما هو

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١١٠.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

ويتّخذ منه دهن كثير النّفع في الأكل وفي سائر وجوه الاستعمال، وأمّا الرمّان فحاله عجيب جداً وذلك أنّ قشره وشحمه وعجمه باردة يابسة قابضة عفصة قويّة في هذه الصّفات، وأمّا ماؤه فبالضدّ فإنّه ألذّ الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال وأشدّها مناسبة للطباع المعتدلة وفيه معونة للمزاج الضعيف فهو غذاء من وجه ودواء من وجه فإذا تأمّلت في الرمّان وجدت الأقسام الثلاثة منه موصوفة بالكثافة التامّة الأرضيّة ووجدت القسم الرّابع وهو ماء الرمّان موصوفاً باللطافة فجمع سبحانه فيه بين المتضادّين المتغايرين، فكانت دلائل القدرة والرّحمة فيه أتمّ. قوله: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ تأمّلوا يا مخاطبين إلى ثمر كلّ شجر من المذكورة إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً لا يكاد ينتفع به ﴿وَيَنْعِهِ﴾ وإلى حال نضجه وأكله كيف ينتقل عليه الأحوال في الطعم واللّون والرّائحة والصغر والكبر لتستدلّوا بذلك على القادر المدبّر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي: في خلق هذه الثّمار والزروع ﴿لَآيَاتٍ﴾ وشواهد أنّها تكوّنت لخلقه وقدرته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّهم بها يستدلّون وبمعرفة مدلولاتها ينتفعون قال الرّازيّ: إنّ جمع ثمرة: ثمار، ثمّ جمع ثمار ثمر فيكون ثمر جمع الجمع أو جمع ثمرة مثل بقر وبقرة وشجر وشجرة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

وتقرير نظم الآية أنّ الّذين أثبتوا الشريك للّه فرق وطوائف كلّهم يؤولون إلى ثلاث فرق: فالطائفة الأولى عبدة الأصنام، فهم يقولون: الأصنام شركاء للّه في العبادة ولكنّهم معترفون بأنّ هذه الأصنام لا قدرة لها على الإيجاد والتكوين. والطائفة الثّانية من المشركين الّذين يقولون: مدبّر هذا

العالم هو الكواكب وهؤلاء فريقان منهم من يقول: إنّها واجبة الوجود لذواتها ومنهم من يقول: إنّها ممكنة الوجود لذواتها محدثة وخالقها هو الله، إلّا أنّه سبحانه فوّض تدبير هذا العالم الأسفل إليها وهؤلاء هم الّذين حكى الله عنهم أنّ الخليل ﷺ ناظرهم بقوله: لا أحبّ الآفلين. والطّائفة الثالثة من المشركين: الّذين قالوا: لجملة هذا العالم بما فيه من السماوات والأرض إلهان أحدهما فاعل الخير والثاني فاعل الشرّ والمقصود في بيان هذه الآية مذهب هؤلاء فهذا تقرير نظم الآية. نزلت في الّذين قالوا: إنّ الله وإبليس أخوان، فالله تعالى خالق الناس والخيرات والأنعام والحيوانات النافعة، وإبليس خالق الشرور والحيوانات الضارّة كالسباع والحيّات والعقارب وهذا مذهب المجوس، ويطلق عليهم الزنادقة لأنّ الكتاب الّذي زعم زرادشت أنّه كتاب مذهبه مسمّى بالزند والمنسوب إليه يسمّى «زنديّ» ثمّ عرّب فقيل: زنديق، وجمعه الزنادقة. فقالوا: كلّ ما في هذا العالم من الخيرات فهو من «يزدان» وجميع ما فيه من الشرور وفهو من «أهرمن» وهو المسمّى في شرعنا بإبليس ثمّ هؤلاء الزّنادقة اختلفوا، فالأكثرون منهم على أنّ أهرمن محدث والأقلّون منهم قالوا: إنّه قديم أزليّ، وعلى القولين اتّفقوا على أنّه شريك للّه في تدبير العالم فخيراته من الله وشروره من إبليس.

فإن قيل: إنّه على هذا البيان فالقوم أثبتوا للّه شريكاً واحداً وهو إبليس فكيف قال سبحانه حكاية عنهم: وأثبتوا للّه شركاء؟ لأنّهم كانوا يقولون: عسكر الله هم الملائكة وعسكر إبليس هم الشّياطين، والملائكة يلهمون الخلق بالخيرات والشياطين يلقي الوساوس الخبيثة إلى الأرواح البشريّة أو الله مع عسكره من الملائكة يحاربون إبليس مع عسكره من الشياطين وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ وشركاء الجنّ الملائكة والأبالسة

لاستتارهم عن الأعين، وقيل: إنّ قريشاً كانوا يقولون أي: بعضهم كان يقول: إنّ اللّه صاهر الجنّ فحدث بينهما الملائكة، فيكون على هذا القول المراد به الجنّ المعروف لا الملائكة كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[1] أو المراد من قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ الملائكة لا الجنّ حيث قالوا: الملائكة بنات اللّه.

﴿وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ أي: وجعلوا مخلوقه شريكاً والمخلوق كيف يكون شريك الخالق؟ وخرقوا له أي: وموّهوا وافتروا الكذب على اللّه ونسبوا البنين والبنات إلى اللّه تعالى فإنّ المشركين قالوا: الملائكة بنات اللّه، والنصارى قالوا: المسيح ابن اللّه، واليهود قالوا: عزير ابن اللّه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وحجّة قاطعة ولكن جهلاً منهم باللّه وبعظمته.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ أي: تنزيهاً له وهو متعال ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من انتسابهم له تعالى بهذه النسبة، ويجلّ من أن يوصف بما وصفوه به فإنّ الولد متولّد عن جزء من أجزاء الوالد وذلك إنّما يعقل في حقّ من يكون مركّباً ويمكن انفصال جزء منه وذلك في حقّ الواحد الفرد الواجب لذاته محال، يقال: فلان تخرّق الكذب أي: اختلقه من عند نفسه والمراد من التعالي ليس علوّ المكان بل علوّ الشأن والمكانة. والفرق بين «سُبْحانَهُ» وبين «تَعالى» أنّ المراد من «سُبْحانَهُ» تنزيهه عمّا لا ينبغي، والمراد بقوله: «وَ تَعالى» كونه في ذاته متعالياً سواء سبّحه مسبّح أو لم يسبّحه فالتسبيح يرجع إلى أقوال المسبّحين، والتّعالي يرجع إلى صفته الذاتيّة الّتي حصلت له لذاته لا لغيره.

لا تصف اللّه بما لا يليق واعبده مخلصاً راجياً خائفاً. فإنّ الرّجاء له ثلاث مراتب رجل يعمل الحسنة فيرجو قبولها، ورجل عمل السيّئة وهو نادم فيرجو

١ـ سورة الصافات: ١٥٨.

غفرانها ورجل كذّاب مغرور يعمل المعاصي يتهاون بالذنوب ويرجو المغفرة.

قيل للصادق عليه السلام: إن قوماً من شيعتكم يعلمون بالمعاصي ويقولون نرجو فقال عليه السلام: «**كذبوا ليسوا من شيعتنا كلّ من رجا شيئاً عمل له، فو الله ما من شيعتنا منكم إلّا من اتّقى الله، وإنّ أحسن الناس بالله ظنّا وأعظمهم رجاء أعملهم بطاعته ولقد كان رسول الله وأمير المؤمنين أحسن الناس بالله ظنّا وأبسطهم له رجاء وكانوا أعظم الناس منه خوفاً ومنه رهبة وكذلك سائر الأنبياء، فدعوا الأمانيّ منكم وجدّوا واجتهدوا وأدّوا إلى الله حقّه، وإلى الخلق حقّهم، فما ضرب الله مثل آدم من أنّه عصى بأكل حبّة إلّا تذكرة لكم وكان أمير المؤمنين يقول في تسبيحه: سبحان من جعل خطيئة آدم عبرة لأولاده مع أنه أصلكم قد اصطفاه فأهبطه إلى الأرض من الجنّة لأجل أكل حبّة وأنتم تأكلون البيادر هذا هو الطّمع العظيم**».

وينبغي أن يكون الرّجاء والخوف في قلب المؤمن كجناحي الطائر: إذا استويا حصل الطيران وإذا حصل أحدهما دون الآخر فقد حصل النقص في القلب والعمل.

روي في سبب نزول قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[1] أنّ رسول الله مرّ بقوم يضحكون فقال: «**لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**» فنزل جبرئيل بالآية. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال جبرئيل: «**قال الله: عبدي إذا عرفتني وعبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً غفرت لك على ما كان منك، ولو استقبلتني بملء الأرض ذنوباً أستقبلك بملئها مغفرة وعفواً وأغفر لك ولا أبالي**». قالت أمّ سلمة: سمعت رسول الله يقول: «**إنّ الله ليتعجّب من يأس العبد وقنوطه مع عظيم سعة رحمته**».

روي أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام مرّ بالزهريّ وهو يضحك قد خولط فقال:

١ـ سورة الحجر: ٤٩ و٥٠.

«ما باله» فقالوا: هذا لحقه من قتل النفس، فقال: **«والله لقنوطه من رحمة الله أشدّ عليه من قتله»**. فاعمل وخف وارج[١].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الإبداع عبارة عن تكوين الشيء من غير سبق مثال قال الرازيّ في بيان الآية: المراد ردّ قول من أثبت له ولداً بأنّه إنّكم إن تزعمون أنّ عيسى ابن الله لكونه أحدثه على سبيل الإبداع من غير تقدّم نطفة ووالد[٢]، فلو لزم من مجرّد كونه تعالى مبدعاً لإحداث عيسى كونه والداً له لزم من كونه مبدعاً للسّماوات والأرض كونه والداً لهما، لأنّه تعالى خلقهما على سبيل الإبداع ومعلوم أنّ ذلك باطل بالاتّفاق، ثمّ إنّ الولادة لا تصحّ إلّا ممّن كانت له صاحبة وشهوة وينفصل عنه جزء ويحتبس ذلك الجزء في باطن تلك الصاحبة وهذه الأحوال إنّما تثبت في حقّ الجسم الّذي يصحّ عليه الاجتماع والحركة والسكون والحدّ والنهاية والمدّة وكلّ ذلك على الله محال وهو المراد بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ ويحصل الولد بهذا الطريق لمن أراد الولد وعجز عن تكوينه دفعة واحدة عدل إلى تحصيله بالطريق المعتاد، ومن كان مستغنياً عن هذه الأمور وخالقاً لكلّ الممكنات إذا أراد إحداث شيء قال له: كن فيكون وهو المراد من قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ومن كان قدرته بهذه المثابة امتنع منه إحداث شيء بطريق الولادة.

ثمّ إنّ هذا الولد إمّا أن يكون قديماً أو محدثاً ولا يجوز أن يكون قديماً لأنّ القديم يجب كونه واجب الوجود لذاته وما كان واجب الوجود لذاته كان غنيّاً عن غيره فامتنع كونه ولداً لغيره فبقي أنّه لو كان ولداً لوجب كونه حادثاً،

١ـ وروي: **«لووزن خوف المؤمن ورجاه لاعتدلا»**. أورد أخباراً مناسبة في الأصول من الكافي، ج٢، ص٦٧ـ٧١.

٢ـ تفسير الرازي ،ج١٣، ص ١١٨.

ثمّ نقول: إنّه تعالى عالم بجميع المعلومات فإمّا أن يعلم أنّ له في تحصيل الولد كمالاً ونفعاً أو لا فإن كان الأوّل فلا وقت يفرض أنّ اللّه خلق هذا الولد فيه إلّا والداعي إلى إيجاد هذا الولد كان حاصلاً قبل ذلك ومتى كان الداعي إلى إيجاده حاصلاً قبله وجب حصول الولد قبل ذلك وهذا يوجب كون ذلك الولد أزليّاً وهو محال وإن كان الثاني فقد ثبت أنّه تعالى عالم بأنّه ليس له في تحصيل الولد كمال حال، ولا ازدياد مرتبة في الإلهيّة وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يحدثه في وقت من الأولاد، وهو المراد من قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فكونه عالماً بكلّ المعلومات وكونه أزليّاً يمنع من صحّة الولد عليه. انتهى كلام الرازيّ في «المفاتيح».

قال الطبرسي: ومن قال: إنّ في قوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دلالة على خلق أفعال العباد فجوابه أنّ المفهوم منه أنّه أراد المخلوقات كما يفهم من قول من قال: أكلت كلّ شيء والمخلوقات كلّها بما فيها من التقدير العجيب يضاف خلقها إليه على أنّه قد نزّه نفسه عن إفك العباد وظلمهم وكذبهم فلو كان خلقاً له لما تنزّه عنه.[1]

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

أي: ذلك الّذي خلق هذه الأشياء لكم ودبّر هذه الصنعة هو ﴿ٱللَّهُ﴾ ربّكم خالقكم وسيّدكم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: كلّ مخلوق من الأجسام والأعراض الّتي لا يقدر عليها غيره ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ لأنّه

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٢٦.

المستحقّ للرّبوبيّة والعبادة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ ومدبّر فهو وكيل على الحقّ، ولا يقال وكيل لهم.

قال صاحب «الكشّاف»: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة الموصوف بما تقدّم من الصفات وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.[1]

ونقل الرازيّ في إثبات التوحيد طرقاً كثيرة قال: قال المتكلّمون: الصّانع الواحد كاف لأنّ الإله القادر على كلّ المقدورات العالم بكلّ المعلومات كاف في كونه إلهاً للعالم وأمّا أنّ الزائد على الواحد لم يدلّ الدّليل على ثبوته ولم يكن إثبات عدد أولى من إثبات عدد آخر فيلزم إمّا إثبات آلهة لا نهاية لها وهو محال، أو إثبات عدد معيّن مع أنّه ليس ذلك العدد أولى من سائر الأعداد وهو أيضاً محال وإذا كان القسمان باطلين لم يبق إلّا القول بالتوحيد.[1]

وأيضاً وجه أخر في تقرير هذه الطريقة: وهي أنّ الإله القادر على كلّ الممكنات كاف في تدبير العالم فلو قدّرنا إلهاً ثانياً لكان ذلك الثاني إمّا أنّ يكون فاعلاً وموجداً لشيء من الحوادث أو لا يكون والأوّل باطل لأنّه لمّا كان كلّ واحد منهما قادراً على جميع الممكنات فكلّ فعل يفعله أحدهما صار كونه فاعلاً لذلك الفعل مانعاً للآخر عن تحصيل مقدوره لأنّ فعله سبق وامتنع الثاني عن تحصيل مقدوره وذلك يوجب كون كلّ واحد منها سبباً لعجز الآخر، وإن كان الإله الثاني لا يفعل فعلاً ولا يوجد شيئاً فكان معطّلاً وناقصاً فلا يصلح للإلهيّة.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٢٠؛ والكشاف، الزمخشري، ج ٢، ش، ص ٤١؛ وتفسير جوامع الجامع، الشيخ الطبرسي، ج ١، ص ٦٠٢.

١ـ المصدر السابق نفسه.

والوجه الثالث في تقرير هذه الطريقة أنّ هذا الإله الواحد لابدّ وأن يكون كاملاً في صفات الإلهيّة فلو فرضنا إلها ثانياً لكان ذلك الثّاني إمّا أن يكون مشاركاً للأوّل في جميع صفات الكمال أولا يكون فإن كان مشاركاً للأوّل في جميع الصفات فلابدّ وأن يكون مميّزاً عن الأوّل بأمرما، إذ لو لم يحصل الامتياز بأمر من الأمور لم يحصل التعدّد والاثنينيّة وإذا حصل الامتياز بأمر مّا فذلك الأمر المميّز إمّا أن يكون من صفة الكمال أولا يكون فإن كان من صفات الكمال مع أنّه حصل ما به الامتياز لم يكن جميع صفات الكمال مشتركاً فيه بينهما، وإن لم يكن ذلك المميّز من صفات الكمال فالموصوف به يكون موصوفاً بصفة ليست من صفات الكمال وذلك نقصان ولا يصلح للإلهيّة.

قالت الأشاعرة: إنّ قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يدلّ على أنّه تعالى هو الخالق لأعمال العباد قالوا: أعمال العباد أشياء والله خالق كلّ شيء بحكم الآية. وأجاب الطبرسيّ عنه، وقد ذكرناه قبيل هذا.

ولا بأس بذكر الجواب الآخر: وهو أنّ هذا اللّفظ وإن كان عامّاً إلّا أنّه حصل مع هذه الآية وجوه يدلّ على أنّ أعمال العباد خارجة عن هذا العموم لأنّه قال سبحانه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ فلو دخلت أعمال العباد تحت قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لصار تقدير الآية: أنا خلقت أعمالكم فافعلوها بأعيانها أنتم مرّة اخرى، ومعلوم أنّ ذلك فاسد قطعاً.

وأيضا أنّه تعالى إنّما ذكر قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ في معرض القدرة والثناء على نفسه فلو دخل تحته أعمال العباد لخرج عن كونه مدحاً وثناء بل ثبت قدحاً لأنّه لا يليق بذاته سبحانه أن يتمدّح بخلق الزّنا واللّواط والسرقة والكفر.

والجواب الثالث أنّه قال بعد هذه الآية: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ

أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَا﴾[1] وهذا تصريح بكون العبد مستقلاً بالفعل والتّرك، ولا مانع له من الفعل والتّرك وذلك يدلّ على أنّ فعل العبد غير مخلوق للّه إذ لو كان مخلوقاً للّه لما كان العبد مستقلاً به لأنّه إذا أو جده اللّه امتنع من العبد الدّفع ولا يصحّ أن يقال: فعل العبد مخلوق للّه، فقوله: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَا﴾ يوجب تخصيص ذلك العموم.

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: لا تراه العيون لأنّ الإدراك متى قرن بالبصر لم يفهم منه إلا الرّؤية كما لو قيل: أدركت بأذني لم يفهم منه إلا السّماع ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ أي: لا يدركه ذووا الأبصار، أي: يرى سبحانه ولا يرى كما قال: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ وهذه الأبصار ليست هي الأعين إنّما هي الأبصار الّتي في القلوب أي: لا يقع عليه الأوهام ولا يدرك كيف هو.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ اللّاطف بعباده بسبوغ الأنعام. عدل عن فاعل إلى فعيل للمبالغة وقيل: معناه لطيف التدبير إلّا أنّه حذف لدلالة الكلام عليه، وقيل: إنّ معنى اللطيف هو الّذي يستقلّ الكثير من نعمه ويستكثر القليل من طاعة عباده، وقيل: اللّطيف من يكافي الوافي ويعفو عن الجاني. وقيل: اللطيف من يعزّ المفتخر به ويغني المفتقر إليه «الْخَبِيرُ» العالم بكلّ شيء من مصالح عباده.

قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قرّر سبحانه أمر التبليغ والرسالة فقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾

١ـ سورة الأنعام: ١٠٤.

والبصائر جمع البصيرة، وكما أنّ البصر اسم للإدراك التّام الكامل الحاصل بالعين الّتي هي في الرّأس فالبصيرة اسم للإدراك التامّ الكامل الحاصل في القلب، فالآيات المتقدّمة وهي في أنفسها ليست بصائر إلا أنّها لقوّتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها، فلهذا سمّيت بالبصائر، والمعنى: من أبصر الحقّ وآمن بعد هذه الآيات فلنفسه أبصر وإيّاها نفع، ومن عمي عن الحقّ ولم يهتد فعلى نفسه ضرّ بالعمى، قل لهم يا محمّد: إنّ هدايتكم وضلالتكم نفعها وضررها عائد إليكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وإنّهما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ لمّا تمّم الكلام في الإلهيّات إلى هذه المواضع شرع في إثبات النبوّات فحكى شبهة المنكرين نبوّة محمّد ﷺ بقولهم: يا محمّد ﷺ إنّ هذا القرآن الّذي جئتنا به كلام تستفيده من مدارسة العلماء ومباحثة الفضلاء ثمّ تنظمه من عند نفسك وتقرؤه علينا وتزعم أنه وحي ينزل عليك من الله، وهذا وجه النظم في الآية. المعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما صرّفنا الآيات قبل نصرّف هذه الآيات.

والتصريف إجراء المعاني الدائرة المتعاقبة في الألفاظ لتجتمع فيه وجوه الفائدة ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ اللام لام العاقبة والصيرورة، والتقدير أنّ عاقبة أمرهم عند تصريفنا هذه الآيات أن يقولوا هذا القول الشنيع، وأمّا الأشاعرة فإنّهم لإثبات الجبر فسّروا الآية وأجروا الكلام على ظاهره فقالوا: المعنى في الآية: إنّا ذكرنا هذه الدلائل حالاً بعد حال ليقول بعضهم: دارست ودرست هذه الآيات من اليهود وغيرهم ليزدادوا كفراً على كفرهم، وهذا المعنى غير صحيح لوقوع القبيح والظلم منه تعالى، وقال القاضي والجبّائي:

إنّ تقدير الآية: لئلّا يقولوا درست نظير قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾[1] فإنّ المعنى لئلّا تضلّوا.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولنبيّن هذه الآيات لقوم يعقلون لأنّهم المنتفعون بها. والدرس في اللّغة التذليل بكثرة القراءة، حتّى خفّ من قولهم: درست الثوب إذا أخلقته، فقيل للثّوب الخلق: الدريس لأنّه قد لان.

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

أمر سبحانه باتّباع الوحي فقال: ﴿اتَّبِعْ﴾ أيها الرّسول ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ والإيحاء هو إلقاء المعنى إلى النفس على وجه يخفى، ويكون تارة بالملك وهو الحقيقة وتارة بالإلهام والرّؤيا ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ادعهم إلى هذا القول أو بيان ما أوحي إليك من أنّه لا اللّه إلّا هو ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال ابن عبّاس: نسخته آية القتال، أو المعنى: اهجرهم ولا تخالطهم ولا تلاطفهم ولم يرد به الإعراض عن دعائهم إلى اللّه وحكمه ثابت.[2]

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أي: لو شاء اللّه أن يتركوا الشرك قهراً وإجباراً لاضطرّهم إلى ذلك إلّا أنّه لم يضطرّهم إليه بما ينافي أمر التكليف بل أمرهم سبحانه بترك الشرك اختياراً ليستحقّوا الثواب والمدح عليه فلم يتركوه فأتوا به من قبل نفوسهم.

وفي تفسير أهل البيت: لو شاء اللّه أن يجعلهم كلّهم مؤمنين معصومين حتّى كان لا يعصيه أحد لما كان يحتاج إلى جنّة ولا إلى نار ولكنّه أمرهم ونهاهم وأعطاهم ماله تعالى به عليهم الحجّة من الآلة والاستطاعة ليستحقّوا

١ـ سورة النساء: ١٧٦.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٣١.

الثواب والعقاب. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ راقباً لأعمالهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ ولست يا محمّد بموكّل عليهم وإنّما أنت رسول عليك البلاغ وعلينا الحساب قال الحدّادي: وإنّما جمع بين «حفيظ ووكيل» لاختلاف معناهما فإنّ الحافظ للشيء هو الّذي يصونه عمّا يضرّه والوكيل بالشيء هو الّذي يجلب الخير إليه.[١]

واعلم أنّ الجبريّة تمسّكوا بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ على صحّة مذهبهم وقالوا: إنّ المعنى ولو شاء اللّه أن لا يشركوا ما أشركوا وحيث لم يحصل الجزاء علمنا أنّه لم يحصل الشّرط فعلمنا أنّ مشيئة اللّه بعدم إشراكهم غير حاصلة، وأجابت المعتزلة بأنّه ثبت بالدّلائل أنّه تعالى أراد من الكلّ الإيمان وما شاء من أحد الكفر والشرك وهذه الآية تقتضي أنّه تعالى ما شاء من الكلّ الإيمان فوجب التّوفيق بين الدّليلين فيحمل مشيئة اللّه لإيمانهم على مشيئته الإيمان الاختياريّ الموجب للثواب ويحمل عدم مشيئته لإيمانهم على الإيمان الحاصل بالقهر والإلجاء فالمعنى: ما شاء أن يحملهم على الإيمان على سبيل القهر والإلجاء فإنّ ذلك يبطل التكليف ويخرج الإنسان عن استحقاق الثّواب.

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

سبب النزول: كان المسلمون يسبّون الأصنام فقال المشركون: يا محمّد لتنتهنّ عن سبّ آلهتنا أو لنهجونّ ربّك، فنهى اللّه تعالى أن يسبّوا الأصنام لما فيه من المفسدة فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المراد

١ـ تفسيرمجمع البيان، ج ٤، ص ١٣١.

الأصنام يدعونها آلهة ويعبدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: متجاوزين عبادة الله ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيقولوا لكم مثل قولكم لهم و﴿عَدْوًا﴾ منصوب على الحاليّة مصدر أو مفعول له أي: لأجل العداوة والتّجاوز ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ غير عالمين بالله وبما يجب أن يذكر به جهلا لأنّهم لو قدروا الله حقّ قدره لما أقدموا على الشّرك.

وفي الآية تنبيه على أنّ خصمك لو شافهك بجهل وسفاهة لم يجز لك أنّ تقدم على مشافهته بما يجري مجرى كلامه فإنّ ذلك يوجب فتح باب السّفاهة، وذلك لا يليق بالعقلاء فلو قيل: إنّ الكفّار والمشركين كانوا مقرّين بالإله العالم وكانوا يقولون: إنّما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعاء لهم عند الله وإذا كان كذلك فكيف يعقل إقدامهم على سبّ الله؟.

قال الرازيّ: هاهنا احتمالات: أحدهما: أنّه ربّما كان بعضهم قائلاً بالدهر ونفي الصّانع فما كان يبالي بهذا النّوع من السّفاهة وثانيها: أنّ الصّحابة متى شتموا الأصنام فهم كانوا يشتمون الرسولﷺ، فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى شتم الله[1] كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[1] وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾.[2]

وثالثها: أنّه ربّما كان في جهّالهم من كان يعتقد أنّ شيطاناً يحمله على ادّعاء النبوّة والرسالة ثمّ إنّه بجهله كان يسمّي ذلك الشيطان بأنّه إله محمّد، فكان يشتم إله محمّد بناء على هذا التأويل.[3]

فلو قيل: إن شتم الأصنام وسبّها من أصول الطاعات فكيف يحقّ من

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٤٠.

١ـ سورة الفتح: ١٠.

٢ـ سورة الأحزاب: ٥٧.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٤٠.

الله أن ينهي عنها؟ فالجواب أنّ هذا الشتم وإن كان طاعة إلّا أنه إذا وقع على وجه يستلزم منه منكر عظيم وجب الاحتراز منه، والأمر هاهنا كذلك لأنّ هذا الشتم كان يستلزم إقدامهم على شتم الله وشتم رسوله وعلى فتح باب السفاهة وعلى تنفيرهم عن قبول الدّين وإدخال الغيظ في قلوبهم فلكونه مستلزماً لهذه المنكرات وقع النّهي عنه. وقرئ «عدوا» بضمّ العين وتشديد الواو قال الزجّاج: «عَدْواً» منصوب على المصدر أي: فيعدوا عدواً.[1]

قال الجبّائي: دلّت هذه الآية على أنه لا يجوز أن يفعل بالكفّار ما يزدادون به بعدا عن الحقّ، إذ لو جاز أن يفعله لجاز أن يأمر به وكان لا ينهى عنه، وكان لا يأمر بالرّفق بهم عند الدّعوة كقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[2] وذلك يبيّن بطلان مذهب المجبّرة.[3]

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: أنّ معناه: كذلك زيّنّا لكلّ امّة عملهم بميل الطباع إليه ولكن قد عرّفناهم الحقّ مع ذلك ليأتوا الحقّ ويجتنبوا الباطل، وذلك لصحّة التكليف لأنّه لا يقال للعنّين: لا تزن وللأعمى: لا تنظر.

وثانيها: أنّ المراد زيّنّا لكم أعمالكم زيّنّا لكلّ امّة من قبلكم أعمالهم من حسن الدعوة إلى الله وترك ما لا ينبغي وترك السبّ للأصنام ونهيناهم أن يأتوا من الأفعال ما ينفّر الكفّار عن قبول الحقّ، عن الحسن والجبّائي. ويسمّى ما يجب على الإنسان أن يعمله بأنّه عمله كما تقول لغلامك: اعمل عملك أي: ما ينبغي لك أن تفعله.

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ سورة طه: ٤٤.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١٣ ،ص ١٤١.

وثالث الأقوال: أنّ المراد زيّنا عملهم بذكر ثوابه فهو كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[1] يريد حبّب بذكر ثوابه ومدح فاعليه، وما فسّرته الأشاعرة في معنى الآية لإثبات مدّعاهم فهو بمعزل عن القبول ولم يرد سبحانه أنّه زيّن عمل الكافرين لأنّ ذلك يقتضي الدّعوة إليه والله تعالى ما دعا أحداً إلى معصيته ولكنّه نهاهم عنها وذمّ فاعليها ونسب مثل هذه الزّينة إلى الشيطان فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[2] ولا خلاف أنّ المراد بذلك الكفر والمعاصي فثبت أنّ المراد به في الآية تزيين أعمال الطاعة. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من أعمالهم الخير والشرّ.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

سبب النزول: قالت قريش: يا محمّد تخبرنا أنّ موسى كان معه عصا يضرب به الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أنّ ثمود كان لهم ناقة فأتنا بآية من الآيات حتّى نصدّقك، فقال رسول الله ﷺ: «**أي: شيء تحبّون أن آتيكم به؟**» قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا حتّى نسألهم عمّا تقول أحقّ أم لا، وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً، فقال النبي ﷺ: «**فإن فعلت بعض ما تقولون أتصدّقونني؟**» قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتّبعنّك أجمعين، وسأل المسلمون رسول الله أن ينزّلها عليهم حتّى يؤمنوا فقام رسول الله ﷺ يدعو

١ـ سورة الحجرات: ٧.

٢ـ سورة العنكبوت: ٣٨.

أن يجعل الصّفا ذهبا فجاءه جبرئيل، فقال: «**إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن إن لم يصدّقوا عذّبتهم وإن شئت تركتهم حتّى يتوب تائبهم**». فقال ﷺ: «**بل يتوب تائبهم**»، فأنزل اللّه هذه الآية، عن الكلبيّ ومحمّد بن كعب القرطبيّ.

المعنى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ قال الواحديّ إنّما سمّي اليمين بالقسم لأنّ اليمين موضوعة لتوكيد الخبر الّذي يخبر به الإنسان إثباتاً أو نفياً. ولمّا كان الخبر يدخله الصدق والكذب احتاج المخبر إلى طريق به يتوسّل إلى ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب وذلك هو الحلف والقسم[١]، وبنوا تلك الصّيغة على «افعَلْ» وبالحلف يبيّن قسم الصدق الّذي ادّعاه عن قسم نقيضه الّذي هو الكذب وبالجملة بيّن سبحانه حال الكفّار الّذين سألوا الآيات، فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أي: حلفوا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مجدّين مجتهدين مظهرين الوفاء به ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ ممّا سألوها ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ أي: الأعلام والمعجزات ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وهو مالكها فلو علم صلاحكم في إنزالها لأنزلها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الخطاب متوجّه إلى المشركين وقيل الخطاب متوجّه إلى المؤمنين لأنّهم ظنّوا أنّهم لو أجيبوا إلى الآيات لآمنوا ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أي شيء يعلّمكم أنّ الآية الّتي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بل يبقون على ما كانوا عليه من الكفر والعناد.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عطف على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أخبر سبحانه أنّه تعالى يقلّب أفئدة هؤلاء الكفّار ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عقوبة لهم وفي كيفيّة تقليبهما قولان: أحدهما أنّه يقلّبها في جهنّم على حرّ الجمر ولهب النار، والثاني أنّ المعنى: نقلّب أفئدتهم وأبصارهم بالحيرة الّتي تغمّ وتزعج النفس ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بما جاء من الآيات أوّل مرّة من المعجزات الّتي صدرت

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٤٣.

عنه ﷺ مثل انشقاق القمر ونحوه.

وقيل: معناه: لو أعيدوا إلى الدّنيا ثانية لم يؤمنوا به كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة في الدّنيا وهذا مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[1] عن ابن عبّاس. والهاء في «بِهِ» يحتمل أن يكون عائدة إلى القرآن وما أنزل من الآيات ويحتمل أن يكون عائدة إلى النبيّ ﷺ.

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: نخلّيهم وما اختاروه من الطغيان ولا نحول بينه وبينهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ متردّدين في الحيرة هائمين.

قال بعض أهل التفسير: إنّ قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ معترضة وحشو بين الجملتين، والمعنى أنّا نحيط علماً بذات الصدور وخائنة الأعين نختبر قلوبهم فنجد باطنها بخلاف ظاهرها فلا نحول بينهم وبين اختيارهم ولا نمنعهم من ذلك ونمهلهم فإن أقاموا على الكفر والطغيان نتركهم في ذلك الطغيان والعمه، ولا نلجئهم ونقهرهم على الإيمان فبسبب إقدامهم على الكفر استحقّوا الحرمان وتقليب أفئدتهم، وإضافة التقليب إلى الله بهذا المعنى والسّبب. فبطل ما استدلّوا من هذه الآية في الجبر.

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

بيّن سبحانه حالهم في طغيانهم وعنادهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ حتّى يشهدون بنبوّته حتّى يرون الملائكة عياناً ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ بعد أن أحييناهم حسب ما اقترحوه فيشهدوا لك بالنبوّة فإنّهم طلبوا منه ﷺ إحياء اثنين من موتاهم للشهادة أحدهما قصيّ بن كلاب وجذعان بن عمرو

١ـ سورة الأنعام: ٢٨.

وقالوا: لئن أحييتهما فشهدا لك بالنبوة لشهدنا نحن أيضا ﴿وَحَشَرْنَا﴾ أي: جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ جمع قبيل، وانتصابه على الحاليّة أي: لو حشرنا كلّ شيء نوعاً نوعاً وفوجاً فوجاً من سائر المخلوق، قال صاحب التيسير في كتاب التفسير: أي: وبعثنا كلّ حيوان من الفيل إلى البعوض أي: أقمنا القيامة ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ بأن يجبرهم على الإيمان، عن الحسن وهو المرويّ عن أئمتنا عليهم السلام، وحاصل المعنى أنّهم لا يؤمنون مختارين إلّا أن يكرهوا.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنّ الله قادر على ذلك أو أنّ المعنى: يجهلون أنّهم لو أوتوا بكلّ آية ما آمنوا طوعا أو يجهلون مواضع المصلحة فيطلبون مالا مصلحة ولا فائدة فيه. وفي الآية دلالة على أنّ الله سبحانه لو علم أنّه إذا فعل ما اقترحوه من الآيات آمنوا لفعل ذلك ولكان ذلك واجباً في حكمته لأنّه لو لم يجب ذلك لم يكن لتعليله ـ بأنّه لم يظهر هذه الآيات لعلمه بأنّه لو فعلها لم يؤمنوا ـ معنى.

وفيها أيضا دلالة على أنّ إرادته محدثة لأنّ الاستثناء يدلّ على ذلك، إذ لو كانت قديمة لم يجز هذا الاستثناء ولم يصحّ كما أنّه لا يصحّ لو قال: ما كانوا ليؤمنوا إلّا أن يعلم الله لحصول هذا الوصف فيما لم يزل، ويجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ راجعاً إلى المؤمنين أي: إنّهم يجهلون عدم إيمان المقترحين عند مجيء الآيات لأنّ المؤمنين كانوا يتمنّون مجيء الآيات طمعاً في إيمان الكافرين.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

سلّى في هذه الآية محمّداً صلى الله عليه وآله وبيّن ما كان عليه حال الأنبياء مع

أعدائهم فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما جعلنا لك شياطين الإنس والجنّ أعداء كذلك جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء.

وفي معنى ﴿جَعَلْنَا﴾ هنا وجوه قال الطبرسيّ:

أحدها أنّ المراد: كما أمرناك بعداوة قومك من المشركين فقد أمرنا من قبلك بمعاداة أعدائهم من الجنّ والإنس، ومتى ما أمر اللّه رسوله بمعاداة قوم من المشركين فقد جعلهم أعداء له، وهذا المعنى شائع كما يقول الأمير للمبارز من جيشه: جعلت فلاناً قرنك في المبارزة وهو يعني بذلك أنّه أمره بمبارزته لأنّه إذا أمره بمبارزته فقد جعل من يبارزه قرناً له.[1]

وثانيها أنّ معناه: حكمنا بأنّهم أعداء وأخبرنا بذلك لتعاملوهم معاملة الأعداء في الاحتراز عنهم والاستعداد لدفع شرّهم. وهذا كما يقال: جعل القاضي فلاناً عدلاً وفلاناً فاسقاً إذا حكم بعدالة هذا وفسق ذلك.

وثالثها أنّ المراد: خلّينا بينهم وبين اختيارهم العداوة لم نمنعهم عن ذلك كرهاً ولا جبراً لأنّ ذلك يزيل التكليف.

ورابعها: أنّه سبحانه إنّما أضاف ذلك إلى نفسه لأنّه سبحانه لمّا أرسل إليهم الرّسل وأمرهم بدعائهم إلى الإسلام والإيمان وخلع الأوثان نصبوا عند ذلك العداوة لأنبيائه، ومثله قوله تعالى مخبراً عن نوح: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾.[1]

والمراد من قوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ مردة الكفّار من الفريقين أو أنّ المراد من شياطين الإنس الّذين يغوونهم وشياطين الجنّ الّذين هم من ولد إبليس.

قال الكلبيّ في تفسيره عن ابن عبّاس: إنّ إبليس جعل جنده فريقين

١ـ تفسير مجمع البيان ،ج ٤،ص ١٤٠.

١ـ سورة نوح: ٦.

فبعث فريقاً منهم إلى الإنس وفريقاً إلى الجنّ فشياطين الجنّ والإنس أعداء بعضهم الرّسل والمؤمنين، فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجنّ في كلّ حين، فيقول بعضهم لبعض: أنا أضللت صاحبي بكذا فأنت أضلّ صاحبك بمثلها، فذلك المراد بقوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.[١]

وروي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: إنّ الشياطين يلقى بعضهم بعضا فيلقي إليه ما يغوي به الخلق حتّى يتعلّم بعضهم من بعض ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ أي: القول المموّه الّذي يستحسن ظاهره ولا حقيقة له ولا أصل ﴿غُرُورًا﴾ أي: يغرّونهم غرورا.[٢]

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أخبر سبحانه أنه لو شاء أن يمنعهم من ذلك جبراً أو يحول بينهم وبينه لقدر على ذلك ولكنّه خلّى سبيلهم بينهم وبين أفعالهم إبقاء للتّكليف وامتحانا للمكلّفين، وقيل: المعنى: ولو شاء ربّك ما فعلوه بأن ينزّل عليهم عذاباً أو آية فتضلّ أعناقهم لها خاضعين.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: دعهم وافترائهم الكذب فإنّي اجازيهم وأعاقبهم، أمر سبحانه بأن يخلّي بينهم وبين ما اختاروه وأن لا يمنعهم منه بالقهر تهديداً لهم، وذلك كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ دون أن يكون أمراً واجباً أو ندباً.

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾ عطف على الغرور واللّام بمعنى كي أي: يوحي بعضهم إلى بعض الغرور ولأن تصغى إليه ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ ولام «كي» نائبة عن «أن» في أكثر الموارد واللامات في الآية قرئت بالسكون وقرئت بالحركة، والحركة أولى أي: لتميل إلى هذا

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٤٠؛ وبحارالأنوار، ج ٦٠، ص ١٤٩؛ ومجمع البيان ،ج ٨، ص٦؛ والزاد المسير، ابن الجوزي، ج٢ ،ص ٧٥.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

القول المزخرف قلوب الّذين لا يؤمنون، ويجوز أن تكون اللّام لام العاقبة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أي: لتميل أفئدتهم إلى تلك المزخرف ويرضوه لأنفسهم بعد ميل أفئدتهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ ويكتسبوا بموجب ارتضائهم لذلك المزخرف ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ ومكتسبون من القبائح الّتي لا يليق ذكرها من الكفر ومتابعة الضّلالة.

وفي الآية إشارة إلى أنّ البلايا للسائرين إلى الله، والأولياء هي المطايا لهم، وأنّ أشدّ البلاء شماتة الأعداء فلمّا كانت رتبة الأنبياء أعلى كانت عداوة الكفّار لهم أوفى وفي ذلك لهم ترقّيات.

قال أهل التأويل: إنّ شيطان الإنس النفس الأمّارة بالسوء وهي أقوى من شياطين الجنّ، وإنّما يتسلّط شيطان الجنّ على ابن آدم بفضول النّظر والكلام والطعام وبمخالطة الناس ومن اختلط فقد استمع إلى الأكاذيب.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

أمر سبحانه أن يقول لهؤلاء الكفّار الّذين مضى ذكرهم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ وأطلب سواه حاكما؟ والحكم والحاكم بمعنى واحد إلّا أنّ الحكم أبلغ: لأنّ معناه من يستحقّ أن يتحاكم إليه فهو لا يقضي إلّا بالحقّ، وقد يحكم الحاكم بغير حقّ وحاصل المعنى: هل يجوز لأحد أن يعدل عن حكم الله رغبة عنه؟ وهل يجوز أن يكون حكم سوى الله يساويه في حكمه؟ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ والحال أنّ القرآن فصّل فيه جميع ما يحتاج إليه أو فصّل فيه بين الحلال والحرام أو بين الصادق والكاذب في الدّين والكفر والإيمان، ومعنى التّفصيل تبيين المعاني بما ينفي التّخليط الوارد في اللّفظ والمعنى ويرفع التّداخل الّذي هو يوجب النقصان في المراد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: بهم مؤمني أهل التوراة وأهل

الإنجيل، وقيل: المراد كبراء الصّحابة والمراد هنا بالكتاب: القرآن عن عطاء الخراسانيّ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: القرآن نازل من عند الله حال كونه متلبّسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ والشاكّين من أنّهم يعلمون بحقيقة القرآن، فالفاء لترتيب النّهي على نفي علمهم بحال القرآن وحقّيته وعلمهم بأنّه منزل من عند لله، أو الخطاب للنبيّ والمراد به الأمّة، وقيل: الخطاب لغيره أي: أيّها الإنسان وأيّها السامع، وقيل: الخطاب له والمراد زيادة شرح صدره وطمأنينة قلبه كقوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾[1] عن أبي مسلم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

وقرئ «كلمات ربّك» ومن قرأ على المفرد قال: قد وقع المفرد على الكثرة فلذلك أغنى عن الجمع لأنّ العرب يستعمل الكلمة على الخطبة والقصيدة المشروحة.

شرّح سبحانه صفة الكتاب المنزل فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ﴾ أي: وكملت على وجه لا يمكن أخذ الزيادة فيه والنقصان كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ أي: القرآن وقيل: المعنى أنّه أنزل شيئاً بعد شيء حتّى كملت على ما تقتضيه الحكمة. وقيل: المراد من الكلمة دين الله كما في قوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[1] وقيل المراد: كملت حجّة الله على الخلق ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ما كان في القرآن فما كان فيه من الأخبار فهو صدق وما كان فيه من الأحكام فهو عدل.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا تبديل له ولا تغيير في ما جاء به من ثواب

١ـ سورة الأعراف: ٢.

١ـ سورة التوبه: ٤٠.

وعقاب، وذلك كقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾[1] والحكم الّذي حصل في الأزل هو التمام، والزيادة عليه ممتنعة كقوله ﷺ: **«جفّ القلم بما كائن إلى يوم القيمة»** وكلّ ما حصل في القرآن نوعان: الخبر والتّكليف أمّا الخبر فكلّما أخبر الله عن وجود أو عن عدم مثل الخبر عن وجود ذات الله وعن حصول صفاته أعني كونه تعالى عالماً قادراً سميعاً بصيراً، والإخبار التقديسيّة كقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[2] وكقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[3] وأقسام أفعال الله مثل كيفيّة تدبيره السماوات والأرض والملكوت وعالم الأرواح والأجسام، ويدخل الأحكام مثل الأمر والنهي المتوجّه على العبد ملكاً كان أو بشراً جنّياً كان أو شيطاناً.

فكلّ هذه الأمور لا يتطرّق إليه التغيّر والكذب، فالقرآن صدق من جهة الأخبار، وعدل من جهة الأحكام فقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ضبط في غاية الحسن في بيان جامعيّة القرآن. ومعنى لا مبدّل لكلماته هذا المعنى أي: إنّها تامّة لا يقبل التبديل موافقة للحكمة، دالّة على المعجزة، لا تزول بشبهات الجهّال. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ «السّميع» لكلّ ما يتعلّق به السمع «العليم» لكلّ ما يمكن أن يعلم.

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

لمّا تقدّم ذكر الكتاب بيّن سبحانه في هذه الآية أنّ من تبع غير الكتاب

١ـ سورة ق: ٢٩.

٢ـ سورة الإخلاص: ٣.

٣ـ سورة البقرة: ٢٥٥.

ضلّ وأضلّ، فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ﴾ يا محمّد، خاطبه والمراد غيره أو المراد هو وغيره. والطاعة امتثال الأمر وموافقة المطيع المطاع فيما يريده منه. والفرق بين الإطاعة والإجابة أنّ الإجابة عامّة في موافقة الإرادة الواقعة موقع[1] ولا يراعى فيها الرتبة بخلاف الإطاعة فإنّ الرّتبة ملحوظة فيها ﴿أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ يعني الكفّار وأهل الضلالة، وإنّما ذكر الأكثر لأنّه سبحانه علم أنّ منهم من يؤمن ويدعو إلى الحقّ ولكن هم الأقلّ والأكثر الضّلال ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن دينه. وفي هذا دلالة على أنّه لا عبرة في دين الله ومعرفة الحقّ بالقلّة والكثرة لجواز أن يكون الحقّ مع الأقلّ وإنّما الاعتبار فيه بالحجّة.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتّبع هؤلاء المشركون فيما يعتقدونه ويدعون إليه إلّا الظنّ، وما هم إلّا يكذبون ولا يقولون عن علم ولكن عن خرص وتخمين، قال ابن عبّاس: وذلك أنّهم كانوا يدعون النبيّ إلى أكل الميتة، ويقولون: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله؟ ومن قبيل هذه التخمينات فهذا إضلالهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: أنّ الله أعلم، يعلم من يضلّ عن سبيله، وأعلم بمن هو المهتدي فيجازي كلّا منهم بما يستحقّون، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾[2] وإنّما قال ﴿أَعْلَمُ﴾ لأنّ الله يعلم الشيء من كلّ جهاته، وغيره يعلم الشيء من بعض جهاته. وأمّا من هو غير عالم أصلاً فلا يقال فيمن ليس بعالم أصلا: «أعلم منه» إلّا مجازاً أي: بموجب زعمهم العلم وادّعائهم.

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا

١ـ كذا في الأصل، والصحيح هو [موقعها].

٢ـ سورة الكهف: ١٢.

اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

ولمّا قالوا للمسلمين: أتأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتله اللّه؟ نبّه سبحانه المسلمين بقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ والصيغة وإن كانت صيغة الأمر لكنّ المراد به الإباحة. أي: ممّا ذكر اسم اللّه عند ذبحه دون الميتة وما ذكر عليه اسم الأصنام فإنّها محرّمة. والذكر هو قوله «بِسْمِ اللّهِ» وقيل: هو كلّ اسم يختص اللّه به أو صفة تختصّه كقول: «باسم الرحمن» أو «باسم القديم» أو «باسم القادر لذاته» وما يجري مجراه قال الطبرسيّ: والقول الأوّل مجمع عليه[١]، والظاهر يقتضي جواز غيره أيضاً لقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.[٢]

﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ بأن عرفتم اللّه ورسوله وصحّة ما آتاكم الرسول به من عند اللّه فلو قيل: إنّ قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ صيغة الأمر وهي للإباحة، وهذه الإباحة حاصلة في حقّ المؤمن وغير المؤمن وكلمة ﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ تفيد الاشتراط فالجواب أنّ المعنى: اجعلوا أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم اللّه عليه فيكون المعنى تحريم أكل الميتة للمؤمن، ولو أنّ الكافر أيضا حرام عليه لكنّه لمّا لم يجعل الكافر الميتة حراماً فقيّد الحكم بالمؤمن. ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ المعنى: وأي: شيء لكم في أن لا تأكلوا؟ فيكون ما استفهاميّة على قول البصريّين أي: ما الّذي يمنعكم أن تأكلوا ممّا ذكر اسم اللّه عند ذبحه؟

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٤٨؛ وفقه القرآن، ج ٢، ص ٢٦٥.

٢ـ سورة الإسراء: ١١٠.

وقيل: «ما» نافية يعني: ليس لكم أن تأكلوا.

فإن قيل: إنّ المشركين كانوا يبيحون أكل ما ذبح على اسم اللّه ولا ينكرون أكله، وإنّما الاختلاف في أنّهم أيضاً كانوا يبيحون أكل الميتة والمسلمون كانوا يحرّمونها وإذا كان كذلك كان ورود الأمر بإباحة ما ذكر اسم اللّه عليه عبثاً لأنّه يقتضي إثبات الحكم في المتّفق عليه وترك الحكم في المختلف فيه فالجواب أنّ معنى الآية أن اجعلوا أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم اللّه فمعنى ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ أن لا تجعلوا أكلكم مقصوراً عليه فيقيد تحريم أكل الميتة فقط كما بيّنا قبل هذا المعنى.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ أي: والحال أنّه تعالى قد بيّن لكم ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ممّا لم يحرّمه وهو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ في سورة المائدة.[1]

فإن قيل: إنّ سورة المائدة مدنيّة، ونزلت بعد الأنعام والأنعام مكّيّة فلا يصحّ أن يقال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ فأجابوا أنّه يحمل على أنّه بيّن على لسان الرّسول ثمّ بعد ذلك نزل به القرآن، لكنّ العلماء مثل الرازيّ وأشباهه لم يتقنّعوا بهذا الجواب وقالوا: المراد من قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ هذه الآية وهي قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً...﴾.[1]

فإن قلت: إنّ الإيراد أيضاً وارد لأنّ صيغة «فَصَّلَ» يقتضي التقدّم وهذه الآية أيضا متأخّرة فأجاب الرازيّ عن هذا الإشكال بحجّة ضعيفة وهي أنّ هذا القدر من التأخّر لا يمنع أن يكون هو المراد.

والحقّ أنّ هذا الجواب عن هذا الفاضل تكلّف والأولى ما ذكره

١ـ المائدة: ٥

١ـ سورة الأنعام: ١٤٥.

الطبرسيّ بأن حمله على التفصيل من لسان الرّسول والوحي الغير المتلوّ كما أشرنا إليه.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلّا ما خفتم على نفوسكم الهلاك من الجوع إذا تركتم الأكل منه فحينئذ يجوز لكم تناوله وإن كان ممّا حرّمه اللّه، واختلف في مقدار ما يسوغ أكله عند الاضطرار فعندنا الإماميّة لا يجوز إلّا ما يمسك به الرمق وقال قوم: يجوز أن يشبع المضطرّ منها وأن يحمل منها حتّى يجد ما يأكل. قال الجبّائيّ: إنّ في هذه الآية دلالة على أنّ ما يكره على أكله من هذه الأجناس يجوز أكله لأنّ المكره يخاف على نفسه مثل المضطرّ[1]، والاستثناء في الآية متّصل والمستثنى منه ما حرّم و«ما» مصدريّة بمعنى المدّة لكن إن جعلت «ما» موصوله تعيّن أن يكون الاستثناء منقطعاً لأنّ ما اضطرّ إليه حلال فلا يدخل تحت ما حرّم عليهم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الكفّار ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ النّاس ﴿بِأَهْوَائِهِم﴾ وبما تهوي أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مقتبس من الشريعة الشريفة مستنداً إلى الوحي ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ المتجاوزين الحقّ إلى الباطل والحلال إلى الحرام.

قال الطبرسيّ: إنّ في هذه الآية وهي ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ﴾ دلالة على وجوب التسمية على الذبيحة، وعلى أنّ ذبائح الكفّار لا يجوز أكلها لأنّهم لا يسمّون اللّه تعالى عليها وأنّ من سمّى عليها منهم لا يعتقد وجوب ذلك حقيقة لأنّ الّذي يسمّي هو الّذي يؤيّد شرع موسى وعيسى ومخالف لشريعة يجب فيها التسمية فإذا لا يذكر اللّه حقيقة.[1]

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٤٨؛ والتبيان، ج ٤، ص ٢٥٤؛ وفقه القرآن، ج ٢، ص ٢٦٦.

١ـ المصدر السابق نفسه.

﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: اتركوا ايّها المؤمنون الإثم الظاهر والإثم الباطن، من إضافة الصفة إلى الموصوف والمراد من الإثم المعاصي كلّها لأنّها لا تخلو من هذين الوجهين فيدخل فيه ما يعلن ويستسرّ سواء كان من أفعال القلوب أو الجوارح فأفعال الجوارح ظاهرة كالأقوال والأفعال، وأعمال القلوب باطنة كالعقائد الفاسدة والعزائم الباطلة المورثة للفساد في العالم.

وقيل: المراد من ﴿ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ هو الزناء ومن ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ اتّخاذ الأخدان عن السدّيّ والضحّاك. وقيل: المراد من ﴿ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ امرأة الأب ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ الزناء عن سعيد بن جبير. وقيل: إنّ أهل الجاهليّة كانت ترى أنّ الزناء إذا ظهر كان فيه الإثم وإذا استسرّ به صاحبه لم يكن إثما، عن الضحّاك. قال الطبرسيّ: والأصحّ هو الأوّل لأنّه يعمّ الجميع.(١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ ويعملون المعاصي الّتي فيها الآثام ويرتكبون القبائح ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ ويعاقبون ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ ويكسبونه والآية صريحة بأنّ كسب العبد من القبائح فعل أحدثه العبد، ولهذا يعاقب عليها فلو كان بتخليق الله وجعله سبحانه في العبد فالعقوبة من البريء قبيحة فثبت بطلان مذهب الجبر.

وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

أكّد سبحانه ما تقدّم بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: إنّ أكل ما لم يسمّ عليه خروج من حكم الله وهذا الحكم جار

١ـ تفسير مجمع البيان، ج٤، ص ١٤٩.

في ذبائح الكفّار أهل الكتاب وغيرهم قال الطبرسيّ: من سمّى منهم ومن لم يسمّ لأنّهم لا يعرفون الله فلا يصحّ منهم التسمية إن وقعت وإن لم تقع فبطريق أولى كما أشرنا إليه سابقاً.

وأمّا ذبيحة المسلم إذا لم يسمّ الله عليها فقد اختلف في ذلك فقيل: لا يحل أكلها سواء ترك التسمية عمداً أو نسياناً، عن مالك وداود والحسن وابن سيرين والجبّائيّ. وقيل: يحلّ أكلها في الحالين والدليل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «**ذكر الله مع المسلم سواء قال أو لم يقل**»، عن الشافعيّ.

وقيل: يحلّ أكلها إذا ترك التسمية ناسيا بعد أن يكون معتقداً بوجوبها، ومحرّم أكلها إذا تركها متعمّداً، عن أبي حنيفة وأصحابه. قال الطَبرسيّ وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام. قال الرّازيّ في «المفاتيح»: الأولى بالمسلم أن يحترز عنه لأنّ ظاهر هذا النصّ قويّ.[1]

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ أي: إبليس وجنوده وقيل: يعني بهم علماء الكافرين ورؤساهم المتمرّدين في كفرهم ليؤمنون ويشيرون إلى الّذين اتّبعوهم من الكفّار يوسوسون إلى المشركين، والوحي إلقاء المعنى إلى النفس مع الخفية. ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ في استحلال الميتة بقولهم: قتيل الله أولى بالأكل من قتيلكم! فهذه مجادلتهم. وقال عكرمة: إنّ قوماً من علماء مجوس فارس كتبوا إلى مشركي قريش ـ وكانوا أولياءهم في الجاهليّة ـ: إنّ محمّداً وأصحابه يزعمون أنّهم يتّبعون أمر الله ثمّ يزعمون أنّ ما ذبحوه حلال وما قتله الله حرام، فوقع هذا الكلام في نفوس المشركين فذلك إيحاؤهم إليهم لكن قال ابن عبّاس: المراد في الآية شياطين الجنّ يوحون إلى أوليائهم من الإنس بإلقاء الوسوسة والمناقشات.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٦٩.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون فيما يقولونه من استحلال الميتة وغيره ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ضرورة أنّ من استحلّ حراماً بيّناً فهو كافر بالإجماع لأنّه اختار طاعة غير الله وترك طاعته عمداً واتّبع ديناً غير دين الله وآثر به تعالى بل آثره عليه تعالى.

لكن عطاء الخراسانيّ قال في الآية: إنّه مختصّ بذبائح العرب الّتي كانت تذبحها للأوثان وفي الحديث: «**إنّ الشيطان يستقلّ الطعام إلّا بذكر اسم الله عليه فاللّعين يشارك الآكل إذا لم يسمّ ومن ينسى التسمية في أوّل الطّعام فمتى ما ذكر فيقول: بسم الله أوّله وآخره فإذا قال ذلك فقد تدارك تقصيره**». في الحديث: «**كان رجل يأكل فلم يسمّ حتّى لم يبق من طعامه إلّا لقمة فلمّا رفعها إلى فيه قال بسم الله أوّله وآخره فضحك النبيّ ﷺ ثمّ قال: ما زال الشيطان يأكل معه فلمّا ذكر اسم الله استقاء ما في بطنه**». وهذا الحديث يدلّ على أنّ الشيطان يأكل بمضغ وبلع كما ذهب إليه قوم.

وقال آخرون: أكل الشيطان صحيح لكنّه تشمّم واسترواح وإنّما المضغ والبلع لذوي الجثث، والشياطين أجسام رقاق. وفي أكام المرجان قال: كلّما لم يسمّ عليه من طعام أو شراب أو لباس أو غير ذلك ممّا ينتفع به فللشيطان فيه تصرّف واستعمال إمّا بإتلاف عينه كالطعام وإمّا بقاء عينه. وفي الحديث: «**إنّ الشيطان حسّاس لحّاس فاحذروه على أنفسكم فمن بات وفي يده شيء فأصابه شيء فلا يلومنّ إلّا نفسه**».

وقال بعضهم: إنّما وجبت التسمية عند الذبح لأنّ مرارة النّزع والذّبح شديدة وذكر اسم الله أحلى من كلّ شيء فأمرنا بالتسمية عند الذّبح كي تسمع الشاة والمذبوح ذكر الله عند الموت فلا تشتدّ مرارة النّزع مع حلاوة ذكر الله، كما قال ﷺ: «**لقّنوا موتاكم بشهادة أن لا إله إلّا الله يسهّل عليكم**

سكرات الموت»[1]، ولمّا كان الإحياء والإماتة من الله لم يجز أن يذبح باسم غيره.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

سبب النزول: قيل: إنّ قوله تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ نزلت في حمزة بن عبد المطّلب وأبي جهل بن هشام المخزوميّ، وذلك أنّ أبا جهل رمى النبيّ ﷺ بفرث، فأخبر حمزة بما فعل وهو راجع من الصيد وبيده قوس، وكان يومئذ لم يؤمن فلقي في طريقه أبا جهل فضرب رأسه بالقوس فقال أبو جهل: أما ترى ما جاء به؟ سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا فقال حمزة: وأنتم أسفه الناس تعبدون الحجارة من دون الله تعالى، أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله، فنزلت الآية.

والهمزة للإنكار والنفي، والواو لعطف الجملة الاسميّة على مثلها الّذي يدلّ عليه الكلام، والتقدير: أنتم أيّها المؤمنون مثل المشركين ومن كان ميّتاً، فمثّل سبحانه الفريقين.

أي: كان كافراً ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بأن هديناه إلى الإيمان. شبّه الكفر بالموت والإيمان بالحياة فبيّن أنّ المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميّتاً فجعل حيّاً بعد ذلك وجعل له نوراً يهتدي به، وأنّ الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها لا خلاص له منها فيكون متحيّراً على الدّوام.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ وذلك مثل حال المؤمن، وليس

١ـ وبه ورد روايات كثيرة أورد عدة منها في فروع الكافي، ج ١، ص٣٤ـ٣٥، باب تلقين الميت.

من كان أمره هكذا ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ فسمّى الإيمان والحكمة والعلم نوراً والكفر والجهل ظلمة، وقال: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ولم يقل: كمن هو في الظلمات وذكره بلفظ المثل إشعاراً بأنّه بلغ في الحيرة والكفر غاية يضرب به المثل فيها.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ شبّه سبحانه حال هؤلاء في التزيين بحال أولئك فيه كقوله: ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ والمعنى: زيّن لهؤلاء الكفر فعلموه، مثل ما زيّن لأولئك الإيمان فعملوه. قال الحسن: زيّنه والله لهم الشيطان وأنفسهم. قال الطبرسيّ: وقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ لا يقتضي مزيّناً غيرهم لأنّه بمنزلة قوله: ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ و﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ تقول العرب: أعجب فلان بنفسه وأولع كذا، ومثله كثير.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ﴾ أي: مثل ذلك الّذى قصصنا عليك ـ من قوله زيّن للكافرين عملهم ـ صيّرنا في كلّ قرية أكابر ﴿مُجۡرِمِيهَا﴾ أو كما صيّرنا في مكّة صناديدها ﴿لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا﴾ كذلك جعلنا في كلّ قرية أكابر مجرميها، والأكابر جمع الأكبر.[1]

قال الرازيّ: والآية على التّقديم والتّأخير، تقديره جعلنا مجرميها أكابر، ولا يجوز أن يكون الأكابر مضافة فإنّه لا يتمّ المعنى.[1] ولأنّك إذا أضفت الأكابر فقد أضيفت الصفة إلى الموصوف وذلك لا يجوز عنه البصريين.

قالت الأشاعرة: إنّما جعلهم بهذه الصّفة لأنّه أراد منهم أن يمكروا بالنّاس فهو دليل على أنّ الخير والشرّ بإرادة الله، وليس الأمر على ما قالوه لثبوت الظلم في حقّه تعالى، تعالى الله عن الظلم وعن إرادة القبيح بل اللّام

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٥٢.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٧٤.

لام العاقبة ولام الصيرورة كما في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] وكقول الشاعر: فللموت ما تلد الوالدة.

قال الجبّائيّ: لا شكّ أنّ اللّام في مثل هذه الموارد لام العاقبة.

قالت المعتزلة: لمّا لم يمنعهم عن المكر صار شبيهاً بما إذا أراد ذلك فجاء الكلام على سبيل التشبيه.[2]

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ والآية صريحة بأنّهم الماكرون ووقع الفعل بإرادتهم واختيارهم فبطل الجبر، وما يشعرون لأنّ عقاب ذلك المكر يحلّ بهم وقد مكروا بأنفسهم ولا شكّ أنّ قوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ مذكور في معرض التهديد والزّجر فلو كان ما قبل هذه يدلّ على أنّه أراد منهم أن يمكروا بالناس فكيف يليق بالرّحيم الكريم الحكيم العادل أن يريد منهم المكر ويخلق فيهم المكر ثمّ يهدّدهم عليه ويعاقبهم أشدّ العقاب؟

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

سبب النزول: قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، قال: والله لو كانت النبوّة حقّاً لكنت أولى بها منك يا محمّد لأنّي أكبر سنّاً وأكثر مالاً. وقيل: نزلت في أبي جهل قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتّى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيّ يوحى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتّبعه أبدا إلّا أنّ يأتينا وحي كما يأتيه، عن مقاتل.

المعنى: حكى سبحانه عن الأكابر الّذين تقدم ذكرهم اقتراحاتهم الباطلة

ـــــــــــــــ

١ـ سورة القصص: ١٨.

٢ـ تفسير الرازي، ج١٣، ص١٧٤.

فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ أي: دلالة معجزة من عند الله يدلّ على توحيده وصدق محمّد صلى الله عليه وآله ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾ ولن نصدّق بها ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ﴾ أي: نعطى آية معجزة ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ﴾ وأعطي ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ حسداً منهم للنبي صلى الله عليه وآله.

أقول: ورأيت في بعض المجامع أنّ ما بين الجلالتين من هذه السورة من المواضع الّتي يرجى فيها استجابة الدّعاء فليحافظ عليه[1].

ثمّ أخبر سبحانه على وجه الإنكار عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أنّه أعلم منهم ومن جميع الخلق بمن يصلح للرسالة ويتعلّق مصالح الخلق ببعثه ومن هو قابل بأن يقوم بأعباء الرسالة ومن لا يقوم بها فيجعلها عند من يقوم بأدائها ويحتمل ما يلحقه من الأذى والمشقّة على تبليغها فللرسالة موضع مخصوص لا يصلح وضعها إلّا فيه، والعالم بتلك الصّفات ليس إلّا الله تعالى. والنفوس والأرواح قيل: متساوية في تمام الماهيّة، وحصول النبوّة والرسالة لبعضها دون البعض تشريف من الله وتفضيل لكنّ المحقّقون قالوا: إنّ النفوس البشريّة مختلفة بجواهرها وماهيّاتها، فبعضها خيرة طاهرة من علائق الجسمانيّات مشرقة بالأنوار الإلهيّة، منوّرة، وبعضها خسيسة كدرة محبّة للجسمانيّات، والنّفس ما لم تكن من القسم الأوّل لم تصلح لقبول الوحي والرسالة ثمّ إنّ القسم الأوّل يقع الاختلاف فيه بالزّيادة والنقصان والقوّة والضعف إلى مراتب لا نهاية لها فلا جرم كانت مراتب الرسل مختلفة فمنهم من حصلت له المعجزات القويّة والتّبع القليل، ومنهم من حصلت له معجزة واحدة أو اثنتان وحصل له تبع عظيم، ومنهم من كان الرّفق غالباً عليه، ومنهم من كان التشديد غالباً عليه

١ـ مراده: «الله» في رسل الله والله أعلم.

بحسب مصالح العامّة.

ثمّ بيّن وهدّد سبحانه الماكرين والمنقطعين إلى الكفر الّذين سبق ذكرهم فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ﴾ وينالهم من الله ذلّ وهوان وإن كانوا في الدنيا أكابر وهذا الذّل والهوان معدّ لهم في الآخرة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ في الدنيا جزاء على كفرهم ومكرهم فإنّ الجزاء يقابل المعصية تقابل التضادّ فإنّهم لمّا تمرّدوا عن طاعة محمّد استنكافاً وطلباً للعزّ والكرامة فاللّه قابلهم بضدّ مطلوبهم فأوّل ما يوصل إليهم الصّغار والذلّ في القيامة.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (١٢٥)

لما تقدّم ذكر المؤمنين والكافرين بيّن عقيبه ما يفعل بكلّ من القبيلتين ما يستحقّون من اختيارهم فقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ ويثبّته على الهدى ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾ جزاء له على إيمانه واهتدائه. وقد يطلق لفظ الهدى والمراد به الاستدامة كما في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أو المعنى: من يرد اللّه أن يهديه إلى الثواب والجنّة يشرح صدره للإسلام في الدنيا بأن يثبّت عزمه عليه ويقوّي دواعيه على التمسّك به ويزيل عن قلبه وساوس الشيطان وما يعرض في القلوب من الخواطر الفاسدة، وإنّما يفعل ذلك منّاً عليه وثواباً على اهتدائه نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[1] ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾[2] وهذا المعنى أيضاً قريب من المعنى الأوّل.

وقد وردت الرّواية الصّحيحة أنّه لمّا نزلت هذه الآية سئل رسول

١ـ سورة محمد: ١٧.

٢ـ سورة مريم: ٧٦.

اللهﷺ عن شرح الصّدر ما هو؟ فقال: «**نور يقذفه الله في قلب المؤمن فيشرح له صدره وينفسخ**» قالوا: فهل لذلك إمارة يعرف بها؟ قالﷺ: «**نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت**».

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أي: يخذله بسبب اختياره الكفر ويخلّي بينه وبين ما يريده ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ بأن يمنعه ألطاف شرح الصّدر لخروجه عن قبول الإيمان جزاء على سوء اختياره من غير أن يمنعه عن الإيمان أو يريد منه الكفر أو يخلق فيه الكفر كما زعمت الأشاعرة، فإنّهم استدلّوا بظاهر الآية على ثبوت مدّعاهم الفاسد واعتمادهم في إثبات العلم والدّاعية، وقالوا: إنّهما يوجبان الفعل وليس كذلك، نعم الداعي من معدّات الفعل لكن في الدّاعي لم لا يقولون من العبد؟ وداعيتهم ميلهم إلى هذا الأمر الشنيع، وذلك الميل واختيار السوء يوجب إتيان الفعل كميل السارق إلى السّرقة لميله إلى المسروق به طمعاً في استدراكه، وكيف يكون أن يخلق فيهم داعية الكفر ويريد منهم وقوعه ويأمرهم بضدّه وهو الإيمان؟ فإنّه متى ما خلق فيهم أمراً وشاء وأراد وقوع ذلك الأمر لن يقع غيره البتّة فحينئذ كيف يجوز عقاب فعل يقع من فاعل لا يتمكّن أن يفعل غير ذلك الفعل فحينئذ إمّا أن يقول: إنّ الكافر غير معاقب البتّة، وإمّا أن يقول: إنّ الله قد أمر بما لا يطاق ولا يتمكّن، وهو أقبح أقسام الظلم، تعالى عن ذلك.

و أمّا مسألة العلم فذلك أيضاً ليس من موجبات الفعل لأنّ العلم بأنّ القاضي مثلاً يضحك ويلاعب امرأته فهل ذلك العلم من موجبات ضحك القاضي؟ فكذلك علمه تعالى فإنّه لمّا سبق علمه المعلوم وعلم أنّ المعلوم

سيكون كتب: كان، فمثل هذا العلم كيف يكون من موجبات الفعل؟.

قالت المعتزلة: إنّ ما تمسّكت به الأشاعرة في هذه الآية ليس بدليل لهم، وليس معنى الآية أنّه تعالى أضلّ قوماً أو يضلّهم لأنّه ليس فيها من إنّه متى ما أراد أن يهدي إنساناً فعل به كيت وكيت، وإذا أراد إضلاله فعل به كيت وكيت، وليس في الآية أنّه تعالى يريد ذلك أولاً يريده، والدّليل عليه أنّه تعالى قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1] فبيّن أنّه يفعل اللّهو لو أراده ولا خلاف أنّه تعالى لا يريد ذلك ولا يفعله.

ثمّ إنّه تعالى لم يقل: ومن يرد أن يضلّه عن الإيمان، بل قال: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ فلم قلتم: إنّ المراد: ومن يرد أن يضلّه عن الإيمان؟ وقد بيّن سبحانه في آخر الآية أنّه إنّما يفعل هذا الفعل بهذا الكافر جزاء على كفره وأنّه ليس ذلك على سبيل الابتداء فإنّه قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فثبت بطلان الجبر. وتفسير الآية وهو الّذي اختاره الجبّائيّ والقاضي عبد الجبّار وأبطال المعتزلة وجمهور الإماميّة أنّ من يرد الله أن يهديه يوم القيامة إلى طريق الجنّة بسبب حسن قبوله يشرح صدره للإسلام حتّى يثبت عليه ولا يزول عنه ثواباً على قبولهم الطّاعة.

وتفسير هذا الشرح في الصّدر هو أنّه يفعل به ألطافاً يدعوه إلى البقاء على الإيمان والثبات عليه، وهذه الألطاف إنّما تقع منه تعالى للمؤمن بعد أن صار مؤمنا كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.[2]

١ـ سورة الأنبياء: ١٧.

١ـ سورة التغابن: ١١.

٢ـ سورة العنكبوت: ٦٩.

فأمّا إذا كفر وعاند وأراد الله أن يضلّه عن طريق الجنّة فعند ذلك يلقي في صدره الضّيق والحرج فالعبد بسبب هذه الدرجة من قبول الإيمان وجد انشراح الصدر، والكافر بسبب هذه الدركة من قبول الكفر واختيار الكفر على الإيمان وجد هذا الضيق والحرج والبأس من غير أن يكون سبحانه مانعاً له عن الإيمان وسالباً إيّاه عن القدرة على الإيمان، وكيف يجوز ذلك وقد ذمّ الله تعالى فرعون والسامريّ على إضلالهما عن دين الهدى؟ فقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾[٢] فكيف ينسب إليه تعالى ما ذمّ عليه غيره؟.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إنّ هذا الكافر إذا دعي إلى الإسلام كأنّه مكلّف بصعود السماء. وقيل: المعنى: كأنّهما ينزع قلبه إلى السماء لشدّة المشقّة عليه من مفارقة مذهبه الباطل بسبب ذلك الضّيق والحرج.

قال الزجّاج: «الحرج» في اللّغة أضيق الضيق، وقُرِأ «حَرِجاً» بكسر الرّاء فمن قال: «حرج» بفتح الراء معناه: ذو حرج[٣] و«الحرج» بكسر الراء نهاية الضيق وبالفتح جمع «حرجة» وهو الموضع الكثير الأشجار الّذي لا تناله الراعية، المشتبك الّذي لا طريق فيه لأحد. شبّه سبحانه قلب الكافر بهذا الموضع الّذي لا ينتفع أحد منه، ولا طريق فيه، كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير بكفره.

وأمّا قوله: «يَصَّعَّدُ» فقرء «يصّاعد» بالألف وتشديد الصاد بمعنى يتصاعد، والمشهور «يَصَّعَّدُ» بتشديد الصاد والعين بغير ألف. وقرء «يصعد»

١ـ سورة طه: ٥١.

٢ـ سورة طه: ٨٧.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٨٣؛ وتفسير القرطبي، ج ٧، ص ٨٢؛ ولسان العرب، ج ٢، ص ٢٣٤.

قرأه ابن كثير فهي من الصعود، وبالجملة ففي كيفيّة هذا التشبيه وجهان:

الأوّل: كما أنّ الإنسان إذا كلّف الصعود إلى السماء ثقل ذلك التكليف عليه كذلك الكافر يثقل عليه الإيمان.

والوجه الثاني: أن يكون التقدير أنّ قلب الكافر ينبوعن الإيمان ويتباعد عنه فشبّه ذلك البعد ببعد من يصعد من الأرض إلى السماء.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ و«الرّجْس» العذاب وقيل: «الرّجْس» ما لا خير فيه، عن مجاهد. ووجه التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ أنّه يجعل الرجس على هؤلاء كما يجعل ضيق الصدر في قلوب أولئك فإنّ كلّ ذلك على وجه العقوبة والاستحقاق ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بسبب عدم إيمانهم.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

أشار سبحانه إلى ما تقدّم من البيان وهذا طريق ربّك وهو القرآن، عن ابن مسعود، والإسلام عن ابن عبّاس، وأضافه إلى نفسه، لأنّه تعالى أرشد إليه ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا اعوجاج فيه، وإنّما وصف الصراط الّذي هو أدلّة بالحقّ بالاستقامة مع اختلاف وجود الأدلّة وتعدّدها؟ لأنّها مع كثرتها واختلافها تؤدّي إلى الحقّ، فكأنّها طريق واحد مع أنّها متعدّدة، لسلامة جميع الأدلّة من التناقض والفساد، وإنّما سمّاه صراطاً لأنّ العلم به يؤدّي إلى التوحيد والسعادة وقيل: الإشارة في الآية بقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ يريد هذا الّذي أنت عليه يا محمّد دين ربّك مستقيماً، وتفضيل الآيات معناه ذكرها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر مشروحاً ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ وأصله يتذكّرون، خصّ المتذكّرين لأنّهم المنتفعون بالحجج دون غيرهم.

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: للمتذكّرين والّذين عرفوا الحقّ دار السلامة الدائمة الخالصة من كلّ آفة وبليّة يلقاه أهل النار. وقيل: إنّ السلام هو اللّه، وداره الجنّة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والمراد من العنديّة القرب في المكانة لا المكان.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ يعني: أنّ اللّه سبحانه يتولّى إيصال المنافع إليهم ودفع المضارّ عنهم وناصرهم. وقيل: يتولّاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات فحذف لظهور المعنى، فإنّ من المعلوم أنّ ما لا يكون طاعة من الأعمال فلا ثواب عليه ومعلوم أنّ الإطاعة للعبد كالإكسير الأعظم وبها يبلغ العبد إلى المقام العالي، والمخالفة سمّ نقيع وبها يقع إلى الدرك السافل.

كما حكي عن بعض الصالحين من شيوخ اليمن أنه خرج يوماً من زبيد إلى نحو الساحل المعروف بالأهواز ومعه تلميذه، فمرّ في طريقه على قصب ذرّة كبّار جبار، فقال الشيخ لتلميذه: خذ معك من هذا القصب ففعل التلميذ وتعجّب في نفسه وقال:

ما مراد الشيخ بهذا؟ ولم يقل الشيخ شيئاً حتّى إذا بلغ إلى محلّة للعبيد يقال لهم «السناكم» يأكلون الميتات ويشربون الخمور ولا يعرفون الصلاة وإذا بهم يشربون ويلعبون ويلهون ويغنّون ويضربون بالدفوف فقال الشيخ للتلميذ: ايتني بهذا الشيخ الطويل الّذي يضرب الطبل، فأتاه التلميذ، وقال: أجب هذا الشيخ، فرمى الطبل من رقبته ومشى معه إلى الشيخ، فلمّا وقف بين يديه قال الشيخ للتلميذ: اضرب هذا الرجل فضربه حتّى استوفى منه الحدّ ولم ينكر وما تأوّه، ثمّ قال له الشيخ: امش قدّ أمنا فمشى حتّى بلغوا البحر فأمره الشيخ أن يغتسل ويغسل ثيابه وعلّمه كيفيّة الصلاة والتطهير، وتقدّم الشيخ فصلّى بهما الظهر، وظهر من حالات الشيخ الأسود الطبّال في ساعة واحدة كيفيّة ومعرفة لم يظهر من التلميذ ولا من شيخه هذه السنين المتطاولة

فعلى الغافل التسليم لأوامره تعالى وترك المخالفة يصل إلى مقام العنديّة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

واذكر يا محمّد لأهل مكّة وغيرهم يوم يحشر الله الثقلين جميعاً ويجمعهم في الموقف.

وقرئ بالنون، وقيل: يريد الكفّار يقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: يا جماعة الجن ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: أضللتم خلقاً كثيراً من الإنس، وسمّيت الجماعة بالمعشر لبلوغها غاية الكثرة فإنّ العشر هو العدد الكامل الكثير الّذي لا عدد بعده إلّا بتركيبه بما فيه من الآحاد فتقول: أحد عشر وهكذا فالعدد كلّما كثر فهو يتركّب من العشر: فإذا قيل: معشر فالمراد هو الكثرة الكاملة.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ أي: أولياء الشياطين الّذين أطاعوهم ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فهو حال من ﴿أَوْلِيَآؤُهُم﴾: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الإنس بالجنّ والجنّ بالإنس، أمّا انتفاع الإنس بالجنّ فمن حيث إنّ الجنّ كانوا يدلّونهم بالوسوسة على أنواع الشهوات وما يستلذّون به من إغوائهم، وأمّا انتفاع الجنّ بالإنس فمن حيث لم يضيّعوا سعيهم، والرئيس المطاع ينتفع بانقياد أتباعه له وحصول مراده.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: أدركنا الوقت الّذي وقّتَ لنا وهو يوم القيامة، قالوه اعترافاً بما فعلوا من اتّباع الشيطان والهوى وتكذيب البعث وإظهارا للنّدامة واستسلاماً لربّهم، ولعلّ الاقتصار على حكاية كلام الضالّين للإيذان بأنّ المضلّين قد أفحموا بالمرّة فلم يقدروا على التكلّم أصلا.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ فقيل: قال: النار منزلكم ومحلّ إقامتكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ قال ابن عبّاس: الخلق أربعة فخلق في الجنّة كلّهم وهم الملائكة، وخلق في النّار كلّهم فهم الشياطين وخلقان في الجنّة والنار وهما الإنس والجنّ لهم الثواب وعليهم العقاب.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: في معنى هذا الاستثناء أقوال:

أحدها: ما روي عن ابن عبّاس أنّه قال: كان وعيد الكفّار مبهماً غير مقطوعاً به ثمّ قطع به لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.[1]

وثانيها: أن الاستثناء إنّما هو من يوم القيامة لأنّ قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ هو يوم القيامة فقال: خالدين فيها مذ يوم يبعثون إلّا ما شاء من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدّتهم في محاسبتهم، ومكثهم في الموقف وكما ينتقص من الآخر كذلك ينتقص من الأوّل، عن الزجّاج.

وثالثها: أنّ الاستثناء راجع إلى غير الكفّار من عصاة المسلمين الّذين هم في مشيئة اللّه تعالى إن شاء الله عذّبهم بذنوبهم بقدر استحقاقهم عدلاً وإن شاء عفا عنهم فضلاً.

ورابعها: أنّ معناه إلّا ما شاء اللّه ممّن آمن منهم، عن عطاء، وقيل: المراد من الاستثناء أوقات مشيئة اللّه أن ينقلوا من النار إلى الزمهرير، فقد روي أنّهم ينقلون من عذاب النار ويدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميّز أوصالهم بعضاً من بعض فيعاوون ويطلبون الردّ إلى الجحيم، ففي الاستثناء تهكّم بهم. وفي تفسير الجلالين: إلّا ما شاء اللّه من الأوقات الّتي يخرجون فيها لشرب من حميم فإنّه خارجها كما قال اللّه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾.[1]

١ـ سورة النساء: ١١٦.

١ـ سورة الصافات: ٦٨.

وقيل: يفتح لهم وهم في النار باب إلى الجنّة فيسرعون نحوه حتّى إذا قربوا إليه سدّ عليهم الباب.

وأمّا ما قاله بعض الحكماء من أنّ أهل النار بعد عذاب أحقاب من الزمان وبعد إحراقهم النار خمسين ألف من سنة من سني الآخرة لشرك يوم واحد من أيّام الدّنيا إلى أن ينتهي حساب عمره الّذي عاش في الدّنيا، ثمّ بعد ذلك يعتادون بالعذاب ولم يتألّموا ويؤول أمرهم إلى أن يستلذّوا به حتّى لو صبّ عليهم نسيم الجنّة استكرهوه وتعذّبوا به كالجعل يستطيب الروث فهذا القول بمعرض عن القبول، وتكذيب للقرآن والسنّة، وكفر وإلحاد أجارنا اللّه منه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ محكم لأفعاله عليم بكلّ شيء وبمن يستحقّ الثواب وبمن يستحقّ العذاب وبمقدار ما يستحقّه. فكأنّ المعنى: إنّما حكمت لهؤلاء الكفّار بعذاب الأبد لعلمي أنّهم يستحقّون ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: كما خذلنا عصاة الجنّ والإنس حتّى استمتع بعضهم ببعض بسبب سوء اختيارهم وشركهم جزاء لهم نولّي بعض الظالمين بعضا نخلّي بعضهم مع بعض للامتحان الّذي معه يصحّ الجزاء، وتولينا بأن لا نمنعهم عمّا يفعلون من الظّلم والأفعال القبيحة بطريق القهر. قال علي بن عيسى: نجعل بعضهم يتولّى أمر بعض للعقاب الّذي يجري على الاستحقاق. وقيل: معنى الآية أنّا كما وكلّنا أمر هؤلاء الظّالمين من الجنّ والإنس بعضهم إلى بعض يوم القيامة فكذلك نكل الظالمين بعضهم إلى بعض ونكل الأتباع إلى المتبوعين ونقول للأتباع: قولوا للمتبوعين حتّى يخلصوكم من العذاب.[1]

١ـ بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٧٢، ص ٣٢٧؛ والتبيان، الشيخ الطوسي ،ج٤، ص ٢٧٥؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤ ،ص ١٦٣.

ولمّا حكى اللّه ما يجري بين الجنّ والإنس من الخصام والجدال يوم القيامة فقال في هذه الآية: وكما فعلنا بأولئك من الجمع بينهم في النّار وتولية بعضهم بعضا نفعل أيضاً مثله بالظالمين في تولية بعضهم بعضاً جزاء على كفرهم وأعمالهم القبيحة.

قال ابن عبّاس: (إذا أراد اللّه بقوم خيراً ولّى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم عذاباً وشرّاً لاستحقاقهم ولّى أمرهم شرارهم).[1]

وجاء في بعض الكتب الإلهيّة: إنّي أنا اللّه ملك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن عصاني جعلتهم عليهم نقمة ومن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة فلا تشتغلوا بسبّ الملوك ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم.

وفي «روح البيان» وفي الحديث: **«الظّالم عدل اللّه في الأرض ينتقم به ثمّ ينتقم منه»**. وفي المرفوع: يقول اللّه: **«أنتقم ممّن أبغض بمن أبغض، ثمّ أصيّر كلاً إلى النّار»**، وفي الزّبور: (**إنّي لأنتقم من المنافق بالمنافق، ثمّ أنتقم من المنافقين جميعاً**).

فإن قيل: كيف يجوز وصفه بالظلم وينسب إلى أنّه عدل من اللّه؟ فالجواب أنّ المراد بالعدل هنا ما يقابل بالفضل، فالعدل أن يعامل كلّ أحد بفعله: إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، هذا على طريق أهل السنّة، وأمّا على طريق المعتزلة فإنّهم يوجبون عقوبة المسيء وهو عين العدل.

وقيل: معنى قوله: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نتابع بعضهم بعضاً في النار من الموالات الّتي هي المتابعة، أي: يدخل بعضهم النّار عقيب بعض، عن قتادة.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوا من الظّلم.

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٦٣؛ وبحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٢، ص ٣٢٧؛ وتفسير الثعلبي، ج ٤، ص ١٩١.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ (١٣١) وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ (١٣٢)﴾

هذه الآية من بقيّة ما يذكره اللّه في توبيخ الكفّار يوم القيامة وبيّن أنّه لا يكون إلى الجحود سبيل فيشهدون على أنفسهم بأنّهم كانوا كافرين.

يقول اللّه يوم القيامة للثقلين الجنّ والإنس جميعاً: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ في الدنيا ﴿رُسُلٞ﴾ معيّن من اللّه ﴿مِّنكُمۡ﴾ ومن جنسكم، وذلك لأنّ الجنس إلى الجنس أميل كما أنّ جبرئيل ونحوه رسل الملائكة من جنسهم، والاستيناس والاستفادة في الجنسيّة أظهر.

فإن قيل: قد قام الإجماع على أنّ محمّداً ﷺ كان رسولاً إلى الجنّ والإنس ولم يكن ﷺ من الجنّ؟ إنّما بعث الرّسول ثمّ كان يرسل هو إلى الجنّ رسولاً منهم ويستفيد خواصّهم من الرسل فيكونوا رسل الرّسول إلى قومهم، وسليمان أيضاً لم يبعث إلى الجنّ بالرّسالة العامّة بل بالملك والسياسة على بعضهم، ويؤيّد ما قاله ابن عبّاس أنّه ثبت أنّ نفراً من الجن قد استعملوا القرآن وأنذروا به قومهم، كما قال سبحانه:

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾[1] فأولئك الجنّ كانوا رسل الرّسول فكانوا رسلاً للّه تعالى، والدّليل على صحّة هذا القول أنّه تعالى سمّى رسل عيسى رسل نفسه تعالى فقال: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾[2] وهما أرسلهما عيسى.

١ـ سورة الأحقاف: ٢٩.

٢ـ سورة يس: ١٤.

قال الواحدي: قوله ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أراد من أحدكم وهو الإنس، وهو كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[١] أي: من أحدهما وهو الملح الّذي ليس بعذب[٢] فإنّ اللؤلؤ يخرج من الملح لا من العذب قوله: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ و يقرءونها لكمَ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يعني: يوم القيامة يخوّفونكم منها ويخبرونكم عنها. ﴿قَالُوا۟﴾ جواباً عند ذلك التوبيخ الشديد: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ وهو اعتراف منهم بالكفر واستحقاق العذاب و﴿شَهِدْنَا﴾ إنشاء الشهادة مثل بعت واشتريت، ولفظ الماضي في الإنشاء لا يقتضي تقدّم الشهادة.

فإن قيل: كيف أقرّوا في هنا وهذه الآية، وجحدوه في قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٣] فالجواب أنّ مواقف القيامة كثيرة، والأحوال فيها مختلفة فتارة يقرّون من شدّة خوفهم وتارة يجحدون فإن من عظم خوفه كثر الاضطراب في كلامه. ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ كأنّه تعالى يبيّن سبب كفرهم بقوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في الآخرة بالكفر أو يشهد جوارحهم بالشّرك والكفر﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ في الدّنيا﴿كَٰفِرِينَ﴾ بالآيات والنّذر، وهذا البيان تحذير للسّامعين من مثل حالهم حتّى لا يصيرون مثلهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إرسال الرّسل ﴿أَن﴾ اللّام مقدّرة وهي مخفّفة أي: لأنّ الشان ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي: بسبب ظلم أقدموا عليه حتّى يبعث إليهم رسلاً ينبّهونهم ويزجرونهم ولا يؤاخذهم بغته، وهذا إنّما يكون منه تعالى على وجه الاستظهار في الحجّة دون أن يكون

١ـ سورة الرحمن: ١٣.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٩٥.

٣ـ سورة الأنعام: ٢٣.

ذلك واجباً لأنّ ما فعلوه من الظلم قد استحقّوا به العقاب. وقيل: معناه أنّه تعالى لا يهلكهم بظلم منه على غفلة منهم من غير تنبيه وتذكير، عن الجبّائيّ والفرّاء. مثل قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1] وفي هذا دلالة على أنّه منزّه عن خلق الظلم ولو كان الظّلم من خلقه لما صحّ تنزّهه عنه، تعالى اللّه عن الظلم علواً كبيراً. وما قالته الأشاعرة: أنّه تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ولا اعتراض عليه لأحد في شيء من أفعاله كلام تامّ صحيح لكن لا يصدر منه تعالى غير الحسن وهو منزّه عن القبيح والظّلم، وإرادته وخلقه قبيح عقلاً ونصّاً مثل هذه الآية، وكيف يجوز أن ينسب إلى الحكيم الغنيّ القبيح مع أنّه غير مضطرّ إلى القبيح؟ النهاية أنّهم يقولون: لمّا صدر منه تعالى لا يكون قبيحاً وهذه سفسطة. فمن موادّ الخلف بين الأشاعرة والمعتزلة هذا الكلام.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي: ولكلّ من المكلّفين من الثقلين مؤمنين كانوا أو كافرين مراتب كائنة من أعمالهم صالحة كانت أو سيّئة فلأهل الخير درجات في الجنّة بعضها فوق بعض، ولأهل الشّرك والسيّئات دركات في النّار بعضها أشدّ عذاباً من بعض. وفسّر الدرجات بالمراتب لأنّ الدرجات غلب استعمالها في الخير، والكفّار لا درجة ولا ثواب خير لهم. قال الطبرسيّ: عبّر بالدرجات تغليبا لصفة أهل الجنّة.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيخفى عليه عمل عامل طاعة أو معصية.

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

١ـ سورة هود: ١١٧.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝١٣٥﴾

لمّا أمر سبحانه بطاعته عليها بيّن أنه لم يأمر بها لحاجة لأنّه يتعالى عن النّفع والضرر فقال: ﴿وَرَبُّكَ﴾ أي: خالقك وسيّدك ﴿الْغَنِيُّ﴾ عن أعمال عباده ولا يحتاج إلى شيء ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ مترحّم عليهم بالتّكليف تكميلاً لهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها العصاة ويهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ ويجعل ﴿مِن بَعْدِكُم﴾ أحياء من بعد إذهابكم ﴿مَّا يَشَاءُ﴾ أي: خلقاً آخر أطوع لله منكم وإيثار «ما» على كلمة «مَن» لإظهار الكبرياء وإسقاطهم بسبب المعاصي عن رتبة العقلاء.

﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي: كما خلقكم في الأوّل من قوم تقدّموكم وهم أهل سفينة نوح لكنّه أبقاكم ترحّماً عليكم، وهذا خطاب لمن سبق ذكرهم من الجنّ والإنس ويجوز أن يكون المعنى: ويستخلف جنساً آخر أي: كما قدر على إخراج الجنّ من الجنّ والإنس من الإنس فهو قادر على أن يخرج قوماً آخر لا من الجنّ ولا من الإنس، ونبّه سبحانه على أنّ قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق واستدلّ على ذلك بقوله: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم﴾.

ثمّ قال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ أي: مجيء الساعة لأنّهم كانوا ينكرون القيامة، أو المراد أنّ جميع ما وعدوا به من الثواب والعقاب والحساب والجنّة والنّار وتفاوت أهل الدّركات لآت لا محالة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ذلك وإن ركبتم في الهرب متن كلّ صعب وذلول.

وفي قوله: «وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» يفيد الحصر بالبرهان فإنّه تعالى غنيّ في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه من كلّ ما سواه لأنه لو كان محتاجاً لكان مستكملاً بذلك الفعل والمستكمل بغيره ناقص بذاته لأنّ كلّ إيجاب أو سلب يفرض فإن كانت ذاته كافية في تحقّقه وجب دوام ذلك الإيجاب أو ذلك السلب بدوام ذاته، وإن لم يكن كافية فحينئذ يتوقّف حصول تلك الحالة وعدمها على وجود سبب منفصل وعدمه، فذاته لا تنفكّ عن ذلك الثبوت والعدم، وهما موقوفان على وجود ذلك السّبب المنفصل فليزم كون ذاته موقوفة على الغير ممكن لذاته فيكون حينئذ الواجب لذاته ممكناً لذاته وهو محال.

فثبت أنّه غنيّ على الإطلاق، فلا غنيّ إلّا هو، لأنّ واجب الوجود لذاته واحد وما سواه ممكن لذاته، والممكن لذاته محتاج فثبت الحصر بهذا البرهان.

وأمّا إثبات الحصر في كونه تعالى ذو الرّحمة فالدّليل عليه أنّه لا شكّ أنّ ما يدخل في الوجود بإيجاده وتكوينه وتخليقه من الراحات والكرامات والسعادات وغيرها فهو منه، ودلّ الاستقراء على أنّ الخير غالب على الشرّ فإنّ المريض وإن كان كثيراً فالصّحيح أكثر منه، والجائع وإن كان كثيراً فالشبعان أكثر منه، والأعمى وإن كان كثيرا إلّا أنّ البصير أكثر منه فالخير أكثر من الشرّ، ومبدأ تلك الخيرات هو اللّه والواجب لذاته واحد وما سواه ممكن والرّحمة داخلة فيما سواه فإيجادها منه، فثبت صحّة الحصر.

فإن قيل: كيف يمكننا إنكار رحمة الوالدين على الوالد والمولى على العبد وكذلك سائر أنواع الرحمة؟ فالجواب أنّ كلّها من اللّه وهؤلاء وسائط جعلها اللّه لنظام العالم لأنه تعالى ألقى الرّحمة وداعيتها في قلب الوالد والمولى، وبتسخير منه تعالى، ألا ترى أنّ الإنسان قد يكون شديد الغضب قاسي القلب على إنسان، ثمّ بسبب ينقلب رؤوفا عطوفا؟ فانقلابه من الحالة

الأولى إلى الثانية بتسبيبه تعالى.

فمقلّب القلوب هو اللّه في جميع الخيرات فانحصرت الرّحمة به تعالى، على أنّه ذلك الّذي تصوّرت أنّه شرّ مثل المرض والفقر والجوع مثلاً إذا تأمّلت فهو خير أيضا، إمّا للمبتلى به أو بالنسبة إلى صلاح العامّة، ويعوّض المبتلى به سعادة وكرامة إن كان غير مستحقّ للابتلاء، وإن كان مستحقّاً فهو مجازاة والمجازاة أيضا عدل وتفضّل.

ومن المعلوم أنّ كلّ من أعطى غيره شيئاً أو رحمة الوالدة لولدها إنّما يعطي ويرحم لطلب عوض، وهو إمّا الثناء في الدّنيا أو الثواب في الآخرة أو دفع الرقّة الجنسيّة عن القلب لكنّه تعالى يعطي لا لغرض من هذه الأغراض فثبت أنّ الرّحمة وتقليب القلوب منه بالبرهان قطعاً للتسلسل.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لأهل مكّة ومن خالف أمرك: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانة مصدر بمعنى التمكّن وهو القوّة والاقتدار، أي: اعملوا على قدر تمكّنكم ونهاية استطاعتكم، واثبتوا على كفركم وعداوتكم، والأمر للتهديد من قبيل الاستعارة للشرّ المهدّد عليه بالمأمور به الواجب الّذي لابدّ أن يكون، ويحتمل أن يكون المراد من المكانة الحالة الّتي هم ثابتين عليها، وذلك مثل قوله: أثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه.

﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ ما كتب عليّ من المصابرة والثبات على الإسلام والاستمرار على الأعمال الصّالحة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ «من» استفهاميّة أو موصولة أي: أيّنا تكون له العاقبة المحمودة الّتي خلق اللّه تعالى هذه الدار لها؟ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ الضمير للشأن، لا يسعد ولا ينجو ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ مصدر كالعافية، وتأنيثه غير

حقيقيّ فمن أنّث فكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾(١) ومن ذكّر فكقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾(٢) وقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٣) وفي آية اخرى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.(٤)

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)

ثمّ عاد الكلام إلى حجاج المشركين وبيان اعتقاداتهم الفاسدة، فقال سبحانه، أي: جعلوا كفّار مكّة ومن تقدّمهم من المشركين، والجعل هنا بمعنى الحكم ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ وخلق من الزرع ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: المواشي من الإبل والبقر والغنم ﴿نَصِيبًا﴾ وحظاً، وفي الكلام حذف يدلّ عليه الكلام، والتقدير: وجعلوا الأوثان ممّا خلق من الحرث والأنعام نصيبا.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا﴾ النصيب ﴿لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ أي: بادّعائهم الباطل من غير أن يكون ذلك بأمر الله ﴿وَهَٰذَا﴾ النصيب ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾ أي: آلهتنا الّتي شاركونا في أموالنا من المتاجر والزروع والأنعام وهو من الشركة لا من الشرك.

روي أنّهم كانوا يعيّنون شيئاً من الحرث والنتاج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منها لآلهتهم وينفقونه على سدنتها ويذبحونه عند الآلهة، ثمّ إن رأوا ما عيّنوا لله أزكى رجعوا وجعلوا الأزكى لآلهتهم، وإن رأوا

١ـ سورة الحجر: ٧٣ـ٨٣ .

٢ـ سورة هود: ٦٧.

٣ـ سورة يونس: ٥٧ .

٤ـ سورة البقرة: ٢٧٥.

ما لآلهتهم أزكى تركوه لآلهتهم معتذرين بأنّ اللّه غنيّ. وكانوا يزرعون للّه زرعاً وللأوثان فما كان أزكى جعلوه لآلهتهم، وإذا كان زكا الزرع الّذي زرعوه للّه، ولم يزك الزرع الّذي زرعوه للأوثان وفسد جعلوا بعض زرع اللّه للأصنام وإن زكا الزرع الّذي زرعوه للأصنام ولم يزك الزرع الّذي زرعوه للّه لم يجعلوا منه شيئاً للّه أصلا.[1]

وقيل: كانوا إذا تخرّق الماء من الّذي للّه في الّذي للأصنام لم يسدّوه، وإذا تخرّق من الّذي للأصنام في الّذي للّه سدّوه، وقالوا: اللّه أغنى، عن ابن عبّاس وقتادة، وهو المرويّ عن أئمّتنا. وقيل: إذا هلك ما جعل للأصنام بدّلوه بما جعل للّه، وإذا هلك ما جعل للّه لم يبدّلوه بما جعل للأصنام.

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي: ساء الحكم حكمهم من إيثار آلهتهم على اللّه وعملهم بما لم يشرع لهم وفي كيفيّة الإساءة بسبب أنّهم رجّحوا جانب الأصنام في الحفظ والأكثريّة على جانب اللّه، وجعلوا نصيباً للّه ونصيباً لغيره مع أنّه الخالق والمعطي للجميع، وهذا سفه فلو قرر نصب الأصنام، وكان هذا التقرير حسن لحسن إقرار النصب لكلّ حجر ومدر، والمقصود من بيان الآية أن يعرف الناس قلّة عقول القائلين بهذه المذاهب حتّى لا يلتفت إلى كلامهم أحد.

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ﴾

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٦٩؛ وبحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٩، ص ٩٢

أي: كما فعلوا ذلك زيّن لكثير شركاؤهم قتل الأولاد، والمعنى: ذلك التّزيين وهو تزيين الشرك في قسمة الحرث والأنعام للتقريب إلى الله وإلى آلهتهم زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم أولياؤهم من الشياطين أو من السدنة فقوله ﴿قَتْلَ﴾ مفعول ﴿زَيَّنَ﴾ و﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ فاعله فذكر سبحانه قبائح عادات بعضهم من وأد البنات أحياء خوفاً من الفقر أو من التزويج بغير كفو أو من السّبي والمزيّن لهم الحميّة الجاهليّة أو الشّياطين والسّدنة كما ذكرنا.

قيل: إنّ السّبب الأولى في هذه السنّة الملعونة أنّ النعمان بن المنذر أغار على قوم فسبى نساءهم وكانت فيهنّ بنت قيس بن عاصم ثمّ اصطلحوا فأرادت كلّ امرأة منهنّ عشيرتها غير ابنة قيس فاختار سابئها على قيس فحلف قيس أن لا يولد له بنت إلّا وأدها فصار ذلك عادة فيهم ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم واللّام لام العاقبة[1] أو الصّيرورة، أي: ليهلكوهم بالإغواء.

﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: يخلطوا عليهم دينهم بإلقاء البدع والشّبهات فيه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: لو شاء الله أن يمنعهم من ذلك بأن يضطرّهم إلى ترك هذه الأمور لفعل ولكن كان ذلك مناف للتكليف ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: دعهم وافترائهم فإنه يجازيهم، وفي الآية دلالة على أنّ تزيين القتل والقتل فعلهم بصريح الآية وأنّ من أضاف ذلك إلى الله كاذب فاللّام للتعليل إن كان التزيين من الشّياطين وللعاقبة إن كان من السّدنة إذا لم يكن قصد السدنة الإرداء واللّبس، وإذا كان قصدهم الإرداء فالتّزيين من الشياطين ومن السّدنة كليهما.

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٧١؛ وانظر: بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٩، ص ٩٢.

وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

ثمّ حكى سبحانه عن المشركين عقيدة من عقائدهم الفاسدة فقال: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: حرام، وفلان في حجر القاضي أي: في منع القاضي ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ﴾ ولا يذوقها ﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء بزعمهم الباطل، أي: قالوه بزعمهم الفاسد من غير حجة.

﴿وَأَنْعَٰمٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف عطف على قوله: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ﴾ أي: قالوا مشيرين إلى طائفة اخرى من أنعامهم، أي: وهذه أنعام ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامي. ﴿وَأَنْعَٰمٌ﴾ أي: وهذه أنعام لا يذكرون اسم اللّه عليها، كانت لهم من أنعامهم طائفة لا يذكرون اسم اللّه عليها ولا في شيء من شأنها بل كانوا لا يحجّون عليها، وهي الّتي إذا زكوها وذبحوها أهلّوا عليها بأصنامهم فلا يذكرون اسم اللّه عليها.

﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ وكانوا يقولون: إنّ اللّه أمرهم بذلك وكانوا كاذبين ومفترين على اللّه بهذا القول ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ بسبب افترائهم.

وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

ثمّ ذكر سبحانه عن المشركين مقالة اخرى فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني هؤلاء الّذين تقدّم ذكرهم ما في بطون هذه الأنعام يعنون به أجنّة البحائر والسوائب خالصة لذكورنا قيل: المراد ألبانها أيضاً والسّبب ما ولد منها حيّاً

فهو خالص للذّكور دون الإناث، وما ولد ميّتاً أكله الرّجال والنّساء قيل: المراد: كلاهما خالصة لذكورنا لا يشركهم فيها أحد من الإناث وسمّي الذّكور من الذكر الّذي هو الشّرف لأنّ الذّكر أنبه وأعلى وأذكر منه الأنثى ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي: نسائنا وهذا الحكم منهم إن ولد ذلك حيّا.

﴿وَإِن يَكُن﴾ المولود ﴿مَّيْتَةً﴾ يعني ولدت وهي ميتة ﴿فَهُمْ فِيهِ﴾ يعني ما في البطون من الأنعام شركاء يأكلون منه جميع ذكورهم وإناثهم.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: جزاء وصفهم الكذب على اللّه في أمر التّحليل والتحريم ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل للوعد بالجزاء فإنّ الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يترك جزاءهم الّذي من مقتضيات الحكمة.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

جواب قسم مقدّر ﴿خَسِرَ﴾ وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب الّذين جمعوا بين الأمرين من وأد البنات خوف الفقر والعار، وتحريم ما رزقهم اللّه فخسروا دينهم ودنياهم على طريق السّفاهة وعدم العلم والافتراء على اللّه بقولهم: أمرنا اللّه بذلك التحريم.

وكلّ هذه الأمور من موجبات الخسران دنياً وديناً لأنّهم يستحقّون الذمّ والعصم في الدّنيا فلأنّ النّاس يقولون: قتل ولده خوفاً من أن يأكل طعامه وليس ذمّ أشدّ منه وأمّا العقاب في الآخرة فلأنّه لا ظلم أشدّ منه وتخريب بنيان اللّه فكان موجباً لأعظم أنواع العقاب.

ولا شكّ أنّ قتل الولد إذا كان موجبه خوف الفقر، والفقر وإن كان ضرراً إلّا أنّ قتل الولد أعظم ضرراً منه، والقتل ناجز، وذلك الفقر محتمل موهوم فالتزام أعظم المضارّ على سبيل القطع حذراً من ضرر قليل موهوم لا

شكّ أنّه سفاهة والسّفاهة الخفّة المذمومة النّاشئة من الجهل والحماقة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

لمّا حكى سبحانه عن المشركين أنّهم جعلوا بعض الأشياء للأوثان عقّب ذلك لبيان بأنّه الخالق لجميع الأشياء فلا يجوز إضافة شيء منها إلى الأوثان من التحليل والتحريم إلّا بإذنه فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ لإقامة الدلائل على تقرير التّوحيد أي: إنّه سبحانه خلق وأبدع لا على مثال ﴿جَنَّاتٍ﴾ فيها الأشجار المختلفة. ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ أي: مرفوعات بالدعائم وهو ما عرشه الناس من الكروم ونحوها عن ابن عبّاس والسدّيّ: وقيل: عرشها أن تجعل لها حظائر كالحيطان، وأصله الرفع ومنه قوله: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[1] أي: ما ارتفع منها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ يعني: ما خرج من قبل نفسه من الجبال والبراري، أو المراد من غير «مَعْرُوشاتٍ» ما كانت قائمة على أصولها مستغنية عن التعريش. عن أبي مسلم.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ قال ابن عبّاس: الزرع هاهنا جميع الحبوب الّتي يقتات بها ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أي: طعمه وقيل: ثمره، فأنشأ سبحانه هذه الأشياء مختلفة الطّعوم والألوان والصورة، فبعضها مختلفاً في الصورة ومتّفقاً في الطعم وبعضها مختلفاً في الطعم ومتّفقاً في الصورة، وكلّ ذلك يدلّ على توحيده وقدرته على ما يشاء. ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ نصب على الحال من أنشأ، والمعنى مقدّراً اختلاف اكله إذ ليس كذلك وقت الإنشاء أي: أنشأ كلّ واحد

١ـ سورة الحج: ٤٥.

منهما في حال اختلاف ثمره الّذي يؤكل بعد في الطعم والهيئة واللّون، وذلك مثل قولهم: مررت برجل معه صقر صائداً به غدا أي: مقدّراً الصّيد به غداً.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ أي: أنشأهما حال كونهما بعض أفرادهما يتشابه بالبعض وبعضها لا يتشابه مثل الرمّانين لونهما واحد وطعمهما مختلف فأحدهما حلو والآخر حامض.

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ والأمر للإباحة، وفائدة التقييد بقوله: ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إباحة الأكل منه قبل إدراكه وينعه، قال الجبّائيّ وجماعة: هذا يدلّ على جواز الأكل من الثمر وإن كان فيه حقّ الفقراء.

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أمر بإيتاء الحقّ يوم الحصاد على الجملة، والحقّ الّذي يجب إخراجه يوم الحصاد فيه قولان: أحدهما: أنّه الزّكاة، عن ابن عبّاس وجماعة مثل محمّد بن الحنفيّة وزيد بن أسلم والحسن وسعيد بن المسيّب وقتادة والضحّاك وطاوس، والقول الثاني: أنّه ما تيسّر ممّا يعطى المساكين، عن جعفر بن محمّد عن أبيهعليهما السلام وعطاء ومجاهد وابن عمر وسعيد بن جبير والرّبيع بن أنس.

قال الطبرسيّ: وروى أصحابنا أنّه الضغث بعد الضغث والحفنة بعد الحفنة، وقال إبراهيم والسّديّ: الآية منسوخة بفرض العشر ونصف العشر لأن هذه الآية مكيّة وفرض الزكاة مدنيّة، ولمّا روي أنّ الزّكاة نسخ كلّ صدقة، قالوا: ولأنّ الزكاة لا يخرج يوم الحصاد، لكن قال عليّ بن عيسى: وهذا غلط لأنّ «يَوْمَ حَصادِهِ» ظرف لـ «حَقَّهُ» وليس بظرف لإيتاء المأمور به.[1]

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أي: في التّصدّق بأن لا تبقوا لأنفسكم وللعيال شيئاً كما

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٧٨؛ والفقه القرآن، القطب الراوندي، ج١، ص ٢٣٧؛ والتبيان، الشيخ الطوسي، ج ٤، ص٢٩٥.

فعل ثابت بن قيس بن شماس[١] فإنّه صرم خمسين نخلة وتصدّق بالجميع ولم يدخل منه شيئاً في داره لأهله.

وقيل: المعنى: ولا تقصّروا بأن تمنعوا الواجب من الحقّ، قالوا: والتقصير أيضاً سرف، عن سعيد بن المسيّب.

وثالث الأقوال: أن لا تسرفوا في الأكل قبل الحصاد كي لا يؤدّي إلى بخس حقّ الفقراء، عن أبي مسلم.

ورابع الأقوال: أنّه لا تنفقوه في المعصية ولا تضعوه في غير موضعه، وفي جميع هذه الأقوال الخطاب لأرباب الأموال.

وخامس الأقوال: أنّ الخطاب للأئمّة، والمعنى: لا تأخذوا ما يجحف بأرباب الأموال ولا تأخذوا فوق الحقّ، عن ابن زيد.

وسادس الأقوال: أنّ الخطاب للجميع بأن لا يسرف ربّ المال في الإعطاء ولا الإمام في الأخذ وصرف ذلك إلى غير مصارفه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المعنى ظاهر لأنّه تعالى لا يرضى فعلهم، قال الزهريّ المراد من قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ هو المعنى الرابع الّذي ذكر بأنّه لا تنفقوا في معصية اللّه. قال مجاهد: لو كان أبو قبيس ذهباً فأنفقه رجل في طاعة اللّه لم يكن مسرفا ولو أنفق درهماً في معصية اللّه كان مسرفاً، وهذا المعنى أراده حاتم الطائيّ حين قيل له: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير.

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ

١ـ خزرجي، خطيب الأنصار، خطب مقدم رسول اللهﷺ المدينة فقال نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا.شهد أحد وما بعدها من المشاهد قتل يوم اليمامة. راجع: الإصابة، ج ١، ص ١٩٧؛ والاستيعاب، ج ١، ص ١٩٥.

ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا
ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ
ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ
ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

لما ذكر سبحانه كيفيّة إنعامه على عباده بالمنافع النباتيّة أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانيّة فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾ عطف على قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ﴾ أي: وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا، الحمولة ما تحمل الأثقال. الحمولة بفتح الحاء الإبل ولا واحد لها من لفظها كالرّكوبة والحرورة، والحمولة بضمّ الحاء هي الأحمال، والمراد من الفرش ما يفرش للذبح أو المراد ما ينسج من صوفه ووبره وشعره للفرش. و قيل: المراد من الحمولة الكبار الّتي تصلح للحمل والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لأنّها دانية من الأرض بسبب صغر أجرامها.

ثمّ قال: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يريد ما أحلّها لكم، قالت المعتزلة: إنّه تعالى أمر بأكل الرزق ومنع من أكل الحرام ينتج أنّ الرزق ليس بحرام، وتخصيص الأكل بالذكر في الآية من غير تعرّض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك لكونه معظم الانتفاع وإشعار بمنع ما حرّموه في السائبة وأخواتها.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: لا تسلكوا الطريق الّذي سوّلها الشيطان لكم في أمر التحليل والتحريم فإنّه لا يدعوكم إلّا إلى المعصية ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر العداوة وقد أبان عداوته لأبيكم آدم عليه السلام.

ثمّ فسّر سبحانه الحمولة والفرش فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي: وأنشأ

ثمانية أزواج إنشاء و﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بدل من ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ والزّوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه ومعناه ثمانية أفراد لأنّ كلّ واحد من ذلك يسمّى زوجا لأنّه الآخر فالذكر زوج الأنثى والأنثى زوج الذكر، كما قال سبحانه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾[1] وقيل: معناه: ثمانية أصناف.

﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني الذكر والأنثى. والضأن ذوات الصوف من الغنم، وواحد الضأن ضائن والأنثى ضائنة.

﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ الذكر والأنثى والمعز ذوات الشعر من الغنم وواحد المعز ما عز. وقيل المراد بالاثنين: الأهليّ والوحشيّ خصّ هذه الثمانية لأنّها جميع الأنعام الّتي كانوا يحرّمون منها يحرّمونه ويجعلون منها نصيباً لآلهتهم على ما تقدّم شرحه.

﴿قُلْ﴾ يا محمّدﷺ لهؤلاء المشركين الّذين يحرّمون ما أحلّ اللّه: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ومن دينك النوعين وهما الكبش والتيس ﴿حَرَّمَ﴾ اللّه كما تزعمون أنّه هو المحرّم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما وهما النعجة والعنز؟ ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: أم ما حملت إناث النوعين ذكراً كان أو أنثى حرّم؟.

﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ وأخبروني بأمر معلوم من جهة اللّه من أي: كتاب وسنّة جعلتم هذه البدعة القبيحة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى التّحريم؟.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: وأنشأ من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد إفحاماً لهم أيضا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ منهما ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ من ذينك النّوعين؟.

١ـ سورة الأحزاب: ٣٧.

وحاصل المعنى إنكار أنّ اللّه حرّم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة ذكراً وأنثى أو ما يحمل إناثها ردّاً عليهم فإنّهم كانوا يحرّمون ذكور الأنعام كالحام فإنّه إذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرّموه ولم يمنعوه ماء ولا مرعى، وقالوا: قد حمى ظهره، وكالوصيلة فإنّ الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدتهما وصلت الأنثى أخاها ويحرّمون إناثها تارة، وكالبحيرة والسائبة فإنّه إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وخلّوا سبيلها فلا تركب ولا تحلب.

وكان الرّجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وكانوا إذا ولدت النوق البحائر والسوائب فصيلاً حيّاً حرّموا لحم الفصيل على النساء دون الرّجال وإن ولدت فصيلاً ميّتاً اشترك الرّجال والنساء في لحم الفصيل ولا يفرّقون بين الذكور والإناث في حقّ الأولاد، وقد أشرنا إلى هذا البيان سابقاً.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: أكنتم حضوراً إذ وصّاكم اللّه بهذا وأمركم به؟ والمراد أنّكم اعلمتموه بالسمع والكتب المنزلة وأنتم لا تقرّون بذلك أم شافهكم اللّه به؟ وإذا لم يكن واحداً من الأمرين سقط المذهب وعلم بطلانه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: من أظلم لنفسه ممّن كذب على اللّه أضاف إليه تعالى ما لم يكن في أمره وحكمه. وحاصل الآية أنّ المشركين من أهل الجاهليّة لمّا حرّموا بعض الأنعام من عند أنفسهم فاحتجّ اللّه عليهم على إبطال قولهم بأنّه تعالى إن كان حرّم من هذه الأنعام الذّكر منها وجب أن يكون كلّ ذكورها حراماً وإن كان حرّم الأنثى وجب أن يكون كلّ إناثها حراماً، وكذلك قوله: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي:

إن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين وجب تحريم الأولاد كلّها لأنّ الأرحام تشتمل على الذكور والإناث فلمّا لم يكن كذلك فثبت أنّها بدع اخترعوها من عند أنفسهم.

وقال الرازيّ: الأقرب في تفسير الآية عندي غير ما فسّره المفسّرون، وهو أنّه المراد من الآية أنّكم لا تقرّون بنبوة نبيّ، ولا تعرفون شريعة شارع فكيف تحكمون[1] بأنّ هذا يحلّ وأنّ ذلك يحرّم، وتثبتون هذه الأحكام المختلفة.

﴿لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال ابن عبّاس: يريد عمرو بن لحيّ لأنّه هو الّذي غيّر شريعة إسماعيل، قال الرازيّ: والأقرب أن يكون هذا محمولاً على كلّ من فعل ذلك وافترى على الله لأنّ اللفظ عامّ والعلّة الموجبة لهذا الحكم عامّة، فالتخصيص تكلّف وتحكّم. وقال المحقّقون: إذا ثبت أنّ من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحقّ هذا الوعيد الشديد فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الصفات والنبوات ومباحث المعاد كان وعيده أشدّ وأشقّ.[2]

قال القاضي: ودلّ ذلك على أنّ الإضلال عن الدين مذموم لا يليق بالله لأنّه تعالى إذا ذمّ الإضلال الّذي ليس فيه إلّا تحريم المباح فالّذي هو أعظم منه أولى بالذمّ.[1]

وأجاب الرازيّ عن كلام القاضي أنّه ليس كلّ ما كان مذموماً منّا كان مذموماً من الله ألا ترى أنّ الجمع بين العبيد والا ماء وتسليط الشهوة عليهم وتمكينهم من أسباب الفجور مذموم منّا وغير مذموم من الله؟ فكذا هاهنا.[2]

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٢١٧.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٢١٧.

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

أقول: وبئس ما قاس الرازيّ ففرّق بين المقيس والمقيس عليه، فما أجابه الرازيّ ما أقربه إلى الشعوذة! لأنّه من المعلوم عند العقول أنّ الضلالة ضدّ الهداية فكذلك الإضلال وهو منكر عند كل ذي لبّ كما أنّ الهداية معروف وحسن عند كلّ عاقل، فكيف ينسب إليه القبيح مع أنّه أولى بالمعروف؟ والقول بأنّه متى ما نسب إليه تعالى خرج الموضوع عن حدّ القباحة سفسطة وشعوذة.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

لمّا بيّن في الآية السابقة فساد طريقة المشركين فيما يحلّ ويحرّم أتبعه بالبيان الصحيح في هذه الآية فقال: ﴿قُل﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفار ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: ما أوحاه الله إليّ شيئاً ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي: على آكل يأكله ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ المأكول ﴿مَيْتَةً﴾ وقرء بالتاء أي: أن تكون العين أو الجثّة أو النفس ميتة، وقرء ميتة بالرفع على معنى إلّا أن تقع وتحدث ميتة ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي: مصبوباً وإنّما خصّ المصبوب بالذكر لأنّ ما يختلط باللّحم من الدم لا يمكن تخليصه منه معفوّ عنه مباح ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي: الخنزير قذر، أو الضمير إلى اللحم، وتخصيصه مع

أنّ لحمه وشحمه وشعره وعظمه وجميعه نجس وحرام لكونه أهمّ ما فيه، ولأنّه يؤكل فالحلّ والحرمة أضيف إليه أصالة وإلى غيره تبعا ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على قوله أو لحم خنزير ولذلك نصب ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ذكر وقت ذبحه اسم الأصنام والأوثان وسمّي ما ذكر عليه اسم الصنم فسقاً لخروجه عن أمر الله، وأصل الإهلال رفع الصوت بالشيء.

وإنّما خصّ الأشياء المذكورة بذكر التحريم مع أنّ غيرها محرّم؟ فإنّه سبحانه ذكر في المائدة تحريم المنخنقة والموقوذة والمتردّية وغيرها لأنّ جميع ذلك تقع عليه اسم الميتة فيكون في حكمها.

وأجود من هذا أن يقال: إنّه سبحانه خصّ هذه الأشياء بالتحريم تعظيماً لحرمتها، وبيّن تحريم ما عداها في مواضع اخرى، إمّا بنصّ القرآن وإمّا بوحي غير القرآن، وأيضاً أنّ هذه السورة مكّيّة والمائدة مدنيّة ويجوز أن يكون غير ما في الآية من المحرّمات إنّما حرّم فيما بعد، والميتة في الآية عبارة عمّا كان فيه حياة فقدت من تذكية شرعيّة.

ثمّ إنّه تعالى قال: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ فإنّه رجس ومعناه: أنّه تعالى حرّم لحم الخنزير لكونه نجساً فهذا يقتضي أنّ النجاسة علّة لتحريم الأكل فوجب أن يكون كلّ نجس أكله حراماً فيشمل الحكم في كلّ ما هو نجس مثل الخمر، وقال أيضا: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[1] وذلك يقتضي تحريم كلّ الخبائث والنجاسات خبائث.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: فمن أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء في ذلك غير باغ على مضطرّ مثله ولا عاد ومتعدّ حدّ الضرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة لا يؤاخذه بذلك.

١ـ سورة الأعراف: ١٧٥.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: على اليهود خاصّة لا على غيرهم من الأولين والآخرين ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ اختلف في معناه فقيل: هو ما يكون ليس بمنفرج الأصابع كالإبل والنعام والإوز[١] والبطّ، عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وقتادة والسديّ ومجاهد.

وقيل: هو الإبل، عن ابن زيد. وقيل: يدخل فيه كلّ ما يصطاد بظفره، عن الجبّائيّ فقال: كلّ ذي مخلب من الطير وكلّ ذي حافر من الدوابّ. وقيل: ماله إصبع سواء كان ما بين أصابعه منفرجاً كأنواع السباع أو لم يكن منفرجاً كالإبل والنعام. وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم فلمّا ظلموا عمّ التحريم.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا﴾ متعلّق بقوله حرّمنا ﴿عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ لا لحومهما فإنّها باقية على الحلّ والشحوم الثروب[٢] وشحوم الكلية ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ استثناء من الشحوم، ما حملت ظهورهما من الشحم وهو اللحم السمين من شحم الكتفين إلى الوركين من داخل وخارج فإنّه لم يحرّم عليهم ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أي: ما حملته الحوايا من الشحم والحوايا جمع حاوية وهي ما يحوي في البطون فاجتمع واستدار وتسمّى المباعر والمصارين فإنّ شحومها كانت محلّلة لهم ومستثناة.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ عطف على ما حملت ظهورهما قيل: هو شحم الألية، واختلاطه بالعظم اتّصاله بالعصعص وهو عجب الذنب وأصله، ويقال: إنّه أوّل ما يخلق وآخر ما يبلى، وبالجملة فهو مستثنى من جملة ما حرّم، وقيل: الألية لم تدخل في الاستثناء عن الجبّائيّ. فكأنّه لم يعتدّ بعظم العصعص ولم يحسبه من العظم، وعلى هذا فالمراد شحم الجنب فقط دون الألية.

١ـ بكسر ثم فتح جمع الإوزة: طائر مائي.

٢ـ الثروب جمع الثرب وهو الشحم الرقيق الذي على الكرش والأمعاء.

قال الزجّاج: إنّما دخلت «أو» هاهنا على طريق الإباحة[1] مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[2] والمراد الجمع أي: لا تطع الآثم ولا تطع الكفور فكذلك في الآية.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: ذلك التحريم بسبب ظلمهم من أكل أموال الناس بالباطل وأخذهم الربا وغيرها من المعاصي، وكانوا كلّما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شيء ممّا أحلّ الله لهم، وقد أنكروا ذلك وادّعوا أنّها لم تزل محرّمة على الأمم الماضية فردّ الله عليهم ذلك.

وقيل: إنّ ملوك بني إسرائيل كانوا يمنعون فقراءهم من أكل لحوم الطّير والشحوم فحرّم الله ذلك ببغيهم على فقرائهم، ذكره عليّ بن إبراهيم في تفسيره.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار عن بغيهم والتحريم وفي كلّ شيء. فصار حاصل الآية أنّ شحوم الغنم والبقر حرّم على اليهود ثمّ استثني عن هذا التحريم ثلاثة أنواع:

الأوّل: ما حملت ظهورهما أي: إلّا ما علّق بالظهر من الشحم فإنّي لم احرّمه أو الجنب أيضاً من داخل بطونهما على قول قتادة. والاستثناء الثاني: الشحم الملتصق بالمصارين. والاستثناء الثالث: كلّ شحم مختلط بالعظم قال ابن جرع: وهو كلّ شحم في القائم والجنب والرأس وفي العينين والأذنين فقال: إنّه اختلط بعظم حتّى الألية فهو حلال لهم، وعلى هذا التقدير فالحشم الّذي حرّمه الله عليهم هو الثروب وشحم الكلية.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: إن نسبوا إليك الكذب فيما تقول فقل لهم: إنّ الله ذو

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٨٥ والتبيان، ج٤، ص ٣٠٦.

٢ـ سورة الإنسان: ٢٤.

رحمة واسعة كذلك لا يعجل عليكم بالعقوبة بل يمهلكم ولا يدفع عذابه إذا جاء وقته عن المكذّبين لك.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

لمّا حكى سبحانه عن أهل الجاهليّة في إقدامهم على الحكم في دين الله بغير حجّة ولا دليل حكى عنهم عذرهم في كلّ ما يقدمون عليه من الكفر فيقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ ولمنعنا عن الكفر، وحيث لم يمنعنا عنه ثبت أنّه يريد ذلك فكنّا معذورين فيه، وكذلك ما أشرك آباؤنا ولا كنّا نحرّم شيئاً من ذلك، أرادوا أنّ ما فعلوه حقّ مرضيّ عند الله.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كهذا التّكذيب وهو قولهم: إنّا إنّما أشركنا وحرّمنا لكون ذلك مرضيّاً عند الله وإنّك يا محمّد كاذب فيما قلت من أنّ الله منع الشرك ولم يحرّم ما حرّمتموه ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كذّبوا متقدّميهم الرسل ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ الّذي أنزلنا عليهم. والعذاب الّذي ورد بهم بتكذيبهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصحّ الاحتجاج به على ما زعمتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ وتظهروه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا

﴿ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما تتّبعون فيما أنتم عليه من الشرك والتّحريم إلّا الظنّ الباطل من غير علم ويقين ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ وتكذبون على اللّه بالتخمين.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ الفاء جواب شرط محذوف أي: وإذا قد ظهر أن لا حجّة لكم فللّه الحجّة البالغة والبيّنة الواضحة، والمراد بالحجّة البالغة الكتاب والرسول والبيان ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ هدايتكم جميعاً قهراً ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالحمل على الهداية إجباراً ولكن لم يشأ بطريق الجبر، ولكن شاء هداية قوم بصرف اختيارهم إلى سلوك طريق الحقّ حتّى يصحّ التكليف، والمشيئة الأولى مشيئة الاختيار، والثانية مشيئة الإلجاء.

وقيل: المراد أنّه لو شاء لهداكم إلى نيل الثواب ودخول الجنّة ابتداء من غير تكليف، ولكنّه لم يفعل ذلك بل كلّفكم وعرّضكم للثواب، ولو كان الأمر على ما قاله أهل الجبر من أن شاء اللّه منهم الكفر لكانت الحجّة للكافر على اللّه من حيث فعلوا ما شاء اللّه، ولكانوا بذلك مطيعين له لأنّ الطاعة هي امتثال الأمر المراد، ولا يكون الحجّة للّه تعالى عليهم على قولهم من حيث إنّه خلق الكفر فيهم وأراده منهم فأي: حجّة له تعالى عليهم مع ذلك؟

ثمّ بيّن سبحانه تعالى أنّ الطريق الموصل إلى صحّة مذاهبهم منسدّ غير ثابت من حجّة عقليّة ولا سمعيّة وما هذه صفته فهو فاسد لا محالة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: هاتوا شهداءكم الّذين يشهدون بصحّة ما تدّعونه من ﴿أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ وهم قدوتهم الّذين ينصرون قولهم وكبراؤهم المقبولين عندهم وليس المراد كلّ من يشهد بصحّة دعواهم كائناً من كان، ولذلك قيّد الشهداء بالإضافة إليهم، فيشهدون أنّ ما جعلناه حراماً من قول اللّه وكتابه.

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ بعد ما حضروا بأنّ حرّم هذا ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾

أي: فلا تصدّقهم فإنّه كذب محض، وبيّن لهم فساده، وحاصل المعنى: إن لم يجدوا شاهداً يشهد لهم على تحريمها غيرهم وشهدوا بأنفسهم فلا تشهد أنت معهم وإنّما نهاه عن الشهادة معهم لأنّ شهادتهم باطلة.

فإن قيل: كيف دعاهم إلى الشهادة ثمّ منع نبيّه فقال: «و لا تشهد معهم؟» لأنّه تعالى أمرهم أن يأتوا بالعدل والّذين يشهدون بالحقّ، وذلك لا يكون فإذا لم يجدوا ذلك وشهد جهّالهم لأنفسهم فلا ينبغي أن تقبل شهادتهم وتشهد معهم لأنّها ترجع إلى دعوى الباطل. وقيل: معنى الآية من قوله: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أراد سبحانه هاتوا شهداءكم من غيركم ولم يكن أحد غير العرب يشهد على ذلك، لأنّ العرب شرّعوا هذه البدع من عند أنفسهم.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الخطاب للنبيّ، والمراد الامّة أي: لا تتبع أهواء المكذّبين كعبدة الأوثان، والموصول الثاني في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ عطف على الموصول الأوّل بطريق عطف الصّفة على الصّفة مع اتّحاد الموصوف فإنّ الّذي يكذّب بآياته لا يؤمن بالآخرة وبالعكس ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون له عديلاً عطف على لا يؤمنون. فالمعنى: لا تتبع أهواء الّذين يجمعون بين تكذيب الله وبين الإشراك به سبحانه وهم جامعون لهذه الأمور متّصفون بكلّها واعلم أنّ الله تعالى أحل الطيّبات لعلمه بصلاحها وحرّم الخبائث كالخمر والميتة والدم والخنزير لعلمه تعالى بفسادها، وما حرّمه الله إمّا أن يكون بلاء ونقمة كما فعل سبحانه باليهود جزاء على معصيتهم، وإمّا أن يكون التحريم رحمة ومنّة مثل أنّ فيه ضرراً نفسانيّاً كضرر السمّ وأمثاله أو ضرراً روحانيّاً كضرر لحوم السباع والمؤذيات وأمثالها فإنّه يتعدّى أخلاقها بإحداث الأخلاق الفاسدة كما

قال ﷺ: «الرّضاع يغيّر الطباع».[1]

قيل: لمّا دخل الشيخ أبو محمّد الجوينيّ بيته ووجد ابنه أبا المعالي يرتضع ثدي غير أمّة اختطفه منها ثمّ نكس رأسه ومسح بطنه وأدخل إصبعه في فيه ولم يزل يفعل ذلك حتّى قاء وخرج اللّبن من بطنه قائلاً: يسهل عليّ موته ولا يفسد طبعه لشرب لبن غير أمّه ثمّ إنّ أبا المعالي لمّا كبر كان له كبوة بعض الأوقات في المناظرة يقول الشيخ: هذه من بقايا تلك الرضعة وفي الحديث: عليكم بألبان البقر وسمنانها وإيّاكم ولحومها فإنّ ألبانها وسمنانها دواء وشفاء ولحومها داء.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لكفار مكّة: ﴿تَعَالَوْا﴾ أمر من تعالى، والأصل فيه أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو في مكان أسفل منه ثمّ اتسع فيه بالتعميم يتكلّم به كلّ من طلب أن يتقدّم ويقبل إليه سواء كان الطالب في علو أو سفل أو غيرهما.

﴿أَتْلُ﴾ جواب الأمر أي: أقرؤ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقرؤ الآيات المشتملة بالتحريم «عَلَيْكُمْ» متعلّق بحرّم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ «أن» مفسّرة و«لا» ناهية ﴿بِهِ﴾ تعالى ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء. بدأ سبحانه بالتوحيد ونهى الشرك، وقدّم الشرك لأنّه رأس المحرّمات، ولا يقبل الله معه شيئاً من الطّاعات.

١ـ راجع: فروع الكافي، ج ١، ص ٣ و ٩٣.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وأوصينا بهما إحساناً وقد جعل الله بحكمه الشرعيّ نعم الوالدين تالية نعمه فأمر تعالى بالإحسان إليهما بعد الأمر بعبادته.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم﴾ أي: لا تدفنوا بناتكم حيّة ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ من أجل فقر، والإملاق نفاذ الزاد والنفقة، من الملق وهو بذل المجهود في طلب المراد ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لا أنتم، فلا تخافوا الفقر بناء لعجزكم عن تحصيل الرزق، وهذا هو الحكم الثالث من الأحكام التسعة.

وإنّما حرّم الله قتل الأولاد للظلم، ولما فيه من هدم بنيان الله، وملعون من هدم بنيانه، وفيه إبطال ثمرة شجرته وقطع نسله وترك التوكّل في أمر الرزق يؤدّي إلى تكذيب الله لأنّه قال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.[1] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ أي: الزنا وجيء بصيغة الجمع قصداً إلى النهي عن أنواعها ولذلك أبدل منها بدل اشتمال قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: ما يفعل منها علانية في الحوانيت كما هو دأب أرذالهم، وما يفعل سراً باتّخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم وهذا هو الحكم الرابع منها.

وتوجيه النهي إلى قربها للمبالغة في النهي عنها ويدخل في الفواحش ما يبعّده من الجنّة ويدنيه من النار، وأيضاً ما ظهر منها بالفعل وما بطن بالقصد. ومن الزنا زنا النظر، النهاية زنا العين.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد فيخرج منها الحربيّ ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال أي: لا تقتلوها في حال من الأحوال إلّا بالحقّ الّذي أمر الشرع، أو رخّص بقتلها وذلك بالكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان، وقتل النفس المعصومة وغيرها

١ـ سورة هود: ٦.

ممّا فيه الرخصة وهذا هو الحكم الخامس وفي القتل بغير الحقّ ترك تعظيم أمر الله وترك الشفقة على الخلق وهما من نواميس الدين.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام الخمسة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ وأمركم ربّكم بحفظه أمراً مؤكّداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تستعملون عقولكم فيما أمركم الله وتحبسون نفوسكم عن مباشرة القبائح المذكورة.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

ثمّ ذكر بقيّة ما يتلو عليهم فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ أي: ولا تتعرّضوا لمال اليتيم واليتيم من الإنسان من لا أب له ومن الحيوان مالا أمّ له، وإنّما خصّ مال اليتيم بالذكر لأنّه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ولا عن ماله فيكون الطمع في ماله أشدّ ويد الرّغبة إليه أمدّ، فأكّد سبحانه النّهي عن التّصرف في ماله والخطاب للأولياء والأوصياء أشمل. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلّا بالخصلة الحسنة كحفظه وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنّهي، كأنّه قيل: احفظوه حتّى يصير بالغاً رشيداً فحينئذ سلّموه إليه.

والأشدّ واحدها «شد» مثل الأشرّ في جمع شرّ والأضرّ في جمع ضرّ والشدّ القوّة وهو استحكام قوّة الشباب وقيل: هو جمع شدّة مثل نعمة وأنعم، وقال بعض البصريّين: الأشدّ واحد جاء على بناء الجمع، قال الجوهريّ: أشدّه أي: قوّته وهذا هو الحكم السادس. ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أتمّوه ولا تنقصوه في المكيلات وفي الموزونات ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو العدل فإن قيل:

إيفاء الكيل والميزان هو عين القسط فما فائدة التّكرار؟ لأنّ اللّه أمر المعطي بإيفاء الكيل والميزان لذي الحقّ وأمر صاحب الحقّ بأخذ حقّه من غير طلب زيادة. ولمّا كان يجوز أن يتوهّم الإنسان أنّه يجب هذا الأمر على الحقيقة بحيث لا مختلف ذرّة واحدة في المكيل والموزون وذلك صعب شديد بحيث لا يقدر الإنسان من إتيانه أتبعه سبحانه بما يزيل هذا التشديد فقال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: الإيجاب بهذا الأمر القدر الممكن في إيفاء الكيل والوزن.

قال القاضي: إذا كان اللّه قد خفّف على المكلّف هذا التخفيف مع أنّ هذا التضييق مقدور له مع العسر فكيف يتوهّم أنّه سبحانه يكلّف الكافر الإيمان؟ مع أنّه لا قدرة له عليه بل قالوا: يخلق الكفر فيه ويريد منه ويحكم به عليه ويخلق القدرة الموجبة لذلك الكفر والدّاعية الموجبة له ثمّ ينهاه عنه فهو تعالى لمّا لم يجوّز ذلك القدر من التشديد والتضييق في إيفاء الكيل والوزن فكيف يجوز أن يضيّق على العبد مثل هذا التضييق والتشديد؟.[1]

وعارضه الرازيّ وشيوخ الأشاعرة بمسألة الداعي والعلم[2]، وهذه المعاوضة والجواب منهم أوهن من نسج العنكبوت، كما شرّح في مواضع عديدة في الكتاب ولا حاجة إلى الإعادة.

أقول: هذه المندوحة والقدر اليسير من التفاوت لا يوجب عدم الاجتهاد والسعي في إيفاء الكيل والوزن والمراعاة فيهما واجبة لكنّ التقصير القصديّ فليس بمعفوّ قطعاً، وينبغي الاحتياط بقدر الإمكان. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في شهادة أو حكم أو نحوهما ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه ﴿وَلَوْ كَانَ﴾المقول له

١ـ تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٢٣٥.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: قرابتكم لأنّ مدار الأمر العدل وطلب رضى الله فلا فرق بين ذي قرابة وأجنبيّ وهذا هو الحكم الثامن. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: ما عهد إليكم من تأدية أو امره تعالى، ويدخل فيه ما عاهدتم الله عليه من الإيمان والنّذور، ويحتمل أن يراد به العهد بين الإنسانين فيكون إضافته إلى الله من حيث إنّه أمر بحفظه والوفاء وهذا هو الحكم التّاسع. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: ما عهد إليكم من تأدية أو امره تعالى، ويدخل فيه ما عاهدتم الله عليه من الإيمان والنّذور، ويحتمل أن يراد به العهد بين الإنسانين فيكون إضافته إلى الله من حيث إنّه أمر بحفظه والوفاء وهذا هو الحكم التّاسع.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة إلى ما فصّل من التكاليف ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ أمركم بامتثاله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكّرون أي: لكي تأخذوا به ولا تفعلوا عنه فتتركوا العمل به والقيامة بما يلزمكم منه. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ بتقدير اللّام علّة للفعل المؤخّر أي: ولأنّ ما ذكر في هذه السّورة من آيات التوحيد والنبوّة وبيان الأحكام المذكورة مسلكي وصراطي، لأنّه يؤدّي إلى رضأي: والجنّة ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال مؤكّدة أي: مستوياً قويماً غير معوج ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي: الطرق المختلفة عدا هذا الطريق مثل اليهوديّة والنصرانيّة والملل الباطلة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ منصوب بإضمار أن بعد الفاء في جواب النّهي، أصله ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ والباء للتّعدية أي: فتفرّقكم وتزيلكم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ عن دين الله الّذي ارتضاه لكم وبه أوصى وهو الإسلام، وهذا هو التأكيد في الأحكام التسعة، وهو المتابعة للقرآن.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: اتّباع سبيل القرآن وترك اتّباع سائر السبل ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سبيل الكفر والشرك. ولمّا تلا رسول الله هذه الآية خطّ خطّاً فقال: هذا سبيل الله، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وشماله وقال: هذه سبل

على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه فشرع النّبي المصطفى هو الصّراط المستقيم، وهو أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر كما أنّ صراط الآخرة كذلك. ولذا لا تزال في كلّ ركعة من الصلاة تقول اهدنا الصراط المستقيم. ومن زلّ عن هذا الصراط في الدنيا زلّ عن صراط الآخرة أيضاً قال ﷺ: **«الزالّون عن الصراط كثير وأكثر من يزلّ عنه النساء»**.

أقول: وأكثر الرجال في هذا الزمان في حكم النساء لاتّباع الشهوات والأخذ بالعادات، والدّين بدأ غريباً وعاد غريباً فلا يوجد من يستأنس به ويستأهل له إلّا نادراً قال ابن عبّاس في هذه الآيات: إنّها محكمات لم ينسخهنّ شيء، وهي محرّمات قديماً وحديثاً على بني آدم كلّهم وهنّ أمّ الكتاب، من عمل بهنّ دخل الجنّة ومن تركهنّ دخل النار.[1] وقال كعب الأخبار: والّذي نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأوّل شيء في التوراة، وأوّلها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، الآيات.[2]

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

عطف على مقدّر أي: فعلنا تلك التوصية باتّباع صراط الله قديماً ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وذكرت ثلمة ثمّ لتأخّر الخبر عن الخبر لا لتأخير الواقعة مثل قولك: بلغني ما صنعت اليوم ثمّ ما صنعت أمس أعجب.

﴿تَمَامًا﴾ مصدر من أتمّ بحذف الزوائد أي: إتماماً للكرامة والنعمة

١ـ تفسيرمجمع البيان، ج٤، ص ١٩٥؛ والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ،ج ٢، ص٦٢؛ وتفسير الصافي، ج٢، ص١٧٠.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ أي: على من أحسن القيام بالكتاب كائناً من كان من الأنبياء والمؤمنين. ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: بياناً مفصّلا لكلّ ما يحتاج إليه في الدين، ويؤيّد هذا المعنى قراءة عبد الله بن مسعود: هي على الّذين أحسنوا.

وقيل: المعنى المراد إتماماً للنّعمة والكرامة على العبد الّذي أحسن الطاعة بالتبليغ وفي كلّ ما أمر به. والقول الثالث: تماماً على الّذي هو أحسن ديناً وأرضاه.

وقيل: المراد: آتينا موسى الكتاب تماماً على أحسن ما يكون حيث ذكر فيه نبوّة محمّد ﷺ.

﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ ونجاة من العذاب لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿لَّعَلَّهُم﴾ أي: بني إسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ الباء متعلّقة بيؤمنون أي: كي يؤمنوا بالبعث والثّواب والعقاب.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ الإشارة إلى القرآن ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ دفع لإنكار المنكرين حيث قالوا: ليس من عند الله وإنّما هو من عند نفسه ﷺ ﴿مُبَارَكٞ﴾ كثير النفع ثابت دنياً وديناً ومبارك عليك وعلى أمّتك حيث جعله الله جعلا بينهم وبينه تعالى ليوصلهم إلى مقام السعادة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ واعملوا بما فيه ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ مخالفته لكي ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ بواسطة العمل الصحيح بموجباته.

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنّه إنّما أنزل قطعاً للمعذرة وإزاحة للعلّة فقال: ﴿أَن

تَقُولُوٓاْ﴾ وسوق الكلام ينبئ عن حذف المضاف أي: كراهة أن تقولوا، وحذف المضاف يطّرد جوازه مع غير «أن» فلأن يجوز مع أن أجدر، كراهة أن تقولوا: يا أهل مكّة، أو لئلّا تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى، وخصّهما بالذكر لشهرتهما وظهور أمرهما أكثر من غيرهما فأنزلنا عليكم القرآن لنقطع حجّتكم ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ من بقيّة قول المشركين «أن» مخفّفة أي: وإنّه كنّا عن دراستهم وقراءتهم، ولم يقل: عن دراستهما لأنّ كلّ طائفة جماعة ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: تقولون: لا ندري ما في كتابهم إذا لم يكن على لغتنا فلم نفهم ولم نقدر على قراءته. ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ إلى الحقّ الّذي هو المقصد الأقصى من جلائل الأحكام والشرائع ودقائقها لثقابة أفهامنا وحدّة أوهامنا لأنّا تلقّفنا فنوناً من العلم كالقصص والأشعار والخطب مع أنّا أمّيّون.

﴿فَقَدۡ جَآءَكُم﴾ متعلّق بمحذوف معلّل به أي: لا تعتذروا بذلك القول فقد جاءكم ﴿بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وحجّة واضحة بلسانكم ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ عبّر عن القرآن بالبيّنة إيذاناً بكمال تمكّنهم من قراءته لأنّه على لغتهم وهو هداية ورحمة ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَا﴾ أي: صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال.

﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ﴾ الناس ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم بحيث يفهم منه جزاء ضلالهم أيضا ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: شدّته ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ بسبب ما كانوا يفعلون الصدف ويمنعون الناس عن الإيمان به والعمل بموجباته، ويصدفون الناس عمّن أوتي به وهو محمّد ﷺ. قال الطبرسيّ: وفي الآية دلالة على أنّ إنزال القرآن لطف للمكلّفين وأنّه لو لم ينزله لكان لهم الحجّة. وإذا كان في منع اللّطف عذر وحجّة للمكلّف فمنع

القدرة وخلق الكفر فيهم أولى بذلك[1] فعلى العاقل أن يعمل بالقرآن ويرغب غيره به بقدر الإمكان لأنّه مكلّف به ويكون شريكه في الثواب الفائض من اللّه الوهّاب. وفي الحديث: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف أي: سبع لغات: وهي لغات العرب المشهورين بالفصاحة من قريش وهذيل وهوازن واليمن وطيء وثقيف والفصحاء من مطلق طوائفهم**»، أو المراد من قوله «على سبعة أحرف» سبع قراءات وهي الّتي استفاضت عن النبيّ ﷺ، وضبطتها الامّة، وأضيف كلّ حرف منها إلى من كان أكثر قراءة به من الصحابة، ثمّ أضيف كلّ قراءة منها إلى من اختارها من القرّاء السبعة: وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائيّ.

حكي من بعض الأخيار من أهل التلاوة للقرآن: أنّه لمّا حضرته الوفاة كان كلّما قالوا له: قل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ طه ۞ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ـ إلى قوله ـ: ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[2] فلم يزل يعيدها كلّما أعادوا عليه حتّى مات على هذه الآية الكريمة، فظهر أنّ الموت على ما عاش عليه الشخص، وكان حرفة رجل يبيع الحشيش وهو غافل عن اللّه فلمّا حضرته الوفاة كان كلّما قيل له: قل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال: حزمة بفلس.

هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

قرأ حمزة والكسائيّ «يأتيهم» بالياء والباقون بالتاء.

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٩٩.

٢ـ سورة طه: ١ـ ٨.

ولمّا بيّن سبحانه أنّه إنّما أنزل القرآن إزاحة للعلّة وأنّهم لا يؤمنون فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ومعنى «يَنْظُرُونَ» ينتظرون وهل استفهام معناه النفي فالمعنى أنّهم لا يؤمنون بك وبكتابك إلّا إذا جاءهم أحد أمور ثلاثة: وهي مجيء الملائكة أو مجيء الربّ أو مجيء الآيات القاهرة الّتي تضطرّهم إلى الإيمان، والمراد من مجيء الملائكة قيل: لقبض أرواحهم يعني ملائكة الموت، عن مجاهد والسدّيّ وقتادة. وقيل: لإنزال العذاب والخسف بهم. وقيل: لعذاب القبر.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ فيه أقوال: أحدها: أو يأتي أمر ربّك بانتقام فحذف المضاف، ومثله ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وجاز هذا الحذف كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾[1] أي: يؤذون أولياء اللّه، لكن قال ابن عبّاس: معناه: يأتي أمر ربّك فيهم بالقتل. وثانيها: أو يأتي ربّك بجلائل آياته فيكون حذف الجارّ والمجرور لدلالة الكلام عليه، وهو قيام الدليل في العقل على أنّ اللّه لا يجوز عليه الانتقال، ولا يختلف عليه الحال. وثالثها: أنّ المعنى أو يأتي إهلاك ربّك إيّاهم بعذاب عاجل أو آجل أو بالقيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ فذلك نحو خروج الدابّة أو طلوع الشمس من مغربها، عن مجاهد وقتادة والسدّيّ وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**بادروا بالأعمال ستاً طلوع الشمس من مغربها والدابّة والدّجال والدخان وخويصة أحدكم**» . يعني الموت وأمر العامّة.

وهاهنا بحث: وهو أنّ في قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ إذا حملنا على أثر من آثار قدرته فهذا التقرير يصير عين قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وإذا حملنا على مجيء الربّ حقيقة فذاك معنى غير معقول. فالجواب أنّ هذا حكاية مذهب الكفّار بزعمهم الفاسد فلا يكون حجّة ولا يلزم التكرار لكن

١ـ سورة الأحزاب: ٥٧ .

يمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ علامات القيامة أو نفس القيامة فحينئذ لا يكون تكراراً.

وأجمعوا على أنّ المراد بقوله: ﴿يَأْتِيَ﴾ بعض آيات ربّك علامات القيامة فعن البراء بن عازب قال: كنّا نتذاكر أمر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: «**ما تتذاكرون؟**» قلنا: نتذاكر أمر الساعة قال: «**إنّها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدّخان ودابّة الأرض وخسفاً بالمشرق وخسفاً بالمغرب وخسفاً بجزيرة العرب والدجّال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى وناراً تخرج من أرض عدن**».

﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ صفة لنفساً وقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ صفة ثانية معطوفة على الصفة الأولى، والمعنى: أنّ أشراط الساعة إذا ظهرت ذهب أوان التكليف فلم ينفع الإيمان نفساً ما آمنت قبل ذلك وما كسبت في إيمانها خيراً قبل ذلك. ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وعيد وتهديد وذلك لأنّ تلك الحال يكون الإيمان ضروريّا وأنّها حال زوال التكليف.

قال الحاكم أبو سعيد في تفسيره: وفي الآية دلالة على أنّ الإيمان لابدّ وأن يكون منضمّاً إليه أفعال الخير والصالحات بخلاف ما يقوله المرجئة.

قال: الآية تدلّ على أنّ الإيمان بمجرّدة لا ينفع حتّى يكون معه اكتساب الخير والصالحات.[1]

قال الطبرسيّ: وليت شعري كيف يدلّ الآية على ما قاله الحاكم؟ وكيف حكم لنفسه على خصمه في ما الحكم فيه لخصمه عليه؟ وهذا القول

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٠٢.

عدول عن الإنصاف[1] فإنّه سبحانه قد صرّح فيها بأنّ اكتساب الخيرات غير الإيمان المجرّد لعطفه سبحانه كسب الخيرات في الإيمان على فعل الإيمان، فكأنّه قال: لا ينفع نفساً لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمانها، وكذا لا ينفع نفساً لم تكن كاسبة خيراً في إيمانها قبل ذلك كسبها الخيرات في ذلك اليوم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

اختلفوا في المقصودين بهذه الآية على أقوال:

أحدها: أنّهم الكفّار وأصناف المشركين، عن السدّيّ والحسن. وقال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ يا محمّد ﴿فِى شَىْءٍ﴾ وإنّما هو نهي عن مخالطتهم ومقاربتهم، وأمر له ﷺ بمباعدتهم، ونسختها آية السيف.

وثانيها: أنّهم اليهود والنصارى لأنّهم يكفّر بعضهم بعضا وهو التفرّق، عن قتادة.

وثالثها: أنّ المراد بهم أهل الضلالة وأصحاب الشبهات والبدع من هذه الامّة وهو المرويّ، عن الباقر عليه السلام، جعلوا دين الله أدياناً وصاروا أحزاباً وفرقاً لست يا محمّد ـ ﷺ ـ منهم في شيء، فأخبر سبحانه عن حال نبيّه بالمباعدة التامّة من أن يجتمع معهم في أمر من مذاهبهم الفاسدة وأنّه بريء من جميعه.

و قيل: معناه: لست من قتالهم في شيء، ثمّ نسختها آية السيف والقتال، عن الكلبيّ. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في مجازاتهم على سوء أفعالهم وفي إنظارهم واستيصالهم إلى الله. وقيل: الحكم بينهم في اختلافهم إلى الله. ثمّ ينبّؤهم ويخبرهم ويجازيهم بأفعالهم يوم القيامة فيظهر المحقّ من المبطل.

١ـ المصدر السابق نفسه.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

قرئ «عشر» بالرفع والتنوين، قال الواحدي: حذفت الهاء من عشرة. والأمثال جمع مثل، والمثل مذكّر وأريد عشر حسنات أمثالها ثمّ حذف الحسنات وأقيمت الأمثال الّتي هي صفتها مقامها، وحذف الموصوف كثير في الكلام فالأمثال ليس مميّزاً للعشر بل مميّزها هو الحسنات، قالوا: إنّ الأمثال صفة لمميّزها ولذا لم يذكر التاء للعشر.

قال الطبرسي: وحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في الشعر وفي غير الشعر ضعيف عند المحقّقين، والأولى أن يكون أمثالها غير صفة بل يكون محمولاً على المعنى فأنّث الأمثال لما كان في معنى الحسنات.[1]

حكي عن أبي عمرو أنّه سمع أعرابيًا يقول: فلا جاءته كتابي فاحتقرها، قال: فقلت له: أتقول: جاءته كتابي؟ قال الأعرابي: نعم أليس الكتاب بصحيفة؟

المعنى: لمّا ذكر سبحانه الوعيد على المعاصي عقّبه بذكر الموعد فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾.

قال بعضهم: الحسنة قول «لا إلهَ إلَّا اللّه» والسيّئة الشرك، قال الرازي: وهذا ضعيف بل يجب أن يكون محمولاً على العموم إمّا تمسّكاً باللفظ وإمّا لأجل أنّه حكم مرتّب على وصف مناسب له فيقتضي كون الحكم معلّلاً بذلك الوصف فوجب أن يعمّ لعموم العلّة، وعلى هذا فالمعنى من جاء بالخصلة الواحدة من خصال الطاعة من المؤمنين فله عشر أمثالها من الثواب.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالخصلة الواحدة من خصال الشرّ ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ وذلك من عظيم فضل اللّه وجزيل إنعامه حيث لا يقضي في

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٠٤.

الثواب على قدر الاستحقاق بل يزيد عليه، وربّما يعفو عن ذنوب المذنبين من المؤمنين منّة عليهم وتفضّلاً، وإن عاقب عاقب على قدر الاستحقاق عدلاً.

ثمّ اختلف النّاس في أنّ هذه الحسنات العشر الّتي وعدها اللّه هل يكون كلّها ثوابا أم لا؟ فقال بعضهم: لا يكون كلّها ثواباً وإنّما يكون الثواب منها الواحدة، والتسع الزائدة تكون تفضّلاً، ويؤيّده قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[1] لكن عند الأشاعرة الثواب مطلقاً تفضّل من اللّه، والمعتزلة فرّقوا بين الثواب والتفضّل بأنّ الثواب هو المنفعة المستحقّة والتفضّل هو المنفعة الّتي لا تكون مستحقّة.

ثمّ إنّهم اختلفوا فقال بعضهم: هذه العشرة تفضّل، والثواب غيرها وهو مذهب الجبّائيّ، وقال: لأنّه لو كان الواحد ثوابا، وكانت التسعة تفضّلا لزم أن يكون الثواب دون التفضّل لأنّه لو جاز أن يكون التفضّل مساوياً للثواب في الكثرة والشرف لم يبق في التكليف فائدة أصلاً فيصير عبثاً، ولمّا بطل ذلك علمنا أنّ الثواب يجب أن يكون أعظم في القدر وفي التعظيم من التفضّل.[1]

وقال آخرون: لا يبعد أن يكون الواحد من هذه التسعة ثوابا، ويكون التسعة الباقية تفضّلاً إلّا أنّ ذلك الواحد يكون أوفر وأعظم شأناً من التسعة الباقية.[2]

وقيل: التقدير بالعشرة ليس المراد منه التحديد بل أراد الاضعاف مطلقاً، وذلك كقول القائل: لئن أسديت إليّ معروفاً لأكافأنّك بعشر أمثالها وفي الوعيد يقال: لئن كلّمتني واحدة لأكلّمنّك عشرا ولا يريد التحديد فكذا هاهنا، والدليل على أنّه لا يحمل على التحديد قوله تعالى[3]: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ

١ـ سورة النساء: ١٧٣.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص٩.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٩؛ التبيان، ج ٤، ص ٣٣٢.

﴿أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] لكنّ السيّئة واحدة عدلاً. روى أبو ذرّ الغفاريّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**إنّ الله تعالى قال: الحسنة عشر وأزيد والسيّئة واحدة وأعفو وأغفر فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره**».

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب. واعلم أنّ الحسنات العشر أقلّ ما وعد من الأضعاف للمؤمن وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة: وبغير حساب على تفاوت مراتب الخلوص والأشخاص.

فإن قيل: إذا كانت السيّئة الواحدة بالواحدة كيف كفر ساعة يوجب عقاب الأبد؟ فما وجه المماثلة؟ فالجواب أنّ الكافر على عزم أنّه لو عاش أبداً لبقي على ذلك الاعتقاد فلمّا كان العزم مؤبّداً عوقب بما عليه من الكفر بخلاف المسلم المذنب فإنّه يكون على عزم الإقلاع عن ذلك الذنب فلا جرم كانت عقوبته منقطعة، والكافر هو الّذي تسبّب على خلوده في النار وقد أوعد على الخلود وتمّت له الحجّة بتبليغ الأنبياء وكتبهم، ومع ذلك لم يتقبّل الإيمان وأعرض عنه وأقبل على الكفر والعناد فاستحقّ ذلك لقبوله الكفر وبقائه عليه وعزمه التأبيد عليه. قيل: الأعمال ستّة موجبتان كلّيتان ومثل بمثل وحسنة بحسنة وحسنة بعشر وحسنة بسبعمائة وأكثر فأمّا الموجبتان فهو من مات ولا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة، ومن مات وهو مشرك بالله دخل النار. وأمّا مثل بمثل فمن عمل سيّئة فجزاء سيّئة مثلها وأمّا حسنة بحسنة فمن همّ بحسنة حتّى تشعر بها نفسه ويعلمها الله من قلبه كتب له حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها، وأمّا حسنة بسبعمائة فبالنفقة في سبيل الله.

وفي بعض المجامع أنّ الشارع قد يرتّب الثواب للعمل لئلّا يترك بل

١ـ سورة البقرة: ٢٦١.

يرغب فيه فلا يكون ذلك العمل النفل أفضل من العمل المؤكد عليه الّذي لم يترتّب عليه ذلك الثواب مثل أنّه من صلّى ركعتين بالليل أو إحدى عشرة ركعة بنى الله له بيتاً في الجنّة من ذهب مع أنّ السّنة الراتبة لفرض الظهر أفضل ولا يبلغ مرتبة الراتبة من الأحكام وإن لم يتعيّن قدر أجرها فإنّ السنن شرّعت لتتميم نقائص الفرائض والنوافل الغير الراتبة لتتميم نقائص السنن الراتبة.

وإذا تأمّلت عرفت أنّ الله تعالى قبل أن يجيء العبد بالحسنة أحسن إليه بعشر حسنات حتّى قدر أن يجيء بالحسنة وهي: حسنة الإيجاد من العدم، وحسنة الاستعداد بأن خلقه في أحسن تقويم مستعداً للإحسان، وحسنة التربية، وحسنة الرزق، وحسنة بعثة الرسل، وحسنة إنزال الكتب للإرشاد، وحسنة تحديد الحسنات والسيّئات وحسنة التوفيق، وحسنة الإخلاص في الإحسان، وحسنة قبول الحسنات، والسرّ فيه أنّ السيّئة بذر يزرع في أرض النفس والنفس خبيثة لأنّها أمّارة بالسوء، والحسنة بذر يزرع في أرض القلب والقلب طيّب لأنّ بذكر الله تطمئنّ القلوب، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾[1]

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يبخس من حسناتهم ولا يزيد على عقابهم مثقال ذرّة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]

قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

١ـ سورة الأعراف: ٥٨.

٢ـ سورة النساء: ٤٠.

المعنى: ثمّ أمر الله نبيّه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﷺ للخلق جميعاً ولكفّار مكّة الّذين يدّعون أنّهم على الدين الحقّ وقد فارقوه بالكلّيّة ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي﴾ أي: أرشدني بالوحي وبما نصب في الآفاق والأنفس من الآيات التكوينيّة ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الحقّ ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ ونصب «ديناً» على ثلاثة أوجه أحدها أنّه لمّا قال: هداني إلى صراط مستقيم استغنى بذكر الفعل عن ذكره ثانياً فقال: ديناً قيّماً كما في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ وإن شئت نصبت على تقدير «ألزموا وأعرفوا» لأنّ هدايتهم إليه إلزامهم له وتعريف لهم، وإن شئت حملته على الاتّباع أي: اتّبعوا ديناً قيّما. و﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ بدل من ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ و﴿حَنِيفًا﴾ منصوب على الحاليّة أي: مائلاً عن الأديان الباطلة ميلاً لا رجوع فيه. والملّة من أمللت الكتاب أي: أمليته، وما شرّعه الله لعباده يسمّى ملّة من حيث إنّه يدوّن ويملى ويكتب ويتدارس. وإنّما وصف دين النبيّ بأنّه ملّة إبراهيم ترغيباً فيه للعرب لجلالة إبراهيم في نفوسها ونفوس أهل الأديان، ولانتساب العرب إليه واتّفاقهم على أنّه كان على الحقّ وموافقة أغلب الفروع مع سنّته كالختان والمناسك في الحجّ وغيرها.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما كان إبراهيم منهم في أمر من أمور دينهم أصلاً وفرعاً فردّ الله عليهم بأنّه عليه السلام ليس من أهل دينهم لأنّهم مشركون، فأمّا العرب فكانوا أهل الأصنام، واليهود بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ والنصارى بقولهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ والمشرك في الحقيقة هو الّذي يطلب مع الله شيئاً ويجعل غيره معه شريكاً في العبادة.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ وأعيد الأمر لما أنّ المأمور به يتعلّق في هذه الآية بفروع الشرائع وما سبق بأصولها والمراد بالصلاة الصلوات الخمس المفروضة

﴿وَنُسُكِي﴾ أي: عباداتي وأصل النسك ما يتقرّب به إلى الله ولذا يقال للعابد: ناسك. وقيل: المراد بالصلاة صلاة العيد، وبالنسك الاضحيّة.

وعن أنس عن رسول الله ﷺ: «**قرّب كبشاً أملح أقرن فقال: لا إله إلّا الله والله أكبر** ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ ـ إلى قوله تعالى: ـ ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ **ثمّ ذبح فقال: شعره وصوفه فداء لشعري من النار، وجلده فداء لجلدي من النار، ودمه فداء لدمي من النار، وعظمه فداء لعظمي من النار، وعروقه فداء لعروقي من النار**» فقالوا: يا رسول الله هنيئاً مريئاً، هذا لك خاصّة؟ قال: «**بل لأمّتي عامّة إلى أن يقوم القيامة، أخبرني به جبرئيل عن ربّي عزّ وجلّ**». وقيل: نسكي أي: ديني، عن الحسن.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: حياتي وموتي، وجمع بين صلاته وحياته وأحدهما من فعله والآخر من فعل الله لأنّهما جميعاً بتدبير الله، وقيل: معناه: إنّ صلاتي ونسكي له عبادة، وحياتي ومماتي له ملكاً وقدرة، عن القاضي. وحاصل المعنى أنّ ما أنا عليه في حياتي من فنون الطاعات وأكون عليه عند موتي من الإيمان لله لا لغيره خالصة له تعالى.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ لا أشرك فيها غيره ﴿وَبِذَلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ﴾ لا بشيء غيره ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأنّ إسلام كلّ نبيّ متقدّم على إسلام أمّته، وفيه بيان مسارعته ﷺ إلى الامتثال بما أمر به وأنّ ما أمر به من الشريعة ليس من خصائصه بل الكلّ مأمورون به، يقتدي به من أسلم منهم، وتنبيه على أنّه لا ينبغي أن يجعل العبد حياته لشهوته ومماته لورثته.

قال أهل المعاني: إنّ قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني أوّل من استسلم عند الإيجاد لأمركن، وعند قبول فيض الألطاف وأوّل ما خلق الله نوري، وجئت على التوحيد والإخلاص والتبرّي عن كلّ شيء سواه تعالى ظاهراً وباطناً والتحقيق بحقائق العبوديّة.

عن مالك بن دينار قال: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وإذا بشابّ في الطريق بلا زاد ولا راحلة فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام فقلت: أيّها الشابّ من أين أقبلت؟ قال: من عنده، قلت: وإلى أين؟ قال: إليه، قلت: وأين الزاد؟ قال: عليه، قلت: إنّ الطريق لا يقطع إلّا بالماء والزاد وهل معك شيء؟ قال: قد تزوّدت عند خروجي بخمسة أحرف، قلت: وما هذه الحروف؟ قال: قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قلت: وما معناها؟ قال: أمّا قوله كاف فهو الكافي، وأمّا الهاء فهو الهادي، وأمّا الياء فهو المؤدّي وأمّا العين فهو العالم، وأمّا الصاد فهو الصادق، ومن كان صاحبه كافياً وهادياً ومؤدّياً وعالماً وصادقاً لا يضيّع.

قال مالك: فلمّا سمعت هذا الكلام نزعت قميصي الّذي عليّ فأردت أن البسه إيّاه فأبى أن يقبله، وقال: أيّها الشيخ العرى خير من قميص دار الفناء حلالها حساب وحرامها عقاب؟.

قال مالك: وكان الشابّ إذا جنّ عليه اللّيل يرفع وجهه نحو السماء ويقول: يا من تسرّه الطاعات ولا تضرّه المعاصي هب لي ما يسرك واغفر لي مالا يضرّك، فلمّا أحرم الناس ولبّوا قلت له: يا شابّ لم لا تلبّي؟ فقال: يا شيخ البّي سراً أخشى أن أقول: لبّيك فيقول: لا لبّيك ولا سعديك، ولا أسمع كلامك ولا أنظر إليك، ثمّ مضى فما رأيته إلّا يمضي وهو يقول: اللّهم إنّ الناس ذبحوا وتقرّبوا إليك بضحاياهم وهداياهم وليس لي شيء أتقرّب به إليك سوى نفسي فتقبّلها منّي، ثمّ شهق شهقة فخرّ ميّتاً.

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لمن يقول لك من الكفّار: توجّه إلى ديننا: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي﴾ أطلب حال كونه ﴿رَبًّا﴾ آخر فأشركه في عبادته ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾

والحال أنّ ما سواه مربوب له مثلي فكيف يتصوّر أن يكون شريكاً له في العبادة والعبوديّة؟

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ وذلك أنّهم كانوا يقولون للمسلمين: اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، إمّا بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم، وإمّا بمعنى نحمل يوم القيامة عذاب ما حمّل عليكم من الخطايا فهذا ردّ بالمعنى الأوّل أي: لا يكون جناية نفس من النفوس إلّا عليها، ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر حتّى يتأتّى ما ذكرتم.

و قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ردّ لهم بالمعنى الثاني أي: لا تحمل يومئذ نفس حاملة حمل نفس اخرى حتّى يصحّ قولكم: ولنحمل خطاياكم. والوزر في اللغة: الثقل.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي: إلى مالك أمركم رجوعكم يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يومئذ ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: يتبيّن الرشد من الغيّ والمحقّ من المبطل، وإذا كان هو الربّ وغيره المربوب من الفلك والملك فعبادة غيره جهل محض لأنّ العبد لابدّ وأن يخدم مولاه ولا يخدم غير مولاه فالمولى غاية المبتغى ونهاية المرام، فمن وجده فقد وجد الكلّ، ومن فقده فقد الكلّ وعاد خائباً خاسراً، وكلّ ما تكسب النفس من خير أو شرّ فهو عليها ومأخوذة به وأمّا الخير فلابدّ فيه من صحّة القصد له تعالى والخلوص من المنافيات.

فإن قيل: إنّ قوله ﷺ: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شيء فليستحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلّا أن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيّئات صاحبه فحمل عليه**» يدلّ على خلاف قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

فالجواب أنّ هذا الحمل هو الّذي باختياره تحمله وحمل على نفسه

يرضاه بعد تبليغه الحكم فباع حظّه بالأرذل الأدنى وبسوء اختياره رضي بهذه المعاملة بإقدامه على ظلم غيره فحمل سيّئات المظلوم حمل سيّئات نفسه فالآية والحديث متّحدان.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

أخبر سبحانه وشهد لنفسه بالربوبيّة فقال: ﴿وَهُوَ﴾ أي: اللّه تعالى ﴿جَعَلَكُمْ﴾ أيّها الناس خلائف الأرض والأمم السابقة البشريّة، وكلّ من جاء بعد من مضى فهو خليفة لأنّه يخلفه ويعقبه والخلائف جمع الخليفة كالوصائف جمع الوصيفة، وقيل: المعنى: خلفاء اللّه في أرضه وعلى هذا المعنى تكون تتّصفون بصفاته وآدم وقته وخليفة ربّه ولو على نفسه.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ﴾ في الشرف والغنى ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ إلى ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ كثيرة متفاوته ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من المال والجاه أي: ليعاملكم معاملة من يختبر بكم لترتّب الجزاء لأنّ الجزاء لا يقع بالعلم بالوقوع حتّى لا يمتحن بل قرّر سبحانه الجزاء بعد الوقوع.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمّد ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لا يراعي حقوق ما آتاه اللّه ولم يشكره، وإنّما قال: ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ مع أنّه سبحانه موصوف بالإمهال والحلم لأنّ ما هو آت قريب، وحقيقة الشكر أن تعرف المنعم حقّ معرفته ولا تستعين بنعمه على معاصيه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لمن راعاها. وافتتح السورة بالحمد على نعمه تعليماً وختمها بالمغفرة والرحمة ليحمد على ذلك.

تمّت السورة بحمد اللّه الملك المتفضّل بالإنعام.

سورة الأعراف

هذه السورة مكيّة غير قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ـ إلى قوله ـ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ فإنّها نزلت بالمدينة.

قال ابيّ بن كعب: من قرأها جعل الله بينه وبين إبليس ستراً وكان آدم شفيعه يوم القيامة ومن قرأها يوم الجمعة كان ممّن لا يحاسب يوم القيامة. قال الصّادق عليه السلام: **«لا تدعوا قراءتها فإنّها تشهد لقاريها يوم القيامة»**.[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

قال ابن عبّاس: (معناه: أنا الله أعلم وأفصل فعلى هذا مبتدأ وخبر وأعلم خبر بعد خبر).[2] قال القاضي: إن كانت العبرة بحرف الميم فهو أيضاً موجود في الملك والامتحان وإن كانت بالصاد فيمكن على قوله: أنا الله أصلح فكان الحمل على المعنى الأوّل محض التحكّم.[3]

١ـ رواها وغيرها في ثواب الأعمال: ١٠٦؛ ووسائل الشيعة (طبعة الإسلامية)، ج ٥، ص ٨٨؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٥ ص ٢١١.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٤؛ وانظر: التبيان، ج ٤، ص ٣٤١.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

ثمّ إذا أردنا تفسير الحروف من غير أن تكون تلك اللّفظة موضوعة في اللّغة لذلك المعنى انفتحت طريقة الباطنيّة في تفسير سائر الألفاظ ممّا يشاكل هذا الطّريق، وأمّا قول بعضهم أنّه من أسماء اللّه، والاسم إنّما يختصّ بالمسمّى بالوضع والاصطلاح، ولا يبعد أنّ الشارع وضعه.

والأولى أنّ قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ اسم لهذه السورة لقباً، وأسماء الألقاب لا تفيد فائدة في المسميّات بل هي قائمة مقام الإشارات، وللّه تعالى أن يسمّي هذه السورة بألف لام ميم صاد، كما أنّ الواحد منّا إذا حدث له ولد فإنّه يسمّيه محمّداً، وعلى هذا فيكون ﴿الٓمٓصٓ﴾ مبتدءاً وكتاب خبره وجملة البعد صفة له.

فإن قيل: الدّليل الّذي دلّ على صحّة نبوّة محمّدﷺ هذا القرآن فما لم يفد هذا المعنى لم نعرف نبوّته وإذا لم نعرف نبوّته لا يمكننا أن نحتجّ بقوله فلو أثبتنا كون هذا القرآن نازلاً عليه من عند اللّه بقوله لزم الدّور.

قلنا: إنّ دلائل حقّيّة القرآن وأنّ إنزاله من اللّه غير منحصر بقوله، لكن قوله وتصديقه أحد الدّلائل وكذلك تصديق نبوّته غير منحصر بالقرآن بل القرآن أحد دلائل نبوّته. وللقرآن ولنبوّته دلائل كثيرة، أمّا القرآن لأنّه مع قطع النّظر عن دلائل السّمع بداهة العقل تحكم بأنّ هذا الكتاب العزيز المشتمل على علوم الأوّلين والآخرين بجامعيّته من حيث المعنى مع بسط أحكامه الّتي يحتاج إليه الخلق في أمور عامّتهم ورفع الخلف بسبب العلم واختيار طريق الأصلح من الأديان، ورفع التنافس والخصومات من نوع البشر لملازمة العدل في العمل بأحكامه لم يتّفق لكتاب قطّ، لأنّك إذا وازنت العمل به وبغيره من كلّ حكم احتجت به في دينك ودنياك رأيت أنّ العمل به أوفق للعدل والصّلاح وأحسن ترتيباً لنظام العالم وجمع الكلمة ورفع الخصومات والخلاف، وما أريد من الكتاب وإنزال الكتب إلّا هذا الأمر، وهذا التّرتيب

والتركيب لا يمكن صدوره إلّا من قادر عالم وحكيم خالق، وهو العالم بحقائق الأشياء دون غيره فثبت أنّ صدوره لا يمكن إلّا منه.

هذا كلّه من حيث المعنى وأمّا من حيث اللّفظ والمعنى فعجز المعارضين مع شدّة عداوتهم عن الإتيان بمثله أو ببعضه يشهد بأنّه وحي من اللّه أوحى به إلى من هو أهل لوحيه. فلمّا ثبت أنّه من عند اللّه ثبت نبوّة الموحى إليه لأنّ القرآن مشحون بالآيات المصرّحة بنبوّته، فحينئذ، ما ثبت عن قوله ﷺ أنّه نازل من عند اللّه بل ثبت ببراهين أخر فمن أين لزم الدّور؟

على أنّ من تدبّر في أخلاقه الشريفة وفي حالاته أنّه منذ صباه إلى أن بلغ ثلاث وستّين سنة من عمره عجز جميع الخلق عن أن يوازوه بمكارم الأخلاق ولا ساوى عذاره من البشر بعذار ومضاره بمضمار حيث شهد اللّه له بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[1]

ثمّ تأمّل أيّها العاقل بمجامع قلبك، وانظر في أحواله في هذه المدّة من عمره أنّه لم ينقل عنه كريهة ولا خائنة، ولا أخطأ في ساعة من عمره حتّى أنّه لم يثبت الخصماء خصلة سوء له في دقيقة من عمره الشريف، حتّى أنّ أعداءه، لعجزهم عمّا أوتي من المعجزات نسبوه إلى السّحر، والبشر وإن كان عالماً وحكيماً لا ينقضي من عمره يوم إلّا ويقع منه ما يكره زوجه وولده فضلاً عن الناس حتّى أنّ نفسه تنفر من نفسه، حيث وقع منه الخطاء ويلوم هو نفسه، فضلاً عن الناس فلو لم يكن تأييد النبوّة من اللّه كيف تتّفق هذه الملكة الرّاسخة الإلهيّة لمن يأكل وينام ويمشي في الأسواق.

فأنت أيّها المعترض! دع المعجزات كلّها وتأمّل في هذه الدّقيقة ولا تحتاج إلى إثبات أمر آخر. على أنّ البحر لو كان مداداً لنفد البحر قبل أن تنفد

١ـ سورة القلم: ٤.

كلمات الله وهو ﷺ كلمة الله العليا ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.(١)

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا الّذي أوحيته إليك كتاب أنزله الملائكة إليك بأمري ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وضيق من تكذيب قومك وإجابتهم إيّاك بعدم القبول فأنذر به النّاس، وليتذكّر به المؤمنون لأنهم المنتفعون به. ثمّ خاطب الله المكلّفين:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

اعلم أنّ الرّسالة إنّما يتمّ بالمرسل وهو الله والمرسل وهو النبيّ والمرسل إليه وهم الامّة بمتابعة الرّسول وأنّ النّفوس البشريّة على قسمين: بليدة جاهلة بعيدة عن عالم الغيب، غريقة في اللّذات الجسمانيّة والشّهوات الجسدانيّة، ونفوس شريفة مشرقة بالأنوار الروحانيّة الإلهيّة، مستعدّة لكسب الفضائل فبعثة الأنبياء في حقّ القسم الأوّل إنذار وتخويف كما قال سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾.

وفي القسم الثّاني تنبيه وتذكير عن غفلة البشريّة: لأنّه ربّما غشيها غواش من عالم الجسم فيعرض لها ذهول وغفلة فأمر بالذّكرى للقسم الثاني.

ثمّ أمر الامّة باتّباع هذا الكتاب ومنع عن اتّباع من دون الكتاب من أولياء الشياطين من الجنّ والإنس فيحملوكم على مخالفته وعبادة الأهواء والأصنام والبدع فيضلّوكم عن سبيله.

ثمّ هاهنا معترضة مفيدة وهي أنّه أمر الله باتّباعه، ونهى الله عن دون القرآن والسنّة فكان المعنى أنّ كلّ ما يغاير الحكم الّذي أنزله الله لا يجوز اتّباعه.

فنفاة القياس قالوا: العمل بالقياس متابعة لغير ما أنزل الله فوجب أن لا يجوز. وأجاب مثبتوا القياس وأنّ القياس يكون حجّة بأنّ قوله تعالى:

١ـ سورة الأنعام: ١٢٤.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1] لمّا دلّ على العمل بالقياس كان العمل بالقياس عملاً بما أنزل اللّه.

أقول: إنّ هذه الدّلالة غير معلومة ولعلّ المراد بالعبرة أصول الدين لا في أصول الفقه.

ثمّ أجاب مثبتوا القياس بأنّ كون القياس حجّة بإجماع الصّحابة قد ثبت بعموم قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾[2] وعموم قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[3] وعموم قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4] وبعموم قولهﷺ: «**لا تجتمع أمّتي على الخطاء**» والجواب عن هذا الكلام: أنّه أليس الأخباريّون من الامّة؟ ومطلق القياس كيف يحكم عليه بأنّه حجّة؟ نعم إذا دلّ دليل على أنّ في ذلك القياس والاجماع نصّاً من المعصوم أو رضاء منه على سبيل التحقيق فذلك حجّة ولا تصحّ حجيّة القياس إلّا بعد العلم بعمل المعصوم به فإذن ثبت حجّيته بعمل المعصوم وهو النصّ لا بمثل هذا الإجماع، وكلّ قياس وافق النصّ حجّة وغيره فاسد.

قل لهم يا محمّد: اتّبعوا القرآن ولا تتّبعوا غيره أولياء تطيعونهم في الأمور الدينيّة يا معشر المشركين ما أقلّ تذكّركم واتّعاظكم؟ والمراد: تذكّروا كثيراً ما يلزمكم من أمر دينكم.

١ـ سورة الحشر: ٢.

٢ـ سورة النساء: ١١٥.

٣ـ سورة البقرة: ١٤٣.

٤ـ سورة آل عمران: ١١٠.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾

لمّا أمر الرسول بالإنذار وأمر القوم بالقبول ذكر في هذه الآية الوعيد في ترك المتابعة. «كَمْ» رفع بالابتداء وخبره «أهْلَكْناها» وهو أحسن من أن يكون في موضع نصب لأنّ قولك: «زيد ضربته» أجود من قولك: «زيداً ضربته» ولو أنّ النّصب صحيح.[1] و المعنى: وكم من أهل قرية أهلكناها، ويمكن المراد نفس القرية بخسف وهدم لكنّ التقدير أحسن أي: حكمنا بالهلاك وإلّا لا يحصل الهلاك قبل البأس، بل الهلاك بعد مجيء البأس ويمكن أن يكون البأس والهلاك دفعة واحدة كما تقول: أعطيت فأحسنت وما كان الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله وإنّما وقعا معاً فإذن «الفاء» فاء المفسّر لا للتعقيب و«كَمْ» كلمة موضوعة للتكثير كما أنّ «رب» موضوعة للتّقليل لأنّ «كَمْ» اسم و«رب» حرف.

﴿فَجَآءَهَا﴾ أي: جاء العذاب أهل القرية ﴿بَيَٰتًا﴾ باللّيل، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ ومستريحون في نصف النّهار ومن هذه المادّة الإقالة في البيع لأنّهما يستريحان عن الخصومة بالإقالة فكأنّه قيل للكفّار: لا تعزّوا بالأمن والرّاحة فإنّ عذاب الله إذا وقع وقع دفعة واحدة من غير أمارة، فإذن ما كان قولهم بعد نزول العذاب إلّا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وما ينفع القول والنّدم.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

لمّا بيّن أنّ قولهم لمّا أتاهم العذاب اعترافهم بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بيّن في هذه الآية أنّه لا يقتصر منهم بمجرد الاعتراف بل يسأل الكلّ

١ـ لأن ترك التقدير أولى من التقدير ولعدم وجود موجب النصب ومرجحه. وهذا هو الصورة الخامسة من صور الاشتغال العامل. والتفصيل في محله.

عن كيفيّة أعمالهم، وبيّن أنّ السّؤال لا يختص بأهل العقاب بل هو عامّ في أهل الثواب والعقاب من الامّة ومن الرّسل. فإن قيل: ما الفائدة في السؤال بعد اعترافهم؟

الجواب أنّهم بعد الاعتراف بالظّلم يسأل عنهم عن سبب الظلم لأجل التوبيخ كأنّ السؤال من الرّسل بيان أنّهم إذا أثبتوا الإطاعة والتبليغ التحق التقصير بالكلّيّة إلى الامّة فيضاعف الإكرام للرّسل والخزي للكفّار.

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ ﴾ ما أسرّوه وما أعلنوه من أعمالهم، وفيها دلالة على أنّ اللّه عالم بالجزئيّات ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ عنهم وعن أفعالهم. ولعل أن يكون السؤال عن الدّواعي وإلّا كتبهم مشتملة على أعمالهم.

وفي الآية دلالة على أنّه يحاسب كلّ عباده لأنّهم لا يخرجون من أن يكونوا رسلاً أو مرسلاً إليهم، ويبطل قول من زعم أنّه لا حساب على الأنبياء والكفّار.

فإن قيل: إنّ آيات تدلّ على السؤال كهذه وآيات تدلّ على عدم السؤال كقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[2] الجواب أنّ مواقف القيامة كثيرة فموقف لا يسأل ويعطّل لصدور الحكم وموقف يسأل.

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

لمّا ذكر أحوال القيامة من السؤال والحساب ذكر في هذه الآية بعض كيفيّات القيامة منها الميزان لوزن الأعمال. الوزن مبتدأ والحق خبره، ويجوز أن يكون يومئذ خبره والحقّ صفة له. وفي وزن الأعمال قولان:

١ـ سورة الصافات: ٢٤.

٢ـ سورة الرحمن: ٣٩.

الأول: أنّه ينصب ميزان له لسان وكفّتان يوزن به أعمال العباد من الخير والشرّ. قال ابن عبّاس: أمّا المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فتوزن فتثقل حسناته على سيّئاته فذلك، قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأمّا أعمال الكافر فتؤتى بصورة قبيحة فتوزن تلك الصورة.

والقول الثاني: أنّ صحائف الخلق توزن والميزان تنصب بين الجنّ والأنس فيستقبل به العرش، إحدى كفتي الميزان على الجنّة والاخرى على جهنّم ولو وضعت السماوات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبرئيل آخذ بعموده ينظر إلى لسانه. وعن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه: يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان ويؤتى له بتسعة وتسعين سجلًا. كلّ سجلّ منها مدّ البصر فيها خطاياه ثمّ يخرج له قرطاس كالأنملة فيه شهادة أن لا إله إلّا اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه يوضع في الاخرى فترجّح.

وقال بعض المفسّرين: المراد بالوزن العدل والقضاء، يقال: هذا الكلام في وزن ذلك الكلام أي: معادل ذلك الكلام، وفي الاحتجاج عن الصادق عليه السلام: أنّه سئل أو ليس توزن الأعمال؟ قال: لا لأنّ الأعمال ليست أجساماً وإنّما هي صفة ما عملوا أو إنّما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ووزنها ولا يعرف ثقلها وخفّتها، وأنّ اللّه لا يخفى عليه خافية فقيل له: فما معنى الميزان؟ قال: العدل، قيل: فما معنى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؟ قال: فمن رجّح عمله.[1] وإذا حملنا الآية على ظاهرها فلا يبعد أن يكون موازين كما قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.[2] و قوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ فيها مسائل:

١ـ تفسير نور الثقلين، للشيخ الحويزي، ج ٢، ص ٥؛ والاحتجاج، ج ٢، ص ٩٩؛ وبحار الأنوار، ج٧، ص ٢٤٩.

٢ـ سورة الأنبياء: ٤٧.

الأولى: أنّها تدلّ على أنّ أهل القيامة فريقان وأمّا القسم الثالث وهو الّذي تكون حسناته وسيّئاته متساوية فإنّه غير مذكور في الآية.

والمرجئة تمسّكوا بهذه الآية وقالوا: الّذين خسروا أنفسهم وخفّت موازينهم الظالمون بآيات الله وهم الكافرون لأنّه حصر أهل الموقف في قسمين: أحدهما: الّذين رجّحت حسناتهم وحكم عليهم بالفلاح، والثاني: الّذين رجّحت سيّئاتهم وحكم عليهم بأنّهم أهل الكفر الّذين كانوا يظلمون بآيات الله، وذلك يدلّ على أنّ المؤمن لا يضرّه المعصية.

والجواب أنّه أقصى ما في الباب أنّه تعالى لم يذكر هذا القسم الثالث في هذه الآية إلّا أنّه ذكره في سائر الآيات فقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ والمنطوق راجح على المفهوم فوجب المصير إلى إثباته.

على أنّ كتب الأخبار مشحونة بعذاب العاصي إن لم يتب حتّى في بعض الروايات قال ﷺ: **«وإنّ من أمّتي لا تناله شفاعتي إلّا بعد سبعين ألف سنة»**. وليس بمعلوم أنّها من سني الدّنيا أم من سني الآخرة. والمقطوع أنّ هذا الخبر لغير الكافر وإلّا فالكافر مؤبّد بالنصّ والإجماع.

المسألة الثانية: قال أكثر المفسّرين: المراد من قوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الكافر، والدّليل عليه القرآن والخبر أمّا القرآن فقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ ولا معنى لكون الإنسان ظالماً بآيات الله إلّا كونه كافراً بها، فدلّ هذا على أنّ المراد من هذه الآية أهل الكفر.

وأمّا الخبر فقد ذكر قيل هذا، حيث إنّه يخرج له قرطاس إلى آخر الحديث وحديث آخر رواه الواحديّ في البسيط أنّه إذا خفّت حسنات المؤمن أخرج رسول الله من حجرته نطاقة كالأنملة فيلقاها في كفّة الميزان الّتي فيها حسناته فترجّح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبيّ ﷺ: بأبي

أنت وأمّي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك فمن أنت؟ فيقول ﷺ: «**أنا نبيّك محمّد ﷺ وهذه صلاتك الّتي كنت تصلّي عليّ قد وفّيتك حين أحوج ما يكون إليها**». أقول: ولكن بشرطها، والشرط الأعظم أن لا تخالف في شريعته ودينه حتّى تقبل الصلاة ولا يكون لقلقة اللسان.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

لمّا بيّن في آيات الوعيد وبيان السؤال عن الأعمال شرع وأمر بشكره بتعداد نعمه لأنّ بيان النعمة يوجب الشكر للمنعم فقال:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾ أي: جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً، وأقدرناكم على التصرّف فيها وجعلنا لكم فيها وجوه المنافع، وهي على قسمين: منها ما يحصل بخلق اللّه ابتداء مثل خلق الكلاء والثمار، ومنها ما يحصل بالاكتساب، وكلاهما في الحقيقة يرجع بفضله وإقداره على المقدور، وهذا الخلق والتسبيب يكون موجباً للشكر.

ومع ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ و«ما» زائدة أو مصدريّة أي: يشكرون قليلاً و«الياء» في «مَعايِش» لا تقلب همزة، لأنّ الياء أصليّة وغير الأصليّ تبدّل همزة نحو صحائف.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

النظم: لمّا بيّن بعض نعمه في الآية السابقة بيّن بعضاً آخر: وهي أنّه خلق أبانا آدم وجعله مسجوداً للملائكة، والإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا وصوّرنا أصلكم وأباكم لأنّه من المعلوم أنّ الأمر بالسجود وقع قبل خلقنا، وكلمة «ثمّ»

للتراخي فالمراد من الخلق تقديره لإحداث هذه الصورة، والتصوير إثباتها في اللوح المحفوظ أو المراد خلق عالم الذرّ، وبالجملة فبعد الخلق والتصوير أمر الملائكة بالسجود له. وفي هذه السجدة ثلاثة أقوال: أحدها: أنّ المراد بالسجدة مجرّد التعظيم لا نفس السجدة. وثانيها: أنّ المراد هو السجدة إلّا أنّ المسجود له هو الله فآدم عليه السلام كالقبلة. وثالثها: أنّ المسجود له هو آدم.

ثمّ إنّهم اختلفوا في أنّ الملائكة الّذين أمروا بالسجود جميع الملائكة أم ملائكة الأرض فقط؟ و بالجملة ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ واختلفوا في أنّ إبليس هل كان من الملائكة أم من الجنّ؟ وظاهر الاستثناء يدلّ على أنّه من الملائكة، قال الحسن البصريّ: إنّه من الجنّ لأنّه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور. والملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يعصون الله وليس إبليس كذلك وقد عصى فاستكبر، ثمّ إنّ الملائكة رسل الله والرسول لا يخون ولا يخالف وإبليس خان، وهو أوّل خليفة الجنّ وأصلهم وأبوهم[١] كما أنّ أبا البشر آدم أوّل خليفة الإنس، وأمّا الاستثناء فلأنّه لمّا كان إبليس داخلاً في الملائكة ومأموراً بالسجود مع الملائكة لخطته مع الملائكة استثناه الله. وكان اسم إبليس عزازيل فلمّا عصى الله سمّاه بذلك فاهبط إلى الأرض.[٢]

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

ظاهر الآية يقتضي أنّه تعالى طلب منه ما منعه من ترك السجود وليس الأمر كذلك، وإنّما المقصود السؤال عمّا منعه عن السجود، ولهذا الإشكال

١ـ وهذا ينافي ما مر عن ابن عباس في الصفحة ٢٦١: من أن الملائكة كلهم في الجنة والشياطين في النار والجن والأنس بعضهم في الجنة وبعضهم في النار.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٣١.

حصل في الآية قولان:

الأوّل: وهو المشهور أنّ كلمة «لا» صلة زائدة والتقدير: ما منعك أن تسجد وله نظائر كثيرة في القرآن كقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾(١) وكقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾(٢) أي: يرجعون، وكقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾(٣) أي: ليعلم أهل الكتاب.

والقول الثاني: أنّ كلمة «لا» مفيدة وليست لغواً، قال القاضي عبد الجبّار: ذكر المنع وأراد الداعي فكأنّه قال: ما دعاك إلى أن لا تسجد؟ لأنّ مخالفة اللّه حالة عظيمة يتعجّب منها ويسأل عن الداعي إليها.

واحتجّ العلماء بهذه الآية على أنّ الأمر يفيد الوجوب فقالوا: إنّه ذمّ إبليس على ترك ما أمر به ولو لم يفد الوجوب لما كان مجرّد ترك المأمور به موجباً للذّم.

فإن قيل: هب إنّ هذه الآية يدلّ على أنّ ذلك الأمر يفيد الوجوب، فلعل تلك الصيغة في ذلك الأمر كانت بقيد الوجوب فمن أين يجب أن يكون جميع الصيغ كذلك؟ قلنا: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ يدلّ على تعليل ذلك الذّم بمجرّد ترك الأمر: لأنّ قوله: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ مذكور في معرض التعليل، والمذكور في قوله: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ هو الأمر من حيث إنّه أمر لا كونه أمراً مخصوصاً في صورة مخصوصة، وإذا كان كذلك وجب أن يكون ترك الأمر من حيث هو أمر موجباً للذّم، وذلك يفيد أنّ كلّ أمر فإنّه يقتضي الوجوب فالموارد المحمولة على الإباحة والاستحباب بدليل منفصل، وهو المطلوب.

١ـ سورة القيامة: ١.

٢ـ سورة الأنبياء: ٩٥.

٣ـ سورة الحديد: ٢٩.

وكذلك احتجّ من قال: إنّ الأمر يفيد الفور بهذه الآية، وقال: إنّه تعالى ذمّ إبليس على ترك السجود في الحال ولو كان الأمر لا يفيد الفور لما استوجب هذا الذّم ترك السجود في الحال. قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ أي: أجاب اللعين إنّما لم أسجد لآدم لأنّه خلق من طين وخلقت من نار والنار أفضل من الطين والمخلوق من الأفضل أفضل ومن الأدون أدون، والنار مشرق علويّ لطيف خفيف يابس مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها، والطين مظلم سفليّ كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات، ثمّ النار قويّة التأثير والفعل، والأرض ليس لها إلّا الانفعال والقبول والفعل أشرف من الانفعال، وأيضاً فالنار مناسبة للحرارة الغريزيّة، وهي مادّة الحياة، وأمّا الأرضيّة فالبرد واليبس فهما مناسبان للموت، والحياة أشرف من الموت، ونضج الثمار ونماء الثمار متعلّق بوقت كمال الحرارة، ووقت الذّبول والفناء والشيخوخيّة وقت البرد وانتفاء الحرارة الغريزيّة باليبس المناسب للأرضيّة، وشرف الأصول يوجب شرف الفروع.

وقد قاس اللعين بهذه الأقيسة الفاسدة، لأنّه لا ملازمة بين فضيلة المادّة وفضيلة الصورة، وقد يكون المادّة فاضلة والصورة قبيحة وإنّ أصل البول الماء، والفضيلة عطيّة من اللّه يخرج الكافر من المؤمن، والنور من الظلمة والظلمة من النور، والفضل إنّما يكون بالأعمال لا بسبب الموادّ ألا ترى أنّ الحبشيّ المطيع أفضل من القرشيّ العاصي؟. ثمّ احتجّ من قال: إنّه لا يجوز تخصيص عموم النصّ بالقياس بهذه الآية لأنّ إبليس أخرج نفسه من هذا الحكم العامّ للسجود بالقياس ولا معنى للقياس إلّا ذلك، فلو كان تخصيص النصّ بالقياس جائزاً لما استحقّ الذمّ حيث قال له: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ وقد نقل الواحديّ في البسيط عن ابن عبّاس أنّه قال: كانت الطاعة أولى بإبليس من

القياس فعصى ربّه وهو أوّل من قاس فكفر بقياسه فمن قاس الدّين برأيه قرنه الله بإبليس، انتهى كلام ابن عبّاس.[١] وهذا الخطاب مع إبليس إمّا بواسطة الملائكة أو بلا واسطة على سبيل الإهانه فأهبط منها.

قال ابن عبّاس: من جنّة عدن وفيها خلق آدم لا جنّة الخلد وقيل: من السماء لأنّ أهل السماء ملائكة يتواضعون لأمر الله وهو تكبّر وخاف فأهانه الله بالذلّة والصغار.[٢]

قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

المعنى: فطلب اللعين الإنظار من الله إلى وقت البعث وهو النفحة الثانية، ومقصود اللعين أن لا يذوق الموت فلم يعطه الله ذلك بل ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ فههنا قولان:

الأوّل: أنظره إلى النفحة الأولى. لأنّه سبحانه قال في آية اخرى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[٣] والمراد منه اليوم الّذي يموت فيه الأحياء كلّهم.

وقال آخرون: لم يوقّت الله له أجلاً بل قال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي: المعلوم في علم الله، والدليل على ذلك أنّ إبليس كان مكلّفاً، والمكلّف لا يجوز أن يعلم وقت أجله لأنّه يعلم ذلك المكلّف أنّه متى تاب قبلت توبته، فإذا علم وقت موته هو الوقت الفلانيّ

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٣٤؛ وبحار الأنوار، ج ١١، ص ١٣٢؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص٢٢٥.

٢ـ المصدر السابق، ص ٣٥.

٣ـ سورة الحجر: ٣٧ ـ ٣٨؛ وسورة ص: ٨١ ـ ٨٢.

أقدم على المعاصي بقلب فارغ فإذا قرب موته تاب فينحلّ النظام فتعيّن الوقت يجري مجرى الإغراء بالقبيح وذلك غير جائز على اللّه.

ثمّ نسب اللعين الإغواء إلى اللّه فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ مع أنّ اللعين هو تسبّب الغواية حيث تكبّر عن السجود فصار إمام الجبريّة ورئيسهم. وقيل: الغواية معناه الإهلاك.

ثمّ قال اللعين: بسبب أنّك لعنتي وطردتني وخيّبتني من جنّتك لأقعدنّ لهم وأمنعهم عن السلوك إلى الجنّة، وأعوجهم عن الاستقامة في الدّين بأن أزيّن لهم الباطل وأسعي في إغوائهم وأواظب على الإفساد، ولا أفتر عن إفسادي إيّاهم، ولهذا المعنى عبّر اللعين بالقعود لأنّ القاعد في أمر أفرغ باله وجهده في إتيان أمره وقصده، وهذه الآية تدلّ على أنّه كان عالماً بدين الحقّ والصراط المستقيم فكفره كفر عناد وجحود وهو أعظم أنواع الكفر.

فلو قيل: إنّ إنظار إبليس هذه المدّة الطويلة اقتضى حصول المفاسد العظيمة ثمّ بعث الأنبياء دعاة إلى الخلق وعلم من حال إبليس أنّه لا يدعوا إلّا إلى الكفر والضلال فأمات الأنبياء وأبقى إبليس.

فالجواب أنّ إبقاء إبليس وأثره في الإضلال ليس بطريق الإجبار ولا يقول عاقل: إنّ إبليس أجبر أحداً على الكفر بحيث لا يتمكّن عن قبول الإيمان، فلو كان الأمر كذلك لكان للقائل بهذا القول حجّة وليس إنظاره بأكثر من خلق الشهوة في النفس فهو كهي فكما أنّ الشهوة لا تحملكم بالإجبار على الزنا فكذلك إمهال الشيطان، كما يقول اللعين لكم يوم القيامة: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[1] فثبت أنّ إطاعتك إيّاه موجب لكفرك لا إمهاله، ولو نقلت الكلام إلى الشهوة فأنت إذا تقول: لم كلّفنا اللّه بالتكليف؟ لأنّ التكليف

١ـ سورة إبراهيم: ٢٢.

لابدّ وأن يقع بين أمرين: من قبول وردّ، ولو كان من طرف وأمر واحد لكان إجباراً وليس بتكليف لأنّ التكليف لا يتحقّق ماهيّته إلّا إذا كان المكلّف متمكّناً من الردّ والقبول.

ثمّ إنّه إذا أمات الأنبياء الّذين كانوا أسباب الهداية ما نقص من أسباب الهداية لكم شيئاً بسبب إبقاء كتابه فيكم وأنّ نبيّه بيّن لكم الحقّ بقوله، وقوله في كتابه باق لكم فأي: عذر لكم في ترك قول النبيّ وإطاعة الشيطان؟ وجعل قوّة القبول والردّ فيكم متساوية لأنّه مهما ترصّد لكم الشيطان بغوايته وإضلاله فقد ترصّد لكم العقل بهدايته فتساوت القوّتان فلم تركت هذه وأدركت هذه؟ ولله الحجّة البالغة والحمد له.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: الدنيا ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أي: الآخرة أي: أوسوس لهم بالتكذيب للبعث والقيامة ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ في الصرف عن الحقّ ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ في الترغيب إلى الباطل وأفترهم عن فعل الحسنات، أي: أحيط بهم من الجهات في إغوائهم.

روي أنّه لمّا قال الشيطان هذا الكلام وقت قلوب الملائكة للبشر فقالوا: يا إلهنا كيف يتخلّص الإنسان من هذا العدوّ المستولي عليه من هذه الجهات الأربع؟

فأوحى الله إليهم: أنّه قد بقي للإنسان جهتان: الفوق والتحت فإذا رفع يديه إلى السماء في الدعاء أو وضع جبينه على الأرض على سبيل الخشوع غفرت له ذنب سبعين سنة.

ثمّ هنا نكتة: وهي أنّه تعالى ذكر الجهتين الأوليين بمن والأخريين بعن ولابدّ من الفرق بينهما وهو أنّه إذا قال: جلس عن يمينه معناه أنّه جلس متجافياً عن صاحب اليمين غير ملتصق به قال الله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ

قَعِيدٌ﴾(١) فبيّن سبحانه أنّه حضر على هاتين الجهتين ملكان ولم يحضر في القدّام والخلف ملكان والشيطان يتباعد من الملك فلهذا خصّ اليمين والشمال بكلمة «عَنْ» لأجل أفادته البعد عن الملك، أو المراد أنّ اللعين يأتي من الجهات الأربع كما هو شأن العدوّ.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨﴾

«الذءم» أشدّ العيب. و«الدحر» أشدّ الهوان. و«اللام» في قوله: ﴿لِّمَن ٱتَّبَعَكَ﴾ لام الابتداء. واللّام في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام القسم.

لمّا وعد إبليس بالإفساد خاطبه اللّه على طريق الزجر: اخرج من الجنّة أو من السماء محقوراً مطروداً، وقيل: «اللام» في قوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ لام القسم، والجواب لأملأنّ وقرء ﴿لِّمَن تَبِعَكَ﴾ بكسر اللّام بمعنى لمن تبعك منهم هذا الوعيد أملؤ جهنّم من التابع والمتبوع. ثمّ إنّ الكافر تبعه فكذلك الفاسق تبعه فيجب القطع بدخول الفاسق النار، وهذا قول المعتزلة.

وأجاب بعض أنّ المذكور في الآية أنّه تعالى يملؤ جهنّم ممّن تبعه، وليس في الآية أنّ كلّ من تبعه فإنّه يدخل جهنّم.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ عطف على قوله: ﴿قَالَ﴾ أي: قال اللّه لآدم: ﴿ٱسْكُنْ﴾ ـ من السكنى لا من السكون ـ أنت وحوّاء أي: اسكني أنت وكلا من أين شئتما وما شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وتفصيل الشجرة ذكر في سورة البقرة. وإن أكلتما منها فتكونا من الباخسين والمتضرّرين بهذا الأكل.

١ـ سورة ق: ١٧.

وفي هذه الآية عشر مسائل ليس هنا موضع ذكره، وقد مضى في سورة البقرة شرحها، ومجملها: أنّ ﴿أَسْكُنْ﴾ أمر تعبّد أو إباحة من حيث إنّه لا مشقّة فيه فلا يتعلّق به التكليف. الثاني: كيفيّة خلق حوّاء. الثالث: أنّ تلك الجنّة هل جنّة الخلد أو من جنان الدنيا أو من جنان السماء؟ الرابع: أمر ﴿فَكُلَا﴾ أمر إباحة لا أمر تكليف. الخامس: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ نهي تحريم أو نهي تنزيه؟ السادس: هذه الشجرة شخصيّة أو نوعيّة؟ السابع: أي شجرة كانت؟ الثامن: أنّ ذلك الذنب صغير أم كبير أو ترك أولى؟ التاسع: ما المراد من قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهل يلزم من هذا التقريب إلى الشجرة الدخول تحت قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1] وحاشا أن يكونا كذلك؟ العاشر: أنّ هذه الواقعة قبل النبوّة أو بعد النبوّة؟ وتفصيل المسائل من أرادها فليراجع في سورة البقرة.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

المعنى: وسوس إذا تكلّم بكلام خفيّ يكرّره وبه سمّي صوت الحلي وسواسا والفرق بين «وسوس له» و«وسوس إليه» أنّ «إليه» معناه ألقى إلى قلبه المعنى بصوت خفيّ و«اه» معناه أوهم النصيحة في ذلك الكلام الخفيّ فوسوس لآدم وحوّاء ليظهر لهما ما ستر عنهما ممّا يكون أن يستتر أي: العورة، علماً منه اللعين أنّ من أكل من هذه الشجرة لابدّ أن تبدي عورته، ومن بدت عورته لا

١ـ سورة هود: ١٨.

يترك في الجنّة فاحتال لهما بهذا الطريق في إخراجهم عن الجنّة.

وفي كيفيّة الوصول إليها أقوال لأنّ آدم كان في الجنّة وإبليس قد اخرج منها. قيل: كان يوسوس من الأرض إلى الجنّة بالفوقيّة المجعولة في تلك الطبيعة الناريّة. وقال أبو مسلم: بل كان آدم وإبليس في الجنّة وإنّها كانت بعض جنّات الأرض والّذي يقوله الناس من أنّ إبليس دخل في جوف الحيّة هذه قصّة ركيكة مشهورة. وقال آخرون: إنّ آدم وحوّاء ربّما قربا باب الجنّة ويأتي إبليس من خارج الجنّة على بابها وحصلت الوسوسة هناك.(١)

و«اللام» في قوله ﴿لِيُبْدِيَ﴾ لام العاقبة ولا يبعد أنّ اللّام لام الغرض لسقوط الحرمة وزوال نعمتهما عبادة لهما، أو لعلّه رأى اللعين في اللوح أو سمع من الملائكة أنّ لازم الأكل خروج عن الجنّة قال لهما: إنّما نهاكما اللّه عن أكل هذه الشجرة كراهة أن تكونا ملكين وكراهة الخلود، فإن أكلتما صرتما من الملائكة ومخلّدين في الجنّة وقرء «ملكين» بكسر اللام والمراد جهة الملك لا الملكوت. ويدلّ على هذا المعنى قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾(٢) وحلف لهما أنّي لكما من الناصحين وإنّما قاسمهما لأنّهما قبلا قسمه ظنّاً منهما أنّه لا يقسم باللّه أحد بالكذب.

ثمّ إنّ اللعين قال لهما: إنّي خلقت قبلكما وأعلم أموراً كثيرة لا تعرفونها ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ وأطمعهما وأصله أنّ الرجل العطشان تدلّى الدلو أو رجليه في البئر ليأخذ منها الماء فاستعملت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه فقال: «دلا» أي: أطعمه فلمّا قبلا يمينه وذاقا ظهرت عوراتهما ونزع عنهما لباسهما وكان من النور فشرعا يجعلان ورقة على ورقة كالمرقع للنّعل

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٤٦ وانظر: تفسير البحر المحيط، ج ١، ص ٣١٣.

٢ـ سورة طه: ١٢٠.

ويقال للمرقع خصاف. وناداهما الله ألم أنهكما عن تلك الشجرة؟

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قال بعض علماء العامّة: إنّ الآية إذا دلّت على صدور الذنب منه فذلك قبل النبوّة فالإيراد مدفوع، لكنّ القول الصحيح أنّه من قبيل «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين» ومحمول على ترك الأولى.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قيل: الخطاب للثلاثة، وقيل: لهما ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ من محلّكم الرفيع وحصلت العداوة بينكما وبين إبليس والأصحّ أن خطاب الهبوط لآدم وحوّاء وذريّتهما لأنّ إبليس قبل ذلك كان مخرجاً عن الجنّة. وجملة ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ حاليّة. ولكم في الأرض استقرار وتمتّع إلى حين انقطاع آجالكم وإعادة قول ﴿قَالَ﴾ للاستيناف إيذانا بعدم اتّصال ما بعده بما قبله، والتوجّه بما بعده. ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ ومن الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

النظم: قيل: إنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت بعضهم عراة ويقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها، قيل: مرادهم أبوهم آدم أيضاً فأنزل الله الآية، ولمّا أهبط الله آدم، وجعل لهم الأرض مستقراً بيّن لهم أنه أنزلنا ما يحتاجون إليه والأحوج يواري العورة أولا، ومعنى الإنزال ما يحصل به اللباس من السماء وهو الماء الّذي مادّة كلّ شيء، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾[1] وكقوله:

١ـ سورة الحديد: ٢٥.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.[١]

ومنّ على بني آدم بثلاثة أقسام من اللباس قسم ليستروا به عورتهم، وقسم للزينة والقسم الثالث لباس التقوى، أمّا الأول فقال: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ وأمّا الزينة فقال: ﴿وَرِيشًا﴾ استعير من ريش الطير لأنّ الريش للطير زينة ولولاه لكان مستقبحاً، وقرء «و رياشا» والقسم الثالث خير منهما لأنّ به يستفدك كلّ حسن وجميل والمؤمن غير بادي العورة وإن كان عارياً، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً وأضيف اللباس إلى التقوى لأنّ به يتجمّل عند اللّه وكما أضيف إلى الجوع في قوله: فأذاقها لباس الجوع والخوف.[٢]

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

اعلم أنّ المقصود من ذكر قصص الأنبياء حصول العبرة، ولمّا ذكر قصّة آدم وعداوة إبليس إيّاه أتبعها لتحذير أولاده من قبول وسوسته فقال: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ كما افتنّ أبويكم فإذا افتنّكم يدخلكم النار ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا﴾ جملة حاليّة و«اللام» في ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ لام العاقبة. وفي «اللباس» قيل: المراد لباس التقوى وقيل: لباس الجنّة ولباس النور. ثمّ حذّر سبحانه أنّ الشيطان يراكم هو وقبيله، وتكرير الضمير بقوله ﴿هُوَ﴾ ليحسن العطف كما في قوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[١] «القبيل» الجماعة أي: أصحابه ونسله وقوله: ﴿يَرَىٰكُمْ﴾ يتناول أوقات المستقبل. وقدرتهم على البشر بطريق الوسوسة لا غير.

١ـ سورة الزمر: ٦.

٢ـ سورة النحل: ١١٢.

١ـ سورة الأعراف: ١٩.

قال بعض العلماء: ولو قدر الجنّ على تغيير صورهم بأي: صورة شاءوا لوجب أن يرتفع الثقة عن معرفة الناس فلعلّ هذا الّذي أشاهده وأحكم عليه بأنّه ولدي أو زوجتي شيطان صوّر نفسه بصورة ولدي، كذلك لو كانوا قادرين على تخبيط الناس، وإزالة العقل عنهم والتصرّف فيهم كيف شاؤوا مع عداوتهم على نوع البشر خصوصاً في حقّ بعض الطبقات من الزهّاد والعلماء، ولمّا لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنّه لا قدرة لهم على البشر إلّا بطريق الوسوسة لا غير، وقد قابلها العقل، وهذا الطريق ليس بشيء من القدرة.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قيل في بيان الآية: إنّ الحمس[١] وهم طائفة من المشركين يطوفون البيت وهم عراة يعبدون الأصنام ويقولون: نعبد إلهنا ونطوف عراة كما ولدتنا أمّنا، ولا نطوف بثياب قارفنا فيها الذنوب.

قال الفرّاء: كانوا يعملون شيئاً من السيور[٢] يشدّونها على حقويهم وإن عمل من صوف يسمّى رهطا وكانت المرأة تضع على قبلها النسعة مع عدم كونه صوفا، فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه ... وما بدا منه فلا أحلّه

يعني الفرج لأنّ ذلك لا يستر ستراً تامّاً[١] فنهاهم اللّه عن هذا الفعل

١ـ بضم الحاء قبائل من العرب قد تشددت في دينها فكانت لا تستظل أيام منى، ولا تدخل البيوت من أبوابها، وهي قريش وكنانة ومن دان بدينهم من بني عامر بن صعصعه. وقيل: هم قوم آخرون.

٢ـ السيور جمع السير وهو قطعة من جلد مستطيلة. ويقرب منه النسعة ـ بالكسر ـ فإنها حبل يشد به الرحال.

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٣٩؛ وتفسير الصافي، ج ٢، ص ٣١٩ والتبيان، ج ٤، ص ٣٨٢.

وهذه الفاحشة، وحجّتهم بإتيان هذه العادة الملعونة أنه إنّا وجدنا آباءنا يفعلون هذا العمل زعماً أنّ هذا دليلهم.

ثمّ أتوا بدليل آخر بزعمهم حيث قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فردّ الله عليهم بأنّ الله لا يأمر بالسوء والفحشاء، فهل سمعتم منه تعالى بلا واسطة أو عرفتم ذلك بطريق الوحي إلى الأنبياء؟ أمّا الأول فبديهيّ البطلان وأمّا الثاني فباطل أيضا لأنكم تنكرون نبوّة الأنبياء على الإطلاق، فإذن لا طريق لكم على العلم بهذا الأمر فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية، وقالوا: الحكم المثبت بالقياس مظنون وغير معلوم وما لا يكون معلوماً لم يجز القول به لأنّه تعالى قال في معرض الذمّ: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟

قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

لمّا بيّن الله أنه لم يأمر بالفحشاء أمر في هذه الآية بالعدل والقسط، قال ابن عبّاس: هو قول «لا إلهَ إلّا اللّه» هذا أمر بثلاثة أشياء: شهادة للّه بالفرديّة وهو حقيقة القسط، والثاني معرفة الله في أفعاله وصفاته وأحكامه، ثمّ أمر بأهمّ العبادات وهو قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: وقل لهم: بأن تقيموا الصلاة، وقدّر: قل لهم أقيموا لأنّ عطف الإنشاء على الخبر لا يجوز،[1] والمراد من «أقِيمُوا» استقبال القبلة.

﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والمراد زمان الصلاة أو مكان الصلاة، والأوّل

١ـ احتمل الطبرسي كونه عطفاً على جمله « لايفتننكم الشيطان » وعليه يكون من عطف الإنشاء لفظاً على الإنشاء معناً: فإن تقديرها: إحذروا الشيطان. وهذا جائز.

أولى، قال ابن عبّاس: المراد إذا حضرت أوقات الصلاة وأنتم عند مسجد فصلّوا فيه ولا يقولنّ أحدكم لا أصلّي إلّا في مسجد قومي[1] كما كانوا يقولون، ثمّ أمر بالدعاء على سبيل الخلوص والتقرّب، والمراد بالدعاء الصلاة لأنّ الصلاة في أصل اللغة عبارة عن الدعاء ولأنّ أشرف أجزاء الصلاة الدعاء والذكر.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: كما كنتم تبعثون مؤمناً أو كافراً تعودون، وقيل: معناه: كما بدأكم ولم تكونوا شيئاً كذلك تعودون أحياء.

ويؤيّد هذا المعنى أنّه ذكر عقيبه: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ والمراد من الفريقين: فريقاً هدى إلى الجنّة بسبب قبوله الإيمان وفريقاً حقّ عليهم العذاب بقبولهم الكفر فيحكم على الفريقين ما يستحقّون، وانتصاب ﴿فَرِيقًا﴾ بفعل محذوف يفسّره ما بعده كأنّه قال: «هدى فريقاً وخذل فريقا».

ثمّ بيّن الّذي لأجله حقّت على هذه الفرقة الضلالة وهو ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فقبلوا دعواهم ولم يقبلوا الحقّ من الله ومع ذلك يزعمون أنّهم باتّخاذ الشياطين أولياء مهتدون.

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

النظم: كانت القريش إذا وصلوا إلى معبدهم طرحوا ثيابهم ولا يأكلون من الطعام إلّا قوتاً ولا يأكلون دسما. فقال المسلمون: يا رسول الله نحن أحقّ

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٥٨.

بذلك أن نفعل، فنزلت الآية أي: البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا، والمراد من الزينة اللباس الفاخرة لأنّ الزينة لا يحصل إلّا بستر التامّ للعورات، ولذلك صار تجويد اللّباس والتزيين بأحسن الثياب في الجمع والأعياد سنّة.

ثمّ إنّ المفسّرين أجمعوا على أنّ المراد بالزينة هاهنا الثوب الكامل الّذي يستر به العورة فيدلّ على وجوب ستر العورة عند إقامة كلّ صلاة وقوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أمر والأمر للوجوب.

فإن قيل: عطف سبحانه على أخذ الزينة الأكل والشرب ولا شكّ أنّ أمر الأكل والشرب أمر إباحة فيقتضي أنّ أمر الأخذ بالزينة واللباس إباحة.

وجوابه أنّه لا يلزم من ترك الظاهر من حقيقة الأمر في المعطوف تركه في المعطوف عليه وقد بيّن ترك الظاهر في المعطوف من دليل منفصل، ثمّ قد يكونان واجبين أيضاً في مورد مخصوص عند الحاجة.

فلو قيل: إنّ هذه الآية نزلت في المنع عن المعطوف حال العري.

فالجواب أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإذا ثبت أنّ ستر العورة واجب في الصلاة فوجب أن تفسد الصلاة عند تركه.

ثمّ إنّ قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مطلق يتناول الأوقات والأحوال والأصل في المنافع الحلّ والإباحة إلّا ما خصّه الدليل المنفصل. فقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ تحديد للاستعمال بأن لا يتجاوز الحدّ في الأكل والشرب.

ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ استفهام إنكاريّ، وقد بيّنا معنى الزينة. فإن كان معناها ما يستر العورة فالآية اعتراض على العراة في الطواف والعرب الّذين كانوا يمسكون في الأكل والشرب واللحوم أيّام الموسم وعلى القول بأنّ المراد مطلق اللباس والتجمّل فيتناول جميع أقسام

الزينة، ويدخل فيه تنظيف البدن، ويدخل تحتها أنواع الحليّ والمركوب الحسن والغذاء المستلذّ.

روي عن عثمان بن مظعون أنّه أتى رسول الله ﷺ وقال: غلبني حديث النفس عزمت أن أختصي. فقال ﷺ: **«مهلاً يا عثمان إنّ خصاء أمّتي الصيام»**. قال: فإنّ نفسي تحدّثني بالترهّب، قال ﷺ: **«ترهّب أمّتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة»**.

فقال: تحدّثني نفسي بالسياحة، فقال ﷺ: **«سياحة أمّتي الغزو في سبيل الله والحجّ والعمرة»**.

فقال: إنّ نفسي تحدّثني أن أطلّق خولة زوجتي وأهجر، فقال ﷺ: **«إنّ الهجرة في أمّتي مهاجرة ما حرّم الله»**.

قال: فإن نفسي تحدّثني أن لا أغشاها قال ﷺ: **«إنّ المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولداً كان له وصيف في الجنّة، وإذا كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرّة عين وفرح يوم القيامة، وأن كان مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعاً ورحمة يوم القيامة»**.

قال: فإنّ نفسي تحدّثني أن لا آكل اللحم، قال ﷺ: **«مهلاً إنّي آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كلّ يوم فعله»**.

قال: فإنّ نفسي تحدثني أن لا أمسّ الطيب قال: **«مهلاً فإنّ جبرئيل أمرني بالطيب غبّاً»**، وقال: **«لا تتركه يوم الجمعة»**.

ثمّ قال ﷺ: **«يا عثمان لا ترغب عن سنّتي فإنّ من رغب عن سنّتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي»**.[١]

وهذا الحديث يدلّ على أنّ في هذه الشريعة كلّ أنواع الزينة والأطعمة

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٦٣؛ ودعائم الإسلام، ج ٢، ص ١٩١؛ وعوالي اللئالي، ج ٣، ص ٢٩٢.

مباح إلّا ما خصّه الدليل، لكن أيها المكلّف تدبّر في ما يقع بيدك ولا تجعل أصل الإباحة مناطاً لحلّيّة ما حلّ في كفّك فتكون من القائلين بأنّ الحلال ما حلّ في الكف، نعم إذا خلص الأشياء من الحذر فالأصل فيها الإباحة، ولابدّ من التفقّه في المكاسب.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المعنى أنّ النعم في الحياة الدنيا غير خالصة للمؤمنين لأنّ المشركين شركاؤهم في التمتّع منها وأمّا في الآخرة فهي خالصة للمؤمنين وأنّ هذه النعم مشوبة بالكدورات، وفي الآخرة صافية. فإن قيل: هلّا قيل في الآية: للّذين آمنوا ولغيرهم للتّنبيه على أنّها خلقت للمؤمنين بالأصالة والكفرة تبع لهم. وحاصل المعنى أنّ النعم شائبة في الحياة الدنيا للمؤمنين وخالصة لهم في الآخرة. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل هذا التفصيل نفصّل سائر الأحكام للمتدبّرين.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قيل: ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الكبائر و﴿ٱلْإِثْمَ﴾ الصغائر وقيل: ﴿ٱلْإِثْمَ﴾ مطلق الذنب و«الفَواحِشَ» الكبائر، وقيل «الفاحشة» اسم لما يجب عليه الحدّ و﴿ٱلْإِثْمَ﴾ اسم لما لا يجب عليه الحدّ، وقيل: «الفاحشة» اسم لما تفاحش وتزايد في الأمور إلّا أنّه في العرف مخصوص بالزنا، قال اللّه في الزنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾[1] وإذا قيل: فلان فحّاش فهم منه أنّه يشتم الناس بألفاظ الوقاع وعلى هذا المعنى «ما بَطَنَ» منها يريد الزناء سرّاً وهو الّذي يقع على سبيل العشق والمخادنة، و«ما ظَهَرَ» بأن تقع علانية، وقيل: «الإِثْم» مختصّ

١ـ سورة الإسراء: ٣٢.

بالخمر لأنّه تعالى قال في صفة الخمر: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.[١]

الثالث: من المحرّمات البغي بغير حقّ والبغي لا تستعمل إلّا على الاستطالة على الناس للترؤس ظلماً نفساً أو مالاً أو عرضاً.

فإن قيل: البغي لا يكون إلّا بغير حقّ فما الفائدة في الذكر؟ والمعنى: لا تقدموا على إيذاء الناس بالقهر إلّا أن يكون لكم فيه حقّ فحينئذ يخرج عن كونه بغيا.

الرابع: الشرك ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ﴾ أي: امتنعوا عن الشرك لأنّه ليس لكم بارتكاب الشرك سلطان وحجّة، لأنّ الإقرار بالشيء الّذي ليس على ثبوته حجّة فالثبات عليه قبيح.

والخامس: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: بغير علم تحكمون في الدين تحرّمون حلاله وتحلّلون حرامه.

فإن قيل: كلمة «إنّما» تفيد الحصر والمحرّمات غير محصورة في هذه الخمسة؟

قلنا: إن قلنا: إنّ الفاحشة محمولة على مطلق الكبائر والإثم على مطلق الذنب دخل كلّ الذنوب وإن حملنا الفاحشة على الزنا والإثم على الخمر فقلنا: الجنايات محصورة في خمسة أنواع:

أحدها: الجنايات على الأنساب وهي تحصل بالزنا وهي المراد بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾. وثانيها: الجنايات على العقول وهي شرب الخمر وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالْإِثْمَ﴾. وثالثها: الجنايات على النفوس والأعراض والأموال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. ورابعها: الجنايات على الأديان والطعن في توحيد اللّه وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ﴾. وخامسها: الجنايات في الأحكام العمليّة كالحرام والحلال وإليه

١ـ سورة البقرة: ٢١٩.

الإشارة بقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فهذه أصول الجنايات والبواقي مندرجة تحت هذه الخمسة، لا جرم جعل سبحانه ذكرها جارياً مجرى ذكر الكلّ فصحّ كلمة «إنّما» وإنّما يعرف القرآن من خوطب به.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

أي: ولكلّ جماعة وأهل عصر مدّة من الحياة، فإذا جاء أجلهم وانقضت المدّة لا يتأخّرون عن الموت ولا يتقدّمون في وقوعه، وأتى بلفظ الساعة لأنّ هذا اللفظ أقلّ أسماء الأوقات ويعبّر عنها بالآن.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

لمّا ذكر في الآية السابقة ما يضرّهم من الأمور من المعاصي عقّبه بذكر ما ينفعهم من الأمور الدينيّة وخاطب جميع المكلّفين فقال: إن يأتكم رسل من جنسكم ويبيّنون رسالاتهم لكم، فمن لازم اقتفاءهم واتّقى نواهيهم وأصلح عمله بقبول قولهم فليس عليهم خوف في الدّنيا ولا هم يحزنون في الآخرة، والّذين استكبروا بحججنا وكذّبوا بآياتنا وخالفوهم فهم ملازمون النار ومخلّدون إلى الأبد. وإنّما قال: ﴿رُسُلٌ﴾ والخطاب إلى الرسول لأنّه أجرى الكلام على ما تقتضيه سنّته في الأمم.

واختلف الكلاميّون في أنّ المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوف وحزن عند أهوال القيامة؟ فذهب بعضهم إلى أنّه لا يلحقهم ذلك،

والدليل عليه قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾.[١]

وذهب بعضهم بأنّه يلحقهم الفزع لقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ...﴾[٢] وأجابوا عن آية ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بأنّ معناه أنّ أمرهم يؤول إلى العافية والسرور، كقول الطبيب للمريض: لا بأس عليك أي: أمرك يؤول إلى العافية وإن كان في الوقت في بأس من علّته.

ثمّ تمسكوا أصحاب السنّة بهذه الآية على أنّ الفاسق من أهل الصلاة لا يبقى مخلّداً في النار لأنّه تعالى قال في الجاحدين والمستكبرين: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وكلمة هم يفيد الحصر فذلك يقتضي أنّ من لا يكون موصوفاً بهذه الصفة لا يبقى مخلداً في النار.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

المعنى: فمن أعظم ذنباً ممّن يقول على الله ما لم يقله أو كذّب ما قاله لأنّ الأوّل افتراء وهو الحكم بوجود ما لم يوجد، والثاني التكذيب وهو الحكم بإنكار ما وجد، ثمّ إنّ الأوّل دخل فيه قول من أثبت للّه شريكاً، والثاني يدخل فيه من أنكر كون القرآن كتاباً نازلاً من عند الله.

ثمّ أوعد بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: العذاب المعيّن في اللّوح، والأقرب أنّ المراد ما كتب لهم من الأعمار والأرزاق. فإذا فنيت وانقرضت جاءتهم رسلهم يتوفّونهم وهم ملك الموت وأعوانه. قال الرسل لهم: أين الآلهة الّتي كنتم تعبدونها من دون الله؟ قالوا: ضلّوا وغابوا عنّا لا

١ـ سورة الأنبياء: ١٠٣.

٢ـ سورة الحج: ٢.

ندري أين مكانهم و﴿مَا﴾ في ﴿أَيْنَ مَا﴾ موصولة. ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ﴾ في الدنيا وعابدين لما لا يستحقّ العبادة أصلا.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هذه الآية شرح أحوال الكفّار بعد الموت قيل: القائل هو الله، وقيل: هو من كلام خازن النار: ادخلوا في النار مع امم وجماعة فحرف «في» بمعنى مع الّذين تقدّم زمانهم زمانكم وهذا المعنى يشعر بأنّ الله لا يدخل الكفّار بأجمعهم في النار دفعة واحدة بل يدخل الفوج بعد الفوج فيكون فيهم سابق ومسبوق ويشاهد الداخل من الأمّة في النار من سبقها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: مثلها في الدين والعقيدة فيلعن ويتبرّأ بعضهم من بعض مثل أنّ المشركين يلعنون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى وسائر فرق الكفر. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ادَّارَكُوا﴾ وتلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ دخولاً فيها ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ دخولاً أو التابعين للمتبوعين والسفلة للرؤساء «واللام» في قوله: ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ لام أجل أي: لأجل إضلالهم إيّاهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ لأنهم غرّونا بالدّعوة إلى الباطل متأسّيا بهم فيستدعون من الله أن يزيد العذاب على المتقدّمين لهم.

﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ وفي «الضِّعْفِ» اختلاف أقلها مثليه. قال الله: لكلّ من التابع والمتبوع عذاب مضاعف أي: كثير لأنهم قد دخلوا الكفر جميعاً ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ وقرء بالياء أي: لا يعلم كلّ فريق مقدار عذاب

الآخر، أو المعنى: أنتم يا أهل الدنيا لا تعلمون مقدار عذابهم.

فإن قيل: إن كان المراد من قوله لكلّ أحد ضعف ما استحقّوه فذلك غير جائز لأنّه ظلم وإن لم يكن المراد ذلك فما معنى كونه ضعفاً؟ فالجواب أنّ المراد من البيان أنّ عذاب الكفّار يزيد ولا يبقى على نهج واحد فكلّ ألم يحصل فإنّه يحصل عقبه ألم آخر إلى غير النهاية فكانت الآلام متضاعفة متزايدة لا إلى آخر، ولا ينافي هذا من أن يكون عذاب المضلّ ضعف عذاب الضالّ.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ أي: الرؤساء في الضلال والإضلال للتابعين: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: في ترك الكفر وأنّا مشاركون في الكفر واستحقاق العذاب ولو أنّ هذا الكلام منهم كذب ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يمكن أن يكون من قول الله، ويمكن أن يكون قول المتبوعين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)

بيّن سبحانه مقته ووعيده المكذّبين والمستكبرين بأوامره وشرح كيفيّة خلودهم، والمراد جميع أصناف الكفّار من منكري التوحيد والنبوّات لأنّ التكذيب يتناول الكلّ والاستكبار الترفّع بالباطل.

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرئ تفتح مخففة ومشدّدة، قال ابن عبّاس: لا تفتح لأعمالهم ولا يقبل منهم طاعة وهذا معنى قوله[١]: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[٢]

وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء وتفتح لأرواح المؤمنين،

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٧٦؛ وانظر: تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٥٤.

٢ـ سورة فاطر: ١٠.

ويؤيّد هذا المعنى هذا الحديث من أنّ روح المؤمن يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال لها: مرحباً بالنفس المطمئنّة الّتي كانت في الجسد الطيّب، ويقال لها ذلك حتّى تنتهي إلى السماء السابعة.

ويستفتح لروح الكافر فيقال لها: ارجعي ذميمة فإنّه لا يفتح لك أبواب السماء لأنّ الجنّة في السماء والسماء موضع بهجة الأرواح وأماكن سعاداتها ومنها ينزل الخيرات.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ وهذا وعيد شديد. «و السمّ» بالفتح والضمّ ثقب الإبرة، وقرء بالحركات الثلاث في السين وكلّ ثقب لطيف في كلّ شيء فهو سمّ وجمعه سموم ومنه السمّ القاتل «و الجمل» قرئ على أقسام، أمّا المعروف فالجمل وهو كالمثل السائر في عظم الجثّة و«ثقب الإبرة» أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل في تلك الثقبة محالا، فبيّن سبحانه أنّ هذا الأمر مشروط بوقوع هذا الشرط وأنّه محال فذلك محال.

قال ابن عبّاس «الجمل» على وزن «قمل» وقرء بوزن «القفل» وقرء بوزن «النصب» ومعناه القلس الغليظ للسّفينة. والحبل الغليظ أنسب إلى الإبرة.[١]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل هذا الّذي وصفناه ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين بآيات الله، ثمّ وصف المكان الّذي يدخلون فيه وهو جهنّم، ولهم بعد دخولهم غطاء ووطاء من النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم و«جَهَنّم» غير منصرف للعلميّة والتأنيث وهي من الجهامة وهي الغلظ لشدّة أمرها أو من الجهائم وهي بئر بعيدة القعر و«غَواشٍ» أصله «غواشي» حذف الياء للتخفيف وعوّضوا النّون.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ٧٧؛ والكشّاف للزمخشري، شرح ص ٧٨.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

في الآية ذكر الوعد بالخلود بالجنان. المعنى: والّذين صدّقوا وعملوا بأوامره أولئك أصحاب الجنّة مخلّدون فيها.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قيل: معترضة للتأكيد لبيان أنّ الإيمان والعمل الصالح أمر دون الوسع والطاقة وأنّ من استحقّ النار فمن نفسه وليس الإيمان أمر صعب لا يتمكّنون منه، والكفّار كانوا يتمكّنون أن لا يدخلوا النار، ثمّ بعد دخول المؤمنين الجنّة أخرجنا ما في قلوبهم من الحسد فلا يتحاسدون بعضهم بعضا بسبب ارتفاع درجة بعضهم من بعض فإنّ هذا أمر يوجب التباغض لكي يكونوا في غاية اللّذة.

وقال المؤمنون: الحمد الله الّذي أعطانا هذه النعمة وهدانا إلى الجنّة وما كنّا نرد هذا المكان المنيع لو لا هدايته وقبولنا الإيمان بنبوّة أنبيائنا، وجاءت رسل ربّنا بالحقّ بما بيّنوا لنا من كتابهم وشرعهم، ويناديهم مناد من قبل اللّه: هذه تلكم الّتي وعدتهم بها.

ويجوز أن يكون الخطاب منه سبحانه بأن يخلق كلاماً، وإنّما قال: ﴿تِلْكُمُ﴾ لأنّهم وعدوا في الدنيا بهذه اللذائذ، أورثتموها كما أنّ الميراث اختصاص لأهله من دون معارض كذلك لكم، أو المعنى: جعلها اللّه لكم بدلاً عمّا كان أعدّ للكفّار لو آمنوا.

روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: ما من أحد إلّا وله منزل في الجنّة ومنزل في النار

أمّا الكافر فيرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنّة وذلك قوله: «**أورثتموها بتوحيدكم وأعمالكم الصالحة**».

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿نَعَمۡ﴾ كلمة عدة وتصديق و«العوج» في الخلقة بفتح العين وفي الطريقة والدين بكسرها.

المعنى: وبعد استقرار أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار. قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ أتى بلفظ الماضي وسينادي لتحقّق الوقوع ينادي أهل الجنّة أهل النار أن قد وجدنا ما وعد ربّنا في الكتب على لسان الرسل حقّاً وحقيقة ثابتة فهل وجدتم ما قيل لكم من العذاب؟ قالوا: نعم فينادي مناد بينهم يسمع الفريقين. و«أن» قرئ مخفّفة ومشدّدة غضبه ولعنته على القوم الموصوفين بالكفر.

وقيل: إنّ المؤذّن خازن النار. وروي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنّه قال: المؤذّن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القميّ عن محمّد بن الحنفيّة عن عليّ عليه السلام أنّه قال: أنا المؤذّن قال ابن عبّاس: إنّ لعليّ عليه السلام في كتاب اللّه أسماء لا يعرفها الناس منها المؤذّن فهو يقول في ذلك: «**ألا لعنة الله على الظالمين الّذين كذّبوا بولايتي واستخفّوا بحقّي**».[1]

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٥٩؛ وبحار الأنوار، ج ٨ ص ٣٣١؛ والشواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٦٧.

المعنى: وبين أهل الجنّة والنار أو بين الفريقين حجاب هو المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾[1] له باب وهو الأعراف واختلف في الرّجال قيل: إنّهم الّذين ساوى حسناتهم وسيّئاتهم فحالت حسناتهم بينهم وبين النار وحالت سيّئاتهم بينهم وبين الجنّة فجعلوا هناك حتّى يقضي اللّه فيهم ما شاء، ثمّ يدخلهم الجنّة برحمته، عن ابن عبّاس وابن مسعود.

وروى الثعلبيّ في تفسيره أنّ الأعراف موضع عال على الصراط عليه حمزة والعبّاس وعليّ وجعفر يعرفون محبّيهم ببياض الوجوه.[2] وقيل: إنّهم الملائكة في صورة الرجال يعرفون أهل الجنّة وأهل النار ويكونون خزنة الجنّة والنار أو يكونون حفظة الأعمال الشاهدين بها في الآخرة وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: هم آل محمّد صلى الله عليه وآله لا يدخل الجنّة إلّا من عرفهم وعرفوه. ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه، وعن الحسن ومجاهد أنّ أهل الأعراف فضلاء المؤمنين. وقيل: إنّهم الشهداء وهم عدول الآخرة.[3]

وعن أبي عبد اللّه جعفر بن محمّد عليه السلام: «**أنّ الأعراف كثبان بين الجنّة والنار يتوقّف عليها كلّ نبيّ وخليفة نبيّ مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سبق المحسنون إلى الجنّة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى الإخوان المحسنين وقد سبقوا إلى الجنّة، فيسلّم المذنبون عليهم وذلك وقوله:** ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾».

ثمّ أخبر سبحانه أنّهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: يطمعون أن يدخلهم اللّه بشفاعة النبيّ والإمام وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار

١ـ سورة الحديد: ١٣.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٦١؛ وانظر: مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ج ١، ص ١٥٨؛ وتفسير التعلبي، ج ٤، ص ٢٣٥.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

المعنى: ثمّ ينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء أهل النار موبّخين ومقرّعين لهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ أي: هؤلاء المستضعفين والفقراء الّذين كنتم تستطيلون عليهم بدنياكم وتحقّرونهم؟

ثمّ يقولون لهؤلاء الفقراء عن أمر من الله لهم بذلك: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ويؤيّده ما رواه عمر بن شيبة وغيره: أنّ عليّاً قسيم الجنّة والنار[1] ورواه أيضا بأسناده عن النبيّ ﷺ إنّه قال: «**يا عليّ كأنّي بك يوم القيامة وبيدك عصا عوسج تسوق قوماً إلى الجنّة وأخرى إلى النار**».[2] وروى أبو القاسم الحسكانيّ بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال: كنت جالساً عند عليّ عليه السلام فأتاه ابن الكوّاء فسأله عن هذه الآية فقال: «**ويحك يا ابن الكوّاء نحن نوقف يوم القيامة بين الجنّة والنار فمن نصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنّة، ومن أبغضنا عرفناه بسيماه فأدخلناه النار**».

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني هؤلاء الرجال الّذين هم على الأعراف يعرفون جميع الخلق بسيماهم. وقوله: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يعني الّذين على

١ـ القسيم لغة المقاسم وهو من يأخذ قسمه من شريكه وعليه فكون أميرالمؤمنين قسيما للنار له معني محصل وأما أنه عليه السلام قسيم الجنّة ففيه خفاء. وأورد في البصائر، ص ١٢٢ روايات في هذا الباب فجاء في بعضها: «**قسيم الله بين الجنّة والنّار**» وفي بعضها: «**صاحب النار**» وفي بعضها: «**قسيم الجنّة والنار**».

٢ـ تفسير التبيان، للشيخ الطوسي، ج ٤، ص ٤١١؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٦٢.

الأعراف ينادون أصحاب الجنّة ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا التسليم تهنئة بما وهب اللّه لهم ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ أي: لم يدخلوا الجنّة بعد ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ طمع يقين مثل قول إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾ وهو قول الحسن وأبو علي.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

ذكر سبحانه كلام أهل النار أي: وسينادي أصحاب جهنّم أصحاب الجنّة ـ وأتى بلفظ الماضي لتحقّق وقوعه ـ: أن صبّوا علينا من الماء يسكّن به العطش ويدفع به حرّ النار أو من الطّعام الّذي رزقكم اللّه قال أهل الجنّة جواباً: إنّ اللّه حرّم الماء والطعام من الجنّة عليكم و«أو» هنا للإباحة مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، ويزيل اللّه عنهم ما يمنع الاستماع مع بعد المسافة، أو يقوّي اللّه أسماعهم وأصواتهم وهم الّذين اتّخذوا في الدنيا دينهم مشتهياتهم وما بالوا بأمر الدّين فحلّلوا ما شاؤوا في دنياهم فاليوم ننساهم أي: كما نسوا هذا اليوم فننساهم مجازاة على عملهم وجحودهم بآياتنا.

وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾

لمّا بيّن سبحانه حال هؤلاء الثلاثة من أهل الجنّة والنار والأعراف كأنّه

يقول لم فعلوا بأنفسهم هكذا؟ ونحن أتممنا عليهم الحجّة وجئناهم بكتاب على تفصيل يهدي إلى الرّشد والصلاح ويؤمّن عن الغلط والخبط، وهو هداية ورحمة لمن عمل به،؟ وذلك التفضيل وقع على طريق العلم والحكمة، ولمّا بيّن إزاحة العلة بتفضيل الكتاب بيّن حال المكذّبين به، فقال:

هل ينظرون أن يرون ما يؤول وينتهي أمرهم ويتوقّعون عاقبة ما وعدوا به؟ يوم يأتي عاقبته أي: يوم القيامة يقول الّذين تركوا العمل به ونبذوه وراء ظهورهم في الدّنيا ويعترفون بأنّه قد جاءت رسل ربّنا بالحقّ من ثبوت الحشر والمعاد والثواب والعقاب يقولون: فهل لنا من شفعاء ليشفعوا لنا؟ أو هل لنا رجعة في الدنيا فنعمل غير الّذي كنّا نعمل من الكفر والمعاصي؟ فيخبر الله عن حالهم بأنّ الّذي طلبوه لا يمكن، وقد أهلكوا أنفسهم وغاب وبطل عنهم مفترياتهم بزعمهم أنّ أصنامهم شفعاؤهم: أولا جنّة ولا نار.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

لمّا ذكر الله الكفّار وضلالتهم بيّن لهم ولغيرهم مصنوعاته ودلّهم بمقدوراته وحتّى يتبصّرون بالدلائل ويخرجون عن حالة العمى والضلالة فخاطب جميع الخلق بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأنشأ إبداعهما وأعيانهما في الست وأصله «سدس» أبدل السين الثانية تاء ولمّا كان مخرج الدّال والتاء قريباً ادغم الدال. في التّاء فصار ستّ وستّة، والدليل عليه أنّك تقول في تصغير ستّة: سديسة. فأبدعهما سبحانه لا من شيء ولا على مثال.

ثمّ أمسك السماء بلا عماد يدعمها وكذلك الأرض في ستّة أيام أي: في

مقدار ستّة أيّام لأنّ ذلك الوقت ما كان ليل ولا نهار فلمّا بيّن إبداعهما وخلقهما، والخلق معناه: تقدير الشيء على نحو معيّن، والعقل بالبداهة يحكم ويقضي بأنّ تقدير الشيء بمقدار معيّن لابدّ من مقدّر وإلّا يجوز الأزيد والأنقص كما جاز هو، فكونه بمقدار معيّن لا يكون إلّا بتقدير المقدّر الفاعل المختار.

ثمّ إنّ كون هذه الأجسام أي: الأجرام الفلكيّة والسماويّة متحرّكة في الأزل محال لأنّ الحركة انتقال من حال إلى حال فالحركة يجب وجودها أن يكون مسبوقة بحركة اخرى، والأزليّة ينافي المسبوقيّة، فكان الجمع بين الحركة والأزل محالاً قطعاً فإذا ثبت هذا الأصل فنقول: الأفلاك والكواكب والسماوات إمّا أن يقال: إنّ ذواتها كانت معدومة في الأزل ثمّ وجدت، أو يقال: إنّها كانت موجودة ذلك الوقت أو بعد ذلك الوقت، فإذا لم يكن كذلك ـ يعني لم تكن أزليّة لأنّ الأزليّة منافية مع الحركة والحركة مسلّمة ـ فاختصاص ابتداء تلك الحركة بتلك الأوقات المعنيّة تقديراً وخلقاً يدلّ ويلزم أن يكون بتقدير مخصّص قادر مختار وهو الله.

ودليل آخر: أنّ أجرام السماوات والكواكب والعناصر مركّبة من أجزاء صغيرة، ولابدّ أن يقال: إنّ بعض تلك الأجزاء حصلت في داخل تلك الأجرام وبعضها حصلت على سطوحها حتّى يتحقّق السطحيّة فاختصاص حصول كلّ واحد من تلك الأجزاء بحيّزه المعيّن ووضعه وشكله المخصوص لابدّ وأن يكون بتخصيص مخصّص قادر مختار.

ودليل آخر: أنّ كلّ واحد من الأفلاك أعلى من بعض وكلّا من الكواكب متحرّك أو الأفلاك متحرّكة إلى جهة مخصوصة وحركة مختصّة من البطيء والسرعة، وذلك خلق وتقدير ولا يكون التقدير إلّا من القادر المختار. وكذلك أنّ كلّ واحد من الكواكب مختصّ بلون مختصّ مثل كمودة زحل ودريّة

المشتري وحمرة المرّيخ وإشراق الزهرة وصفرة عطارد، والأجسام متماثلة في تمام الماهيّة فاختصاص كلّ واحد منها بلونه المعيّن دليل على افتقارها إلى فاعل متصرّف واضح.

ولا يتوهّم من قوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[1] تناقض لأنّه تعالى وإن كان قادراً على إيجاد جميع الأشياء دفعة واحدة لكنّه بحكمته جعل لكلّ شيء حدّاً محدوداً ولا يدخله في الوجود إلّا على ذلك الحدّ. وذلك أقوى دليل على كونها واقعة بإحداث محدث لأنّه إذا وقع دفعة واحدة ثمّ انقطع طريق الإحداث يخطر بالبال أنّه إنّما وقع على سبيل الاتّفاق أمّا إذا أحدث على التدريج والتعاقب يكون الدليل أكمل وأتمّ.

﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ بيان مقام القدرة، وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ﴾ مقام الفعل، ثمّ قد يكون بحسب المصلحة مقام الفعل أيضا يقع ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: تمّ واستقرّ ملكه بعد خلق السماوات والأرض وظهر ذلك للملائكة، واخرج الكلام على المتعارف من كلام العرب كقولهم: استوى الملك على عرشه، أي: انتظمت أمور مملكته كما إذا اختلّ أمر سلطنته يقال: شلّ عرشه. قال الشاعر الجاهلي:

إن يقتلوك فقد شلّت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

قال الفرّاء: معنى الآية: ثمّ بعد خلق السماوات والأرض قصد إلى خلق العرش. ويدلّ هذا المعنى حيث إنّ خلق العرش وقع بعد خلق السماوات. وأولى معاني الاستواء في الآية أن يفسّر القرآن. قال الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

١ـ سورة القمر: ٥٠.

﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾[١] أي: استتمّ شبابه وقال: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[٢] أي: استتمّ ذلك الزرع والمراد إتمام خلقة العرش العظيم فإنّه أعظم المخلوقات وجميع ما خلق ويخلق دنياً واخرى لا يخرج عن دائرة العرش، لأنّه حاو لجميع الممكنات حتّى الحجب والسرادقات، والحقّ سبحانه أعظم رتبة من كلّ عظيم.

وفي الآية تقديم وتأخير فيكون تقدير الآية: الّذي خلق السماوات والأرض هو الرّحمن ثمّ استوى على العرش «فالرحمن» مبتدأ وخبره مقدّم عليه وذلك الخبر هو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ كما تقول: الّذي جاءك زيد، ثمّ استوى على العرش اعتراض.

قال الرازي: لا يمكن أن يكون المراد منه أن يكون مستقراً على العرش لأنّ التحيّز والتناهي من بعض الجهات لازم للزّيادة والنقصان، والحدوث والتغيّر والخلأ والملأ كلّها محال على اللّه، فإنّه تعالى إذا تحيّز في جهة فالجهة الأخرى خالية عنه وهو إلى الجهة المتحيّز بها مفتقر إليها، والمحتاج ممكن لذاته وواجب الوجود غيره.[٣]

ثمّ لو كان الباري في حيّز وجهة لكان مشاراً إليه بحسب الحسّ وما يشار إليه إمّا يقبل القسمة أولا فإن كان لا يقبل القسمة كان نقطة وجوهر فرد وفي وجود جوهر الفرد وعدمه اختلاف، وأنّ إلهاً يكون في العالم يدبّر الكلّ ويخلق السماوات والأرض والعرش وهو في الصغر والحقارة مثلاً جزء من ألف جزء من رأس إبرة أو ذرّة فكلّ قول يفضي إلى مثل هذه التّرّهات

١ـ سورة القصص: ١٤.

٢ـ سورة الفتح: ٢٩.

٣ـ تفسيرالرازي، ج ١٤، ص ١٠١.

صراحة العقل يحكم بقبحه ويكون مثل هذا الإله كمثل ما هو أصغر من النملة بآلاف درجة.

وإمّا أن يقبل القسمة فيكون ذاته حينئذ مركّباً من أجزاء يقوّم بعضها بوجود بعض فذاك المقوّم يحتاج وجوده وكونه إلى هذا المقوّم وكلّ جزء من هذا المركّب يحتاج إلى جزء غيره حتّى يتحقّق الوجود بالتركيب وهو من لوازم الحدوث والإمكان والاحتياج والكلّ باطل فإنّ لوازم التركيب التجسّم والتجزّء والتفرّق والنموّ والذبول والكون والفساد، تعالى الله عن هذه الأمور.

وأمّا الدلائل السمعيّة فكثيرة أوّلها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] والأحد مبالغة في كونه واحداً.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[2] فلو كان الله في العرش لكان حامل العرش حاملاً للإله لزم أن يكون حافظاً ومحفوظاً وحاملاً ومحمولاً، وأنّ الله يمسك السموات. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾[3] وحكم لنفسه أنّه غنيّ على الإطلاق فوجب أن يكون غنيّاً عن الجهة والمكان، وإذا كان المراد من الاستواء الاستقرار والتحيّز لزم أن يكون قبل الاستقرار مضطرباً معوجاً، ويكون متّصفاً بصفة الأجسام من الانتقال والحركة والسكون ويكون قابلاً للأبعاد الثلاثة وكلّها مناف مع الجلالة الإلهيّة.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ فجعل ظلمة اللّيل على النهار بمنزلة الغشاوة واللباس للنهار ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ ويدركه سريعاً يأتي من أثره وعقبه.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ مذلّلات جاريات مطيعات

١ـ سورة الإخلاص: ١.

٢ـ سورة الحاقة: ١٧.

٣ـ سورة فاطر: ١٥.

بتدبيره فخلقهنّ بهذه الكيفيّة لمنافع الخلق، وقرئ مسخّرات بالنصب على الحاليّة.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وله الاختراع ويفعل بها ما يشاء ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تعالى بالوحدانيّة ثابتاً، وهو من بروك الإبل وثباته على الإناخة، وهو ربّ العوالم بأسرها.

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

لمّا ذكر الدلائل الدالّة على الوجود والقدرة أتبعه بذكر الأعمال اللائقة بتلك المعارف ليقوم العبد بوظائف العبوديّة وهي الاشتغال بالدّعاء والتضرّع فإنّ الدعاء مخّ العبادة فقال: ﴿ادْعُوا﴾ قال بعض: المراد: اعبدوا ربّكم. وقال آخرون: هو الدعاء، والأظهر أنّ المراد الدعاء. وبعض القاصرين في النظر أنكروا الدعاء واحتجّوا بحجج ضعيفة، قالوا: إنّ المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة في طلبه فإنّه إن كان قد أراد في الأزل إحداث ذلك المطلوب فهو حاصل سواء حصل هذا الدعاء أم لم يحصل، وإن كان قد أراد في الأزل المنع فهو ممتنع الوقوع فلا فائدة في الدعاء. وهيهات من القائلين بهذا القول عن العلم! ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1] ولو كان الأمر كما زعموا فهذا الحكم جار في جميع أنواع التكليف والعبادات فإنّه يقال: إن كان هذا الإنسان سعيداً في علم الله فلا حاجة إلى الطاعات وإن كان شقيّاً في علمه فلا فائدة في تلك العبادات، ويلزم فيه أن يترك ويبطل التكليف بل يجب أن لا يقدم

١ـ سورة الرعد: ٣٩.

الإنسان على أمر من أمور دنياه حتّى أكل الخبز لأنّه إن كان هذا الإنسان شبعان في علم اللّه لا حاجة له في أكل الخبز وإن كان جائعاً في علم اللّه فلا فائدة في أكل الخبز، فكما أنّ هذا الكلام باطل فذلك أيضاً باطل ببداهة العقل وأنّ هذا القول لا يجوّزه ذو دين من أهل الأديان.

والدعاء له فوائد كثيرة يفيد المعرفة في ذلّة السؤال والعبوديّة وهذا هو المقصد الأعلى من جميع العباد فإنّ الداعي لا يقدم على الدعاء إلّا إذا عرف نفسه محتاجاً إلى ذلك المطلوب الّذي يطلبه، وكونه عاجزاً عن تحصيله، ويعرف غنى ربّه ويسمع دعوته وهو قادر على دفع تلك الحاجة لو اقتضت المصلحة وهو رحيم، ويعرف عجز نفسه وقدرة ربّه فإذا كان الدعاء مستجمعاً لهذه الأمور لا جرم كان من أعظم أنواع العبادات.

ولا مقصود من جميع التكاليف إلّا معرفة عزّ الربوبيّة وذلّ العبوديّة، فإنّ التضرّع لا يحصل إلّا من الناقص في حضرة الكامل كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: **«ما من شيء أكرم على الله من الدعاء»** ثمّ قرأ صلى الله عليه وآله: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾».[1]

و«الضراعة» ضدّ الاستكبار ومعناه إظهار الذلّ الّذي في النفس، ومثله التخشّع يقال: «ضرع الرجل» إذا مال بإصبعه يميناً وشمالاً خوفاً وذلّاً.

و«الخفية» ضدّ العلانية و«الهمزة» في «الإخفاء» منقلبة من التاء و«الخفية» الرهبة والخوف والطمع فقوله ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ حال من الداعي، متضرّعين خائفين طامعين، ولابدّ للداعي من صونها عن الزناء المبطل لحقيقة العمل والخلوص.

وقرئ ﴿وَخِفْيَةً﴾ بكسر الخاء. قال بعض: إنّ الإخفاء معتبر في الدعاء

١ـ سورة الغافر: ٦٠.

لهذه الآية وظاهر الأمر للوجوب فإن لم يكن فلا أقلّ من الندب.

وقيل: إنّ التضرّع رفع الصوت و«الخفية» سرّاً وهمساً فيكون المعنى: ادعوا علانية وسرّاً، عن أبي مسلم ورواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره. وروي عنه ﷺ: خير الذكر الخفيّ وخير الرزق ما يكفي.

وبالجملة لعلّ الحكم على أن يكون إذا كان الداعي واثقاً بنفسه عن الرياء كان الأولى في نفسه الإظهار لتحصيل فائدة الاقتداء وظهور الذلّة، وإن كان غير واثق من نفسه بوقوع الريا فالأولى إخفاؤه بل عليه إخفاؤه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ قيل: معناه هو الصياح في الدعاء خارجاً عن المعتاد، وقيل: معناه يعرف الداعي طلبه ومقامه ولا يطلب منازل الأنبياء ومقامهم في الدعاء. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولا تعلموا شيئاً من المفاسد من القتل للنفوس والغصب في الأموال والسرقة ووجوه الحيل، وفي الأديان بالبدعة، وفي الأنساب بالزناء وإفساد العقول بالمسكرات فإنّ عمدة مصالح المعتبرة في الدنيا هذه الخمسة، ومراعاتها وهي النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول فقوله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟﴾ منع إدخال ماهيّة الفساد والإفساد في الوجود والمنع من إدخال الماهيّة في الوجود يقتضي المنع من جميع أبوابه.

﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ أي: بعد أن هيّأنا أسباب صلاحها بسبب إرسال الرسل وإنزال الكتب، أو بعد أن صلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق ومصالح المكلّفين فكونوا منقادين.

وهاهنا مسألة: وهي أنّ المتكلّمين اتّفقوا على أنّ من عبد ودعا لأجل الخوف من العقاب والطمع في الثواب لم يصحّ عبادته وظاهر الآية في قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يقتضي أنه أمر المكلف بأن يأتي بالدعاء لهذا الغرض

فكيف طريق التكليف؟.

وذلك لأنّ المتكلّمين فريقان: الأشاعرة ومنهم أهل السنّة يقولون: التكاليف إنّما نزلت لأجل الإلهيّة والعبوديّة فكوننا عبيداً أو كونه إلهاً لنا يقتضي أن يحسن منه أن يأمر عبيده بما شاء كيف شاء فلا يعتبر منه كونه في أنفسها حسناً وصلاحاً.

والفريق الثاني: المعتزلة وهم يقولون: التكاليف إنّما وردت لكونها في أنفسها مصالح. إذا عرفت هذا فعلى القول الأوّل توجّه وجوب بعض الأعمال وحرمة بعضها بمجرّد أمر اللّه ونهيه ممّا أوجبه ونهاه فمن أتى بهذه العبادات حيث إنّه أمر بها صحّت، أمّا من أتى بها خوفاً من العقاب أو طمعاً في الثواب وجب أن لا يصحّ لأنّه ما أتى بها لأجل وجه وجوبها.

وأمّا على قول المعتزلة فوجه وجوبها هو كونها في أنفسها مصالح، فمن أتى بها للخوف من العقاب أو للطّمع في الثواب فلم يأت لأجل وجه وجوبها فوجب أن لا تصحّ.

والتوفيق بين الآية والقول أنّ المراد من قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الخوف من وقوع التقصير في الشرائط المعتبرة في الامتثال الذي وقع الطمع في حصول الشرائط وقبولها بكرمه وفضله فحينئذ حصل التوفيق، ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.[1]

والاختلاف بين الأشاعرة والمعتزلة ليس في مسألة وعشرة، وإنّما هي في مسائل كثيرة. منها في الحسن والقبح هل هو شرعيّ أمّ عقليّ.

منها في الكلام هل هو قديم أو حادث، والأشاعرة يقولون بقدم الكلام لأنّه تعالى يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وميّز بين الخلق والأمر مخلوقاً لما

١ـ سورة المؤمنون: ٦٠.

صحّ هذا التميّز والعطف. وردّ أبو عليّ الجبّائيّ بأنّه لا يلزم من إفراد الأمر في الذكر عقيب الخلق أن لا يكون الأمر داخلاً في الخلق بل هو داخل في الخلق قال الله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[1] مع أنّ آيات الكتاب داخلة في القرآن وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[2] مع أنّ الإحسان داخل في العدل وكذلك قال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[3] وهما داخلان في الملائكة.

ومنهم قول الكعبيّ: إنّ مدار حجّتهم على أنّ المعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه وأنّه تعالى قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾[4] وعطف الكلمات على الله فوجب أن يكون الكلمات غير الله، وكلّ ما كان غير فهو محدث مخلوق فوجب أن يكون الكلام محدثاً مخلوقاً.

وقال القاضي عبد الجبّار: أطبق المفسّرون على أنّه ليس المراد بالأمر في الآية كلام التنزيل بل المراد نفاذ إرادة الله[1] فإذا سقطت الحجّة وانقطع الدليل.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذكير القريب باعتبار المعنى من الرحمة وهو الغفران والعفو أو باكتساب التذكير من المضاف إليه كقوله: «إنارة العقل مكسوف بطوع هوى» أو صفة لمحذوف أي: أمر قريب أو بمعنى الذات كما قالوا: امرأة طالق وحائض، وذكر القريب لتحقّق وقوعه ولو في الآخرة فإنّ ما هو آت قريب.

١ـ سورة الحجر: ١.

٢ـ سورة النحل: ٩٠.

٣ـ سورة البقرة: ٩٨.

٤ـ سورة الأعراف: ١٥٨.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٢٣.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾

لمّا ذكر دلائل التوحيد من بيان العالم العلويّ من السماوات والعرش والشمس والقمر والنجوم أتبعه في هذه الآية بذكر بعض أحوال العالم السفليّ ومن آثار العلويّة كالرياح والسحاب والأمطار يترتّب وجود النبات والثمار، ويحصل للإنسان معرفة المبدء والمعاد والنشر والبعث والقيامة وتجديد الأوضاع. قرء «الريح» على لفظ الواحد، وقرء بلفظ الجمع «رياح» وفي الواحد أيضاً معنى الجمع الجنسيّة.

وقرئ «نشر» بالنّون مضمومة والشين مضمومة وهو جمع نشور مثل رسل ورسول، فيكون المعنى: رياح منشّرة أي: مفرّقة، والقراءة المعروفة بالباء الموحّدة جمع بشير من قوله: ﴿يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[1] تبشّر بالرّحمة أي: المطر، ومرسلها وناشرها هو الله وقد وصفوا الريح بأنّه هواء متحرّك، ولو كان كما يقولون فكون هذا الهواء متحرّكاً ليس لذاته ولا للوازم ذاته وإلّا لدامت حركته بدوام ذاته فلابدّ بتحريك الفاعل جلّ جلاله.

قالت الفلاسفة: هاهنا سبب آخر: وهو أنّه يرتفع من الأرض أجزاء أرضيّة كالهباء تسخّنه الشمس تسخيناً قويّاً شديداً فسبب تلك السخونة ترفع وتتصاعد فإذا وصلت إلى القرب عن الفلك كان الهواء الملتصق بمقعّر الفلك متحرّكاً على استدارة الفلك بالحركة المستديرة التي حصلت لفلك الطبقة من الهواء ويمنع هذه الأدخنة والأجزاء من الصعود بل يردّها عن سمت حركتها

١ـ سورة الروم: ٤٦.

فحينئذ ترجع تلك الأدخنة والأجزاء فتتفرّق في الجوانب وبسبب ذلك التفرّق تحصل الرياح ثمّ كلّما كانت الأدخنة أكثر وكان صعودها أقوى كان رجوعها أيضاً أشدّ فكانت الرياح أقوى.

وهو باطل لوجوه وذلك لأنّ صعود الأجزاء الأرضيّة إنّما يكون لأجل شدّة تسخينها، ولا شكّ أنّ ذلك التسخين عرض لأنّ الأرض باردة يابسة بالطبع فإذا كانت الأجزاء الأرضيّة متصعّدة جداً كانت سريعة الانفعال فإذا تصاعدت ووصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء امتنع بقاء الحرارة فيها بل تبرد جداً، وإذا بردت امتنع بلوغها في الصعود إلى الطبقة الهوائيّة المتحرّكة بحركة الفلك فبطل ما ذكروه من السبب.

الثاني: من الوجوه أنّ حركة تلك الأجزاء الأرضيّة النازلة لا تكون حركة قاهرة فإنّا نشاهد أنّ الرياح إذا هبّت حركت الغبار الكثير، ثمّ عاد ذلك الغبار ونزل على السطوح لم يحسّ أحد نزولها، ونرى هذه الرياح تارة تقلع الأشجار وتهدم الجبال وتموّج البحار فلو كان هبوب الرياح من طبيعة الصعود والنزول من الأجزاء فهذه الطبيعة مستقرّة دائمة فيكون الأثر على نهج واحد إمّا على رخاء دائماً وإمّا على عصف دائماً وليس كذلك لأنّا نرى أنّ الشمعة في فصل مخصوص لا تطفؤ بالرّيح ونرى بذلك الفصل المخصوص أنّ الشجرة انقلعت من الرياح.

الوجه الثالث: أنّه لو كان الأمر على ما قالوه لكانت الرياح كلّما كانت أشدّ وجب أن يكون حصول الأجزاء الغباريّة أكثر، وليس الأمر كذلك لأنّ الرياح قد يشتدّ عصوفها في وجه البحر، والحسّ يدرك أنّه ليس في ذلك الهواء المتحرّك العاصف شيء من الغبار والكدرة أصلاً. وكذلك نرى في الأرض بعض الأوقات مع هبوب العواصف لا يكون غبار أصلا فبطل بهذا

الوجه العلّة الّتي ذكروها في حركة الرياح.

ثمّ إنّ المنجّمين قالوا: إنّ قوى الكواكب هي الّتي تحرّك هذه الرياح وتوجب هبوبها، وهذا أيضاً ليس بشيء لأنّ الموجب لهبوب الرياح إن كان طبيعة الكواكب وجب دوام الهبوب، وإن كان هو طبيعة الكوكب بشرط حصوله في البرج المعيّن والدرجة المعيّنة وجب أن تتحرّك حينئذ هواء كلّ العالم لأنّا نرى أنّ في شيراز رياح عاصفة وفي خارجها بمقدار فرسخ لم يكن نسيم فضلاً عن رياح فلا يكون إلّا بأمر الفاعل القيّوم يأمر الملك والملكوت.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: بين يدي المطر، والعرب يستعمل «اليد» في معنى التقدمة والقرب على سبيل المجاز واستعمل لفظ «اليد» لأنّها مقدّمة للمطر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أقل فلأن الشيء إذا حمله أي: إلى أن حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء فإنّ السحاب الكثيف متضمّن للمياه الكثيرة وهو يبقى معلّقاً في الهواء، ودبّر بحكمته أن يحرّك الرياح تحريكاً شديداً فلأجل الحركات الشديدة ينضمّ أجزاء السحاب بعضها إلى بعض ويتراكم، وينعقد السحاب الكثيف الماطر، وبسبب تلك الحركات يمتنع الأجزاء المائيّة من النزول دفعة واحدة ولا جرم يبقى السحاب معلّقاً في الهواء ويسوقه الرياح في موضع إلى موضع علم اللّه صلاحه وللمطر استحقاقه وحرمانه.

ثمّ إنّ الرياح تارة تكون جامعة لأجزاء السحاب وانضمامها وتارة لتفريقها ومبطلة لها، وتارة مقوّية للزّرع مكمّلة للنشوء والنماء وهي اللواقح وتارة مبطلة لها كرياح الخريف، وتارة مهلكة كالسموم أو من البرد الشديد، وتارة شرقيّة، وتارة غربيّة وشماليّة وجنوبيّة ومن جانب دون جانب فلو كان المنشأ والسبب كسب هواء المجاور لمقعّر الفلك، وسرعة حركة المقعّر فوجب حدوث الرياح فمن أين يحصل هذه الكيفيّات المتبائنة من الرياح؟ مع أنّ مدار حركة الفلك على نهج

واحد فإذن لابدّ وأن يكون الرياح على نهج واحد.

قيل: إنّ الرياح ثمانية: أربعة منها عذاب: وهو العاصف والقاصف والصرصر والعقيم. وأربعة منها رحمة: الباشرات والمبشّرات والمرسلات والذاريات.

قال السدّيّ: إنّه يقال: يرسل الرياح فيأتي بالسحاب ثم يبسطه في السماء ويفتّح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثمّ يمطر السحاب ويكون السحاب للماء كالغربال فيمطر، ولو ينزل الماء بغير هذا الترتيب لأفسد الزرع.

﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ نسوق السحاب إلى مواضع من الفلاة والأرض ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ الضمير يرجع إلى البلد أو بالسحاب لأنّ السحاب آلة لإنزال الماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بهذا الماء أو بهذا البلد المسقيّ من كلّ أنواع الثمر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أخرجنا الثمرات ونحييها ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لكي تتذكّرون حالة البعث والنشور.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أرض الطيّب ترابه يخرج زروعه حسناً نامياً زاكياً بأمر الله ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ كأرض السبخة لا يخرج منها إلّا شيئاً قليلاً لا يفيد.

وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر فالمؤمن شبّهه الله بالأرض الطيّبة والكافر بالأرض الخبيثة فإنّ الروح الطاهرة إذا اتّصل بها نور القرآن ظهرت فيها أنواع الخير والطاعة، والروح الخبيثة الكدرة وإن اتّصل بها نور القرآن لم يظهر فيها المعارف الإلهيّة والأخلاق الحميدة إلّا اليسير.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ فمثل هذا المثل بيّنّا الشواهد والدلائل ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الله ويعرفون قدر نعمه.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

قال الصادق عليه السلام «**عاش نوح ألفي وخمسمائة سنة، ثمان مائة سنة قبل أن يبعث وألف سنة إلّا خمسين عام وهو يدعوهم، ومأتي سنة يعمل السفينة وخمسمائة بعد الطوفان**».[1]

لمّا ذكر سبحانه دلائل توحيده ذكر في هذه الآية أحوال من أنكر وعاند تسلية لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وتثبيتاً له على الأذى من قومه.

و«اللّام» للقسم وهذه اللّام غالباً تتّصل «بقد» و«قد» تأكيد وتحقيق للكلام وتقديره: وباللّه حقّاً أقول إنّا بعثنا نوحاً إلى قومه وامّته.

وهو أوّل نبيّ بعد إدريس جدّه قيل: إنّه كان نجّاراً ولد في العام الّذي مات فيه آدم، وبعد أن بعث للنبوّة كان يدعوهم ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعاؤه إلّا فراراً وكان يضربه قومه حتّى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: «اللّهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون».

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قيل كان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة، وبعث بالنبوّة حين كان عمره مائتين وخمسين، ويدعو قومه تسعمائة وخمسين، وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة، وأمر قومه بعبادة اللّه وحده.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ولم يقل على سبيل القطع لأنّه احتمل وجوّز أن يؤمنوا، والمراد بالعذاب العظيم عذاب يوم القيامة ويحتمل أن يكون مراده عذاب الطوفان.

١ـ الكافي، للشيخ الكليني، ج ٨، ص ٢٨٤.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وهم الأشراف الّذين يملؤون المجلس بتجمّعهم وحواشيهم وتمتلئ العيون والقلوب من جلالتهم وهيبتهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ وهذه الآية بمعنى الاعتقاد لا المشاهدة.

فأجاب عليه السلام ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أي: ليس بي نوع من أنواع الضلالة، وهذه العبارة أبلغ في عموم السلب. ووصف نفسه بأشرف الأوصاف وهو النبوة فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأعلم أموراً لا تعلمون كالعذاب والطوفان وأحبّ لكم ما أحبّ لنفسي وأنصح لكم في أمور دينكم.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

الهمزة للاستفهام دخلت على واو العطف فبقيت مفتوحة كما كانت، أي: وهل تعجّبتم على بشر مثلكم أن جاء بكم وأتى بكتاب أو معجز أو أمر يأمركم وينهاكم. ومنشؤ عجبهم ونسبتهم الضلال إلى نوح أنّ التكليف لا منفعة له للمعبود وكلّ ما يرجى فيه من الثواب ودفع العقاب فالله قادر أن يعطيه بدون واسطة تكليف فالتكليف عبث.

وقال بعضهم من الملأ: ما علم حسنه بالعقل فعلناه وما علمنا قبحه تركناه، ومالا نعلم حسنه ولا نعلم قبحه فإن كنّا مضطرّين إليه فعلناه لعلمنا أنّه متعال عن أن يكلّف عبده مالا يطاق وإن لم نكن مضطرّين تركناه فأي: حاجة إلى الرسول وبتقدير أن يكون الرسول لازماً فيكون من جنس الملائكة لأولويتهم وأكمليّتهم واستغنائهم عن المأكول والمشروب وبعدهم عن الكذب.

وظنّ آخرون منهم أنّ ما يدّعي نوح فهو من جنس التخيّلات والجنون فلهذه العقائد الفاسدة نسبوا نوحاً إلى الضلالة وكذّبوا نوحاً فيما دعاهم إليه

فخلّصناه ومن كان معه في السفينة من المؤمنين وأغرقنا الّذين كذّبوا بآياتنا في الماء. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحقّ يقال: «رجل عمي» إذا كان أعمى القلب ورجل أعمى أي: بلا بصر.

قال الصادق عليه السلام: «آمن مع نوح ثمانية، وكان الرجل يأتي بابنه وهو صغير فيقيمه على رأس نوح فيقول: يا بنيّ إن بقيت بعدي فلا تطيعنّ هذا المجنون وكانوا يحملون إلى نوح ويضربونه حتّى تسيل مسامعه دماً، وحتّى لا يعقل شيئاً ممّا يصنع به فيثور ويرمى به إلى بيته وعلى باب داره مغشياً عليه، وكذلك يفعل به، فأوحى الله إليه أنّه لن يؤمن قومك إلّا من آمن فعندها أقبل في الدعاء عليهم ولم يكن دعا عليهم قبل ذلك فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[1] فأعقم الله أصلاب الرجال وأرحام النساء، ولبثوا أربعين سنة لا يولد لهم ولد وقحطوا في تلك الأربعين سنة حتّى هلكت أموالهم وأصابهم الجهد والبلاء، ثمّ قال لهم نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[1] فجاوبوه وقالوا ﴿لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾[2] يعنون أصنامهم وآلهتهم».

وسيأتي إن شاء الله قضيّة السفينة في سورة هود على التفصيل.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥)

عطف على قصّة نوح أي: وأرسلنا إلى قوم عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿هُودًا﴾ فقال لهم هود: يا قوم لا تعبدوا الأصنام واعبدوا الله ليس إله موجود غير الله أفلا تتّقون الشرك والعذاب؟ وكان قوم هود بالأحقاف وهو الرمل الّذي بين حضرموت إلى عمّان، ودعوة هود كدعوة نوح إلّا أنّ نوح هدّدهم بعذاب عظيم ولكنّ

١ـ سورة نوح: ٢٦.

١ـ سورة نوح: ١٠.

٢ـ سورة نوح: ٢٣.

هود حذّرهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أن يرد عليكم مثل ما ورد على قوم نوح.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)﴾

في قصّة نوح كانت هي ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وفي هذه الآية ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، لأنّ في أشراف قوم نوح ما كان مؤمن ولكن كان في أشراف قوم هود مؤمن مثل مرثد بن سعد الحميريّ كان مؤمناً لكن يكتم إيمانه فاريدت التفرقة بالبيان. ثمّ فرق آخر في الآية أنّ قوم نوح نسبوه إلى الضلال حيث إنّه يأمرهم بأمر النبوّة ويتعب نفسه غاية في القول والعمل بتعب اشتغال السفينة فنسبوه إلى الضلال، وهود ما اشتغل بتعب البدن بل تعبه مشقّة القول الغير المسموع فنسبوه إلى قلّة العقل والسفاهة «والظنّ» هنا بمعنى اليقين كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[1].

ثمّ فرق آخر بين قول نوح وهود، فنوح أدّى عبارة أنصح بصيغة الفعل فقال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ للدلالة على التجدّد والحدوث ساعة فساعة وهود عليه السلام أتى الكلام بصيغة الاسم فقال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ لأنها دالّة على الثبات والاستمرار هكذا قال الشيخ عبد القاهر النحويّ في كتاب دلائل الإعجاز في القرآن.

ثمّ وصف نوح نفسه بالعلم حيث قال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأنّه كان عالماً بوقوع العذاب، وهود وصف نفسه بالأمانة في النصح لأنّ نوح كان أعظم منصباً في النبوّة من هود.

١ــ سورة البقرة: ٤٦.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ مرّ تفسيره: قبيل هذا. قوله: ﴿وَاذْكُرُوا﴾ بيّن نعمه عليهم لوجوب الشكر بأن جعلهم خلفاء للسابقين بأن أورثهم أرضهم وديارهم وما يتّصل لهم من المنافع الّتي كان قوم نوح ينتفعون بها. ﴿وَزَادَكُمْ﴾ عنهم البسطة في الجسم والقوّة قال الكلبيّ: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستّين ذراعاً.[1] وقال آخرون فضّلوا من غيرهم مقدار مما تبلغه يد إنسان إذا رفعها، ففضّلوا أهل زمانهم هذا المقدار فاذكروا نعم الله وآلاءه واعملوا عملا يليق بالإنعامات لكي تفلحوا.

قال الواحديّ: مفرد الآلاء ألي وألو وإلي. قال الأعشى:

أبـــيض لا يرهـــب الهـــزال ولا يقطـــع ولا يخـــون إلـــي

ونظير الآلاء في المفرد والجمع الآناء.[1]

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٥٧؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٨٦.

١ـ المصدر السابق، ص ١٥٨.

لمّا بيّن لهم هود عليه السلام أنّ عبادة الأصنام لا تفيد ولابدّ أن يعبدوا اللّه وذكر لهم نعماء اللّه عليهم ولم يكن للقوم حجّة تمسّكوا بالتقليد فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الحمقاء ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وتخوفنا به لأنّ هوداً قد هدّدهم بالوعيد قال هود قد وقع عليكم من ربّكم وقد جعل هود المتوقّع الّذي لابدّ منه بمنزلة الواقع نظير قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾(١) والمراد من الرجس: العذاب. أتناظرونني في أسماء وأصنام صنعتموها بأيديكم واخترعتم أنتم وآباؤكم؟ ونسبتم لبعضها أنّه يشفي المريض، وللآخر يسقي المطر، وللآخر يأتي بالرزق وللآخر يصحبهم في السفر، وأمثال هذه الخرافات والحالة أنّ اللّه ما نزّل لها قدرة وحجّة.

ثمّ ذكر لهم هود وعيداً مجدّداً فقال: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

ثمّ أخبر سبحانه عن خاتمة هذه الواقعة بأن أهلكناهم بعذاب الاستيصال، وقطع الدابر الّذي هو الريح العقيم، وأنجى هوداً والمؤمنين معه برحمته وفضله وما كانوا مؤمنين لعلمه تعالى بأنّهم لو بقوا لم يؤمنوا أيضا.

وقصّة هود على ما ذكرها السدّيّ ومحمّد بن إسحاق أنّ عاداً كانوا ينزلون اليمن والأحقاف وهي رمال يقال لها رمال عالج معروفة والدهناء ويبرين ما بين عمّان وحضرموت، وكان لهم زرع ونخيل ولهم أعمار طويلة وأجساد عظيمة وكانوا أصحاب أصنام.

فبعث اللّه هوداً إليهم نبيّاً وكان من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فدعاهم إلى التوحيد فكذّبوه وآذوه فأمسك اللّه عنهم المطر سبع سنين أو ثلاث سنين حتّى قحطوا وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل عليهم البلاء التجأوا إلى بيت اللّه الحرام بمكّة مسلمهم وكافرهم.

١ـ سورة النحل: ١.

وأهل مكّة يومئذ العماليق من ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح. وكان سيّد العمالقة إذ ذاك بمكّة رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت امّة من عاد فبعث عاد وفداً إلى مكّة خارجاً من الحرم فأكرمهم وأنزلهم وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمور فلمّا رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوثّون من البلاء الّذي نزل عليهم شقّ ذلك عليه، وقال: هلك أحوالي، وهؤلاء ضيفي أستحيي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه فشكى إلى امرأتين وهما الجرادتان كانتا تغنّيانهم، فقالت الجرادتان له: قل شعرا نغنّيهم به لا يدرون من قاله، فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم لأمر ... لعلّ اللّه يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إنّ عاداً ... قد أمسوا ما يبينون الكلاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
قبيح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقّوا التحيّة والسلاما

فلمّا غنّتهم الجرادتان بالأبيات قال بعضهم لبعض: إنّما بعثكم قومكم يتغوثّون بكم من البلاء فادخلوا هذا الحرم فاستقوا لهم فقال لهم رجل منهم قد كان آمن بهود سرا: واللّه لا تسقون بدعائكم ولكن إنّ أطعتم نبيّكم سقيتم فزجروه وخرجوا إلى مكّة يستسقون لها بعاد.

وكان رئيس وفد عاد رجل اسمه قيل بن عمز. فقال: يا إلهنا إن كان هود صادقاً فاسقنا فإنّا قد هلكنا فأنشأ اللّه سحاباً ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء.

ثمّ ناداه مناد من السماء: يا قيل اختر لقومك ولنفسك فاختار السحابة السوداء الّتي فيها العذاب فساق اللّه تلك السحابة بما فيها من النقمة إلى عاد، فلمّا رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا، فقال اللّه: بل هو ما

استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم فسخّرها الله سبع ليال وثمانية أيّام حسوماً أي: دائمة فلم تدع من عاد أحداً إلّا أهلك. واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه إلّا ما يليّن عليه الجلود وتلتذّ النفوس وإنّها لتمرّ على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وروي أبو حمزة الثماليّ عن سالم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إنّ لله بيت ريح مقفّل عليه لو فتح لأذرت ما بين السّماء والأرض، ما أرسل على قوم عاد إلّا قدر خاتم**».

وكان هود وشعيب وإسماعيل ونبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله يتكلّمون بالعربيّة.[1]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

المعنى: وإلى ثمود عطف على هود ونوح أي: كما أرسلنا نوحاً وهوداً أرسلنا صالحا. والأخ يأتي بمعنى الصاحب وقرابة القبيلة ومن العشيرة يطلق عليه الأخ.

وثمود هو ثمود بن عاشر بن إرم بن سام بن نوح. وصالح عليه السلام كان من ولد ثمود، وثمود سمّيت لقلّة مائها أو لا سم أبيهم الأكبر، وثمود استعملت منصرفة وغير منصرفة بتأويل القبيلة والحيّ. قال الله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[1] قال لهم صالح: يا قوم اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٨٩؛ وبحار الأنوار، ج ١١ ،ص ٣٤٦؛ وتفسير الصافي، ج ٢، ص٢١٢.

١ـ سورة هود: ٦٨.

ثمّ ذكر البيّنة ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ دلالة، لأنّ ثمود طالبوه بالمعجزة على صحّة نبوّته فقال: ما تريدون؟ قالوا: تخرج معنا في عيدنا ونخرج أصنامنا وتسأل إلهك ونسأل أصنامنا فإذا ظهر أثر دعائك اتّبعناك، وإن ظهر أثر دعائنا تتبعنا.

فخرج صالح معهم فسألوه أن يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معيّنة بين الجبلين فأخذ منهم المواثيق أنّه إن فعل ذلك آمنوا فقبلوا بأجمعهم فصلّى ركعتين ودعا الله فتمخّضت تلك الصخرة كما تتمخّض الحامل، ثمّ انفرجت وخرجت الناقة من وسطها وكانت عظيمة الجثّة، وكان الماء عندهم قليلاً وجعلوا ذلك الماء بالكلّيّة شرباً لها في يوم وفي اليوم الثاني شرباً لكلّ القوم حسب ما اشترط معهم صالح.

قال السدّي: وكانت الناقة في اليوم الّذي تشرب فيه الماء تمرّ بين الجبلين فتعلوهما، ثمّ تأتي فتشرب فتحلب ما يكفي الكلّ، وكأنّها تصبّ اللّبن صبّاً وفي اليوم الّذي لا تشرب لا تأتيهم وكان لها فصيل.

فقال لهم صالح: يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم على يده فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم، ثمّ ولد العاشر فأبى أنّ يذبحه أبوه فنبت سريعاً.

ولمّا كبر الغلام جلس مع قوم يصبّون من الخمر، فأرادوا ماء يمزجونه به وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا الماء واشتدّ ذلك عليهم، فقال الغلام: هل لكم أن أعقر الناقة؟ فرضوا فشدّ عليها فلمّا بصرت الناقة به هربت إلى خلف صخرة فأحاشوها عليه فلمّا مرّت به تناولها فعقرها فسقطت، وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[1] وأظهروا حينئذ كفرهم وبغيهم وعتوا عن أمر ربّهم.

١ـ سورة القمر: ٢٩.

فقال لهم صالح: إنّ آية العذاب أن تصبحوا غداً حمراً واليوم الثاني صفراً واليوم الثالث سوداً فلمّا صبّحهم العذاب تحنّطوا واستعدّوا.(١)

ثمّ إنّ كون الناقة معجزة وآية لا من جهة بل من جهات:

الأولى: أنّ يوم مجيئها للشرب لا تأتي الحيوانات للشرب ويوم لا تأتي فتأتي الحيوانات للشرب.

والثانية: أنّ يوم شربها تحلب من اللّبن مقدار يكفيهم جميعاً.

والثالثة: خروجها من الصخرة بكمالها مرّة واحدة لا من ذكر وأنثى بل من صخرة صمّاء.

وإنّما قال: ﴿لكُم﴾ لأنّهم اقترحوا هذا النوع من المعجزة ولو أنّها معجزة لكلّ أحد، ونسبة الناقة إلى الله نسبة التشريف مثل بيت الله.

ثمّ قال لهم صالح: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: لا تطردوها ولا تؤذوها. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ لأنّه لمّا أهلك الله عاداً عمّر ثمود بلادها وخلّفوهم في الأرض بين الحجاز والشام. ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ أنزلكم منزلهم تتّخذون من سهولة الأرض قصوراً ومنازلاً لأنّ القصور تبنى من الطين والآجر واللبن ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ﴾ والصخر أبنية مسقّفة ﴿بُيُوتًا﴾ النّصب على الحال كقولك: أبر هذا القصب قلما، وكانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وهذا يدلّ على أنّهم كانوا متنعّمين. واذكروا نعماء الله عليكم ولا تجاوزوا عن حدود الصلاح إلى الفساد في الأرض.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٦٢؛ وجامع البيان، ج ٨ ص ٢٩١؛ وتاريخ الطبري، ج ١، ص١٥٨.

مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟
فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى
وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

قال الأشراف والأغنياء من قوم صالح للمساكين منهم الّذين آمنوا بصالح، وسألوا عن الفقراء عن حال صالح في نبوّته، فقال الفقراء: نحن موقنون أنّ صالحاً نبيّ وأنّ ما جاء به حقّ، فقال المستكبرون: بل نحن كافرون بما جاء به.

﴿ فَعَقَرُوا۟ ﴾ العقر ضرب عرقوب[1] البعير ولمّا كان العقر سبباً للنحر أطلق على النّحر لاسم السبب على المسبّب وأسند العقر إلى جميعهم لأنّه كان يرضاهم مع أنّه ما باشره إلّا العاقر وهو قدار بن سالف فأخذتهم الزلزلة العظيمة.

فأصبحوا في منازلهم جاثمين كبروك الإبل، وهذه الحالة للإبل تسمّى البروك، وللنّاس والطير تسمّى جثوماً أي: موتى لا يتحرّكون، ومنه المجثّمة الّتي جاء النهي عنها وهي البهيمة الّتي ترتبط لترمى، فالجثوم عبارة عن الخمود والسكون.

قيل: لمّا سمعوا الصيحة العظيمة تقطّعت قلوبهم وماتوا جاثمين على الركب.

وقيل: بل سقطوا على وجوههم. وقيل: وصلت الصاعقة إليهم فاحترقوا. وقيل: وقت نزول العذاب عليهم سقط بعضهم على بعض.

١ــ العرقوب: عصب غليظ فوق العقب.

فلو قيل: كيف يمكن أنّ القوم لمّا عقروا الناقة وشاهدوا تلك المعجزة العظيمة من الناقة في أوّل الأمر وشاهدوا آثار العذاب في آخر الأمر بأنّهم احمرّوا واصفرّوا كيف يحتمل أن يكونوا مصرّين على كفرهم ولم يتوبوا؟

فالجواب أنّهم قبل أن يشاهدوا كانوا يكذّبون صالحاً فلمّا شاهدوا العذاب خرجوا عن حدّ التكليف وعن أن تكون توبتهم مقبولة، لأنّهم وصلوا إلى حدّ الإلجاء فحينئذ لا تقبل التوبة. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ والفاء تدلّ على التعقيب فدلّ على أنّ حصول التولّي بعد جثومهم. وقيل: إنّ التولّي قبل موتهم لأنّه خاطبهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ والأموات لا يوصفون ولا يخاطبون وكيف يقال للميّت: إنّك لا تحبّ الناصح؟

لكن ليس بمستبعد أن يخاطبهم وهم جاثمين كما أنّ نبيّنا ﷺ خاطب قتلى بدر، فقيل له: لم تتكلّم هذه الجيف؟ فقال ﷺ: «**ما أنتم بأسمع منهم ولكنّهم لا يقدرون على الجواب**».

قال كعب: كان سبب عقر الناقة أنّ امرأة كانت قد ملكت ثمود يقال لها: ملكا فلمّا أقبلت الناس على صالح وصارت إليه الرياسة حسدته، وكانت امرأة جميلة يقال لها: قطام، وكان معشوقة قدار، وامرأة اخرى يقال لها: إقبال كانت عشيقة مصدع. وكان قدار ومصدع متصادقان يجتمعان معهما كلّ ليلة ويشربون الخمر فقالت ملكا للامرأتين: إذا آتاكما اللّيلة قدار ومصدع يجتمعان معكما فلا تطيعاهما وقولا لهما: إنّ ملكا حزنت لأجل الناقة ولأجل الصالح ونحن لا نطيعكما حتّى تعقرا الناقة فلمّا صار الليل واجتمعا قالا لهما ما قالت ملكا فقالا: نحن من وراء الناقة نعقرها.(١)

فانطلق قدار ومصدع وأصحابها فرصّدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٩٥؛ وبحارالأنوار، ج ١١، ص ٣٩٢؛ وتفسير الثعلبي، ج ٤، ص٢٥٦.

كمن لهما قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن مصدع في أصل صخرة اخرى فمرّت على مصدع فرمى بسهم فأصاب به عطلة ساقها وخرجت امرأة اسمها عنيزة، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً وأسفرت لقدار فشدّ قدار على الناقة بالسّيف فكشف عرقوبها فخرّت الناقة ورغت رغاة واحدة وتحذر سقبها ثمّ طعن في لبتها فنحرها فخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه.

فلمّا رأى الفصيل ما فعل بامّه ولى هارباً حتّى صعد الجبل فرغا رغاء يقطع منه قلوب القوم، وأقبلوا نحو صالح يعتذرون إليه: إنّما عقرها فلان، فقال صالح: انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبوه فلم يجدوه، وكان العقر يوم الأربعاء. فقال لهم صالح: تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام فإنّ العذاب نازل بكم.[1]

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال: لمّا مرّ رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: **«لا يدخلنّ أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**، ثمّ قال: **«أمّا بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم فبعث الله لهم الناقة وكانت ترد من هذا الفجّ[2] فعقروا الناقة فأهلكهم الله من مشارق الأرض منهم ومغاربها إلّا رجلاً واحداً يقال له: أبو رغال وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه حرم الله من العذاب فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من الذهب، وأراهم قبر أبي رغال فنزل القوم فاستخرجوا ذلك الغصن»**. ثمّ قنع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتّى جاز الوادي.[3]

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٩٦؛ وانظر: التبيان، ج ٦، ص ١٩.

٢ـ هو الطريق الواسع الواضح بين جبلين.

٣ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٩٧؛ وبحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٩٣؛ وكنز العمال، ج ١٤، ص١٧٤.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

هذه هي القصّة الرابعة نوح وهود وصالح ولوط، أي: وأرسلنا لوطاً، صرف لخفّته وسكون وسطه.

قال: أتأتون السيّئة المتمادية في القبح بحيث ما سبقكم في هذه القبيحة أحد من العالمين؟ ويمكن أن انقضى كثير من القرون والأعصار ما أقدم على هذا الأمر القبيح أحد. أو أنّ قوم لوط بأجمعهم أقدموا على هذا المنكر، ولم يتّفق في الأعصار الماضية أنّهم بكلّيّتهم يقدمون بهذا الأمر، وكانوا لا ينكحون إلّا الغرباء والضيف أوّلا، ثمّ استحكم عندهم حتّى فعل بعضهم ببعض.

﴿أَتَأْتُونَ﴾ وتشتهون ﴿ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ وقبح هذا العمل من وجوه شتّى لأنّه على عكس الحكمة الإلهيّة وخلاف مقتضى الطبيعة لأنّ الذكورة مظنّة الفعل والأنوثة مظنّة الانفعال، فإذا صار الذكر منفعلاً صار الأمر بعكس الطبيعة، ثمّ يوجب عدم بقاء نوع الإنسان الّذي هو أشرف الأنواع وأدّى إلى انقطاع النسل وذلك خلاف أمر الله وحكمته.

ثمّ إنّ الفاعل بهذه الفعلة القبيحة بسبب لذّة ساعة يسبّب للمفعول إيجاب العار العظيم والعيب الكامل على المفعول على وجه لا يزول ذلك عند طول عمره، وكيف يرضى العاقل المسلم لأجل لذّة ساعة خسيسة منقضية إيراد العيب الدائم على غيره؟ فيوجب استحكام العداوة الدائمة بين

الفاعل والمفعول ولعلّ ينجرّ إلى القتل كما أنّ هذا العمل بالنسبة إلى المرأة ينتج بالعكس، وموجب لازدياد المحبّة. تأمّل في الحكمة الإلهيّة حتّى يحصل لك اليقين بأنّه تعالى ما حرّم حراماً إلّا لمفاسد عظيمة، وما حلّل حلالاً إلّا لمنافع عظيمة جليلة. ثمّ إنّ من مضارّ هذا العمل أنّ الله أودع في الرحم قوّة جاذبة شديدة للمنيّ فإذا واقع الرجل المرأة قوى الجذب فلم يبق شيء من المنيّ في المجاري وينفصل، أمّا إذا واقع بالرّجل لم يحصل ذلك الجذب من المفعول فيبقى شيء من أجزاء المنيّ في المجرى فيعفن ويفسد غالباً، ويتولّد منه الأسقام العظيمة، والأورام الشديدة.

وبالجملة لمّا منعهم لوط عن هذا الأمر ما امتنعوا نسبهم إلى السرف وتجاوز الحدّ فجاوبوه قومه أن أخرجوا لوطاً وأتباعه من البلدة فإنّهم يمنعونا عن هذا العمل، وقالوا على سبيل السخريّة: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ والمراد من الأهل أنصاره وأهل دينه أو المتّصلين به بالنسب قال ابن عبّاس: المراد ابنتاه إلّا زوجته كانت من الباقين في العذاب «عبر» بمعنى مكث وإنّما لم يقل: من الغابرات لأنّه أراد المعنى أنّها عمّن بقيت مع الرجال في العذاب وأمطر عليهم الحجارة.[١]

ولوط بن هاران بن تارخ قيل: إنّه كان ابن خالة إبراهيم، وكانت سارة امرأة إبراهيم أخت لوط.

روي عن أبي حمزة الثماليّ وأبي بصير عن الباقر عليه السلام **«أنّ لوطاً لبث في قومه ثلاثين سنة، وكان نازلاً فيهم، ولم يكن منهم يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الفواحش فلم يجيبوه، وكانوا لا يتطهّرون من الجنابة، بخلاء، أشحّاء على الطعام، وكانوا**

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٧١؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٠١؛ وانظر: مجمع البيان، ج ٨ ص ٣٠٦.

على طريق السيّارة إلى الشام ومصر، وكان ينزل بهم الضيفان فيفضحوه وإنّما كانوا يفعلون ذلك بالضيف لتنكل النازلة عليهم من غير شهوة بهم إلى ذلك فأوردهم البخل هذا الدّاء. وكانوا يقولون للوط: لا تقرينّ ضيفاً فإنّك إن فعلت فضحنا ضيفك وكان لوط إذا نزل به الضيف كتم أمره مخافة أن يفضحه قومه. ولمّا استطالوا على هذا الأمر وأراد الله عذابهم بعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين جبريل في نفر من الملائكة فأقبلوا إلى إبراهيم قبل لوط فلمّا رآهم إبراهيم ذبح عجلاً سميناً فلمّا رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا: يا إبراهيم إنّا رسل ربّك، ونحن لا نأكل الطعام إنّا أرسلنا إلى قوم لوط. وخرجوا من عند إبراهيم فوقفوا على لوط وهو يسقي الزرع فقال: من أنتم؟ قالوا نحن أبناء السبيل أضفنا الليلة فقال لوط: إنّ أهل هذه القرية قوم سوء ينكحون الرجال في أدبارهم ويأخذون أموالهم، قالوا: أبطأنا فأضفنا. فجاء لوط إلى أهله وكانت أهله كافرة، وقال: قد أتاني أضياف في هذه الليلة فاكتمي أمرهم قالت: أفعل وكانت العلامة بينها وبين قومها أنّه إذا كان عند لوط أضياف بالنهار تدخن فوق السطح، وإذا كان بالليل توقد النار. فلمّا دخل جبرئيل والملائكة معه بيت لوط وثبت امرأته على السطح فأوقدت النار فأقبل القوم من كلّ ناحية يهرعون إليه ودار بينهم ما قصّه الله في كتابه في مواضع فضرب جبرئيل بجناحه عيونهم فطمسها فلمّا رأوا ذلك علموا أنّه قد أتاهم العذاب. فقال جبرئيل: يا لوط اخرج من بينهم أنت ومن معك إلّا امرأتك. فقال لوط: كيف أخرج وقد اجتمعوا حولي وحول داري؟ فوضع بين يديه عموداً وقال اتّبع هذا العمود ولا يلتفت منكم أحد فخرجوا من القرية. فلمّا طلع الفجر ضرب جبرئيل بجناحه طرف القرية فقلعها من تخوم الأرضين السابعة، ثمّ رفعها إلى الهواء حتّى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصراخ ديوكهم، ثمّ قلّبها عليهم وهو قول الله: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[1] وذلك بعد أن أمطر الله عليهم حجارة من سجّيل وهلكت

١ـ سورة هود: ٨٢.

امرأته بأن أرسل الله عليها صخرة فقتلتها».

وقيل: قلّبت المدينة على الحاضرين منهم وأمطرت الحجارة على الغائبين فاهلكوا بها.[1] ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ظاهر الخطاب وإن كان للرّسول لكنّ المراد الأمّة ليتحرّزوا عن عذاب الآخرة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

هذه هي القصّة الخامسة. التقدير: وأرسلنا إلى مدين أخاهم في النسب لا في الدين. واختلفوا في مدين قيل: اسم البلد وقيل: اسم القبيلة بسبب أنّهم أولاد مدين ابن إبراهيم الخليل. وشعيب ابن نويب بن مدين بن إبراهيم، فأمر شعيب قومه أوّلا بعبادة الله وادّعى النبوّة. والمراد بالبيّنة المعجزة وأمّا أنّ المعجزة من أي: الأنواع كانت معجزته فليس في القرآن بيان كيفيّة معجزته.

ويقال لشعيب: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وقومه أصحاب الأيكة وأرسل إلى مدين مرّتين وإلى أصحاب الأيكة مرّة، وكان عادة الأنبياء أنّهم إذ رأوا قوماً مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر المفاسد بدءوا بمنعهم عن تلك المفسدة.

قال صاحب «الكشّاف»: إنّ من معجزات شعيب أنّه دفع إلى موسى عصاه وهي الّتي صارت التنّين، وقال لموسى: إنّ هذه الأغنام تلد أولاداً فيها سواد وبياض وقد وهبتها لك فكان الأمر كذلك.[1]

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٠١؛ وانظر: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٥٩.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٧٣؛ وانظر: تفسير البحر المحيط، ج ٤، ص ٣٣٩.

ثمّ قال الزمخشريّ: وهذه الأحوال كانت معجزات شعيب لأنّ موسى في ذلك الوقت ما ادّعى الرسالة.(١)

وهذا الكلام بناء على أصل مختلف بين الأشاعرة والمعتزلة لأنّه عند الأشاعرة يجوز أن يظهر الله على من يصير بعد نبيّاً أنواع المعجزات، ويسمّى ذلك إرهاصاً فعند الأشاعرة على هذا الأصل إرهاصات لموسى، وعند المعتزلة معجزات لشعيب لأنّ الإرهاص لا يجوز عند المعتزلة.

وبالجملة أمر شعيب قومه بإيفاء الكيل لأنّهم كانوا مشغوفين بالتّطفيف، والمراد بالكيل المكيال أي: ما يكال به.

ثمّ قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ والمراد المنع من التنقيص ويشمل في كلّ الأمور، فيدخل فيه السرقة والغصب وأخذ الرشوة وانتزاع الأموال من أيدي الناس بطريق الحيل لأنّ كلّ ذلك تنقيص المال، وهذه الأمور من موجبات الخصومة والغضب والمنازعة بين الناس.

قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد أن صلحت الأرض بشرائع الأنبياء وكيفيّة الأحكام ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذه الأمور ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: كونوا مؤمنين.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)

١ـ المصدر السابق نفسه.

روي أنّهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوّفون من آمن بشعيب ويحرّفون الناس عن منهج الدّين، وقيل: كانوا يقطعون الطرق إلّا أنّ ما بعد الآية يدلّ على أنّهم يصدّون الناس عن الدين بإلقاء الشبهات والشكوك بطريق الاعوجاج والإضلال وبأنّه لو آمنتم بشعيب كذا تصيرون مثلاً، وأنّه كذّاب.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ يمكن المراد تكثير المال أو تكثير النفوس، وعن ابن عبّاس، قال: إنّ مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت حتّى كثر أولادها.[1]

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: تأمّلوا في عواقب من كان منكم من المفسدين كقوم عاد وثمود ولوط وإنزال العذاب بهم.

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ﴾ أي: وإن كان جماعة منكم ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وصدّقوني ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ بي والمراد بيان إعلاء درجة المؤمنين وإظهار هوان الكافرين. ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ في حقّ المؤمن والكافر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإن لم تظهر في الدنيا فلابدّ من ظهورها في الآخرة.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

لمّا قرّر شعيب تلك الكلمات ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وأنفوا ﴿مِن

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٧٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٧٦؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص٣٠٤.

قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ ومن آمن معك من بلدتنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾. وفي هذا الكلام إشكال في الجملة وهو قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وكذلك قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ ظاهره يدلّ على أنّ شعيب كان على ملّتهم الّتي هي الكفر.

والجواب أنّ أتباع شعيب الّذين آمنوا كانوا من قبل كفّاراً فخاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه للتّغليب، أو أنّ شعيباً ما كان يظهر دينه لهم فتوهّموا أنّه على دينهم. قال لهم شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ «الهمزة» للاستفهام «والواو» للحال أي: أتعيدوننا في ملّتكم في حال كراهتنا أي: لا تقدرون على ردّنا على دينكم على كره منّا بعد إذ هدانا الله ونجّانا.

ونظم عليه السلام نفسه الشريفة في جملتهم وإن كان بريئا من الكفر إجراء الكلام على التغليب فإن فعلنا ما تريدون منّا فحينئذ افترينا على الله الكذب، وهذا مع قطع النظر عن قبح الكفر مناف للنبوّة لأنّ أصل الباب في النبوات صدق اللهجة والبراءة من الشرك والكذب.

وبعض المفسّرين يرجعون الضمير في «فيها» إلى القرية أي: نخرج منها فإن شاء الله نعود فيها وحينئذ سهل المعنى، أمّا إذا رجع الضمير إلى الملّة فمعناه إلى أن يشاء الله، وهذه قضيّة شرطيّة، وإنّما ذكر هذا للتّبعيد كما يقال: لا أفعل هذا إلّا إذا شاب الغراب وابيضّ القار ولا يشاء الله الكفر فلا نعود أبدا وهذا المعنى يبطل قول من قال: إنّ الله قد يشاء الكفر.

قال الجبّائي: المراد من الاستثناء الفروع والأحكام والعبادات. كأوقات الصلاة والصيام من الفروع الّتي يجوز فيها طريان النسخ والتبديل لا في الأصول الّتي لا يقبل التغيّر.[1]

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٧٩.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ في تعلّق هذا الكلام بالكلام الأوّل قال القاضي عبد الجبّار: قد نقلنا عن أبي عليّ الجبّائيّ: إلّا أن يشاء اللّه معناه: إلّا أن يعرف المصلحة في تغيّر الفروع فالعالم في المصالح والتغيّر ليس إلّا من وسع علمه على كلّ شيء فلذلك أتبعه بهذا الكلام[1] فصحّ النظم في الآية.

وقالت الأشاعرة: وجه النظم أنّ القوم لمّا قالوا لشعيب: إمّا أن تخرج من قريتنا، وإمّا أن تعود إلى ملّتنا فقال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فربّما كان في علمه حصول قسم ثالث: وهو أن نبقى في هذه القرية من غير أن نعود إلى ملّتكم بل نجعلكم مقهورين تحت حكمنا، ويؤيّد هذا المعنى قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فختم كلامه بالعزل عن الأسباب.

ثمّ اشتغل بالدّعاء فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ أي: احكم واقض بيننا ﴿بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ قال ابن عبّاس: ما كنت أدري قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾ حتّى سمعت ابنة ذي يزن يقول لزوجها: تعال أفاتحك أي: أحاكمك.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

في الآية بيان عظمة ضلالتهم بتكذيب شعيب وبيّن في هذه الآية أنّهم لم يقتصروا بذلك حتّى أضلّوا غيرهم ولا موهم على متابعته فقالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ فاستحقّوا العذاب فأخذتهم الرجفة وهي الزلزلة الشديدة المهلكة فأصبحوا في منازلهم خامدين ساكنين بلا حياة وبعد

١ـ المصدر السابق نفسه.

ما أصابهم العذاب كأن لم يكونوا ساكنين بها فقال غنى القوم في دارهم أي: طال مكثهم.

قال الزجّاج أي: كان لم يعيشوا فيها مستغنين وهذا التكرار في قوله الّذين كذّبوا شعيبا لبيان قباحة فعل المكذّبين كقولك أنت أنت، وهذه معجزة عظيمة لشعيب إنّ مثل هذا العذاب العظيم النازل من السماء لما وقع على قوم دون قوم مع أنّهم مجتمعين في بلدة واحدة.(١)

ثمّ قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ واختلفوا في أنّ شعيب تولّى بعد نزول العذاب بهم أو قبل ذلك قال الكلبيّ: قبل ذلك قال: ولم يعذّب قوم نبيّ حتّى اخرج من بينهم. ثمّ قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ قيل: اشتدّ حزنه على قومه من جهة القرابة والمجاورة فإنّه كان يتوقّع منهم الإجابة للإيمان فلمّا لم تقبلوا وعذّبوا حزن بحرمانهم عن السعادة ثمّ عزّى نفسه وقال: فكيف آسي. وقيل: ما حزن ومراده فكيف آسى وقد أبلغتكم ولم تقبلوا نصحى. وأنتم غير مستحقّين أن يأسى الإنسان لمثلكم. والصحيح القول الثاني.

قال البلخيّ: وفي هذه الآية دلالة على أنّه لا يجوز للمسلم أن يطلب الخير للكافر ويحزن لشدّة أمورهم.(١)

وفي عذابهم قيل: أرسل الله عليهم وعدة شديدة وحراً تأخذ بأنفاسهم فدخلوا في أجواف البيوت فدخل عليهم البيوت فلم ينفعهم ظلّ ولا ماء وأنضجهم الحرّ فبعث الله سحابة فيها ريح طيّبة فوجدوا برد الريح وظلّ السحابة فتنادوا عليكم بها فخرجوا إلى البرّيّة فلمّا اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كالجراد المغليّ وصاروا رمادا وهو عذاب يوم الظلّة وهذا القول عن ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين.

وقيل: بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا، عن أبي عبد الله عليه السلام.

١ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٨٢؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٠٩.

١ـ تفسير التبيان، للشيخ الطوسي، ج ٤، ص ٤٧٣؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣١٠.

وقيل: إنّ لشعيب قومين قوم أهلكوا بالرجفة وقوم هم أصحاب الظلّة.

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

لمّا بيّن حال هؤلاء وما جرى على أممهم بيّن في هذه الآية العلّة الّتي بها يفعل ذلك فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ الآية، وإنّما ذكر القرية لأنّها مجتمع القوم وفيه حذف، أي: فكذّبوا ذلك النبيّ المرسل إلّا أخذنا المكذّبين والعاصين بالبأساء أي: الشدّة في أحوالهم، والنقصان في زروعهم وثمارهم وضروعهم. والضرّاء ما ينالهم من المرض والآلام، وقيل: بالعكس. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ وكلمة لعلّ في حقّ الله لا يمكن حمله على الشكّ بل على اليقين فالمعنى: إنّما يفعل بهم هذا لكي يتضرّعوا ويتوبوا.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ ومعنى السيّئة الشدّة وما يسوء، ومعنى الحسنة الرخاء والنعمة، أي: تدبيره تعالى ليس على نمط واحد، والمراد أنّه يأخذ أهل المعاصي تارة بالشدّة ليتنبّهوا وتارة بالنعمة ليطيعوا.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي: كثروا وزادوا قال أهل اللغة: قد عفى الشعر أي: كثر، ومنه ما ورد في الحديث أنّه ﷺ أمر أن تحفّ الشوارب وتعفى اللحى، أي: توفر وتكثر.

﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: قال هؤلاء الكافرون والعاصون: إنّ هذا الرخاء والشدّة ليس بسبب ما نحن فيه من الدّين والعمل، وتلك عادة الدهر وليس عقوبة من الله وإنّ آباءنا كذلك كانوا تارة تصيبهم الشدّة وتارة الرخاء ولا تلتفتوا إلى مثل هذه الأمور، وكونوا على ما أنتم عليه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أمر يأتيك من غير ترقّب ومقدّمة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّ العذاب نازل بهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ الأمم عذّبوا بسبب كفرهم بيّن في هذه الآية أنّ الأمر بالعكس إذا آمنوا واتّقوا، فتبدّل الشدّة بالرخاء والنعمة، وتفتح أبواب السماء والأرض بركات السماء بالخير والمطر، وبركات الأرض بكثرة الثمر والمواشي وحصول الأمن والسلامة لأنّ السماء تجري مجرى الأب الرؤوف، والأرض كالامّ العطوف. ثمّ عاد الكلام بمجرى التهديد فقال على سبيل الاستفهام الإنكاري: أفأمن أهل الأمصار أن يأتيهم عذابنا في الليل وهم نائمون؟ أو يأتيهم بالنهار وقت ظهور الشمس وهم مشغولون في الحياة الدنيا؟ لأنّ الدنيا لعب ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ المراد عذاب الله واستعمل المكر في العذاب توسّعاً لأنّ الواحد منّا إذا أراد المكر بصاحبه فإنّه يوقعه في البلاء من حيث لا يشعر بوقوعه فسمّي المكر بالعذاب لأنّه نزل بهم من حيث لا يشعرون ولا يأمن من عذاب الله إلّا القوم الخاسرون لأنّه أوقع نفسه في الدنيا بالضرر وفي الآخرة بالعذاب الأكبر.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

قرء: «أولم نهد» بالنون. المعنى: أنكر بهذا الاستفهام ترك الاعتبار ممّن تقدّمهم من الأمم واستيصالهم بالعذاب، أي: أو لم يبيّن الله ولم يهتدوا هؤلاء الّذين استقرّوا مكان المتقدّمين منهم الّذين عذّبناهم وخلفناهم مكان أولئك المعذّبين وورثوهم أن لو نشاء لعذّبناهم كما عذّبنا قبلهم أو نطبع على قلوبهم؟ ومعنى الطبع التخلية ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ المراد قرى الأقوام الخمسة الّذين مضى شرح حالهم وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿نَقُصُّ﴾ أحوال إهلاكها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمّد للاحتراز لأمّتك عن مثل تلك الأعمال.

ثمّ قال إنّا أتممنا عليهم الحجّة بإرسال الرسل والمعجزات فما قبلوا وما آمنوا وما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات كما لم يؤمنوا قبل رؤية المعجزات. وقيل: معناه: ولو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف لن يؤمنوا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[1] وقيل: المعنى: قبل مجيء الرسل كانوا مصرّين على الكفر فهؤلاء ما كانوا ليؤمنوا بعد مجيء الرسل أيضا. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك الّذي طبع على قلوب الكفّار والأمم الماضية نطبع على قلوب أمّتك الكافرة.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾

اختلفوا في العهد: قال ابن عبّاس: يريد العهد الّذي عاهدهم الله وهم في الأصلاب[2] حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾[3] ثمّ خالفوا ذلك العهد ولهذا قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

وقال ابن مسعود: المراد بالعهد الإيمان والدليل عليه قوله: ﴿إِلَّا مَنِ

١ــ سورة الأنعام: ٢٨.

٢ــ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٨٨.

٣ــ سورة الأعراف: ١٧٢.

﴿اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[١] يعني: آمن وقال: لا إله إلّا اللّه.

والقول الثالث: أنّ العهد عبارة عن وضع الأدلّة الدالّة على صحّة التوحيد والنبوة. ثمّ قال: وإنّ الشأن والقصّة: وجدنا أكثرهم خارجين عن الدين.[٢]

إلى هنا تمّ الجزء الرابع من الكتاب مشتملاً على ٩٤ آية من سورة المائدة، وتمام سورة الأنعام و١٠٢ آية من سورة الأعراف ولله الحمد.

١ـ سورة مريم: ٨٧.

٢ـ تفسير الرازي، ج ١٤، ص ١٨٨؛ وتفسير جوامع الجامع، ج ١، ص ٦٨٣.

فهرس الأحاديث

(أ)

إذا رأيت الله يعطي على المعاصي فإنّ ذلك استدراج من الله ٢١٤

إذا شهد أربعة عدول أنّه قد أدخله فيها كالميل في المكحلة وجب عليه الرجم ٢٦

إذا وضع السيف في أمّتي لم يرفع عنها إلى يوم الساعة ٢٣٧

الأرواح جنود مجنّدة فالله سبحانه خصّ عيسى بالروح الطاهرة المقدّسة ١٤٧

أسلم تدخل الجنّة ولا تكفر تدخل النار ١٧١

اعلموا رحمكم الله أنكم في زمان القائل فيه بالحقّ قليل ٢٢٦

أكرموا عمّاتكم النخل فإنّها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام ٢٨٣

ألا لعنة الله على الظالمين الّذين كذّبوا بولايتي واستخفّوا بحقّي ٤٠٩

إنّ أدنى ما يقطع فيه ثمن المجنّ ٢٣

أنّ الأعراف كثبان بين الجنّة والنار ٤١٠

إنّ الشيطان حسّاس لحّاس فاحذروه على أنفسكم ٣١٤

إنّ الشيطان يستقلّ الطعام إلّا بذكر اسم الله عليه ٣١٤

أنّ العزّة لي وأنا المعزّ وهم يطلبون العزّة من سواي ٥٧

أن الله أوحى إلى نبيّه أن يستخلف علياً ٧٤

إنّ الله ليتعجّب من يأس العبد وقنوطه مع عظيم سعة رحمته ٢٨٨

إنّ المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه ٤٠٠

أنّ المؤمن إذا احتضر آتته الملائكة بحريرة فيها مسك ٢٧٠
إنّ المؤمن حلو يحبّ الحلاوة ٩٨
إنّ الهجرة في أمّتي مهاجرة ما حرّم الله ٤٠٠
إنّ سورة الأنعام نزلت جملة واحدة ومعها سبعون ألف ملك ١٦٣
إنّ عمل الإنسان يدفن معه في قبره ٢٧٢
إنّ في بطن المؤمن زاوية لا يملؤها إلّا الحلو ٩٨
إنّ لأنفسكم عليكم حقًا، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا ٩٦
إنّ لله بيت ريح مقفّل عليه لو فتح لأذرّت ما بين السّماء والأرض ٤٣٤
أنّ لوطاً لبث في قومه ثلاثين سنة، وكان نازلاً فيهم ٤٤١
إنّ هذه القلوب لتصدى كما يصدى الحديد وإنّ جلاءها قراءة القرآن ٢٦٥
الأنبياء لا يقتلون بالإشارة ٢٦٨
أنذر بالقرآن من يرجون الوصول إلى ربّهم ترغبهم فيما عنده فإنّ القرآن شافع مشفّع لهم ٢١٩
أنزل القرآن على سبعة أحرف ٣٦٢
إنّما أنا عبد مثلك فادع ربّك لأمّتك ٢٣٧
أورثتموها بتوحيدكم وأعمالكم الصالحة ٤٠٩
أوّل ما نهاني بعد عبادة الأوثان شرب الخمر ١٠٦
ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ١٣٦

(ب)

بادروا بالأعمال ستًّا طلوع الشمس من مغربها ٣٦٣

(ت)

ترهّب أمّتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة ٤٠٠
تنام عيناي ولا ينام قلبي ٢٧

(ج)

جفّ القلم بما كائن إلى يوم القيمة ٣٠٧

(خ)

الخمر أمّ الخبائث. وذلك لأنّها تهيّج الصفات الخبيثة في النفس ١٠٨
خير الدعاء الخفيّ وخير الرزق ما يكفي ٢٣٦
خير القرون قرني ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم ١٧٦

(ر)

الرّضاع يغيّر الطباع ٣٥٤

(ز)

الزالّون عن الصراط كثير وأكثر من يزلّ عنه النساء ٣٥٩

(س)

سلوا اللّه لي الوسيلة فإنّها درجة في الجنة ١٨
سياحة أمّتي الغزو في سبيل اللّه والحجّ والعمرة ٤٠٠

(ش)

شارب الخمر كعابد الوثن ١٠٧
شكا بعض الأنبياء إلى الله من قبح أولاد أمّته ٢٨٣

(ع)

عاش نوح ألفي وخمسمائة سنة ٤٢٧
عبدي إذا عرفتني وعبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً غفرت لك ٢٨٨
عليّ قائد البررة وقاتل الكفرة منصور من نصره ومخذول من خذله ٥٣

(ف)

في الجنّة لؤلؤتان إلى بطنان العرش أحدهما بيضاء والآخر صفراء ١٩

(ق)

القرآن على خمسة، حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ٢٦٥

(ك)

كونوا من خاصّة الله وخاصّة قرّاء كتابه العاملون به ٢٦٥

(ل)

لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ١٧٥
لا أدري أبفتح خيبر أسرّ أم بقدوم جعفر ٩١
لا أسأل عن شيء إلّا أجبت ١٢٨

لا تجتمع أمّتي على الخطاء ٣٧٩
لا يقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل ٨
لا يقطع يد السارق إلّا في ربع دينار فصاعداً ٢٣
لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ اللّه ورسوله ويحبّه اللّه ورسوله ٥١
لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به ٦٥
لعن اللّه الخمر وشاربها وساقيها، وبائعها، ومبتاعها ١٠٨
لعن اللّه السارق يسرق البيضة فيقطع يده ويسرق الحبل يقطع يده ٢٣
لقنوا موتاكم بشهادة أن لا إله إلّا اللّه يسهّل عليكم سكرات الموت ٣١٥
لم يزل ينقلني اللّه من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات ٢٤٦
لما رئي إبراهيم ملكوت السماوات والأرض رأى رجلاً ٢٥٠
لما فرغ اللّه من الخلق كتب كتاباً إنّ رحمتي سبقت غضبي ١٨١
لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ٢٨٨
لو كان الدين معلّقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس ٥٠
لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ١٢٦
ليبعثنّ اللّه عليكم رجلاً يضربكم على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله ٥١
ليسوا من شيعتنا كلّ من رجا شيئاً عمل له ٢٨٨

(م)

ما الدنيا عندي إلّا بمنزلة الميتة ٢٣٥
ما خلا يهوديّان بمسلم إلّا همّا بقتله ٨٩
مادامت الكعبة يحجّ الناس إليها لم يهلكوا فإذا هدمت وتركوا الحجّ هلكوا ١٢٤
مدمن الخمر كعابد الوثن ١٠٥

المسرفون هم الّذين يستحلّون الحارم و يسفكون الدّماء ١٤
من أتى غنياً فتواضع لغنائه ذهب ثلثا دينه ٢٢٤
من أصيب بشيء من جسده فتركه لله كان كفّارة ٣٨
من تصدّق من جسده بشيء كفّر الله عنه بقدره من ذنوبه ٣٨
من سجد لله بنيّة صادقة فقد برىء من الكبر ٢٧٠
من سنّ سنّة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ١٢
من شرب الخمر بعد أن حرّمها الله على لساني فليس له أن يزوّج إذا خطب ١٠٨
من شرب الخمر في الدنيا سقاه الله من سمّ الأساود و سمّ العقارب ١٠٧
من عفا عن قاتله و من قرأ عقيب كلّ صلاة مكتوبة قل هو الله أحد عشر مرّات ٣٨
من قال حين يسمع الدعوة و الأذان ١٩
من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعجّ إلى الله يقول ٢٠٨
من قرأ ثلاث آيات من أوّل سورة الأنعام ١٦٣
من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شيء ٣٧٣
من كانت له حاجة إلى الله يريد قضاءها ١٦٣
من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه ٧٤
من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه ٧٣
من لم يشكر الناس لم يشكر الله ١٦٦
مهلاً إنّي آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كلّ يوم فعله ٤٠٠

(ن)

نحن نوقف يوم القيامة بين الجنّة و النار ٤١١
نور يقذفه الله في قلب المؤمن فيشرح له صدره و ينفسح ٣٢٠

(و)

والّذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنّة بعمله ١٨٦
وإنّ من أمّتي لا تناله شفاعتي إلّا بعد سبعين ألف سنة ٣٨٣

(ي)

يا ابن آدم إنّك لا تزال بخير ما دام لك واعظاً من نفسك ٢٣٥
يا أيّها النّاس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها ١٣٦
يا جبرئيل ما يبقى أمّتي مع قتلهم بعضهم بعضا ٢٣٧
يا عثمان لا ترغب عن سنّتي فإنّ من رغب عن سنّتي ومات قبل أن يتوب ٤٠٠
يا عليّ كأنّي بك يوم القيامة وبيدك عصا عوسج تسوق قوماً إلى الجنّة وأخرى إلى النار ٤١١
يتولّون الملوك الجبّارين ويزيّنون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم ٨٧
يحشر يوم القيامة أناس من أمّتي من قبورهم إلى المحشر على صورة القردة والخنازير ٨٨
يرد عليّ قوم من أصحابي يوم القيامة فيمنعون عن الحوض ٥١
يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيغمس فيها مرّة ٢١

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـ ق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.
١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).
١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).
١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد ﷺ، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).
١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).
١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).
١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحرّاني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).

٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل و أسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف و البيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبي النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعاني، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان و روح الجنان في تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن علي الرازي.
٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.
٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).
٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).
٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبدالله محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).
٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).

٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).

٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.

٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).

٤٤ـ تفسير كنز الدقائق و بحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.

٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).

٤٦ـ تنبيه الخواطر و نزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).

٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).

٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).

٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف و المنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)

٥١ـ ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)

٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)

٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).

٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).

٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).

٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).

٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).

٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).

٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).

٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد و آله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).

٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).

٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).

٦٦ـ روضة الواعظين و بصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).

٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).

٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).
٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).
٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).
٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.
٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.
٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).
٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).
٧٨ـ شرح الأزهار (المنترع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).
٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).
٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).

٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزيه الجعفى (ت ٢٥٦ هـ ق).
٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).
٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).
٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)
٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزيّة، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).
٨٧ـ عيون أخبار الرضاؑ، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).
٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).
٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).
٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).
٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).
٩٤ـ فلاح السائل و نجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).
٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).
٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).
٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).
٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).
١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).
١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).
١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).
١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).
١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).
١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).

١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيي بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).

١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).

١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

تتمة سورة المائدة... ٥

سورة الأنعام.. ١٦٣

سورة الأعراف ٣٧٥

فهرس الأحاديث ٤٥٣

المصادر ٤٦١

المحتويات... ٤٧١